مادلين ميلر

أغنية أخيل

The Song Of Achilles

ترجمة هياء محمد









أغنية أخيل

رواية

مادلين ميلر



أغنية أخيل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Song of Achilles
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
BARER LITERARY LLC
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين دار أثر للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-284409-650-0



دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
Email: info@darathar.net

الفصل الأول

والدي كان ملك وابن ملوك. كان رجلاً قصيراً، كما هو حال معظمنا، وله بنية ثور، بكتفين عريضين. تزوج والدتي عندما كانت في الرابعة عشر، وقد أقسم الكاهن بأنها ستكون مثمرة. لقد كانت صفقة جيدة، كانت طفلة وحيدة، وبذلك ستذهب ثروة والدها إلى زوجها.

لم يعرف والدي بأنها بلهاء حتى ساعة الزفاف. لقد كان والدها مبالغاً في حجبها حتى إقامة مراسيم الزواج، ووالدي كان يسايره. لو كانت قبيحة، سيكون هناك دائماً جواري وصبية للخدمة. عندما نزعوا حجابها أخيراً، يقولون أن أمي ابتسمت. وهكذا عرفوا بأنها بلهاء تماماً، فالعرائس لا يتبسمن.

عندما وُلدت، صبياً، انتزعني من ذراعيها وسلمني إلى المربية. بكل شفقة، أعطتها القابلة وسادة كي تحتضنها بدلاً مني. ففعلت، ولم يبدو أنها لاحظت أن تغييراً ما قد حدث.

سرعان ما كبرت لأصبح خيبة أمل: صغير وهزيل. لم أكن سريعاً، ولا قوياً. لم أتمكن حتى من الغناء. أفضل ما يمكن أن يقال عني أنني لم أكن ذو مناعة ضعيفة. نزلات البرد والتقلصات التي قبضت على زملائي غادرت دون أن تمسني. وهذا فقط ما جعل والدي مرتاباً فيما لو كنت مُستبدل؟ أم أنني غير بشري؟ كان يحدق فيني بريبة، اهتزت يدي، وأنا أشعر بوقع نظراته. أما أمي فقد كانت تسكب النبيذ على جسدها.

كنتُ في الخامسة عندما حان دور والدي لاستضافة الألعاب. جُمع الرجال من مناطق بعيدة مثل ثيساليا وإسبارطة، نَمَت مخازننا واكتظت بذهبهم. عمل مئات الخدم لمدة عشرين يوماً لطرق ولتمهيد مسار السباق من الحجارة. كان والدي قد عقد العزم بأن تكون ألعابه أفضل ألعاب في جيله.

أتذكر المتسابقين جيداً، بأجسام كحبات الجوز البني المنقوعة بالزيت، يتمددون على الطريق تحت أشعة الشمس. يمتزجون معاً، أزواج بأكتاف عريضة، مردان، وفتية. شكلوا جميعاً منحوتة غزيرة العضلات.

قُتل الثور، متعرقاً آخر دمائه إلى الغبار والأوعية البرونزية المظلمة. ذهب بهدوء إلى حتفه، وهذا فأل حسن للمباريات المقبلة.

جُمع المتسابقون أمام المنصة حيث جلست مع أبي، محاطان بالجوائز التي ستقدم للفائزين. هناك كؤوس من الذهب لمزج النبيذ، حوامل برونزية مطروقة، رماح من خشب الدردار المُطعمة بالحديد الثمين. لكن الجائزة الحقيقية كانت في يدي: إكليلاً من الأوراق المتربة الخضراء، قُطفت حديثاً، وكنت قد فركتها بإبهامي حتى صارت تلمع. أعطاني إياه أبي على مضض، كان يطمئن نفسه قائلاً: كل ما عليك فعله هو الاحتفاظ به.

سوف يتسابق الصبية اليافعون أولاً، فانتظروا بأقدام منتظمة في الرمال إيماءة الكاهن. إنهم في دفقة نموهم الأولى، عظامهم حادة وطويلة، أُقحمت في جلد مشدود. اصطادت عيني رأس مضيء بين عشرات التيجان الشعثة الداكنة.

انحنيت إلى الأمام لأرى. شعر متوهج كعسل تحت الشمس، وبداخله، تلمع دائرة ذهب ولي العهد.

أقصر من الآخرين، ولا يزال يمتلئ بالطفولة بطريقة ليست فيهم. شعره طويل ومشدود إلى الخلف بشريط جلد، يتقد مقابل بشرة ظهره العارية الداكنة. وجهه، حين استدار، جاد كوجوه الرجال.

عندما ضرب الكاهن الأرض، انــزلق متجاوزاً الأجسام الغليظة للفتية الأكبر سناً. يتحرك بخفة، عقبيه تومض بلون وردي كلسان لعق للتو... لقد فاز.

أحدّق فيما والدي يرفع الإكليل من حضني ويُتوجه به؛ الأوراق تبدو سوداء تقريباً مع لمعان شعره. والده، بيليوس، جاء ليطوقه، مبتسماً وفخوراً. مملكة بيليوس كانت أصغر من مملكتنا، ولكن أشيع أن زوجته آلهة وشعبه يحبه.

كان والدي يشاهد كل ذلك بحسد. فزوجته غبية وابنه أبطأ حتى من أن يسابق في مجموعة اليافعين. التفت إلي قائلاً:

"هكذا يكون الأبناء".

شعرت بفراغ يدي بدون الطوق. وشاهدت الملك بيليوس يحتضن ابنه. رأيت الصبــي يرمي بالطوق في الهواء ويلتقطه مــرة أخــرى، يضحك، ووجهه مشرق بالنصر.

عدا ذلك، لا أتذكر سوى بعض الصور المتنــاثرة مــن حيــاتي حينذاك: والدي مقطب الجبين على عرشه، لعبة حصان جميلة أحبــها، أمي على الشاطئ، وقد تحولت عيناها نحو بحر إيجه. في هذه الــذكرى الأخيرة، كنت أرمي بالحجارة من أجلها، تك، تك، تك، فوق وجــه البحر. يبدو أنها تحب الطريقة التي تتكون بها التموجات، ثم تتلاشى مرة أخرى كأنها زجاج يتكسر، أو ربما هي تحب البحر نفسه. على صدغها ثمة وميض نجمي أبيض مثل العظم، ندبة تعود إلى الوقت الذي ضــربها فيه والدها بمقبض سيف. أصابع قدميها تبرز من الرمال حيث دفنتهم،

فأحرص على عدم تعكير صفوهم بينما أبحث عن الصخور. اختــرت واحد وقذفت به عالياً، مسروراً بإجادتي لذلك. كانــت هــذه هــي الذكرى الوحيدة التي أملكها عن لوالدتي وكانت مشرقة جداً بطريقــة تجعلني متأكد تقريباً أنني اختلقتها. وبالرغم من كل شيء، كان من غير المرجح أن يسمح لنا أبــي بالبقاء بمفردنا، ابنه الأبله وزوجته البلــهاء. وأين كنا؟

لم أستطع تمييز الشاطئ ولا مشاهد الساحل. لقد مر الكثير مــن الوقت على ذلك الحين.

تم استدعائي للمثول أمام الملك. أتذكر كرهي لذلك، والمسيرة الطويلة لقاعة العرش اللانهائية. ركعت على حجر المقدمة. بعض الملوك يختار أن يفرشها بالسجاد من أجل ركوع الرسل الذين يحملون الأخبار الطويلة ليبلغوها، لكن والدي فضل ألا يفعل.

"ابنة الملك تنديريوس أصبحت أخيراً مؤهلة للزواج"، قال.

كنت أعرف الاسم. تنديريوس كان ملك سبارتا، ويضع يده على مساحات ضخمة من الأراضي الجنوبية اليانعة، وهذا النوع تحديداً كان مطمعاً لوالدي. لقد سمعت عن ابنته أيضاً، يشاع أنها أجمل امرأة في ممالكنا. والدتها، ليدا، يقال بأنها قد نهبت من قبل زيوس، ملك الآلهة نفسه، متنكراً في زي بجعة. بعد تسعة أشهر، أثمر رحمها عن مجموعتين من التوائم: كليتمنيسترا وكاسترو، أطفال زوجها البشري؛ وهيلين وبوليدوسيز، الإوز العراقي الإلهي المشرق. ولكن الآلهة كانت معروفة بفقر أبوتها؛ لذلك كان من المتوقع أن يقدم تنديريوس إرثاً للجميع.

لم يكن لدي أي استجابة لأخبار والدي. مثل هذه الأشياء لا تعني لي شيء.

تنحنَح والدي، وقال بصوت عالي كسر صمت القاعة: "سنُحسن صنعاً بضمها لعائلتنا، سوف تذهب وتتقدم لخطبتها". لم يكن هناك أحد آخر في القاعة، لذلك كان زفير غضبي المشدوه من نصيب أذنيه وحده.

لكنني كنت أعرف بشكل أفضل من أن أعبر عن انـــزعاجي. والدي يعرف مسبقاً كل ما قد أريد قوله: أنني كنت في التاسعة، قبيح، غير واعد، هامشي.

غادرنا في صباح اليوم التالي، أمتعتنا مثقلة بالهدايا والغذاء للرحلة. صحبنا الجند، في أجمل دروعهم. لا أتذكر الكثير من الرحلة- كانــت براً، خلال الريف الذي لم يخلف أي انطباع. على رأس الرتل، أملـى والدي أوامر جديدة لأمناء السر والمرسلين الذين لاذوا بالفرار في كـل اتجاه. نظرت إلى أسفل إلى اللجام الجلدي، ممهداً زغبُه بإبهامي.

لم أكن أفهم مكاني هنا. كان أمر غامض، كما هو حال الكـثير من ما فعله والدي حينذاك. تمايل حماري، فتمايلــت معــه بــدوري، مسرور حتى بهذا الالهاء.

لم نكن أول الخاطبين الواصلين إلى قلعــة تنــديريوس. كانــت الاسطبلات تغُص بالخيول وبالبغال، مشغولون مع الخدم. بدا والــدي مستاء من المراسم التي قُدمت لنا: لقد رأيته يفرك حجر موقد غرفتنــا بيده، مقطب الجبين. كنت قد أحضرت معي لعبة من المنــزل، حصان تستطيع ساقيه أن تتحرك. رفعت الحافر الأول، ثم الآخر، متخيلاً أنــني امتطيته بدلا من الحمار. أحد الجنود أخذته الشفقة علي فاقرضني نرده. رميتهم على الأرض مراراً محدثاً قعقعة حتى أحرزت جميع الســتات في رمية واحدة.

وأخيراً، جاء اليوم الذي أمر بـــي والـــدي لأحمـــم وادعـــك بالفرشاة. جعلني أبدل سترتي، ثم بدلتها مرة أخرى. فأطعت، بـــالرغم أنني لا أرى فرق بين الأرجواني مـــع الذهبـــي أو القرمـــزي مـــع الذهبـــي. وكلاهما لم يخفوا عقد ركبتي. بدا والدي قويـــاً وصـــارماً، لحيته السوداء تنخفض عبر وجهه. تقف الهديـــة الـــتي ســـنقدمها إلى

تنديريوس على أهبة الاستعداد، وعاء ذهبية مطروقة ومنقوشة بقصة الأميرة داني. كان زيوس قد تودد إليها في وابل من الضوء الذهبي، وكانت قد أنجبت له فرساوس، جورجيون - القاتل، التالي بعد هيراكليس بين أبطالنا. سلمه والدي لي وقال:

"لا تُخزِنا".

سمعت القاعة الكبرى قبل أن أبصرها، مئات الأصوات تقرع الجدران الحجرية، قعقعة الكؤوس والدروع. كان الخدم قد فتحوا النوافذ في محاولة لإخماد الضجيج؛ لقد عُلقت أنسجة مزدانة بالرسوم والصور على كل جدار، ثراء حقيقي. لم أكن قد رأيت العديد من الرجال في الداخل من قبل. ليس رجال، صححت لنفسي، بل ملوك.

استدعينا إلى أمام المجلس، حيث اجلسوا إلى مقاعد كسيت بجلد البقر. تراجع الخدم إلى الوراء، إلى الظلال. حفرت أصابع والدي عنقي، محذراً إياي من التململ.

كان العنف يسود الغرفة، حيث يتنافس حشد كبير من الأمراء والأبطال والملوك على جائزة واحدة، ولكننا نعرف كيف تحضّر القرد. عرفوا عن أنفسهم واحداً تلو الآخر، هؤلاء الشبان، يستعرضون لمعان شعورهم، خصورهم الملساء، وملابسهم الباهظة المصبوغة. العديد منهم كانوا أبناء أو أحفاد للآلهة. جميعهم كان لديهم أغنية أو اثنتين، أو أكثر، مكتوبة في مآثرهم. حياهم تنديريوس كلا بدوره، قَبِل هداياهم التي كومت في وسط الغرفة. ودعي كلا منهم للحديث وتقديم دعواه.

والدي كان الأكبر سناً من بينهم، ما عدا الرجل الذي عندما جاء دوره، سمى نفسه فيلوكتيتيس "رفيق هيراكليس"، همس الرجل بجوارنا، ففهمت بكل هلع. هيراكليس كان أعظم أبطالنا، وفيلوكتيتيس كان أقرب رفاقه، والوحيد المتبقي على قيد الحياة. شعره رمادي، وأصابعه

السميكة كانت كلها كالأوتار، خلفت آثارها البارعة على القوس والنشاب. وبالفعل، بعد لحظة رفع عالياً أكبر قوس كنت قد رأيته أبداً، خشب طقسوس مصقول مع قبضة من جلد الأسد. "قوس هيراكليس"، سماه فيلوكتيتيس، "أُعطي لي حال وفاته". في بلادنا كنا نسخر من القوس بأنه سلاح الجبناء. ولكن لا أحد يجرؤ أن يقول مثل ذلك عن هذا القوس، فقوته سوف تستدرجنا لنتواضع له جميعاً.

الرجل الذي يليه، رُسمت عينيه كالمرأة، أعلن عن اسمه "ادومينيوس، ملك كريت". جسده ضامر، بشعر طويل انحدر إلى خصره عندما وقف. قَدم فأس برأس مزدوجة حديدية نادرة، "رمز شعبي" قال. حركاته ذكرتني بالراقصات اللواتي كن يروقن لوالدتي.

ثم مينيلوس، ابن أتريوس، جلس إلى جوار أخيه الضخم شبيه الدب أجاممنون. شعر مينيلوس أحمر مذهل، كلون النار البرونزية المصاغة. جسمه قوياً، ممتلئ بالعضلات، والحيوية. الهدية التي أعطاها كانت هدية غنية، قماش جميل مصبوغ، "على الرغم أن السيدة لا تحتاج إلى الزينة" قال مبتسماً. كان كلامه جميلاً جداً. تمنيتُ لو أن لي قولاً بمثل هذا الذكاء لأقوله. كنت الوحيد الذي مازال تحت قوس العشرين، ولم أكن انحدر من سلالة آلهة. فكرت أنه ربما يكون ابن بيليوس الأشقر الوحيد المساوي لهذا. لكن والده احتفظ به في المنزل.

رجل بعد رجل، بدأت أسمائهم تصبح ضبابية في رأسي. لفتت المنصة انتباهي، حيث لاحظت لأول مرة، ثلاث سيدات محجبات جلسن إلى جانب تنديريوس. حدقت في قطعة القماش البيضاء على وجوههم، كما لو أنني قد أتمكن من التقاط بعض اللمحات للمرأة التي وراءها. أراد والدي أن تصبح واحدة منهن زوجتي. ثلاث أزواج من الأيدي، زينت بالأساور على نحو جميل، وبُسطت في أحضانهم

بهدوء. إحدى النساء كانت أطول من الأخيريتين. أظن أنني رأيت خصلة، قاتمة، مجعدة، وتائهة تختلس النظر من تحت حجابها. هيلين فاتحة الشعر كما أتذكر، إذن هذه ليست هيلين. توقفت، لاستمع إلى الملوك.

"أهلاً، مينوتيوس". أجفلني الحديث عن اسم والدي. كان تنديريوس ينظر إلينا ثم قال: "أنا آسف لسماع خبر وفاة زوجتك". رد والدي: "زوجتي حية يا تنديريوس، ابني من أتى اليوم ليتزوج ابنتك".

خيم الصمت بينما جثوت، مشوش بدوران الوجوه من حولي.

"ابنك لم يبلغ مبلغ الرجال بعد". بدا صوت تنديريوس بعيداً جداً، و لم أتمكن من استشفاف أي شيء منه. رد والدي:

"لا يلزمه أن يفعل. أنا رجل بما يكفي لكلينا"، شعبنا كان يحب هذا النوع من المزاح، جريء ومتفاخر. لكن لم يضحك أحد.

"فهمت"، قال تنديريوس.

حفرت حجارة الأرضية بشرتي، لكني لم أتزحزح من مكاني، ما زلت جاثياً. لم يسبق لي أن سررت بممارسة ذلك في قاعة عرش والدي.

تحدث والدي ثانية في ذلك الصمت. "لقد جلب الآخرين البرونز والخمر، والزيت والصوف، وجلبت أنا الذهب، و هذا ليس سوى جزء صغير مما تفيض به مخازننا". لقد كنت مدركاً ليدي وهي تتحسس تقاسيم الكأس الجميلة، تتلمس شخوص قصتها: زيوس يظهر من ضوء الشمس المتدفق، الأميرة المشدوهة، واقترانهما.

قال تنديريوس: "أنا وابنتي ممتنان لك لإحضارك مثل هذه الهدية القيمة، على الرغم من تفاهتها بالنسبة إليك". غمغم الملوك، ولكن يبدو أن والدي لم يفهم الإهانة المبطنة، فيما توهج وجهي على إثرها.

"أود أن أجعل هيلين ملكة قصري، أما زوجتي، كما تعلمون جيداً، فهي غير مؤهلة للحكم. ثروتي تتجاوز كل هؤلاء الشبان، ومآثري تتحدث عن نفسها" رد والدي.

قال أحدهم: "لقد اعتقدت أن الخاطب ابنك". بحثت عن الصوت الجديد، رجل لم يتحدث بعد حتى الآن، يقبع في آخر الصف، يجلس في مقعده بتراخي، شعره الأجعد يلمع على ضوء النار. لديه ندبة مُسننة على إحدى ساقيه، بدرز خياطة أحاطت بلحمه البني الداكن من الكعب و حتى الركبة، ملتفة حول عضلات ربلة الساق ثم تتلاشى في الظلال تحت سترته. فكرت أن الأمر يبدو كما لو أن سكيناً، أو ما يشبهها، مزقتها صعوداً تاركة وراءها ما يشبه حواف الريش، الذي ناقضت نعومته العنف الذي تسبب بها.

قال والدي بغضب: "ابن ارتيس، لا أتذكر أنني وجهت لك الدعوة للحديث".

ابتسم الرجل وقال: "لم توجه لي الدعوة للحديث، فقاطعته. لكن ليس هناك ما يستوجب خوفك من مقاطعتي، فليس لي أي مصلحة في هذه المسألة، أنا أتكلم فقط بصفتي مراقب". استرعت انتباهي حركة صغيرة عند المنصة، هناك ما أثار إحدى القامات المحجبة.

"ماذا يعني؟" سأل أبي مقطبا. "إذا لم يكن هنا من أجل هيلين، إذن من أجل ماذا؟ دعوه يعود أدراجه إلى صخوره وماعزه".

ارتفعا حاجبا الرجل لكنه لم يقل شيئاً.

تنديريوس كان أيضاً متسامح. "إذا كان ابنك هو الخاطب، كما قلت، فدعه يقدم نفسه"، قال.

حتى أنا عرفت أنه قد حان دوري لأتحدث، فقلت: "أنا باتروكلوس ابن مينوتيوس". بدا صوتي عالياً، ومليء بالخشونة، "أنا هنا

لأخطب هيلين. والدي ملك وابن ملوك". لم يكن لدي المزيد لأقوله. لم يوجهني والدي لقول شيء، فهو لم يعتقد بأن تنديريوس سوف يدعوني للحديث. وقفت وحملت الوعاء نحو كومة الهدايا، وضعته في مكان لن يسقط منه. التففت وعدت إلى مقعدي. لم أهن نفسي بالارتعاش أو بالتلعثم، وكلماتي لم تكن حمقاء. ومع ذلك، اتقد وجهي خجلاً. فقد كنت أعرف كيف بدوت لهؤلاء الرجال.

تحرك صف الخُطاب على غفلة مني. الرجل الراكع الآن كان ضخماً، نصفه في مثل طول والدي، بأكتاف واسعة.

خلفه، هناك اثنان من الخدم يسحبون درعاً هائلاً. بدا وكأنه يقف معه كجزء من دعوته، يعلو من كعبيه وحتى تاجه؛ لا يمكن لرجل عادي حمله، ولم يكن مزيناً: بحواف مثلمة ومخترقة كشاهد على كل الحروب التي رآها. "أياكس، ابن تيلامون"، قدم هذا العملاق نفسه. خطابه كان بليداً وقصيراً، ادعى نسبه لزيوس وقدم حجمه الهائل كبرهان على نعمة جده الأكبر الدائمة. هديته كانت رمحاً، من الخشب اللين، قُطع بطريقة جميلة وقد لمعت علامته النارية المصاغة في ضوء المشاعل.

وأخيراً كان دور الرجل ذو الندبة ليتحدث. "حسناً، ابن ارتيس؟" التف تنديريوس في مقعده ليواجهه. "ماذا لدى المراقب النزيه ليخبرنا به حول هذه الإجراءات؟".

أسند الرجل ظهره إلى الخلف وقال: "أود أن أعرف كيف ستوقف الخاسرين عن شن الحرب عليك، أو على زوج هيلين المحظوظ الجديد. فأنا أرى نصف دزينة من الرجال هنا مستعدين للامساك بخناق بعضهم البعض".

"تبدو مستمتعاً". قال تنديريوس.

تجاهل الرجل قوله ورد: "أجد حماقة الرجال مسلية".

"ابن ارتيس يزدرينا!" قال الرجل الضخم أياكس، وهو يحكم قبضته الكبيرة بحجم رأسي.

"أبدا يا ابن تيلامون". قال أوديسيوس.

"إذا ماذا يا أوديسيوس؟ حدثنا بما يدور بخلدك بصراحة، ولو لمرة واحدة". كان صوت تنديريوس حاداً كما سمعته.

تجاهله أوديسيوس مرة أخرى وقال: "هذه مقامرة خطيرة، على الرغم من الشهرة والثروة اللتين فزت بهما. فكل واحد من هؤلاء الرجال يستحق الارتباط بابنتك، ويعرف ذلك. ولن يكون من السهل رفضهم".

"لقد قلت لي كل هذا بشكل خاص". قال تنديريوس.

تصلب والدي بجانبي. مؤامرة. ولم يكن صاحب الوجه الغاضب الوحيد في القاعة.

"صحيح، لكنني الآن أقدم لك حلاً". قال أوديسيوس ورفع يديه الفارغتين عالياً، ثم أكمل: "لم أحضر هدية، ولا أسعى لخطبة هيلين. أنا ملك كما قيل، لصخور وماعز. في مقابل حلي أطلب منك الجائزة التي سميتها من قبل".

"أعطني حلك، وبإمكانك الحصول عليها". قال تنديريوس. مجدداً، عادت تلك الحركة الطفيفة على المنصة. إحدى النساء نفضت يدها باتجاه ثوب رفيقتها.

"إذاً هذا هو الحل. أظن أننا يجب أن ندع هيلين تختار".

توقف أوديسيوس عن الحديث لإتاحة الفرصة للغط غير المصدقين؛ ليس للنساء قول في مثل هذه الأمور. أكمل أوديسيوس: "لا أحد حينها يستطيع أن يَعيب عليك. لكن يجب عليها الاختيار الآن، في

هذه اللحظة بالذات، حتى لا يقال بأنها استشارتك أو أخـــذت بـــأي تعليمات من قبلك". ثم رفع إصبعاً وأكمل "وقبل أن تختار، يجب على كل رجل هنا أن يقسم يميناً: بأن يؤيد قرار هيلين، وأن يـــدافع عـــن زوجها ضد كل من يحاول أخذها منه".

شعرت بالاضطراب يعم الغرفة. أداء قسم؟ وحـــول أمـــر غـــير تقليدي كاختيار امرأة لزوجها. كان الرجال متشككين.

"جيد جداً". قال تنديريوس بوجه خالي التعبير، واتجه إلى النســـاء المحجبات بقوله. "هيلين، هل تقبلين بهذا الاقتراح؟".

كان صوتها خفيضاً ومحبباً، محمولاً إلى كل ركـــن في القاعـــة. "أوافق". كان هذا هو كل ما قالته، ولكنني شعرت بالقشعريرة تسري في الرجال من حولي، حتى أنا كطفل أحسست بها، وتعجبت من قـــوة هذه المرأة التي استطاعت بالرغم من حجابها أن تكهرب جو الغرفـــة. تذكرنا فجأة بشرتها، كان يشاع أنها مذهبة، عيناها داكنتين ومشرقتين مثل حجر السج الأملس الذي نقايض به زيتوناً. في تلك اللحظة كانت تستحق كل الهدايا التي في منتصف القاعة، وأكثر. كانـــت تســـتحق حيواناتنا.

أومأ تنديريوس وقال: "إذاً فأنا أعلن ذلك مرسوماً، وكل أولئك الذين يريدون أن يقسموا فليفعلوا ذلك الآن".

سمعت غمزاً ولمزاً، وأصوات نصف غاضبة، لكن لم يغادر رجل. صوت هيلين، وحجابها الذي يرفرف بلطف مع أنفاســـها، أســـرتنا جميعاً.

طلب القس إحضار عنـــزة بيضاء على وجه السرعة إلى المذبح. هنا، في الداخل، كانت العنـــزة خياراً أكثر ملائمة من الثور، الـــذي يمكن أن تتدفق دماء حنجرته بلا توقف على أحجار الأرضية. مـــات

الحيوان بسهولة ومزج الرجل دمه برماد شجرة السـرو مـن النـار. هسهس الوعاء بصوت عال في الغرفة الصامتة.

"سوف تكون الأول". أشار تنديريوس إلى أوديسـيوس. حـتى الفتى الذي في التاسعة من عمره رأى كم كان هذا مناسباً. فأوديسيوس قد أثبت بالفعل أنه ذكي حتى الآن. تحالفاتنا الممزقة تتحد فقط عندما لا يكون مسموحاً لرجل أن يكون أكثر قوة من رجل آخر. عبر أنحاء الغرفة، رأيت الابتسامات المتكلفة والرضى بين الملوك؛ فحتى هو لـن يُسمح له بالهروب من حبل مشنقته.

كشر فم أوديسيوس عن نصف ابتسامة وقال: "بالطبع. إنه لمـن دواعي سروري". ولكنني لم أظن ذلك. فخلال التضـحية شـاهدته ينـزوي إلى الخلف في الظل، كما لو أنه سيصبح منسياً. لقد ارتقـى الآن وتوجه إلى المذبح.

"الآن هيلين". قال أوديسيوس ثم توقف، وبذراع نصف ممـدودة نحو الكاهن أكمل: "تذكري أنني أقسم مـن بـاب الرفقـة ولـيس كخاطب، لن تسامحي نفسك أبداً لو اخترتني". قال كلماته للإغاظـة، ولرسم الضحكات المنثورة. كلنا كنا نعرف أنه من غـير المحتمـل أن شخصاً مشرقاً كهيلين من الممكن أن تختار ملك إيثاكا القاحلة.

واحداً تلو الآخر استدعانا الكاهن إلى المذبح، واضعاً علامـات على معاصمنا بالدم والرماد، مربوطة كالسلاسل. بيد مرفوعة ليراهـا الجميع، رددت على الكاهن كلمات القسم.

عندما عاد آخر رجل إلى مكانه، وقف تنديريوس وقال: "اختاري الآن يا ابنتي".

"مينيلوس". قالت بلا تردد، مفاجئة إيانا جميعـاً. كنـا نتوقـع تشويقاً، تردداً. التفتُ نحو الرجل ذو الشعر الأحمـر، الـذي وقـف

وابتسامة ضخمة تكسو وجهه في فرحة كبيرة، ثم ربت ظهر شـقيقه الصامت. كان الغضب، خيبة أمل، وحتى الأسى في كل مكان. لكـن لا أحد من الرجال حاول أن يصل إلى سيفه؛ لقـد جفـت الـدماء السميكة على معاصمنا.

"ليكن الأمر". قال تنديريوس ثم وقف أيضاً وقال: "أنـا سـعيد بالترحيب بابن آخر لأتريوس في عائلتي. ستحوز على ابنتي هيلين، كما حاز من قبل أخوك الجدير على ابنتي كـلوتاى منسترا". وأومأ لأطول امرأة فيهن، فيما ظننت أنها ستقف، لكنها لم تتحرك، ربما لم تسمع.

"ماذا عن الفتاة الثالثة؟" صرخ رجل صغير يجلس بجانب العملاق أياكس. "ابنة أختك. هل يمكنني الحصول عليها؟".

ضحك الرجال سعداء بتخفيف التوتر. "أنت متأخر جداً تيوسر". رد أوديسيوس عبر الضجيج وأكمل "لقد وُعِدتُ بها".

لم يكن لدي الفرصة لسماع المزيد، قبض والدي على كتفـي، ساحباً إياي بغضب من المقعد وقال: "لقد انتهينا هنا". غادرنا في نفس الليلة إلى المنـزل، وامتطيت حماري مرة أخرى، مـثقلاً بالخيبـة: لم يسمح لي حتى بأخذ لمحة خاطفة إلى وجه هيلين الأسطوري.

لم يذكر والدي الرحلة مرة أخرى، وحالما عـدت إلى المنـزل التوت الأحداث بغرابة في ذاكرتي. الدم والقسم، الغرفة المليئة بالملوك: بدوا شاحبين وبعيدين، مثل شيء شاعري نُسج، بدلاً عن شيء عشته. هل ركعت حقاً هناك أمامهم؟ وما هو القسم الذي أديته؟ بدا مجـرد التفكير فيه غريباً، أحمقاً وغير محتمل كحلم يراودك قبل تناول العشاء.

الفصل الثالث

وقفت في الحقل، وفي يدي زوجي حجر نرد، هدية. ليس من أبي، الذي بالتأكيد لم يفكر في ذلك. ولا من أمي، التي لا تعرفني أحياناً. لا أستطع أن أتذكر من الذي أعطاني إياها. ملكاً زائراً؟ أو نبيل صالح؟

كانت منحوتة من العاج، مُطعم بالعقيق اليماني، السلس المللمس تحت إبهامي. كنا في أواخر الصيف، وكنت ألهث من الركض من القصر. منذ يوم السباق تم تعيين رجل لتدريبي على كل الفنون الرياضية لدينا: الملاكمة، المبارزة بالسيف والرمح، رمي القرص. ولكنني هربت منه، وانتشيت بخفة العزلة. لقد كانت المرة الأولى التي أختلي فيها بنفسي منذ أسابيع.

ثم ظهر الصبي. كان اسمه كلاسونيوميس، كان ابن أحد النبلاء الذي يترددون على القصر في كثير من الأحيان.

لقد كان كبير، ضخم، وسمين بطريقة مقيتة. التقطت عينيه وميض النرد في كفي. نظر شزراً في وجهي ومد يده قائلا: "أريني إياهم".

"لا" قلت له، لم أكن أريد أصابعه الغليظة القذرة عليها، وقد كنت الأمير، مهما كنت ضئيلاً. ألا أملك حتى هذا الحق؟ ولكن أولاد هؤلاء النبلاء تعودوا أن افعل ما يريدون. لقد علموا أن والدي لن يتدخل.

"أريدهم". قال و لم يكلف نفسه عناء تهديدي، حتى الآن. لقد كرهته لذلك. لقد كنت أستحق عناء التهديد.

"لا" قلت له.

تقدم إلى الأمام وقال: "أعطني إياهم".

"إنهم لي". رددت وقد شحذت أسناني. تأهبت وبـــدوت مثـــل الكلاب التي تتقاتل من أجل بقايا الطاولة. تقدم ليأخذهم، فدفعتـــه إلى الوراء، وتعثر، وقد كنت مسروراً بذلك. فهو لن يحصل على ما هـــو لي.

"هيه!" صاح بغضب. لقد كنت ضئيلاً جداً، وقد أشيع عني أنني أبله، فإذا تراجع الآن، فإنه سيكون عار عليه. تقدم إلي بوجه أحمـــر، وبدون أن أشعر، تراجعت للخلف، فعلت وجهه ابتسامة متكلفة وقال: "جبان".

"أنا لست جبان". ارتفع صوتي، واتقدت بشرتي بـــالحرارة. رد قائلاً: "والدك يعتقد أنك كذلك". كانت كلماته متعمدة، كما لو أنه يتلذذ بها، وأكمل: "لقد سمعته يخبر والدي بذلك".

رددت: "لا، لم يفعل ذلك". لكنني كنت موقناً أنه فعل.

اقترب الصبـــي أكثر ورفع قبضته قائلاً: "هل تنعتني بالكاذب؟" عرفت حينها أنه سيضربني، كان فقط ينتظر العذر لذلك. يمكـــنني أن أتصور الطريقة التي قال بها أبـــي "جبان". زرعت يدي على صـــدره ودفعته بأقصى ما يمكنني. لقد كانت أرضنا أرض عشب وقمح، لذا لا ينبغي للسقوط عليها أن يسبب أي أذى. هأنا ذا أصنع الأعذار، لقـــد كانت أيضاً أرض صخرية. ارتطمت رأسه بصخرة بصوت مكتـــوم، ورأيت المفاجأة تقفز من عينيه، ثم بدأت الأرض من حوله تنـــزف.

حدقت، وقد أغلق الرعب حلقي فيما فعلت. لم أشـــهد وفـــاة إنسان من قبل. نعم، شهدت الثيران، والماعز، وحتى لهاث الأسماك غير دموي. وكنت قد رأيت ذلك في اللوحات، المطرزات، الشخصـــيات

السوداء التي كويت بها صحوننا. لكنني لم أرَ هـذا، لم أرَ حشـرجة الموت، لم أرَ الاختناق والخربشة، ولا رائحته المتدفقة، ففررت.

في وقت لاحق فيما بعد، وجدوني بالقرب من كاحـل شـجرة زيتون كثير العقد. لقد كنت أعرج وشاحب، ومحاط بقيء. اختفـت قطعتي النرد، خسرتها خلال رحلتي. حدق أبـي إلى أسفل إلي بغضب، وتراجعت شفتيه لتظهر أسنانه الصفراء. أومأ، فرفعني العبيد وحملـوني إلى الداخل.

طالبت عائلة الصبـي بالمنفى أو الموت الفوري. لقد كانت عائلة قوية، وكان هذا ابنهما البكر. قد يسمحون لملك بحـرق حقـولهم أو اغتصاب بناتهم، طالما دفع الثمن. لكنك لا تلمس أبناء الرجل، لهـذا، فإن النبلاء قد يثيرون الشغب.

كلنا يعلم القواعد، نتشبث بهم لنتجنب الفوضى التي كانت دائماً على بعد نفس واحد. عداء الدم. صنع الخدم علامة ضد الشر.

قضى أبـي حياته وهو يحفر للحفاظ على مملكته، ولن يجـازف بخسارتها من أجل ابن مثلي، بينما الورثة والبطون التي حملت بهم مـن السهل الإتيان بهم. فوافق على نفيّ، وتنشئتي في مملكة رجـل آخـر. مقابل وزني ذهباً، فإنهم سيتولون تربيتي حتى أصل إلى مرحلة الرجولة. لن أحظى بأي والدين، ولا اسم عائلة، ولا ميراث. في أيامنا الحاليـة، سيكون الموت أفضل. لكن والدي كان رجلاً عملياً، فوزني بالـذهب أقل من مصاريف الجنازة الفخمة التي سيحتمها موتي.

هكذا أصبحت يتيم في العاشرة. وهكذا أتيت إلى ثيا.

ثيا كانت متناهية الصغر، بحجم الأحجـار الكريمـة، أصـغر ممالكنا، تقع في المنعطف الشمالي من الأرض بين تلال جبل أوثـريس والبحر. ملكها، بيليوس، واحد من أولئك الرجال الذين تحبهم الآلهة:

هو بنفسه ليس آلهة، ولكنه ذكي، شجاع، وسيم، ويفوق جميع أقرانه في التقوى. كمكافأة، عرضت عليه آلهاتنا حورية بحر كزوجة. واعتبر ذلك من أعلى مستويات التكريم. وعلى الرغم من كل شيء، لماذا لا يريد بشرياً أن يضاجع إلهة وينجب منها ابناً؟ الدماء الإلهية صفت سلالتنا الموحلة، وأوجدت أبطال من الغبار والطين. وهذه الإلهة أحضرت وعد لا يزال أعظم: لقد تنبأت الأقدار أن ابنها سيفوق والده كثيراً. خط بيليوس تم تأكيده. ولكن، كمثل كل الهبات الإلهية، كان هناك هامش لهذا الموضوع، حيث كانت الآلهة نفسها غير راغبة.

الجميع، بمن فيهم أنا، كنا قد سمعنا قصة انتهاك ثيتيس. قادت الآلهة بيليوس إلى المكان السري حيث كانت تحب أن تجلس على الشاطئ، وحذروه من إضاعة الوقت معها في أي مفاتحات - فهي لن تقبل أبداً بالزواج من بشري.

وحذروه أيضاً مما سيحدث في اللحظة التي يمسك فيها بها: فالحورية ثيتيس كانت مراوغة، مثل والدها، بروتيوس، رجل البحر المسن الزلق، وقد كانت تعرف كيف تجعل جلدها يتدفق إلى آلاف الأشكال المختلفة من الفراء والريش و اللحم. وعلى الرغم من المناقير والمخالب والأسنان والسلاسل والذيول اللاذعة التي سوف تسلخه، لا يزال على بيليوس أن لا يفلتها.

كان بيليوس رجلاً تقياً ومطيعاً وفعل كل ما أمرته الآلهة بفعله. انتظرها أن تنبثق من موجات الأردواز الملونة، بشعر أسود طويل كذيل الحصان. أحكم قبضته عليها، على الرغم من كفاحها العنيف له، وضغط عليها حتى أصبح الاثنين منهكين على حد سواء، مقطوعي الأنفاس وقد كشطت الرمال جلدهما، دم جروحه التي تسببت بها له

اختلط بلطخات عذريتها المفقودة على فخذيها، لم تعد مقاومتها تهم: فنـــزع الزهرة كان ملزماً كعهد الزواج.

أجبرتها الآلهة أن تقسم على البقاء مع زوجها البشري لمدة ســنة على الأقل، فخدمت وقتها على الأرض، كما حتم واجبها، بصـــمت، بلا استجابة، وبتجهم. والآن عندما شبك عليها، لم يعـــد يهمهـــا أن تطوي أغنياتها وتجدلها احتجاجاً، بدلاً من ذلـــك انطرحـــت متيبســة وصامتة، رطبة وباردة كسمكة قديمة، رحمها النافر لم تحمـــل ســـوى بطفل واحد. وفي الساعة التي أنهت فيها الحكم الصادر عليها، ركضت خارجة من المنـــزل وعادت حمامة بحر.

ستعود فقط من أجل زيارة الصبـــي، وأبداً، ليس من أجـــل أي سبب آخر، وأبداً، ليس لفترة طويلة. فيما تبقى من الوقت كان الطفل يُربيه المعلمين والمربيات ويشرف عليه فوينكس، مستشار بيليوس الأكثر ثقة. هل ساور بيليوس الندم أبداً على هدية الآلهة له؟ من شأن زوجــة عادية أن تحسب نفسها محظوظة للعثور على زوج لطيف كبيليـــوس، بوجهه المبتسم، ولكن بالنسبة لحورية البحر ثيتيس لا شيء يمكنـــه أن يفوق وصمته القذرة، فهو بشري فاني.

قادني خلال القصر خادماً لم أستطع الحصول على اسمه، وربما لم يقله. كانت القاعات أصغر مما كانت عليه في منـــزلنا، كمـــا لـــو أن المحكوم يضبط نفسه حياء من المملكة الحاكمـــة. كانـــت الجـــدران والأرضيات من الرخام المحلي، أكثر بياضاً من تلك التي في الجنـــوب، وكانت قدمي داكنة مقارنة بشحوبها.

لا شيء معي، أمتعتي القليلة قد حُملت إلى غـــرفتي، والـــذهب المرسل من قبل والدي كان في طريقه إلى الخزانة، انتابتني مشاعر ذعـــر غريبة حينما افترقت عنه، لقد كان رفيق سفري لأســابيع، ومُـــذكراً

بقيمتي. أعرف محتوياته عن ظهر قلب: خمسة أقداح بقضبان منقوشة، صولجان بحلى ثقيلة، قلادة ذهب مطروق، تماثيل مزخرفين لطيور، وقيثارة منحوتة، مذهبة الأطراف. وهذه الأخيرة، كنت أعرف أنها مغشوشة. كان الخشب رخيص، وفير، وثقيل، وقد احتل المساحة التي كان ينبغي أن تستخدم للذهب. حتى الآن، كانت القيثارة جميلة جداً ولا يمكن لأحد أن يعترض على ذلك، لقد كانت قطعة من مهر والدتي. بينما نحن نسير، كنت أمد يدي إلى جرابي لأداعب خشبها المصقول.

خمنت أنه سيتم اقتيادي إلى غرفة العرش، حيث سأركع وأسكب امتناني. ولكن الخادم توقف فجأة أمام باب جانبي. وأخبرني أن الملك بيليوس غائب، لذلك سوف أقدم نفسي بدلاً من ذلك أمام ابنه. لقد كنت متوتراً، لم يكن هذا ما أعددت نفسي له، ولا كلمات الواجب التي تمرنت عليها على ظهر الحمار. ابن بيليوس. ما زلت أستطيع أن أستحضر صورة إكليله الداكن مقارنة بشعره المشرق، ووميض باطن قدميه الوردي على طول المسار. هكذا يكون الأبناء.

كان مستلقياً على ظهره على مخدة مقعد عريضة، يدوزن قيثارة على بطنه، وينقر أوتارها بإهمال. لم يسمعني أدخل، أو لم يختر أن ينظر إلي. وهكذا بدأت بفهم مكاني هنا، لقد كنت حتى هذه اللحظة، أميراً متوقعاً ومعلناً، وأنا الآن نكرة.

تقدمت خطوة أخرى إلى الأمام، أجرجر قدمي، ورأسه يتدلى جانباً ليأخذني بعين الاعتبار. في الخمس سنوات التي انقضت منذ آخر مرة رأيته فيها، نما وتجاوز استدارته الطفولية. فغرت فمي أمام الصدمة الباردة لجماله، عيون خضراء عميقة، وملامح فتاة حسناء. ضربته مفاجأتي له، ولم يعجبه مظهري، لم أتغير كثيراً، ولست كذلك على ما يرام.

تثاءب بأجفان ثقيلة، وسأل: "ما اسمك؟".

كانت مملكته بنصف، بل ربع، وثمن حجم مملكة أبـــي، وقــد قتلت صبياً وتم نفي و لم يعرفني بعد. أطبقت فكي و لم أتكلم.

فسأل مرة أخرى، بصوت أعلى: "ما اسمك؟".

صمتي كان مبرراً أول مرة، فربما لم أسمعه، لكنه لـيس كـذلك الآن.

"باتروكلوس"، رددت، كان الاسم الذي منحــه لي أبـــي في ولادتي، بأمل ولكن بممارسات خاطئة، والذي ذقــت مرارتــه علــى لساني، وكان يعني "شرف الأب". انتظرت منه أن يجعل منه نكتة، أو بعض الفكاهة البارعة حول فضيحتي. لكنه لم يفعل. فكرت، ربما هـو أكثر غباء أيضاً.

مال إلى جانبه ليصبح في مواجهتي، وانخفضت خصــلة ذهبيــة شاردة إلى منتصف عينيه، فنفخها بعيداً وقال:

"اسمي أخيل".

هززت ذقني إلى أعلى بمسافة شبر واحد، في تأكيد صريح. لقــد أخذنا بعضنا البعض بعين الاعتبار للحظة. ثم طرفت عينيه وتثاءب مرة أخرى، بفم اتسعت فوهته كقط وقال: "مرحبا بك في ثيا". لقد كبرتُ في البلاط وكنت أعرف الصرف حالما أسمعه.

اكتشفت بعد ظهيرة ذلك اليوم أنني لم أكن الطفل الربيب الوحيد لبيليوس. تبين أن الملك المتواضع غنياً فيما يتعلق بالأبناء المنبوذين. لقــد كان هو نفسه هارب ذات مرة، كما يشاع، ولديه سمعة الإحسان نحو المنفيين. كان سريري سرير في غرفة طويلة على غرار الثكنات، مليئــة بأولاد آخرين يتصارعون ويتسكعون. أراني خادمــاً أيــن وُضِــعت أغراضي. رفع بعض الصبية رؤوسهم ليحدقوا. أنا متأكــد أن واحــد

منهم كلمني، وسألني عن اسمي، وأنا واثق كذلك من أنني أجبته، عادوا إلى ألعابهم، لا أحد مهم، مشيت إلى فراشي بساقي المتيبسة منتظراً العشاء.

لقد كنا نستدعى لتناول الطعام في الغسق بجرس برونزي يُقرع من أعماق قلب القصر. فيترك الصبية ألعابهم ويهرولون إلى الرواق. تم بناء المجمع مثل مأربة الأرانب، مليئة بالممرات الملتوية والممرات والغرف الداخلية المفاجئة. لقد اقتربت من التعثر بأعقاب الصبي أمامي، مدفوعاً بالخوف من التخلف عن الركب والضياع. غرفة تناول الوجبات كانت قاعة طويلة في الجزء الأمامي من القصر، فتحت نوافذها على سفوح جبل أوثريس، كبيرة بما يكفي لإطعامنا كلنا، عدة مرات، بيليوس ملك يحب الاستضافة والترفيه. جلسنا على مقاعد من خشب البلوط، إلى طاولة تم نحتها خلال سنوات من لوحات الكلاتيرينج. كان الطعام بسيطاً ولكن وفيراً، أسماك - مملحة، وخبز سميك يقدم مع الجبن العشبي. لم يكن هناك أي لحم، من الماعز أو من الثيران. كان ذلك مقصوراً على أفراد الأسرة الحاكمة، أو أيام المهرجانات. عبر الغرفة قبضت على بريق شعر مشرق في ضوء المصباح. لقد كان أخيل. يجلس إلى مجموعة من الصبية كانت أفواههم تتسع بالضحكات على اثر شيء قاله أو فعله. هكذا يكون الأمير. تمتمت وأنا أحدق إلى أسفل في خبزي وإلى حبيباته الخشنة التي رحت أفركها بأصابعي بقسوة.

بعد العشاء كان مسموح لنا بالقيام بما نود فعله. تجمع بعض الصبية للعب في زاوية. "هل تريد أن تلعب؟" سألني أحدهم، شعره لا يزال معلق في تجعيدات طفولية، وكان أصغر سناً مني.

"ألعب؟" رددت.

"النرد" قال موضحاً ثم فتح يده ليريني إياهم، عظام منحوتة برقط صباغ أسود.

بدأت بالتراجع إلى الوراء، ثم قلت "لا"، بصوت عـــالٍ جـــداً. طرفت عيناه متفاجئ ثم قال: "حسناً"، وهز كتفيه، وذهب.

في تلك الليلة حلمت بالصبـــي القتيل، جمجمته متصدعة كبيضة على الأرض، لقد تبعني، انتشرت الدماء، داكنة كالنبيذ المسفوك، عينيه مفتوحتين، وفمه بدأ يتحرك. وضعت يدي على أذني، يقال أن أصوات الموتى لديها القوة لدفع الأحياء للجنون، لذا يجب علي أن لا أستمع إلى حديثه.

استيقظت هلعاً، على أمل أنني لم أصرخ عالياً، كانت ثقوب النجوم خارج النافذة هي الضوء الوحيد، و لم يكن هناك قمراً أســتطيع رؤيتـــه. تحشرجت أنفاسي في الصمت، وكانت أهوار - القصب المغلفة للمرتبـــة تتردد بهدوء تحتي، تفرك أصابعها الرقيقة مقابل ظهري. وجـــود الصـــبية الآخرين لم يريحني؛ موتانا يسعون خلف انتقامهم بغض النظر عن شهوده.

التفت النجوم، ومن مكان ما تسلل القمر عبر السماء. وعنـــدما أغلقت عيناي ببطء مرة أخرى، كان ما يزال بانتظاري، مغطى بالدم، ووجهه شاحب كالعظم. بالطبع، كان كـــذلك. لا روح تـــتمنى أن تُرسل في وقت مبكر إلى الظلام اللانهائي لجحيمنا. المنفى قد يُرضـــي غضب الأحياء، لكنه لم يشبع غضب الأموات.

استيقظت بعينين متورمة، وأطراف ثقيلـــة وفـــاترة، اصـــطخب الأولاد الآخرين من حولي، يلبسون لتناول الإفطار، يتوقون إلى اليوم. انتشر خبر غرابتي بسرعة، و لم يقترب مني الصبـــي الصغير مرة أخرى، مع النرد أو أي شيء آخر. على الإفطار، دفعت أصابعي بالخبز بـــين شفتي، وكان حلقي يبتلع دون مضغ. صُب الحليب لي، فشربته.

بعد ذلك تم إرشادنا إلى الجزء المشمس المترب من فناء التدريب للتدرب على الرمح والسيف. وهنا تذوقت الحقيقة الكاملة للطف بيليوس: مدربين تدريباً جيداً بلا منة، سنصنع له في أحد الأيام جيش جيد.

أُعطيت رمحاً، وصححت يداً متصلبة قبضتي، ثم صححتها مرة أخرى، رميت وكشطت حافة شجرة البلوط الهدف. زفر المدرب نفساً بعيداً ومرر لي رمح ثاني. سافرت عيني فوق الأولاد الآخرين، تبحث عن ابن بيليوس.

لم يكن هناك. صوبت مرة أخرى نحو البلوط، لحاءه محفور ومتصدع، والنسغ يرشح من ثقوبه، ثم رميت.

ذهبت الشمس عالياً، ثم أصبحت أعلى. فازداد حلقي جفاف وسخونة، وحكة مع الغبار المحترق. عندما حررنا المدربون، معظم الفتيان فروا إلى الشاطئ، حيث مازالت النسائم الصغيرة تتحرك. هناك حيث لعبوا النرد وتسابقوا، يهتفون بالنكات بحدة، ويحرفون لهجات أهل الشمال.

كانت عيني ثقيلة في رأسي، وذراعي تؤلمني من مجهود الصباح. جلست تحت الظل المبعثر لشجرة زيتون لأحدق عبر موجات المحيط. لا أحد يكلمني، كائن سهل التجاهل. لم يكن هناك حقاً اختلافاً كبيراً عن منزلي.

اليوم التالي كان مشابه له، صباح التدريبات المضجرة، ومن ثم ساعات الظهيرة الطويلة وحيداً. في الليل، القمر يتشظى أصغر وأصغر، حدقت لأتمكن من رؤيته حتى عندما أغلق عيني، القوس الأصفر المشرق مقابل ظلمة جفوني. أملت انه ربما يحتجز طيف الصبي في الخليج. إلهتنا للقمر موهوبة بالسحر، بقوة تفوق قوة الموتى. يمكنها أن تطرح الأحلام، إذا أرادت.

لكنها لم ترغب بذلك، فجاء الصبي، ليلة بعد ليلة، بعيونه المحدقة وجمجمته المهشمة. أحياناً يلتف ليريني الثقب في رأسه، حيث الكتلة اللينة من دماغه معلقة برخاوة. وأحياناً يصل إلي، وأود أن استيقظ، مختنقاً برعبي، فأحدق في الظلام حتى الفجر.

كانت وجبات الطعام المقدمة في قاعة الطعام متنفسي الوحيد، هناك لا يبدو أن الجدران ستعتصرني كثيراً، وغبار الفناء لم يقف في حلقي، وضجيج الأصوات المستمر كان يخفت كلما أصبحت الأفواه محشوة بالكامل. يمكنني أن أجلس مع طعامي لوحدي، وأتنفس مرة أخرى.

لقد كانت هذه هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها أخيل. أيامه أصبحت منعزلة، أميرية، مليئة بالواجبات التي لم يكن لنا فيها أي جزء، لكنه كان يتناول كل وجباته معنا، يدور بين الطاولات. في القاعة الضخمة، يشرق جماله مثل اللهب، حيوي ومتألق، يجتذب عيني ضد إرادتي، فمه مقوس بامتلاء، وأنفه كسهم أرستقراطي، وعندما يجلس، أطرافه لا تميل كما تفعل أطرافي، بل تتسق مع نعمة الكمال، كأنها منحوتة. لعل أكثر ما يميزه كان عدم إدراكه لنفسه، لم يكن يتأنق أو يتجهم كما يفعل الأطفال الوسيمين الآخرين. بالفعل، بدا أنه يجهل تأثيره على الأولاد من حوله تماماً. على الرغم من كيف كان، لم يمكنني تصور: احتشادهم حوله مثل الكلاب في تشوقهم، بألسنتهم المتدلية.

شاهدت كل هذا من مكاني في طاولة الزاوية، والخبز ينسحق في قبضتي، حافة حسدي قاطعة كالصوان، شرارة تنطلق بعيداً عن النار.

في إحدى هذه الأيام جلس بالقرب مني على غير المعتاد؛ فقط بمسافة طاولة. كان يجرجر قدميه المتربة على البلاط بينما يأكل، لم تكن

متصدعة ولا متصلبة كما هي حال قدمي، إنما وردية وبنية بعذوبة تحت طبقة التراب. أمير، قلتها بسخرية داخل رأسي.

التفت، كما لو أنه سمعني، لثانية اشتبكت نظراتنا، وشعرت بالصدمة تجري خلالي، أشحت بنظراتي بعيداً، وشغلت نفسي بخبزي. كانت وجنتي حارة، وبشرتي تخزني كما لو هو الحال قبل هبوب العاصفة. عندما تجرأت أخيراً على النظر ثانية، كان قد عاد مرة أخرى إلى طاولته ويتحدث إلى الأولاد الآخرين.

بعد ذلك، أصبحت بارعاً في ملاحظتي، أبقي رأسي منخفضاً وعيني على استعداد للقفز بعيداً. لكنه كان لا يزال بارعاً. على الأقل مرة واحدة خلال العشاء كان سيلتفت ويقبض علي قبل أن أختلق اللامبالاة. تلك الثواني، أنصاف الثواني، حينما يشتبك خط نظراتنا، كانت اللحظة الوحيدة في يومي التي أشعر فيها بأي شيء على الإطلاق، الانقضاض المفاجئ لمعدتي، الغضب المندفع، لقد كنت مثل سمكة تتطلع إلى الصنارة.

في الأسبوع الرابع من منفاي، مشيت إلى قاعة الطعام فوجدته يجلس إلى الطاولة حيث أجلس دائماً، طاولتي، كما أصبحت أعتبرها، منذ أن اختار عدد قليل من الآخرين تقاسمها معي. الآن، بسببه، أصبحت المقاعد مليئة بالأولاد المتدافعين. تجمدت، علقت بين الفرار والحنق، ففاز الغضب. لقد كانت لي، ولن يدفعني عنها، بغض النظر عن عدد الأولاد الذين جلبهم معه.

جلست في آخر كرسي شاغر، مشدود الكتفين كما لو أنني سأقاتل، عبر الطاولة تظاهر الأولاد وثرثروا، عن الرمح و الطائر الذي مات على الشاطئ وسباقات الربيع. لم أستمع إليهم، حضوره كان كالحجر في حذائي، من المستحيل تجاهله، جلده بلون زيت الزيتون

المَعْصُور للتو، وأملس كالخشب المصقول، خالي من الجروح والعيـــوب التي غطت بقيتنا.

انتهى العشاء، ومُسحت الصـــحون، قمـــر الحصـــاد المكتمـــل والبرتقالي، تعلق في العتمة وراء نوافذ غرفة الطعام.

تريث أخيل، وبذهول، دفع الشعر عن عينيه، لقد طـــال أكثـــر خلال الأسابيع التي مكثتها هنا. مد يديه إلى الوعاء على الطاولة الذي يحوي التين وأخذ عدد منها في يديه.

بحركة من معصمه، رمى التين في الهواء، واحدة، اثنان، ثلاثـــة، يتلاعب بهم بخفة حتى أن جلودهم الرقيقة لم تغطِها أي كدمـــة، ثم أضاف رابعة، ثم خامسة. صاح الصبية وصفقوا. أكثر، أكثر!

طارت الفواكه بألوان ضبابية، بسرعة يبدو معها أنها لا تمس يديه، تتشقلب من تلقاء نفسها، التلاعب كان خدعة من طبقـــة الممـــثلين السفلى والمتسولين، لكنه جعل منه شيء آخر، نمط معيشة رسمـــت في الهواء، جميلة جداً حتى أنني لم أستطع ادعاء عدم الاهتمام.

نظراته، التي كانت تتابع الفاكهة المحلقة، طرفت لنظراتي، ولم يكن لدي الوقت لأشيح بعيداً قبل أن يقول بلطف لكن بوضوح: "امسك". قفزت تينة من هذا النمط في رشاقة القوس نحوي، وسقطت في كفي، لينة ودافئة قليلاً، كنت مدركاً لهتاف الفتيان.

واحدة تلو الأخرى، أمسك أخيل بالفاكهة المتبقية، وأعادهـــا إلى الطاولة متباه كفنان أداء. ماعدا الأخيرة، التي أكلها، القشرة الداكنـــة فُصلت عن البذور الوردية تحت أسنانه، كانت الثمرة ناضجة تمامـــاً، ومترعة بالعصير. بلا تفكير، قربت تلك التي رماها لي مـــن شـــفتي، فانفجرت حلاوة محببة ملئت فمي، جلدها زغب الملمس على لســـاني، لقد أحببت التين، من مرة واحدة.

وقف، وردد الأولاد وداعهم له. ظننت أنه ربما سينظر إلي مرة أخرى. لكنه تحول فقط واختفى ثانية في غرفته على الجانب الآخر من القصر.

في اليوم التالي عاد بيليوس إلى القصر وأُحضرت أمامه في غرفة عرشه، دخان وحدة تتصاعد من مدفأة صنوبر خشبية.

ركعت كما ينبغي، محيياً، وتلقيت ابتسامته الخيرة الشهيرة. "باتروكلوس"، أخبرته باسمي، عندما سأل. حتى الآن كنت معتاداً على ذلك تقريباً، عري اسمي، من دون اسم والدي وراءه. أومأ بيليوس، بدا لي متقدماً في العمر، منحني، لكنه كان في الخمسين ليس أكثر من ذلك، بعمر والدي، لم يبدو كرجل تغلب على إلهة، أو أنجب طفلاً مثل أخيل.

"أنت هنا لأنك قتلت صبياً. هل تفهم هذا؟" سألني، بقسوة البالغين. هل تفهم؟

"نعم"، أخبرته. وقد كان بإمكاني إخباره أكثر من ذلك، عن الأحلام التي تغادرني غائم ومحتقن بالدم، قريباً من الصراخ، تلك التي تكشط حلقي وأنا ابتلعها إلى الداخل، عن الطريقة التي تدور بها النجوم وتدور خلال الليل فوق عيني التي لا تنام.

"أهلاً وسهلاً بك هنا. مازال بإمكانك أن تكون رجل طيب" قال وهو يواسيني.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، ربما منه، وربما من خادم مستمع، عَلم الأولاد أخيراً عن سبب نفيي. كان ينبغي لي أن أتوقع ذلك. لقد سمعت أقاويلهم عن الآخرين في كثير من الأحيان بما فيه الكفاية؛ الشائعات كانت العملة الوحيدة المتداولة بين الأولاد، ومع ذلك، أخذتني مفاجأة أن أرى هذا التغيير المفاجئ فيهم، الخوف والانبهار

المنبثق على وجوههم حينما أمر بهم، والآن حتى الجريء منهم سوف يتمتم بالصلاة إذا مر بمحاذاتي: الحظ السيئ قد يحكم قبضته، وكذلك الغضب، وهسهسة الأرواح المنتقمة، لم تكن دائماً استثنائية. يراقب الأولاد من مسافة آمنة، مفتونين. هل تعتقد أنهم سيشربون دمه؟

خنقتني همساتهم، وأحالت الطعام في فمي رماداً. دفعت بصحني بعيداً ومشطت الزوايا والقاعات الاحتياطية حيث يمكنني الجلوس بهدوء، فيما عدا الوفاة العرضية لخادمة. عالمي الضيق ضاق أكثر: إلى الشقوق في الأرض، إلى المنحوتات المجدولة على الجدران الحجرية، التي تقشطت بهدوء وأنا أقتفي أثرها بإصبعي.

"سمعت أنك كنت هنا". قال صوت واضح كمثل مجرى الجليد الذائب، اهتز رأسي للأعلى، كنت منزوياً في مخزن، ركبتي مشدودة إلى صدري، كوتد دق بين جرار زيت الزيتون السميك المضغوط، أحلم بأنني سمكة، لونتها الشمس بالفضة وهي تقفز من البحر، تلاشت الموجات، وعادت لتصبح جرار وأكياس حبوب مرة أخرى.

كان أخيل، يقف فوق رأسي، بوجه جاد، وخضرة عينيه الهادئة ترمقني، وخزني الإحساس بالذنب، لعلمي أنني يجب ألا أتواجد هنا.

"لقد كنت أبحث عنك" قال، كانت كلماته بلا تعابير؛ لم تحمل أي تلميح يمكنني قراءته، ثم أكمل قائلا: "أنت لم تذهب إلى تدريبات الصباح".

احمر وجهي، خلف الشعور بالذنب، تنامى الغضب ببطء وفتور، لقد كان من حقه أن يعاقبني، ولكنني كرهته لذلك.

"كيف علمت؟ أنت لم تكن هناك"، رددت عليه.

فقال: "المدرب لاحظ، وتحدث إلى والدي". سألت: "وهو قام بإرسالك". أردته أن يشعر بالقبح لأنه من حمل الحكاية لي.

"لا، لقد جئت من تلقاء نفسي". رد أخيل بصوت بارد، لكنني رأيته يزم فكه قليلاً، ثم أكمل قائلاً: "سمعتهم يتحدثون، فأتيت لأرى إن كنت مريضاً".

لم أجب، تفرسني للحظة، ثم قال: "والدي يفكر بمعاقبتك".

كلنا يعرف ما يعنيه هذا، العقاب سيكون جسدياً، وأمام العامة في الغالب. الأمير لا يجلد، ولكنني لم أعد أمير.

قال: "أنت لست مريضاً".

"لا"، أجبت بخفوت.

فأكمل: "إذن ذلك لن يخدمك كعذر".

"ماذا؟"، في غمرة خوفي لم أستطع متابعته.

كان صوته صبوراً وهو يشرح: "عذرك عن مكان تواجدك"، وأكمل: "وهكذا، لن تعاقب. فماذا ستقول؟".

"أنا لا أعرف"، رددت.

فقال: "يجب أن تقول شيئاً".

أثار إصراره شرارة الغضب بداخلي، فقاطعته بسخرية: "أنت الأمير". فاجأه ذلك، فمال برأسه قليلاً كطائر فضولي و قال:

"إذن؟".

"إذن تحدث لأبيك، وقل له أنني كنت برفقتك، سيعذرني لذلك". قلت هذا بثقة أكبر مما كنت اشعر به، لو كنت قد تحدثت إلى أبي من أجل صبي آخر، سيغتاظ مني، لكنني لم أكن أخيل. تغضن جبينه قليلاً وقال: "لا أحب أن أكذب". كان ذلك نوع من البراءة التي قد يسخر الأولاد الآخرين منك لأجلها؛ حتى لو شعرت بها، لا ينبغي لك التحدث بها.

"إذن اصحبني معك إلى دروسك، ولن تكون كذبة" قلت له.

رفع حاجبيه، وهو يعيد تقييمي. كان لا يزال ســاكن بطريقــة فكرت أنها لا يمكن أن تنتمي إلى البشر على الإطلاق، ساكن من كل شيء فيما عدا النفس والنبض، مثل الغزلان، يصيخ الســمع لقــوس الصياد، فوجدت نفسي أحبس أنفاسي.

ثم تحول شيئاً في وجهه. قرار.

قال: "تعال".

"إلى أين"، قلت بتحفظ، ربما سأعاقب الآن على الخداع.

أوضح قائلاً: "إلى درس القيثارة. وبذلك، لن تكون كذبة، كما قلت. بعد ذلك، سنتحدث مع والدي".

فقلت: "الآن؟".

فرد: "نعم. لم لا؟" كان يتفحصني بغرابة. لم لا؟

عندما وقفت لأتبعه، آلمتني أطرافي من الجلسة الطويلة على الحجر البارد. وارتعش صدري بشيء لم أستطع تسميته. الهــرب، والخطــر، والأمل كلها دفعة واحدة.

مشينا بصمت خلال القاعات الملتوية، وجاءت بــالطول غرفــة صغيرة، لا تحوي إلا صدارة كبيرة ومقاعد صغيرة للجلوس. أومأ أخيل إلى إحداها فذهبت إليه، جلود مسحوبة شدت علــى مــدى إطــار خشبــي إضافي، كرسي عازف، كنت قد رأيتهم فقط عنــدما جــاء الشعراء، فيما ندر، ليعزفون إلى جانب مدفأة أبــي.

فتح أخيل الصدارة، وسحب القيثارة منها ومدها لي.

"أنا لا أعزف"، أخبرته.

تغضنت جبهته وسأل: "أبداً؟".

بغرابة، وجدت نفسي لا أرغب بتخييب أمله، وقلت: "أبــي لم يكن يحب الموسيقى".

رد: "إذن؟ والدك ليس هنا".

أخذت القيثارة، كانت باردة الملمس، وناعمة. انـــزلقت أصابعي على الأوتار، سمعت همهمة بالكاد تلاحظ، لقد كانت القيثـــارة الــتي رأيتها معه في أول يوم جئت.

انحنى أخيل مرة أخرى إلى الصندوق، وأخرج آلة ثانيـــة، وجـــاء لينضم إلي. استوى على ركبتيه، كان الخشــب منحــوت ومــذهب ومشرق بطريقة حفظه الحريصة، كانت قيثارة والدتي، تلك التي أرسلها أبـــي كجزء من سعري.

نقر أخيل الوتر، فارتفعت النوتة دافئة ورنانة، عذبة نقية. كانت أمي دائماً تسحب كرسيها على مقربة من الشعراء عندما يأتون، قريبة جداً للحد الذي يدفع بأبـــي للتجهم، والخدم للهمس. تذكرت فجأة، الوميض الداكن لعينيها على ضوء النار وهي تراقب أيـــدي الشـــعراء، والنظرة المتعطشة تعلو محياها.

نقر أخيل على وتر آخر، ورنت النوتة أعمق من الأولى، ثم مـــد يده إلى الوتد، وأداره. كنت على وشك أن أقول "هذه قيثارة أمـــي"، كانت الكلمات في فمي، ووراءها سدود أخــــرى مكتظـــة، "هـــذه قيثارتي"، لكنني لم أتكلم، ماذا سيقول مقابل تصريحي، إنها قيثارته الآن.

بلعت ريقي، وقد جف حلقي وقلت: "إنها جميلة".

"قدمها لي أبـــي"، رد بلا مبالاة، فقط طريقة إمساكه لها بلطف، أوقفت تصاعد حنقي دون أن ينتبه، ثم قال: "يمكنك الاحتفاظ بها، إذا أردت".

كان الخشب مصقول وأعرفه كما اعرف جلدي.

"لا"، قلت له، من خلال آلام صدري. لن أبكي في حضرته.

بدأ أخيل كأنه سيقول شيئاً، ولكن المعلم دخل في تلك اللحظة،

رجل في منتصف العمر، لديه يدي موسيقي صلبة و يحمل قيثارته، منحوتة من خشب الجوز الداكن.

"من هذا؟" سأل بصوت قاس وعال، موسيقي، لكنه ليس مغني.

"هذا باتروكلوس"، أجاب أخيل، وأضاف: "انه لا يعرف العزف، ولكنه سيتعلم".

"ليس على هذه الآلة"، قال المعلم وانقضت يده لتقتلع القيثارة من يدي. غريزياً، اشتدت أصابعي عليها، لم تكن جميلة مثل قيثارة أمي، لكنها ما تزال آلة أميرية، لم أشأ أن أتخلى عنها.

لم أكن مضطراً إلى ذلك، فقد قبض أخيل على رسغه في منتصف تناوله لها، وقال: "نعم، على هذه الآلة لو أحب".

كان الرجل غاضباً، لكنه لم يقل شيء. حرر أخيل يده وجلس بتصنع.

"ابدأ"، قال المعلم.

أومأ أخيل وانحنى على القيثارة، لم يكن لدي الوقت للتساؤل حول مداخلته، لمست أصابعه الأوتار، فشردت كل أفكاري. كان الصوت نقي وحلو كالماء، مشرق كالليمون، لم تكن كأي موسيقى استمعت لها من قبل، لها دفء النار، وبنية ووزن العاج المصقول، تعوم وتلطف في آن واحد. انزلقت بعض الشعيرات إلى الأمام لتتدلى أمام عينيه وهو يعزف، كانت شعيرات جميلة، بجمال أوتار القيثارة نفسها، ومشرقة. توقف، ودفع بشعره إلى الوراء، ثم التفت نحوي وقال: "الآن دورك".

هززت رأسي، الممتلئ حد السقوط. أنا لا أستطيع أن أعزف الآن، ولا أبداً، لو كان بإمكاني أن أستمع إليه بدلاً من ذلك. "اعزف أنت" قلت له.

عاد أخيل إلى أوتاره، وارتفعت الموسيقى مرة أخرى. هذه المـــرة غنى أيضاً، يحيك مرافقة واضحة، غنية، مضاعفة ثلاث مرات. ســـقط رأسه إلى الوراء قليلاً، وأطلق حنجرته، نضرة، ودية، وناعمة الملمـــس. احتلت ابتسامة صغيرة الزاوية اليسرى من فمه. بلا قصــــد، وجـــدت نفسي أميل إلى الأمام.

عندما توقف أخيراً، شعرت أن صدري يجوف بغرابة. رأيته يرتفع ليعيد القيثارة لمكانها، ويغلق الصندوق، ويودع المعلم، الـــذي التفـــت وغادر. استغرقني الأمر لحظة طويلة قبل أن أعود إلى نفسي، لألحظ أنه كان بانتظاري.

وأضاف: "سنذهب لرؤية والدي الآن".

لم أثق تماماً بقدرتي على الكلام، فأومأت وتبعته في الخروج مـــن الغرفة وفي الممرات الملتوية وصولاً للملك.

الفصل الخامس

أوقفني أخيل داخل الأبواب البرونـــزية المرصعة لقاعة اســتقبال بيليوس وقال لي: "انتظر هنا". كان بيليوس يجلس على كرسي عــالي الظهر في الطرف الآخر من الغرفة. هناك رجل طاعن بالسن، رجــل كنت قد رأيته من قبل مع بيليوس، وقف بالقرب منه كما لو أنهما كانا يتشاوران. تصاعدت الأدخنة الكثيفة من النار، وبدت الغرفة ســاخنة ومغلقة.

عُلقت المفروشات عميقة الصبغة علــى الجــدران، إلى جانــب الأسلحة القديمة التي بقيت لامعة بفضل الخدم. مشى أخيل متجــاوزاً إياها وركع عند قدمي والده قائلاً: "أبــي، لقــد جئــت لألــتمس عفوك".

"أوه؟"، همس بيليوس ورفع حاجبه، وأكمل: "تحدث إذن". مــن حيث أقف، بدا وجه أبيه بارد ومستاء. امتلأت بالخوف فجأة، لقــد قاطعناهم؛ وأخيل حتى لم يطرق الباب.

"لقد أخذت باتروكلوس من تدريباته". بدا وقع اسمي غريباً على شفتيه، لم أميزه تقريباً. التقت حواجب الملك القديم معاً بتساؤل وقال: "من؟".

فرد أخيل: "مينوتيوس" ثم أوضح. ابن مينوتيوس.

"آه" تمتم بيليوس ونظراته تتابع السجادة عودة إلى حيث

أقف، محاولاً أن لا أتململ، وأضاف: "نعم، الصبــي الذي يريد المدرب أن يجلده".

"نعم، ولكنه ليس ذنبه. فقد نسيت أن أذكر أنني طلبت رفقته".
كانت وصيف هي الكلمة التي استخدمها. أخوة في السلاح يحلفون إلى الأمير بالدم على محضه الأيمان والمحبة. في الحرب، كان هؤلاء الرجال هم حرس الشرف خاصته؛ وفي السلام، هم أقرب مستشاريه. كانت منزلة تقدير عالية، سبب آخر لتجمهر الأولاد حول ابن بيليوس، يتباهون أمامه، على أمل أن يتم اختيارهم.

ضاقت عيني بيليوس وقال: "باتروكلوس، تعال إلى هنا".

كانت السجادة سميكة تحت قدمي، سجدت وراء أخيل قليلاً، يمكنني أن أشعر بوقع نظرات الملك علي.

سأل بيليوس: "لعدة سنوات الآن، يا أخيل، وأنا أدفع إليك بالرفاق فتنحيهم بعيداً. لماذا هذا الصبي؟".

قد يكون السؤال لي، وليس لدي شيئاً أستطيع تقديمه لمثل هذا الأمير. لماذا، إذن، هل جعل مني قضية إحسان؟

انتظرت أنا وبيليوس، معاً، جوابه.

أجاب أخيل: "إنه مثير للدهشة".

نظرت مقطباً إلى أعلى، إذا كان يعتقد ذلك، فقد كان الوحيد.

"مثيراً للدهشة"، ردد بيليوس.

"نعم". أجاب أخيل ولم يوضح أكثر، على الرغم من أنني أملت أن يفعل.

فرك بيليوس أنفه مفكراً وقال: "الولد منفي ومكلل بالعار، لن يضيف أي بريق لسمعتك".

فرد أخيل: "لست بحاجة إليه"، ليس بفخر أو بتبجح. بل بصراحة.

اعترف بيليوس بهذا، وأضاف: "ومع ذلك سيشعر الأولاد الآخرين بالحسد لاختيارك واحد كهذا، فماذا ستقول لهم؟".

"لن أقول لهم شيئاً". جاء جواب أخيل دون تردد، واضح ونقي، وأضاف: "لا يعنيهم ماذا سأفعل".

لقد وجدت نبضي يقرع بعنف في عروقي، خوفاً من غضب بيليوس، الذي لم يأتِ. التقت نظرات الأب والابن، وأزهرت لمسة تسلية باهتة على زاوية فم بيليوس، ثم قال: "قفا، كليكما".

فعلت ذلك بذهن مشوش.

وأكمل: "أنا أعلن قرارك. أخيل، سوف تعطي اعتذارك لامفيدامس، وكذلك سيفعل باتروكلوس أيضاً".

وافق أخيل قائلاً: "نعم، يا أبي".

"هذا كل شيء"، قال بيليوس وتحول عنا، عائداً إلى مستشاره، إيذاناً لنا بالانصراف.

خارجاً، كان أخيل نشط مرة أخرى، قال: "سوف أراك على العشاء"، والتف ليذهب.

قبل ساعة كنت سأقول أنني سأكون سعيداً بالتخلص منه؛ والآن، بغرابة، شعرت بقرصة في قلبي.

سألت: "إلى أين أنت ذاهب؟".

فتوقف وأجاب: "للتدريبات".

أضفت: "لوحدك؟".

فأجاب: "نعم، لا أحد يراني أقاتل". جاءت الكلمات كما لو كان معتاد على قولها.

سألت مجدداً: "لماذا؟".

فتفرس في وجهي لحظة طويلة، كما لو كان يزن شيء، ثم قـــال: "حرمت أمي ذلك بسبب النبوءة".

"أي نبوءة؟"، لم أسمع بهذا من قبل.

قال: "أن أكون أفضل محاربـــي جيلي".

كان يبدو وكأنه شيء يمكن أن يدعيه طفل صغير، ليصدقه، لكنه قالها بالبساطة ذاتها التي مُنح فيها اسمه.

السؤال الذي أردت أن أسأله كان، وهل أنت الأفضل؟ بدلاً من ذلك تمتمت: "متى أعطيت النبوءة؟".

قال: "عندما ولدت. وفقط قبل ذلك، جاءت اليثيايا وأخـــبرت أمي". اليثيايا، هي آلهة الولادة، ويشاع أنها رأست بنفسها أكثر مـــن ولادات نصف الآلهة. أولئك الذين كانوا يولدون كالمسيح أهم من أن يتركوا للصدفة. كنت قد نسيت أن أمه إلهة.

"وهل ذلك معروف؟" سألت بتردد، وأنا لا أرغب في الإلحـــاح عليه أكثر.

"البعض يعرف بها، والبعض الآخر لا. ولكن هذا هـــو ســـبب ذهابـــي لوحدي".

لكنه لم يذهب، كان يراقبني. وبدا أنه ينتظر.

ثم قلت أخيراً: "إذن، سوف أراك على العشاء". أومأ، وغادر.

عندما وصلت كان سبق وجلس، كوتد دق إلى طاولتي وســـط الجلبة المعتادة للصبية. لقد كان لدي نصف توقـــع ألا يفعـــل؛ لأنـــني حلمت في الصباح، بأنني جلست، التقيت عينيه، بسرعة، وبإحســـاس بالذنب تقريباً، حول نظره بعيداً.

توهج وجهي، بالتأكيد. شعرت بيدي ثقيلة وخرقاء وهي تمتد إلى الطعام. كنت مدركاً لكل لقمة ازدردها، كل تعبير على وجهي. كانت

الوجبة جيدة جداً في تلك الليلة، سمك مشوي متبل بالليمون والأعشاب، الجبن الطازج والخبز، فأكل جيداً. لم يبال الأولاد بحضوري، لقد توقفوا منذ فترة طويلة عن رؤيتي.

"باتروكلوس". أخيل لم يقدح في اسمي، لأن الناس غالباً فعلت ذلك، يعملون على ذلك معاً كما لو أنهم في عجلة من أمرهم للتخلص منه. بدلاً من ذلك، نطق كل مقطع: با - ترو - كلوس. من حولنا، كان العشاء ينتهي، والخادم ينظف الصحون. نظرت إلى أعلى، وخرس الأولاد، يراقبون باهتمام، كان عادة لا يخاطبنا بأسمائنا.

"ستنام الليلة في غرفتي" قال، فصدمت للغاية لدرجة أن فمي كانت ستظل مفتوحة، لكن الأولاد كانوا هناك، وقد رقيت بفخر الأمير.

"حسناً"، قلت.

"سيجلب الخادم أشياءك"، أضاف.

كان بإمكاني أن أسمع أفكار الفتيان المحدقين كما لو أنهم قالوها. لماذا هو؟ لقد كان حديث بيليوس صحيحاً: إنه كثيراً ما شجع أخيل لاختيار رفقته، ولكن في كل تلك السنوات، لم يظهر أخيل أي اهتمام خاص لأي من الأولاد، على الرغم من أنه كان مهذباً مع الجميع، بما يلائم تربيته. والآن أسبغ هذا الشرف الذي طال انتظاره على أكثر واحد مستبعد منا، ضئيل وناكر للجميل، وربما ملعون.

التفت ليذهب فتبعته، محاولاً أن لا أتعثر، أشعر بوخز الأعين على الطاولات في ظهري. قادني متجاوزاً غرفتي القديمة وغرفة الدولة بعرشها عالي الظهر. منحنى آخر، وأصبحنا في جزء من القصر لم أكن أعرفه، جناح يميل إلى أسفل نحو الماء، دهنت جدرانه بأنماط زاهية تفصدت إلى الرمادي بينما الشعلة تعبر بهم.

كانت غرفته قريبة جداً من البحر حتى أن مذاق الهواء كان مالح، لم يكن هنا صور على الجدران، فقط حجر بسـيط و بسـاط نـاعم وحيد، الأثاث بسيط ولكن مصنوع بشكل جيد، منحوت من الخشب الداكن المعرق، ميزته كأجنبـي، ثم رأيت من جانب واحـد سـرير سميك. أشار إليه، وأضاف: "هذا لك".

"أوه"، همست، لم يبدو أن قول شكراً لك هو الصحيح.

"هل أنت متعب؟" سأل.

"لا" أجبت.

أومأ، كما لو أنه قد قال شيئاً حكيم وأضاف: "ولا أنا".

أومأت بدوري، كان كل واحد منا، مهذباً بحذر، نهز رؤوسـنا كالطيور. وعمّ الصمت.

"هل تريد مساعدتي بألعاب الخفة؟" سأل.

"أنا لا أعرف كيف" أجبته.

"لست بحاجة إلى المعرفة، سأريك".

ندمت أنني قلت لست متعباً، لا أريد أن أجعل من نفسي أبلـه أمامه، لكن وجهه كان يأمل، وشعرت بأنني سأكون كالبخيل فيما لو رفضت.

"حسناً".

"كم يمكنك أن تحمل؟".

"أنا لا أعرف".

"أرني يدك".

ففعلت، وبسطت كفي، فأراح كفه عليها، حاولت أن لا أجفل، كانت بشرته لينة ودبقة قليلاً من العشاء. باطن الأصابع الممتلئة الـتي مست أصابعي كانت دافئة جداً.

"تقريباً نفسها. إذن، سيكون من الأفضل أن تبدأ مع اثنين. خـذ هذه" قال، ثم مد يده لستة كرات مغطاة بالجلد، من النوع الـذي يستخدمه الممثلين، بإذعان، أخذت اثنتين.

"عندما أقول لك، ارمي لي واحدة".

عادة ما يغيظني أن يتحكم بـي أحد بهذه الطريقة، ولكن بطريقة ما لم تبد الكلمات في فمه كأوامر. بدأ بالتلاعب بـالكرات المتبقيـة. "الآن"، قال. فجعلت الكرة تطير من يدي نحـوه، ورأيتـه يسـحبها بسلاسة إلى الدائرة الضبابية.

"مرة أخرى"، قال. فرميت له كـرة أخـرى، فانضـمت إلى الآخرين.

"تفعل ذلك بشكل جيد"، قال.

نظرت إلى أعلى، بسرعة، هل كان يسخر مني؟ ولكـن وجهـه كان صادقاً.

"امسك". عادت الكرة إلي، تماما مثل الـتين علـى العشـاء. مشاركتي لم تتطلب أي مهارة كبيرة، لكنني اسـتمتعت بهـا علـى أي حال. وجدنا أنفسنا نبتسم برضى لسلاسة كل مسـكة وكـل رمية.

بعد مرور بعض الوقت، توقف، وتثاءب، ثم قال "الوقت متأخر". فوجئت لرؤية القمر عالياً خارج النافذة؛ لم أكن قد لاحظت الـدقائق تمر.

جلست على السرير وراقبته يشغل نفسه بمهام السـرير، يغسـل وجهه بالماء من إبزيق واسع الفوهة، حل قطعة الجلد التي تقيد شـعره. جلب الصمت ارتباكي ثانية. لماذا جئت إلى هنا؟

أخمد أخيل الشعلة وقال: "ليلة سعيدة".

فرددت: "ليلة سعيدة". بدت الكلمة غريبة في فمي، كأنها لغة أخرى.

مر الوقت. في ضوء القمر، بإمكاني فقط أن أخلق شكل وجهه، نحت بكمال، في جميع أنحاء الغرفة. افترقت شفتيه قليلاً، ألقيت ذراع بلا مبالاة فوق رأسه. بدا مختلفاً وهو نائم، جميل ولكن بارد مثل ضوء القمر، وجدت نفسي أتمنى أن يستيقظ لأتمكن من مشاهدة عودة الحياة فيه.

في صباح اليوم التالي، وبعد وجبة الإفطار، ذهبت إلى غرفة الأولاد، متوقعاً أن أجد أشيائي قد أعيدت. لم تُعَد، ورأيت سريري وقد جرّد من بياضاته. رجعت لأتحقق مرة أخرى بعد الغداء، وبعد تدريبات الرمح وبعد ذلك مرة أخرى قبل النوم، ولكن مكاني القديم بقي فارغ وغير مجهز. إذن، لا يزال. بحذر، شققت طريقي إلى غرفته، نصف متوقعاً أن يوقفني خادماً. لا شيء حدث.

في الطريق إلى غرفته، ترددت. كان في الداخل، يسترخي بتكاسل كما رأيته في أول يوم، بساق واحدة متدلية.

"مرحبا"، قال. لو أنه أظهر أي تردد أو تفاجئ، لغادرت، وعدت للنوم على القصب العارية بدلاً من البقاء هنا. لكنه لم يفعل. لم يكن له سوى لهجة متبسطة وانتباه حاد في عينيه.

"مرحبا"، أجبت، وذهب لأخذ مكاني تحت الغطاء عبر الغرفة.

ببطء، زاد تعودي على ذلك، لم يعد يدهشني عندما يتحدث، لم أعد أنتظر التوبيخ. توقفت عن التوقع بإرسالي بعيداً.

بعد العشاء، أخذتني قدمي إلى غرفته على غير العادة، وفكرت في السرير حيث انطرح عليه كأنه لي.

في الليل ما زلت أحلم بالصبي القتيل، ولكن عندما استيقظ، تفوح مني رائحة العرق ومنكوب بالرعب، فإن القمر يكون مشرقاً على الماء في الخارج وكنت أسمع لعق الموجات للشاطئ. في الضوء الخافت أراه يتنفس بسهولة، و أطرافه تتشابك بنعاس. على الرغم مني، تباطأ نبضي، لقد كانت له حيوية، حتى أثناء راحته، مما جعل الموت و الأرواح تبدو حماقة. بعد مرور بعض الوقت، وجدت أنني أستطيع النوم مرة أخرى. مرت فترة بعد ذلك، تراجعت فيها الأحلام ونُبذت بعيداً.

تعلمت أنه لم يكن مبجل كما يبدو. تحت اتزانه وثباته وجهاً آخر، يمتلئ بالشقاوة ومتعدد الأوجه كالجوهرة، آسر.

كان يحب لعب الألعاب التي تتعارض مع مهاراته، الإمساك بالأشياء بعينين مغلقة، ووضع نفسه في قفزات مستحيلة فوق الأسرة والكراسي. عندما يبتسم، يتجعد الجلد في زوايا عينيه مثل ورقة وضعت على اللهب.

لقد كان هو بنفسه يشبه اللهب، يلمع، بعينين مرسومة، كان له بريق، حتى عندما يستيقظ، بشعره الأشعث ووجهه لا يزال مشوش بالنوم. عن قرب، بدت قدميه سماوية تقريباً: الشكل الكامل لباطن أصابع قدم، والأوتار التي تومض مثل سلاسل القيثارة، الأعقاب حيث صلابتها الوردية البيضاء تمكنه من الذهاب لأي مكان حافي القدمين، و قد جعله والده يفركهم بزيت تفوح منه رائحة خشب الصندل والرمان.

بدأ يحكي لي قصص يومه قبل أن يجرفنا النوم. في البداية كنت مستمعاً فقط، ولكن بعد وقت انحلت عقدة لساني.

بدأت بسرد قصصي، بداية عن القصر، وبعد ذلك، قطع صغيرة عن ما قبل القصر: رمي الحجارة، الحصان الخشبي الذي كنت ألعب به، القيثارة من مهر والدتي.

"يسرني أن والدك أرسلها معك"، قال.

سرعان ما اندلقت أحاديثاً خارج قضبان الليل، أدهشت نفسي بأنه هناك الكثير ليقال، عن كل شيء، الشاطئ والعشاء وهذا الصبي أو الآخر.

توقفت عن مراقبة السخرية، وذيل العقرب المخفي في كلماته. كان يقول ما كان يعنيه، وكان يحيره إذا لم تفعل.

بعض الناس قد يكون مخطئ بهذه البساطة. ولكن أليس ضرباً من العبقرية أن نختصر دائماً الطريق إلى القلب؟

بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كنت أعتزم تركه لتدريباته الخاصة، قال: "لماذا لا تأتي معي؟"، بصوت متوتر قليلاً، لو لم أكن قد فكرت بأنه مستحيل، ربما سأقول أنه كان متوتراً. الهواء، الذي نما بارتياح بيننا، شعرت فجأة أنه مشدود.

"حسناً"، قلت.

في الساعات الهادئة في أواخر الظهيرة؛ يهجع القصر خارج الحرارة ويتركنا بمفردنا. سلكنا الطريق الطويل، من خلال مسار ملتوي في بستان الزيتون، إلى المنزل حيث تحفظ الأسلحة.

وقفت في المدخل فيما هو يختار سلاح تدريبه، رمح وسيف، مثلمة الحواف قليلاً. وصلت لسلاحي، ثم ترددت.

"هل يجب أن؟" هز رأسه بلا.

"أنا لا أحارب مع الآخرين" قال لي.

تبعته خارجاً لدائرة الرمل المعبأة. "أبداً؟".

"لا" قال.

"إذن كيف يمكنك أن تعرف أنك.." تلاشى صوتي بينما كان يتخذ موضعه في الوسط، رمحه بيده، وسيفه في وسطه.

أكمل بالنيابة: "أن النبوءة صحيحة؟ أعتقد أنني لن أفعل".

يتدفق الدم الإلهي بشكل مختلف في كل مولود للآلهـة. صـوت أورفيوس جعل الأشجار تبكي، هيراكليس قد يقتل رجلاً فيما لو ربت على ظهره، معجزة أخيل كانت سرعته. رمحه، حينمـا بـدأ مـروره الأول، تحرك بشكل أسرع مما يمكن لعيني متابعته. انعطف فجأة، انطلق بسرعة البرق إلى الأمام، انقلب، ثم انطلق بسرعة البرق للـوراء. بـدا الرمح في التدفق بين يديه، النقطة الرمادية الداكنة لمعت كلسان ثعبان، ضربت قدميه الأرض كراقص، لا يهدأ أبداً.

لم أستطع أن أتحرك، أراقبه، دون أن أتنفس تقريباً. وجهه هادئ وفارغ، وليس مشدوداً مع الجهد. كانت تحركاته دقيقة جداً لدرجـة مكنتني تقريباً من رؤية الرجال الذين يقاتلهم، عشرة، عشرين منـهم، يتقدمون من جميع الجهات.

قفز، قبض رمحه بعنف، ويده الأخرى تنـزع السيف من غمده. انقلب بهما على حد سواء إلى الخارج، يتحرك كالسائل، مثل سمكـة خلال الموجات.

توقف، فجأة. أستطيع سماع أنفاسه، فقط بصوت أعلى قليلاً من المعتاد، في الهواء الساكن للظهيرة.

"من قام بتدريبك؟" سـألت. لم أعـرف مـاذا أقـول غـير ذلك.

"دربني أبـي قليلاً".

قليلاً. شعرت بالخوف تقريباً.

"لا أحد آخر؟".

"لا".

تقدمت إلى الأمام، وقلت: "قاتلني".

أصدر صوت فيما يشبه الضحكة تقريباً وقال: "لا، بالطبع لا".

"قاتلني"، كررت بانتشاء، إذا كان والده قد دربه قليلاً، إذن الباقي من؟ إلهي؟ كان هذا أقرب للآلهة أكثر من أي شيء آخر رأيته في أي وقت مضى من حياتي. لقد جعله يبدو جميلاً، هذا التعرق، يجعل فننا مبتذلاً. فهمت لماذا منعه والده من القتال أمام الآخرين. كيف يمكن لأي رجل عادي أن يفخر بمهارته عندما يكون هذا في العالم؟

"أنا لا أريد ذلك".

"أنا أتحداك".

"ليس لديك أي أسلحة".

"سأحضرهم".

جثا وطرح أسلحته على التراب، ثم التقت عينيه بعيني وقال: "أنا لن أفعل، ولا تسألني ذلك مرة أخرى".

"سأطلب ذلك منك مرة أخرى، ولا يمكنك منعي". قلت وأنا أتقدم إلى الأمام بجرأة. احترق شيء بحرارة في داخلي الآن، نفاد صبر، يقين. سأحصل على هذا الشيء، وهو سيعطيه لي.

التوى وجهه، واعتقد تقريباً أنني أرى فيه غضباً، سرني ذلك. أود استدراجه، إذا لم يكن هناك أي شيء آخر.

حينها سيقاتلني، استشعرت الخطر في ذلك. ولكن بدلاً من ذلك مشى بعيداً، وترك أسلحته في التراب.

"عد إلى هنا" قلت، ثم بصوت أعلى: "عد إلى هنا، هل أنت خائف؟".

نصف الضحكة الغريبة عادت مرة أخرى، فيما لا يزال ظهره لي.

"لا، لست بخائف".

"يجب أن تكون كذلك"، قصدت بذلك ممازحته، للتخفيف، ولكنها لم تبدو بتلك الطريقة في ذلك الهواء الساكن المعلق بيننا. ظهره يحدق في وجهي، لا يتحرك، لا يتحرك.

سأجعله ينظر في وجهي، فكرت. ابتلعت ساقي الخطوات الخمس بيننا، واصطدمت بظهره. تعثر إلى الأمام، ساقطاً، وأنا متشبثاً به. هبطنا وسمعت نفخة غضب سريعة من أنفاسه كما لو كانت تسحب منه. وقبل أن أتمكن من الكلام، التوى حولي، وقبض على معصمي في يديه. صارعته، غير متأكداً من ما يفترض بي فعله. ولكن هنا كانت المقاومة، وهو شيئاً يمكنني مقاتلته. "اتركني!" صرخت وأنا أنتزع معصمي من قبضته.

"لا" قال، وفي حركة سريعة، دفعني تحته، وسمرني واضعاً ركبتيه في بطني. لهثت بغضب، ولكن وأنا راض بغرابة.

"لم أرَ أبداً أحد يقاتل بالطريقة التي تقاتل بها" قلت له.

اعتراف أو اتهام، أو كليهما.

"أنت لم ترَ الكثير".

شمخت بأنفي، بصرف النظر عن الرفق في لهجته. "أنت تعرف ما أنا أعني".

كانت عيناه غير قابلة للقراءة. وفوق كلينا، كانت أشجار الزيتون الغير الناضج تهتز بلطف.

"ربما. ماذا تقصد؟".

التويت بعنف، فتركني. جلسنا، بسترات مغبرة، ملتصقة بظهورنا.

"أعني -" قطعت جملتي. كان هناك حافة بالنسبة لي الآن، حدتي المألوفة في الغضب والحسد، ضربت بالحياة مثل الصوان. لكن الكلمات المريرة ماتت حتى وأنا أفكر بهم.

"لا يوجد أحد مثلك"، قلت، أخيراً.

تفحصني للحظة، في صمت ثم قال: "إذن؟".

شيء ما في الطريقة التي تحدث بها استنـــزف آخر غضبـــي مني. لقد اعترضت ذات مرة. ولكن من أنا الآن، لأحسد شيء كهذا؟

كما لو أنه سمعني، ابتسم، وكان وجهه كالشمس.

الفصل السادس

جاءت صداقتنا كلها مرة واحدة بعد ذلك، مثل فيضانات الربيع من الجبال. قبل ذلك، الفتيان وأنا تصورنا أن أيامه مليئة بالتعليمات الأميرية، السياسة والرمح. ولكنني استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن أطلع على الحقيقة: فيما عدا دروس القيثارة والتدريبات، لم يكن لديه أي تعليمات. ربما نذهب للسباحة في يوم، ونتسلق الأشجار في آخر.

اخترعنا لأنفسنا ألعاب، من السباق والحركات البهلوانية.

ربما نستلقي على الرمال الدافئة ونقول: "خمن فيما أفكر".

الصقر الذي رأيناه من نافذتنا.

الصبي ذو الأسنان الأمامية الملتوية.

العشاء.

وبينما نسبح، أو نلعب، أو نتحدث، يأتي الشعور. كان تقريباً كالخوف، بالطريقة التي ملأتني، وارتفعت في صدري. كان تقريباً كالدموع، في سرعة قدومها. ولكنه لم يكن كأي منهما، خفيف بينما هم ثقلاء، مشرق بينما هم

غائمون. لقد عرفت القناعة من قبل، لأوقات مختطفة وجيزة، ألاحق فيها متعتي الانفرادية في: رمي الحجارة أو لعبة النرد أو الحلم. لكن في الحقيقة، إنه كان أقل حضوراً من الغياب، ووضع الرهبة جانباً: لم يكن والدي قريباً، ولا الأولاد. لم أكن جائعاً، أو متعباً، أو مريضاً.

هذا الشعور كان مختلف، أجد نفسي مبتسماً حتى تألمني وجنتي، وتخزني فروة رأسي حتى ظننت أنها قد تغادر رأسي. ركض لساني بعيداً

عني، منتش بالحرية. هذا وهذا وهذا، قلت له. ليس علي أن أخاف فيما لو تحدثت أكثر من اللازم. ليس علي أن أقلق فيما لو كنت ضئيل جداً أو بطيء. هذا وهذا وهذا! لقد علمته كيف يرمي الحجارة، وعلمني كيف أنحت الخشب. أستطيع أن أشعر بكل عصب في جسدي، كل ضربة هواء على جلدي.

عزف على قيثارة والدتي، وكنت أراقبه. عندما يأتي دوري في العزف، تتشابك أصابعي بالأوتار فيئس المعلم مني، و لم أهتم. "اعزف ثانية"، قلت له. فعزف حتى بالكاد استطعت رؤية أصابعه في الظلام.

لقد رأيت كيف تغيرت، لم أعد أمانع بعد الآن بخسارتي عندما تسابقنا، ولا خسارتي عندما سبحنا إلى الصخور ولا خسارتي عندما نقذف الرماح أو نرمي الحجارة. من كان يخجل من الخسارة أمام مثل هذا الجمال؟ رؤيته يفوز كانت تكفي، رؤية باطن قدميه تومض عندما تركل الرمال، أو صعود وسقوط كتفيه عندما ينسحب خلال الملح، كانت تكفي.

كنا في أواخر الصيف، أكثر من سنة بعد أن بدأ منفاي، عندما أخبرته أخيراً كيف قتلت الصبي. كنا في فروع فناء البلوط، مختبئين بخليط الأوراق. بطريقة ما، كان هنا أسهل، بعيداً عن الأرض، مسنداً ظهري إلى الجذع الصلب.

كان يستمع بصمت، وعندما انتهيت، سأل: "لماذا لم تقل أنك كنت تدافع عن نفسك؟".

مثله يطرح مثل هذا السؤال، الشيء الذي لم أفكر به من قبل.

"لا أعرف".

"أو كان بإمكانك أن تكذب، وتقول أنه كان ميتاً بالفعل عندما وجدته".

حدقت في وجهه، مذهولاً من بساطة ذلك. كـان بإمكـاني أن أكذب. وبعد ذلك تتابع الوحي: إذا كنت قد كذبت، لكنت لا أزال أميراً. و لم تكن هناك جريمة لأنفى، كان هناك قصور في المكر لـدي. فهمت الآن، الاشمئزاز في عيني أبـي.

ابنه المعتوه، اعترف بكل شيء. استرجعت كيف تصـلب فكـه حينما تحدثت. إنه لا يستحق أن يكون ملكاً.

"أنت لم تكن لتكذب" قلت.

"لا"، اعترف.

"ماذا كنت ستفعل؟" سألت.

نقر أخيل بإصبعه على الفرع الذي يجلس عليه وقال: "لا أعرف. لا أستطيع أن أتخيل ذلك، الطريقة التي كلمك بها الصبـي"، ثم هـز كتفيه وأكمل: "لم يحاول أحداً أبداً أن يأخذ شيئاً مني".

"أبداً؟" لم أستطع أن أصدق ذلك. إن الحياة تبدو مستحيلة بدون مثل هذه الأمور.

"أبداً". صمت للحظة، وهو يفكر وقال: "أنا لا أعرف"، كـرر، في نهاية المطاف قال: "أعتقد أنني سأكون غاضباً". أغلق عينيـه وأراح رأسه إلى الوراء على الفرع. أوراق البلوط الخضراء احتشدت حـول شعره، وكأنها تاج.

غالباً ما أرى الملك بيليوس الآن؛ ندعى إلى المجـالس في بعـض الأحيان، والعشاء مع الملوك الزائرين. سُمح لي بالجلوس بجوار أخيـل على الطاولة، حتى الكلام لو أردت. لكـنني لم أرد؛ كنـت سـعيداً بالصمت ومشاهدة الرجال من حولي. سـكابز، اعتـاد بيليـوس أن يدعوني. بومة، بسبب عيني الكبيرة. كان جيداً في هذا النـوع مـن التعامل الودي، العام والغير الملزم.

بعد ذهاب الرجال، كنا نجلس معه حول النار لنستمع إلى قصص شبابه. الرجل العجوز، أصبح الآن رمادي وتلاشى، أخبرنا أنه قاتل ذات مرة إلى جانب هيراكليس. عندما أخبرته بأنني رأيت فيلوكتيتيس، ابتسم.

"نعم، حامل قوس هيراكليس العظيم. آنذاك كان حامل الرمح، وعلى الأرجح كان أشجعنا". هذا كان مثله أيضاً، هذه الأنواع من المديح. فهمت الآن، كيف أصبحت خزانته مليئة بالهدايا من المعاهدة والتحالف. وسط مفاخرتنا، و صراخ الأبطال، كان بيليوس الاستثناء: رجل متواضع. بقينا للاستماع بينما أضاف حطبة واحدة، ثم أخرى، إلى النيران، كنا في منتصف الطريق إلى الفجر قبل أن يرسلنا عائدين لأسرتنا.

المكان الوحيد الذي لم أتبعه إليه كان حينما يذهب لرؤية والدته. يذهب في وقت متأخر من الليل، أو عند الفجر قبل أن يستيقظ القصر، ويعود متورداً تفوح منه رائحة البحر. عندما سألته عن ذلك، أخبرني بحرية، بصوت غريب بلا نغمة.

"دائماً نفس الشيء. إنها تريد أن تعرف ما أقوم به وما إذا كنت بخير. تحدثني عن سمعتي بين الرجال. وفي النهاية تتساءل إذا كنت سوف آتي معها".

سألت سارح الفكر: "أين؟".

"إلى الكهوف تحت البحر". حيث تعيش حوريات البحر، عميق لدرجة أن الشمس لم تنفذ إليه.

"هل ستذهب؟".

هز رأسه وقال: "والدي يقول أنني يجب ألا افعل، يقول أن لا بشري رآهم يعود كما كان".

عندما التفت بعيداً، رسمت علامة القروين ضد الشر. تجنب الآلهة. أرعبني قليلاً سماعه يتحدث عن شيء كهذا بهدوء شديد. الآلهة والبشر لا يمتزجان بسعادة أبداً في قصصنا.

لكنها كانت والدته، طمأنت نفسي، وهو نفسه نصف إله.

في وقت زياراته لها كان هناك أمر آخر غريب يتعلق به اعتدت عليه، مثل أعجوبة قدميه أو الرشاقة اللاإنسانية لأصابعه. عندما سمعته يتسلق مرة أخرى خلال النافذة عند الفجر، سأغمغم من سريري: "هل هي بخير؟" وهو سيجيب: "نعم، إنها على ما يرام". وقد يضيف: "الأسماك سميكة اليوم" أو "الخليج دافئ كالحمام". وبعد ذلك نعود للنوم مرة أخرى.

في صباح أحد الأيام من ربيعي الثاني، عاد من زيارة والدته في وقت متأخر أكثر من المعتاد، وكانت الشمس على وشك الخروج من الماء وأجراس الماعز ترن في التلال.

"هل هي بخير؟".

"إنها على ما يرام، وتريد أن تلتقي بك".

شعرت بموجة من الخوف، ولكنني كبتها وقلت: "هل تعتقد أنني يجب أن أفعل؟"، لم أستطع أن أتخيل ماذا تريد مني، كنت أعرف سمعتها بكره البشر.

لم يلتقِ عيني؛ وقلبت أصابعه حجراً كان قد وجده مراراً وتكراراً. قال: "ليس هناك ضرر في ذلك، لقد قالت ليلة الغد" لقد فهمت الآن أنه أمر. الآلهة لا تطلب، أعرفه بما فيه الكفاية لأرى أنه كان يشعر بالحرج. لم يكن أبداً قاسي جداً معي.

سألت: "غداً؟".

فأومأ.

لم أكن أريده أن يرى خوفي، على الرغم من أننا عادة لا نخبئ شيئاً عن بعضنا البعض. "هل يجب - هل يجب أن أحمل هدية؟ النبيذ معسل؟ نسكبه على مذابح الآلهة في أيام المهرجان، كواحدة من أغنى هباتنا".

هز رأسه وقال: "إنها لا تحب ذلك".

في الليلة التالية، عندما نام أهل القصر، تسلقت خارجاً من نافذتنا. كان القمر نصف مكتمل، مشرق بما يكفي لأتمكن من اختيار طريقي فوق الصخور دون شعلة. لقد قال لي بأن أقف على الأمواج المتكسرة وأنها سوف تأتي. لا، لقد طمأنني، بأنني لا احتاج إلى الحديث، وأنها سوف تعرف.

كانت الموجات دافئة، وسميكة بالرمل. تحركت، أراقب السرطانات البيضاء الصغيرة تركض خلال الأمواج. كنت أصغي، أفكر أنني ربما أسمع رش قدميها حينما تقترب. هب نسيم أسفل الشاطئ فأغمضت عيني له بامتنان. عندما فتحتهما ثانية، كانت تقف أمامي.

كانت أطول مني، أطول من أي امرأة رأيتها في أي وقت مضى. شعرها أسود طليق حتى أسفل ظهرها، وبشرتها

مشرقة مضيئة وشاحبة بطريقة مستحيلة، كما لو أنها أُشربت ضوء القمر. كانت قريبة جداً بحيث يمكنني شمها، مياه بحر يغلب عليها اسم العسل البني الداكن. لم أتنفس، لم أجرؤ على ذلك.

"أنت باتروكلوس". جفلت من صوتها، أجش وخشن. كنت أتوقع موسيقى أجراس، وليس طحن الصخور في الأمواج.

"نعم، سيدتي".

ركض النفور على وجهها. عيناها ليست كعيني البشر؛ كانت سوداء المركز ومرقطة بالذهبي. لم أستطع أن أحمل نفسي على الالتقاء بها.

"سوف يكون إلهاً"، قالت. لم أكن أعرف ماذا أقول، لـــذلك لم أقل شيء. انحنت إلى الأمام، وأنا نصف معتقد أنها قد تلمسني، ولكنها بالطبع لم تفعل.

"هل فهمت؟" يمكنني أن أشعر بأنفاسها على خدي، ليست دافئة على الإطلاق، ولكن باردة مثل أعماق البحر. هل تفهم؟ كـــان قـــد أخبرني أنها تكره الانتظار.

"نعم".

انحنت أقرب إلي، تلوح في الأفق فوقي. فمها كجرح بليغ أحمر، مثل معدة تضحية ممزقه ومفتوحة، دموي وحيّ.

وراءه تشرق أسنانها حادة وبيضاء كالعظام.

"جيد". قالت بلا مبالاة، كما لو أنها تحدث نفسها، وأضـــافت، "سوف تكون ميت قريبا بما يكفي".

والتفتت وتمادت إلى بحر، دون أن تترك أي تموجات وراءها.

لم أذهب مباشرة إلى القصر، لم أستطع، بدلاً من ذلك ذهبت إلى بستان الزيتون، جلست بين الجذوع الملتوية والفواكه المتساقطة. كـــان بعيداً عن البحر، لم أكن أود أن أشتم رائحة الملح الآن.

سوف تكون ميتاً قريباً بما يكفي. لقد قالتها ببرود، كحقيقة. هي لم ترغب برفقتي له، ولكنني لم أكن أستحق القتل.

بالنسبة للإلهة، كانت العقود القليلة من حياة الإنســـان بالكـــاد تزعجها.

أعربت عن رغبتها في أن يكون إلهاً. لقد تحـــدثت عـــن ذلـــك ببساطة، كما لو أنها كانت واضحة. إلهاً. لا يمكنني أن أتخيله كـــذلك. الآلهة باردة وبعيدة، بعيدة كالقمر، لا شيء مثـــل إشـــراقة عينيـــه، والشقاوة الدافئة في ابتسامته.

كانت رغبتها طموحة، كان أمراً صعباً، لجعل نصف إله خالــداً. صحيح، لقد حدث من قبل، لهيراكليس وأورفيوس وأوريــون. إنهــم يجلسون في السماء الآن، يرأسون النجوم، يحتفلون مع الآلهــة بــولائم الطعام الشهي. لكن هؤلاء الرجال كانوا أبناء زيوس، أواصرهم قويــة بأنقى دم آلهة سالت.

ثيتيس كانت أقل من أقل إله، فقط حورية بحر. في قصصنا كانت هذه الآلهة تضطر للعمل من خلال التملق والمداهنة، والجميــل الــذي تملكه من الآلهة الأقوى. لا يمكنهم فعل الكثير لأنفسهم، إلا العيش، إلى الأبد.

"بماذا تفكر؟" كان أخيل، أتى للبحث عني. كان صوته عــالي في هدوء البستان، ولكنني لم أجفل. لقد كنت نصف متوقع أنه ســيأتي، وقد أردته أن يفعل.

"لا شيء"، قلت. كان ذلك غير صحيح، أعتقد أنه كذلك دائماً.

جلس بجانبــي، قدميه عاريتين ومتربة.

"هل أخبرتك أنك سوف تموت قريباً؟".

التفت أنظر في وجهه، مشدوهاً.

"نعم"، قلت.

"أنا آسف"، قال.

نفخت الرياح الأوراق الرمادية فوقنا، وفي مكان ما سمعت التربيتة اللينة لسقوط زيتونة.

"تريدك أن تكون إلهاً" قلت له.

"أعرف" قال والتوى وجهه إحراجاً، وعلى الرغم منــه ارتــاح قلبــي. كانت ردة فعل صبيانية. وهكذا هو الإنسان.

الآباء، في كل مكان.

ولكن السؤال لا يزال ينتظر ليسأل، لم أستطع أن أفعل شيئاً حتى أعرف إجابته.

"هل تريد أن تكون"، وتوقفت، أكافح، على الرغم من أنني وعدت نفسي أنني لن أفعل. لقد جلست في البستان، أتدرب جيداً على هذا السؤال، بانتظار أن يجدني. "هل تريد أن تكون إله؟".

كانت عيناه داكنة في نصف الضوء، لم أتمكن من فهم البقع الذهبية في الأخضر. "أنا لا أعرف" قال أخيراً، "أنا لا أعرف ما يعنيه، أو كيف يحدث ذلك".

حدق إلى أسفل في يديه، شبك ركبتيه. "لا أريد أن أترك المكان هنا. متى سيحدث على أي حال؟ قريباً؟".

كنت في حيرة. لم أكن أعرف شيئا عن كيفية خلق الآلهة. لقد كنت بشري، فقط.

الآن، مقطباً، قال بصوت أعلى: "وهل هناك حقاً مكان مثل ذلك؟ أوليمبوس؟ إنها لا تعرف حتى كيف سوف تفعل ذلك. تدعي أنها تعرف. تعتقد أنني إذا أصبحت مشهوراً بما فيه الكفاية.. "وسكت عن البقية.

هذا على الأقل يمكنني أن أتابعه: "حينها سوف تأخذك الآلهة طواعية".

أومأ برأسه. لكنه لم يرد على سؤالي.

"أخيل".

التفت لي، فيما عيناه لا تزال مليئة بالإحباط، مع نوع من الحيرة الغاضبة. كان بالكاد يكمل اثنا عشر سنة.

"هل تريد أن يكون إلهاً؟" كان السؤال أسهل هذه المرة.

"ليس بعد".

الضيق الذي لم أكن أعلم أنه هناك خفت قليلاً. لم أفقده بعد.

وضع يده تحت ذقنه؛ وبدت ملامحه أجمل من المعتاد، مثل الرخام المنحوت، ثم قال: "أود أن أكون بطلاً، مع أنني أعتقد أنني يمكنني أن أفعل ذلك. إذا كانت النبوءة صحيحة، إذا كانت هناك حرب، أمي تقول أنني سأكون أفضل حتى مما كان هيراكليس".

لم أكن أعرف ماذا أقول لهذا، لم أكن أعرف إذا كان ذلك انحياز أمومي أو حقيقة. لم أهتم، ليس بعد.

سكت للحظة. ثم التفت إلي فجأة وقال: "هل تريد أن تكون إلهاً؟".

هناك، بين الطحلب والزيتون، تصورت أنه سيكون مضحكاً، فضحكت، ثم بعد لحظة، ضحك هو أيضاً.

"لا أعتقد أن هذا أمر مرجح" قلت له.

وقفت، ومددت له يدي. أخذها، وسحب نفسه إلى الأعلى. كانت ستراتنا متربة، وقدمي منملة قليلاً بملح البحر الجاف.

"هناك تين في المطبخ، لقد رأيتهم".

لم نتجاوز اثني عشر سنة فقط، كنا أصغر من أن نجلس بسكون.

"أراهن أنني أستطيع أن آكل أكثر منك".

"سأسابقك!" ضحكت، وركضنا.

الفصل السابع

في الصيف التالي أصبحنا في الثالثة عشر، هو أولاً، ثم أنا. بـــدأت أجسادنا بالتمدد، مشدودة على مفاصلنا حتى أصبحت مؤلمة وضعيفة. في مرآة بيليوس البرونـــزية البراقة، لم أميز نفسي تقريباً، طويل وضامر وهزيل، بساقين كطائر اللقلق وذقن حاد. أخيل كان ما يزال أطـــول، يبدو كبرج فوقي. في نهاية المطاف سنكون طوال القامة، لكن نضـــجه جاء أسرع، بسرعة مذهلة، تضخه ربما الألوهية في دمه.

الأولاد أيضاً، كبروا. أصبحنا نسمع الآن بانتظام الأنين خلـــف الأبواب المغلقة، ونرى ظلال تعود إلى أسرها قبل الفجر. في بلادنـــا، غالباً ما يتخذ الرجل زوجة قبل أن تنبت لحيته كاملة. إلى أي وقـــت مبكر، إذن، يستطيع أن يتخذ له خادمة؟ كان متوقع؛ رجال قلة وصلوا إلى سرير الزواج دون أن يفعلوا ذلك. أولئـــك الـــذين لم يفعلـــوا لم يحالفهم الحظ في الواقع: أضعف من أن يفرضوا، أقبح جـــداً مـــن أن يسحروا، وأيضاً أفقر جداً من أن يدفعوا.

كان من المعتاد للقصر أن يكون لديه رفقة كاملة مـــن النســـاء المولودات بنبل كخادمات لسيدة المنـــزل. لكن بيليوس لم يكن لديـــه زوجة في القصر، وهكذا كانت معظم النساء اللواتي شاهدناهم مـــن العبيد. كانوا قد اشتروهم أو أخذوهم في الحرب، أو ولدوا من أولئك الذين كانوا كذلك. خلال اليوم، يسكبون النبيذ وينظفون الأرضيات والمطبخ. وفي الليل ينتمون إلى الجنود أو لأولاد الرعايـــة، إلى الملـــوك الزائرين أو إلى بيليوس نفسه. البطون المنتفخة التي تلي ذلك لم تكن من

الخزي في شيء، كانت أرباح: عبيد أكثر. هذه الاتحادات لم تكن دائماً اغتصاب؛ في بعض الأحيان يكون هناك رضى متبادل وحتى عاطفة. على الأقل هذا ما يعتقده الرجال الذين تكلموا عنهن.

كان من السهل، من السهل بشكل لا نهائي، لأخيل أو لي أن نشاطر واحدة من هؤلاء الفتيات السرير بأنفسنا. في الثالثة عشر كنا تقريباً متأخرين للقيام بذلك، خاصة هو، كما هو معروف عن الأمراء شهيتهم. بدلاً من ذلك، شاهدنا في صمت بينما يسحب أولاد الرعاية الفتيات إلى أحضانهم، أو يستدعي بيليوس أجملهن إلى غرفته بعد العشاء. حتى أنني سمعت الملك يقدمها لابنه ذات مرة. فأجابه بخجل تقريباً: أنا الليلة متعب. فيما بعد، بينما نحن نمشي عائدون إلى غرفتنا، تجنب عيني.

وأنا؟ أنا كنت خجول وصامت مع الكل ماعدا مع أخيل؛ أستطيع بشق الأنفس أن أتحدث إلى الأولاد الآخرين، ناهيك عن فتاة. كرفيق أمير، أفترض أنه ليس علي أن أتحدث؛ إيماءة أو نظرة ستكون كافية. ولكن مثل هذا الشيء لم يحدث لي. المشاعر التي أثارتني في الليل بدت بعيدة بغرابة عن أولئك الفتيات الخادمات بأعينهن المنخفضة والمطيعة. راقبت صبياً يتحسس ثوب فتاة، ويبدو الملل على وجهها فيما هي تسكب خمرته. لم أكن أتمنى مثل ذلك.

ذات ليلة بقينا في غرفة بيليوس حتى وقت متأخر. أخيل على الأرض، ألقى ذراعه تحت رأسه كوسادة. جلست

أكثر رسمية في الكرسي. لم يكن فقط بسبب بيليوس. لم يرق لي الطول المترامي لأطرافي الجديدة. بعينين نصف مغلقة، كان الملك العجوز يخبرنا قصة.

"كان ميليقر أجمل محارب في عصره، ولكنه أيضاً أكثرهم فخراً، توقع الأفضل من كل شيء، ولأن الناس أحبته، فقد حصل عليه".

جنحت عيني إلى أخيل. كانت أصابعه بالكاد تتحرك في الهواء، يفعل ذلك في كثير من الأحيان عندما يؤلف أغنية جديدة. قصة ميليقر، خمنت، بينما يحكيها والده.

"ولكن في أحد الأيام قال ملك كاليدون، لماذا يجب أن نعطي الكثير لميليقر؟ هناك رجال آخرون يستحقون في كاليدون".

تحرك أخيل، وسترته انسحبت لتصبح مشدودة على صدره. في ذلك اليوم، كنت قد سمعت فتاة خادمة تهمس لصديقتها:

"هل تعتقدين بأن الأمير نظر إلي، في العشاء؟" وكان في لهجتها أمل.

"سمع ميليقر كلام الملك وغضب".

هذا الصباح قفز إلى سريري وضغط بأنفه على أنفي وقال: "صباح الخير". أتذكر حرارته على جلدي.

وقال: "أنا لن أقاتل من أجلكم أكثر من ذلك". وذهب عائداً إلى منـزله طلباً للراحة في أحضان زوجته.

شعرت بهزة خفيفة عند قدمي، كان أخيل، يبتسم في وجهي من الأرض.

"كان لكاليدون أعداء شرسين، وعندما سمعوا أن ميليقر لن يقاتل من أجل كاليدون -".

ضغطت بقدمي نحوه قليلاً، مغيظاً. فلف أصابعه حول كاحلي.

"هاجموهم، وعانت مدينة كاليدون من خسائر فظيعة".

جذبني أخيل بعنف، فانـزلق نصفي خارجاً من الكرسي، وتشبثت بالإطار الخشبي حتى لا يتم سحبي إلى الأرض.

"لذا فإن الناس ذهبت إلى ميليقر، تتوسل إليه مساعدته. وأخيل، هل تستمع؟".

"نعم، يا أبـــي".

"لست كذلك. أنت تعذب سكابز المسكين".

حاولت أن أبدو معذباً، ولكن كل ما شعرت به كـــان الـــبرودة على كاحلي، حيث كانت أصابعه، قبل لحظة.

"إنها كذلك تماماً، ربما. أنا مرهق، سوف ننهي القصة في مســـاء آخر".

وقفنا وتمنينا للرجل العجوز ليلة سعيدة، ولكن بينما نحن ذاهبان، قال: "أخيل، قد تبحث عن الفتاة ذات الشعر الخفيف، من المطبخ. لقد كانت تتصيد المداخل من أجلك، كما أسمع".

كان من الصعب معرفة ما إذا كان ضوء النار هو الـــذي جعـــل وجهه يبدو متغيراً.

"ربما، يا أبـــي. أنا متعب الليلة".

قال بيليوس ضاحكاً، كما لو كانت مزحة: "أنـــا متأكـــد أنهـــا تستطيع أن توقظك"، ولوح لنا مودعاً.

اضطررت إلى الهرولة، قليلاً، لأواكبه بينما نحن نمشي عائدين إلى غرفتنا. غسلنا وجوهنا في صمت، ولكن كان هناك ما يـــؤلمني، مثـــل الضرس الفاسد، وأنا لا يمكنني أن أدعه كذلك.

قلت: "هذه الفتاة – هل تروقك؟".

تحول أخيل ليواجهني عبر الغرفة. "لماذا؟ هل تروقك أنت؟".

"لا، لا" توردت، ثم قلت: "ليس هذا ما قصدته". لم أكـــن قـــد شعرت بأنني غير متأكد معه منذ الأيام الأولى. "أعني، هل تريد –".

ركض باتجاهي، ودفعني إلى الوراء على غطائي، وانحـــنى فـــوقي قائلاً: "لقد سئمت من الحديث عنها". ارتفعت الحرارة فوق رقـــبتي، لتحيط أصابعها بوجهي. سقط شعره من حولي، و لم أستطع شمّ شيء

غيره. حبة شفتيه بدت مستريحة على بعد نفس واحد من شـــفتي. ثم، تماماً مثل ذلك الصباح، كان قد رحل. عبر الغرفة، سكب آخر كوب من الماء. كان وجهه ساكن، وهادئ. قال: "ليلة سعيدة".

في الليل، في السرير، تأتي الصور. تبدأ كالأحلام، أتابع المـــداعبات في نومي من حيث بدأت، مهتزاً. أتمدد مستيقظاً، ولا زالت تأتي، وميض من ضوء النار على رقبة، منحنى العظم الحرقفي، النـــــزول لأســـفل. الأيدي، مصقولة وقوية، تمتد لتلمسني. وأنا اعرف تلك الأيدي. ولكـــن حتى هنا، وراء ظلام جفوني، لا يمكنني تسمية ما أتمناه. خـــلال الأيـــام ازداد ضيقي، تململي. لكن كل ما عندي من سرعة، وغناء، وركض لا تبقيهم بعيدين كالخليج. كانت الصور تأتي، ولن تتوقف.

إنه الصيف، واحد من أول أجمل الأيام. ونحن على الشاطئ بعـــد الغداء، أسندنا ظهورنا إلى قطعة مائلة من الأخشاب الطافية. الشـــمس عالية، والهواء دافئ من حولنا. بجانبـــي، أخيل يتحرك، وقدمـــه تقـــع مفتوحة أمام قدمي.

باردة، عليها آثار وردية من الرمال، لينة من الداخل في الشـــتاء. يدندن شيء، قطعة من أغنية كان قد عزفها في وقت سابق.

التفت لأنظر إليه. وجهه أملس، خالي من اللطخات والبقع الـــتي بدأت تصيب الأولاد الآخرين. ملامحه رسمت بيد راســـخة؛ لا شـــيء منحرف أو متسخ، لا شيء كبير جداً، كلها دقيقة، قصـــت بـــأكثر السكاكين حدة. وبالرغم من ذلك التأثير نفسه غير حاد.

التفت إلي ووجدني أحدق إليه فقال: "ماذا؟".

"لا شيء".

أستطيع أن أشمّ رائحته. الزيوت التي يستخدمها علـــى قدميـــه، الرمان وخشب الصندل، الملح من عرقه النظيف، الزنابق التي مشينا من

خلالها، رائحتهم التي سحقت على كاحلينا. ووراء كل ذلك رائحته هو، الرائحة التي أذهب إلى النوم معها وأستيقظ بها. لا أستطيع وصفها. إنها حلوة، ولكن ليس ذلك فقط. إنها قوية ولكن ليست قوية جداً.

شيء مثل اللوز، ولكن هذا أيضاً لا يزال غير صحيحاً. أحياناً، بعد أن نتصارع، يحمل جلدي نفس رائحته.

يضع يده أسفل، ليتكأ مقابلي. العضلات في ذراعيه تتقوس بهدوء، تظهر وتختفي بينما يتحرك. اخضرار عينيه العميق على عيني.

يقفز نبضي، لا لسبب يمكنني تسميته. لقد نظر إلي ألف مرة، ولكن هناك شيء مختلف في هذه النظرة، حدة لا أعرفها. فمي جاف، وأستطيع أن أسمع صوت حنجرتي وأنا أبتلع ريقي.

راقبني، يبدو أنه ينتظر.

تحركت، حركة متناهية الصغر، تجاهه. إنها مثل القفز من الشلال. لم أعرف، حتى ذلك الحين، ما سأقوم به.

انحنيت إلى الأمام وحطت شفتينا كل منهما على الآخر بطريقة غير بارعة. كانتا مثل الأجسام الممتلئة للنحل، لينة و دائرية ومنتشية باللقاح. يمكنني أن أتذوق فمه - ساخن وحلو كعسل الحلوى. ارتعشت معدتي، والدفقة الدافئة من المتعة انتشرت تحت جلدي، أكثر.

قوة رغبتي، والسرعة التي أزهرت بها، صدمتني، أحجمت وابتعدت جافلاً منه. لدي لحظة، فقط لحظة لأنظر إلى وجهه المؤطر بضوء الظهيرة، افترقت شفتاه قليلاً، ما تزال تشكل نصف قبلة. وقد اتسعت عينيه مع المفاجأة.

شعرت بالفزع. ماذا فعلت؟ ولكن ليس لدي وقت للاعتذار. وقف وخطا بضع خطوات إلى الوراء. وجهه موصد، مبهم وبعيد،

فتجمدت التفسيرات في فمي. التفت وركض، أسرع ولد في العالم، إلى الشاطئ وأبعد من ذلك.

جانبـــي بارد بغيابه، جلدي يضيق بـــي، ووجهي، أعرف، أحمر وغرّ كالمحترق.

إلهي العزيز، كما أعتقد، لا تدعه يكرهني.

كان ينبغي أن أعرف أفضل من أدعو خلف الآلهة.

عندما التفت إلى الزاوية على مسار حديقة، كانت هنـــاك، حـــادة ومشرقة كالسكين. تشبث الفستان الأزرق بجلدها كما لو كان رطـــب. قبضت عينيها الداكنتين على عيني، وأصابعها، الباردة والسماوية الشاحبة، امتدت لي. فاصطدمت قدمي بعضها ببعض حينما رفعتني من الأرض.

"لقد رأيت"، هسهست. صوت الأمواج تتكسر على الحجر.

لم أستطع الكلام. أمسكت بـــي من حلقي. وأضـــافت: "إنـــه راحل". كانت عيناها الآن سوداء، مظلمة ومسننة كصـــخور البحـــر الرطبة، ثم قالت: "كان ينبغي أن أرسله منذ فترة طويلة. لا تحـــاول أن تتبعه".

لم أتمكن من التنفس الآن، لكنني لم أقاوم. عند ذلك الحد، علـــى الأقل، كنت أعرف. يبدو أنها توقفت، اعتقدت أنها قد تتحدث ثانية. لم تفعل. فقط فتحت يدها وحررتني، فسقطت ككومة بلا عظم، على الأرض.

رغبات الأم. في بلدنا، كانت لا تساوي الكثير. لكنها كانـــت إلهة، أولاً ودائماً.

عندما عدت إلى الغرفة، كان الظلام قد حل بالفعـــل. وجـــدت أخيل يجلس على سريره، محدقاً في قدميه. رفع رأسه، بأمل تقريباً، وأنا أخطو إلى المدخل. لم أتكلم؛ لا تزال عينا الأم السوداء تشتعل أمـــامي،

ومرأى كعبيه تومض حتى الشاطئ. اغفر لي، كان خطأ. هذا ما قد أجرؤ على قوله حينها، إذا لم يكن من أجلها.

دخلت إلى الغرفة، وجلست على سريري. التفت، عيناه تجلد عيني. لم يكن يشبهها بالطريقة التي يبدو فيها عادة الأطفال مثل أحد الوالدين، ميل الذقن، شكل العين. لقد كان شيء في تحركاته، في بشرته المضيئة. ابن إلهة. ما الذي ظننت أنه سيحدث؟ حتى من حيث أجلس، يمكنني أن أشتمّ رائحة البحر عليه.

"من المفترض أن أغادر غداً"، قال، بما يشبه الاتهام.

"أوه"، قلت، شعرت بفمي متورم ومخدر، سميكة جداً ليشكل الكلمات.

"أنا ذاهب لأدرس عند تشيرون". وتوقف هنيهة، ثم أضاف: "هو من علم هيراكليس، وفرساوس".

ليس بعد، لقد قال لي. ولكن أمه اختارت له بشكل مختلف.

وقف ونزع سترته. كان الجو حاراً، الصيف كامل، وكنا معتادين على النوم عرايا. أشرق القمر على بطنه، ملساء، بعضلات، نزولاً مع الضوء على الشعر البني الفاتح الذي يصبح داكناً أكثر تحت خصره، فحولت عيني بعيداً.

في صباح اليوم التالي، عند الفجر، ارتفع وارتدى ملابسه. كنت مستيقظاً؛ لم أنم. شاهدته من خلال أطراف جفوني، يتظاهر بالنوم. من وقت لآخر كان يحملق في وجهي؛ في نصف الضوء الخافت توهج جلده رمادي وناعم كالرخام. رمى حقيبته على كتفه وتوقف، لآخر مرة، في الباب. أتذكره هناك، مرسوم في الإطار الحجري، شعره ينحدر بحرية، لا يزال غير مرتب من النوم. أغمضت عيني، ومرت لحظة، وعندما فتحتهما ثانية، كنت وحدي.

الفصل الثامن

بحلول الإفطار، عرف الجميع برحيله. تبعتني نظراتهم وهمساتهم إلى الطاولة، تباطأت وأنا أمد يدي للطعام.

مضغت وابتلعت، على الرغم من أن الخبز جلس كالحجر في بطني. تقت للابتعاد عن القصر؛ أردت استنشاق بعض الهواء.

مشيت إلى بستان الزيتون، والأرض جافة تحت قدمي. نصف متسائل عما إذا كان من المتوقع مني أن أنضم إلى الأولاد، الآن وقد ذهب. نصف متسائل إذا كان أي شخص قد لاحظ ما إذا كنت قد فعلت. فكرت نصف متأمل أنهم قد يضربوني.

يمكنني أن أشتم رائحة البحر. كانت في كل مكان، في شعري، في ملابسي، في الرطوبة اللزجة لبشرتي. حتى هنا في البستان، وسط أوراق الشجر والأرض، سوسة الملح الكريهة لا تزال تجدني. ارتفعت معدتي للحظة، فملت على جذع شجرة أجرب، لحاءها الخشن وخز جبهتي، لأستعيد توازني. فكرت أنني لا بد أن أبتعد عن هذه الرائحة.

مشيت شمالاً، إلى طريق القصر، شريط متربة مهدت وسويت بعجلات العربات وحوافر الخيل. قسمت أبعد قليلاً من ساحة القصر. نصفا ركض إلى الجنوب والغرب، خلال العشب والصخور والتلال المنخفضة، وهذا هو الطريق الذي جئت منه، قبل ثلاث سنوات. النصف الآخر مال شمالاً، نحو جبل أوثريس وما بعده، إلى جبل بيليون. تتبعتهم بعيني. التفوا على السفوح المشجرة لبعض الوقت قبل أن يختفوا فيها.

حطت الشمس علي، ساخنة وصعبة في سماء الصيف، كما لو أنها ستقودني عائداً إلى القصر. تريثت. سمعت أن جبالنا جميلة - بالإجاص والسرو وجداول الجليد الذائب. ستكون باردة هناك، ومظللة. بعيـــداً عن الشواطئ الماسية المشرقة، ولمعان البحر.

يمكنني أن أرحل. الفكرة المفاجئة احتلتني. لقد أتيت إلى الطريـــق هارباً فقط من البحر. لكن الطريق وضع أمامي، والجبـــال. وأخيـــل. ارتفع صدري وسقط بسرعة، كما لو كان يحاول مواكبة أفكـــاري. ليس لدي شيء، لا سترة، و لا صندل، كانت كلـــها لبيليـــوس. لا أحتاج حتى إلى حزمة.

فقط قيثارة والدتي، المحفوظة في صندوق خشبـــي داخل غرفـــة داخلية، بقيت لي. ترددت لحظة، مفكراً أنني قد أحـــاول الرجـــوع، لأخذها معي. ولكننا قد أصبحنا بالفعل في منتصف النهار. لدي فقط بعد الظهر لأسافر، قبل أن يكتشفون غيابـــي - أطريت على نفسي - ويرسلون في أثري. نظرت ثانية إلى القصر و لم أرَ أحداً. كان الحـــراس في مكان آخر. الآن. يجب أن يكون الآن.

ركضت بعيداً عن القصر، أسفل الطريق نحو الغابة، تلسعني قدمي كلما صفعتها حرارة الأرض المحمصة. في ركضي، وعدت نفسي أنـــه إذا رأيته ثانية، سأحتفظ بأفكاري وراء عيني. لقد تعلمت، الآن، ما من شأنه أن يكلفني إذا لم أفعل. الآلام في ساقي، شعرت بفوران ضـــربات صدري. ركضت.

العرق ملس بشرتي، سقط على الأرض تحـــت قـــدمي. ازددت قذارة، ثم أقذر. الغبار وقِطـــع الأوراق التصـــقت بســـاقي. العـــالم من حولي يضيق إلى قرع قدمي والمســـاحة المتربـــة القادمـــة مـــن الطريق.

أخيراً، بعد ساعة؟ اثنين؟ لا يمكنني الذهاب أبعد من ذلك. فاق الألم قدرتي، شمس الظهيرة المشرقة تمايلت إلى السواد، اندفاع الدم يصم أذني. الطريق كان مكسو بالغابات الكثيفة الآن، على كلا الجانبين، وقصر بيليوس كان يبعد شوطاً طويلاً ورائي. إلى يميني يلوح في الأفق أوثريس، وبيليون فقط وراءه. حدقت في قمته وحاولت أن أخمن كم يبعد بعد. عشرة آلاف خطوة؟ خمسة عشر؟ بدأت أمشي.

مرت الساعات. عضلاتي أصبحت متهاوية وضعيفة، قدمي اشتبكت معاً. كانت الشمس تعبر القمة الآن، معلقة بانخفاض في السماء الغربية. لدي أربعة، وربما خمس ساعات حتى يحل الظلام، والقمة كانت بعيدة بقدر ما كانت قبل ذلك. فجأة، فهمت: لن أصل بيليون بحلول الليل. لم يكن لدي أي طعام، ولا ماء، ولا أمل في مأوى.

لم يكن لدي أي شيء فيما عدا الصندل الذي أنتعله على قدمي والسترة المبللة على ظهري.

لن أستطيع اللحاق بأخيل، كنت متأكداً من ذلك الآن. لقد ترك وحصانه الطريق منذ فترة طويلة، كان الآن يتحرك حتى المنحدرات سيراً على الأقدام. من شأن المقتفي الجيد ملاحظة الغابة بجوار الطريق، أن يرى أين كانت الأجمة متقوسة أو ممزقة، حيث شق الصبي طريقه. لكنني لم أكن متعقب جيد، وأشجار الطريق بدت لي كلها متشابهة.

ضجت أذني بخفوت - بأزيز، مع نداءات الطيور الحادة، وصرير أنفاسي. كان هناك آلام في معدتي، مثل الجوع أو اليأس.

بعد ذلك كان هناك شيء آخر. صوت، فقط في الحد الأدنى من السمع. لكنني قبضت عليه، وجلدي، حتى في تلك الحرارة، أصبح

بارداً. كنت أعرف هذا الصوت. كان صوت شبح رجل يحاول الاعتداء على الصمت. كان ذلك فقط أصغر زلة، ويفسح المجال لورقة واحدة، لكنها كانت كافية.

استمعت بتوتر، وقد قفز الخوف في حلقي. من أين يأتي ذلك؟ مشطت بعيني الغابة على الجانبين. لم أجرؤ أن أتحرك؛ فإن أي صوت سيتردد صداه بصوت عال حتى المنحدرات. لم أفكر في الأخطار وأنا أركض، ولكن الآن تعثر ذهني بهم: الجنود، الذين بعثهم بيليوس أو ثيتيس نفسها، والأيادي البيضاء الباردة مثل الرمال تطوق رقبتي.

أو قطاع الطرق. كنت أعرف أنهم ينتظرون على الطرقات، وتذكرت قصص لفتيان اختطفوا وأبقوا حتى ماتوا من الانتهاك. ضغطت بأصابعي حتى ابيضت بينما أحاول أن أخرس كل أنفاسي، كل حركاتي، أن لا أبدي شيئاً مني.

أمسكت نظرتي بقبضة سميكة من القيصوم المزهر التي يمكن أن تخفيني. الآن. اذهب.

كانت هناك حركة من الغابة إلى جانبي، أدرت رأسي تجاهها، بعد فوات الأوان. شيء، شخص ما ضربني من الخلف، ورماني إلى الأمام. هبطت بشدة، وجهي إلى أسفل على الأرض، وقد سبق أن اعتلاني هذا الشخص.

أغمضت عيني وانتظرت سكيناً.

لم يكن هناك شيء. لا شيء سوى الصمت وركبتين سمرت ظهري. مرت لحظة، وخيل إلي أن الركبتين ليست ثقيلة جداً وإنما وضعت كذلك بحيث لا يؤذيني ضغطهم.

"باتروكلوس". با - ترو - كلوس لم أتحرك.

رفعت الركبتين، ويدين امتدت لتلفني، بلطف متناهي. كان أخيل ينظر أسفل إلى وجهي.

"كنت آمل أن تأتي" قال. تلوت معدتي، تقاذفها التوتر والارتياح في آن واحد. شربته بداخلي، الشعر المشرق، القوس الناعم لشفتيه صعوداً. بهجتي كانت حادة حتى أنني لم أجرؤ على التنفس. لا أعرف ما قد كنت قد قلت في ذلك الحين. أنا آسف، ربما. أو ربما شيء أكثر من ذلك. فتحت فمي.

"هل أصيب الصبي؟".

تكلم صوت عميق من وراءنا كلينا على حد سواء. تحولت رأس أخيل. ومن حيث كنت، تحته، يمكنني أن أرى فقط ساقي حصان الرجل الكستنائية، وخصلة شعر باهتة متربة.

قال ثانية، بصوت موزون ومتعمد: "أخيل بيليوس، افترض، أن هذا هو السبب في أنك لم تنضم لي حتى الآن على الجبل؟".

تلمس ذهني طريقه ليفهم. أخيل لم يذهب إلى تشيرون. لقد انتظر هنا من أجلي.

"تحية طيبة، معلم تشيرون، واعتذاري. نعم، هذا هو السبب في أنني لم أتي". قال مستخدماً، صوته الأميري.

"فهمت".

تمنيت لو أن أخيل قد نهض عني. شعرت بحماقتي هنا، على الأرض تحته. وكنت خائفاً أيضاً. صوت الرجل لم يظهر أي غضب، لكنه لم يظهر أيٰ لطف، أيضاً. كان واضحاً ورزيناً وفاتراً.

"قف" قال ذلك.

ارتفع أخيل ببطء.

لكنت صرخت وقتها، لو لم يكن حلقي مغلقاً بالخوف. بدلاً من ذلك زمجرت بضوضاء مثل عواء نصف مخنوق واندفعت إلى الوراء.

انتهت ساقي الحصان ذات العضلات في اللحم، متداخلة بالعضلات المتساوية لجذع الرجل. حدقت- في ذلك المزج المستحيل بين الحصان والرجل، حيث البشرة الناعمة أصبحت معطفاً بني لامع.

بجانبي حنى أخيل رأسه قائلاً: "معلمي السنتور"، كما أضاف: "أنا آسف للتأخير، اضطررت لانتظار رفيقي".

ركع، بسترته النظيفة في الأرض المتربة. "أرجو أن تقبل اعتذاري. لقد تمنيت طويلاً أن أكون تلميذك".

وجه الرجل - السنتور - كان جاداً كما هو حال صوته. كبير في السن، بلحية سوداء مشذبه بعناية.

تفحص أخيل للحظة ثم قال: "لا تحتاج إلى الركوع أمامي، بيلايدس. على الرغم من أنني أقدر مجاملتك. ومن هو هذا الرفيق الذي أبقانا نحن الاثنين بانتظاره؟".

تحول أخيل عائداً إلي ومد يد مهتزة للأسفل، أخذتها وسحبت نفسي للأعلى.

"هذا هو باتروكلوس".

عمّ الصمت، وعرفت أن دوري في الكلام قد حان.

"سيدي"، قلت. وانحنيت.

"أنا لست سيد، باتروكلوس مينوتيوس".

ارتعش رأسي على اثر سماع اسم والدي.

"أنا سنتور، ومعلماً للرجال. اسمي تشيرون".

ابتلعت ريقي وأومأت برأسي. لم أجرؤ أن أسأل كيف عـــرف اسمي.

فحصني بعينيه وقال: "أنت منهك، على ما أعتقد. تحتاج إلى الماء والطعام، على حد سواء. الطريق إلى منـــزلي في بيليون طويلة، طويلـــة جداً لتمشيها. لذلك يجب علينا اتخاذ ترتيبات أخرى".

ثم التفت، وحاولت أن لا أحدق ببله في الطريقة التي تتحرك بهـــا ساقين الحصان من تحته.

"سوف تركب على ظهري" قال سنتور وأضاف: "أنا عـــادة لا أقدم مثل هذه الأشياء في التعارف الأول. ولكن الاستثناءات يجـــب أن تؤخذ بعين الاعتبار"، ثم توقف، وســـأل: "أفتـــرض أنكـــم عُلمـــتم الركوب؟".

فأومأنا برأسينا، بسرعة.

فقال: "هذا أمر مؤسف. انسيا ما تعلمتماه. أنـــا لا أحـــب أن أضغط بساق أو أسحب بها. الراكب في المقدمة سيمسك بوســـطي، والراكب الخلفي سيمسك به. إذا شعرت بأنـــك ســـوف تســـقط، تكلم".

تبادلت نظرة مع أخيل، بسرعة.

تقدم إلى الأمام.

"كيف يجب أن..؟".

"سوف أركع". طوى ساقين الحصان في التراب، ظهره عـــريض ولامع بخفة مع العرق. "خذ ذراعي لتتوازن"، أوعز ســـنتور. ففعـــل أخيل، أرجح ساقه فوق واستوى.

ثم كان دوري. على الأقل لن أكون في المقدمة، على مقربة مـــن ذلك المكان حيث يؤخذ الجلد ليصنع به معطـــف كســـتناء. عـــرض

تشيرون ذراعه لي، وأخذهما. ذات عضلات وكبيرة، مغطاة بشعر أسود غزير لا يشبه لون نصفه الحصان. أخذت مقعدي، ومددت ساقي عبر ذلك الظهر العريض، تقريباً إلى درجة الانـــزعاج.

قال تشيرون "سأقف الآن". كانت الحركة سلسة، ولكـــنني مـــا زلت متشبثاً بأخيل. تشيرون ارتفع نصف ارتفاع مرة أخرى بطـــول الحصان الطبيعي، وتدلت قدمي بعيدة جداً عن الأرض ممـــا أصـــابني بالدوار. يد أخيل استراحت بتراخ على وسط تشيرون. "ستســـقط إذا كنت تمسك بهذه الخفة" قال سنتور.

تعرقت أصابعي وازدادت رطوبة من الإمساك بصدر أخيـــل. لم أجرؤ على إراحتهم، ولو للحظة. كانت مشية سنتور أقل تناسباً مـــن الحصان، على الأرض غير المستوية. انـــزلقت بشكل مرعب على شعر الخيل المتعرق الأملس. لم يكن هناك أي مسار يمكنني رؤيته، لكننا كنا نرتفع بسرعة صعوداً من خلال الأشجار، يحملنا رسوخ تشيرون علـــى طول الطريق، بخطى غير متباطئة. أجفل في كل مرة تجعل الهزة كعبـــي يركلان جانبـــي سنتور.

في ذهابنا، أوضح تشيرون الأمـــور لنـــا، في نفـــس الصـــوت الرصين.

هناك جبل أوثريس.

أشجار السرو أكثر سمكاً هنا، على الجانب الشمالي، يمكنك رؤية ذلك.

هذا تيار يغذي نهر أبيدونس الذي يمر عبر أراضي ثيا.

التف أخيل مرة أخرى للنظر في وجهي، مبتسماً.

استمررنا بالصعود إلى أعلى، وسنتور يهفهـــف بذيلـــه الكـــبير الأسود، يسحق الذباب عنا.

توقفت فجأة تشيرون، وتلعثمت إلى الأمام بظهر أخيل. كنـــا في استراحة صغيرة في الغابة، بستان من نوع ما، نصـــف محـــاط بنتـــوء صخري. لم نكن تماماً في الذروة، لكننا كنا على مقربـــة، والســـماء كانت زرقاء ومتوهجة فوقنا.

"نحن هنا". أناخ تشيرون، وترجلنا عن ظهره، بغير ثبات.

أمامنا كان هناك كهف، لكن تسميته بذلك هو حط من قدره، لأنه لم يكن من الحجارة السوداء، بـــل مـــن الكـــوارتز الـــوردي الشاحب.

"تعالوا" قال سنتور. تبعناه خلال المدخل، عالي بما يكفي لدرجة أنه لم يكن في حاجة لينخفض. طرفت أعيننا، لأنه كـــان مظلـــم في الداخل، على الرغم من أنه مضيء أكثر مما ينبغي أن يكون، بســـبب الجدران الكريستالية. في النهاية كان هناك نبع صغير يبدو أنه يصـــب داخل الصخر.

على الجدران علقت أشياء لم أميزها: أدوات برونـــزية غريبـــة. فوقنا، على سقف الكهف، خطوط وبقع صـــبغ شـــكلت الأبـــراج والتحركات السماوية. على الرفوف المنحوتة عشرات الجرار الخزفيـــة الصغيرة المغطاة بعلامات مائلة.

الآلات معلقة في زاوية واحدة، القيثارات والمـــزامير، وبجانبـــها أدوات وأواني طبخ.

كان هناك سرير واحد بحجم الإنسان، سميك ومـــبطن بجلـــود الحيوانات، صنع لأخيل. لم أرَ أين سينام سنتور. ربما لن يفعل.

"اجلس الآن" قال. كان الداخل بارداً بشكل لطيف، مثالي بعد الشمس، فغرقت بامتنان على واحدة من الوسائد التي أشار إليهـــا تشيرون. ذهب إلى النبع وملئ الكؤوس، التي أحضرها إلينا. كـــان

الماء حلو ومنعش. شربت بينما وقف تشيرون علي. "ستكون متألماً ومتعباً غداً"، قال لي. وأضاف: "لكن سيكون من الأفضل إذا أكلت".

وزع علينا حساء، سميك مع قطع من الخضراوات واللحم، من قدر تغلي على نار صغيرة في الجزء الخلفي من الكهف. كان هناك فواكه، أيضاً، توت أحمر مستدير أحتفظ بها في تجويف صخري بارز. أكلت بسرعة، استغربت كم كنت جائع. استمرت عيني بالعودة إلى أخيل، وقد وخزتني نشوة بهجة مريحة. لقد هربت.

جلس تشيرون في المقابل لنا، طاوياً ساقي - الحصان تحته. وأضاف: "إنهم للعملية الجراحية"، قال لي.

"جراحة؟" لم أكن أعرف الكلمة.

"للشفاء. لقد نسيت همجية البلدان المنخفضة". صوته كان طبيعي، هادئ وواقعي. "في بعض الأحيان أحد الأطراف يجب أن تقطع. تلك خاصة بالتقطيع، تلك خاصة بالتقطيب. في كثير من الأحيان إزالة البعض، ينقذ الباقي". شاهدني وأنا أحدق بهم، وقد أخذت إحدى الأدوات الحادة، بحافة ذات أسنان منشورة ثم سألني: "هل ترغب في تعلم التطبيب؟".

توهجت قائلاً: "أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك".

"أنت تجيب بسؤال مختلف عن الذي سألته".

"أنا آسف يا معلم تشيرون". لم أكن أريد أن أغضبه. سيقوم بإعادتي مرة أخرى.

"ليس هناك داعي لتكون آسف. أجب ببساطة".

تلعثمت قليلاً وقلت: "نعم، أود أن أتعلم. يبدو مفيد، أليس كذلك؟".

"مفيد جداً"، وافق تشيرون. التفت إلى أخيل، الذي كان يتـــابع المحادثة.

"وأنت، بيلايدس؟ هل تعتقد أيضاً أن التطبيب مفيد؟"

رد: "بالطبع"، وأضاف: "من فضلك لا تدعوني بيلايدس. هنـــا، أنا فقط أخيل".

مر شيء خلال عيني تشيرون الداكنة. وميض كان أقرب للتسلية.

"حسنا جداً. هل ترى أي شيء ترغب بمعرفته؟".

"تلك". أشار أخيل إلى الآلات الموسيقية، القيثـــارات والمـــزامير وقيثارة السبع أوتار. "هل تعزف؟".

سأل تشيرون بنظرات ثابتة. "أفعل".

"كذلك أنا" قال أخيل. "لقد سمعت أنـــك علمـــت هيراكلـــيس وجايسون، على الرغم من أن أصابعهم كانت سميكة. فهل هذا صحيح؟".

"هو كذلك".

شعرت بلحظة غير واقعية: لقد عرف هيراكلـــيس وجايســـون، عرفهم وهم أطفال.

"أود أن تعلمني".

لان وجه تشيرون الصارم، وأضاف "هذا هو سبب إرســـالك إلى هنا. لأستطيع أن أعلمك ما أعرفه".

في ضوء آخر الظهيرة، قادنا تشيرون من خلال التلال بالقرب من الكهف. أرانا أين كانت أسود الجبل تحفر أوكارها، وأين النهر يتمهل بدفء الشمس، لنسبح فيه.

"يمكنك أن تستحم، إذا أردت". قال وهو ينظر إلي، كنت قـــد نسيت كم كنت متسخاً، متعرقاً، ملوثاً ومغبراً من الطريق. أجريـــت يدي خلال شعري وشعرت بالحصى فيه.

"أنا سأفعل أيضاً"، قال أخيل، خلع عنه سترته، وبعد لحظـــة، تبعته. كان الماء بارد في الأعماق، ولكن ليس بطريقة غير مســـتحبة. من الجانب كان تشيرون يكمل درسه قائلاً: "تلـــك هـــي أسمـــاك الشبوط، هل ترى؟ وجثم. وهذه هي أسماك الفيمبا، لن تعثر عليه في أقصى الجنوب. يمكنك أن تعرفه عن طريق الفـــم المقلوبـــة والـــبطن الفضية".

كلماته اختلطت مع صوت النهر فوق صـــخوره، مهـــدئاً لأي غرابة ربما كانت هناك بيني وبين أخيل. كان هناك شـــيء في وجـــه تشيرون، حازم ورزين ومشبع بالسلطة، التي أعادتنا أطفـــالاً مـــرة أخرى، لا يوجد عالم وراء لعب هذه اللحظة وعشاء هذه الليلة. مع قربه منا، كان من الصعب تذكر ما قد حصل ذلـــك اليـــوم علـــى الشاطئ.

حتى أجسامنا شعرت بها أصغر إلى جوار جسد السنتور. كيـــف ظننا أننا قد كبرنا؟

خرجنا من الماء بإحساس حلو ونظيف، نهز شـــعورنا في آخـــر خطوط الشمس. جثوت على جانب النهر واســـتخدمت الحجـــارة لأفرك الأوساخ والعرق من سترتي. كنت أود أن أبقى عاري حـــتى تجف، لكن امتداد تأثير تشيرون حتى الآن جعلني لا أفكر في شيء من ذلك.

تبعنا تشيرون عائدين إلى الكهف، وسترنا المعصورة الجافة تكسو أكتافنا. توقف بين حين وآخر، ليشير إلى أثر

أرنبة وطائر الصفرد والغزلان. أخبرنا أننا سوف نصـــطادهم في الأيام المقبلة، ونتعلم كيف نقتفي الأثر. اســـتمعنا لـــه و اســـتجوبناه بشغف. في قصر بيليوس لم يكن هناك إلا معلم القيثـــارة العنيـــد، أو

بيليوس نفسه، الذي يغفو نصف نائم وهو يتحدث. لم نكـــن نعـــرف شيئاً عن الغابات أو المهارات الأخرى التي تحدث عنها تشيرون. رجع ذهني إلى الأدوات المعلقة على جـــدار الكهـــف، الأعشـــاب وأدوات للشفاء. كانت الجراحة هي الكلمة التي استخدمها.

كان الظلام قد حل تقريباً عندما وصلنا إلى الكهف مرة أخرى. أعطانا تشيرون مهام سهلة، جمع الحطب وإشعال النار في المنطقة الخالية في فم الكهف. بعد أن اشتعلت، تسكعنا أمام لهبها، ممتـــنين لـــدفئها الثابت في الهواء البارد.

أجسادنا كانت متعبة بشكل مرضي، ثقيلة من إجهادنا، وساقينا وأقدامنا متشابكة بشكل مريح ونحن جالسين.

تحدثنا بتكاسل عن أين سنذهب غداً، كلماتنـــا ثقيلـــة وبطيئـــة بالاطمئنان. العشاء كان المزيد من الحساء، ونوع رفيع من الخبز الذي خبزه تشيرون على صفائح برونـــز فوق النار. للحلوى، تـــوت مـــع عسل الجبل المُجمع.

بينما النار تتضاءل، أغلقت عيني في نصف حلم. كنـــت دافـــئ، والأرض من تحتي لينة بالطحالب والأوراق المتســـاقطة. لم أســـتطع أن أصدق أن هذا الصباح فقط كنت قد استيقظت في قصر بيليوس. هذه المساحة صغيرة، والجدران اللامعة للكهف، كانت أكثر حياة مما كـــان القصر الأبيض الشاحب في أي وقت مضى.

أذهلني صوت تشيرون عندما جاء، قال: "أريد أن أخبرك أن أمك قد أرسلت لك رسالة، يا أخيل".

شعرت بعضلات ذراع أخيل تتشنج بجانبـــي. شـــعرت بحلقـــي يضيق.

"أوه؟ ماذا قالت؟" اختار كلماته بعناية، محايدة.

"قالت أنه ما كان ينبغي للابن المنفي مينوتيوس اللحاق بك، وقد منعته من التواجد معك".

جلست، طار كل النعاس.

تأرجح صوت أخيل بلا مبالاة في الظلام وقال: "هل قالت لماذا؟".

"لم تقل".

أغمضت عيني، على الأقل لن أذل أمام تشيرون، بحكاية يوم الشاطئ. لكنه كان أمر بالكاد مريح. واصل تشيرون، "أفترض أنك كنت تعرف عن مشاعرها فيما يخص هذه المسألة. أنا لا أحب أن أكون مخدوعاً".

توهج وجهي، وكنت سعيداً بالظلام. بدا صوت السنتور أكثر قسوة مما كان عليه من قبل.

نظفت حلقي، فقد وهن وجف فجأة. "أنا آسف"، سمعت نفسي أقول. "أنه ليس خطأ أخيل. جئت بمفردي. هو لم يكن يعرف أنني سوف أفعل. لم أكن أعتقد -" توقفت ثم أكملت. "كنت أمل أنها لن تلاحظ".

"كان ذلك حمق منك". وجه تشيرون كان غامضاً في الظل.

بدأ أخيل يقول بشجاعة: "تشيرون".

رفع السنتور يد وقال: "كما حدث، الرسالة جاءت هذا الصباح، قبل أن يصل أيا منكما. على الرغم من حماقتك، أنا لم أخدع".

"كنت تعرف؟" كان هذا أخيل. لم أكن سأتحدث بهذه الجرأة أبداً، وأضاف: "إذن لقد قررت؟ سوف تتجاهل رسالتها؟".

صوت تشيرون حمل تحذيراً لاستيائه وهو يقول: "إنها إلهة، يا أخيل، إلى جانب أنها أمك. هل فكرت قليلاً جداً في رغباتها؟".

"أنا أحترمها، يا تشيرون. لكنها مخطئة في هذا الشأن". تكورت يداه بإحكام حتى أمكنني رؤية عروقهما، حتى في الضوء الخافت.

"والسبب في أنها مخطئة، يا بيلايدس؟".

راقبته خلال الظلام، وقد انقبضت معدتي. لم أكن أعرف ماذا قد يقول.

"إنها تشعر بأن -" تعثر للحظة، وأنا تقريباً لم أتنفس، ثم أضاف: "إنه بشري ولا يصلح ليكون رفيقي".

"هل تعتقد أنه كذلك؟" سأل تشيرون. ولم يعطي صوته أي تلميح للجواب.

"نعم".

سَخُنَ خداي. وبرز فك أخيل، رمى بالكلمة مجيباً دون تردد.

"فهمت". تحول السنتور إلي وسأل: "وأنت، باتروكلوس؟ هل تستحق ذلك؟".

ابتلعت ريقي وقلت: "أنا لا أعرف إذا ما كنت جديراً بذلك. لكنني أتمنى أن أبقى". توقفت، ابتلعت ريقي مرة أخرى وأضفت: "من فضلك".

ساد الصمت، ثم قال تشيرون: "عندما أحضرتكما هنا، لم أكن قد قررت بعد ما سأفعله. ترى ثيتيس أخطاء كثيرة، بعضها كذلك وبعضها ليست كذلك".

كان صوته غير قابل للقراءة مرة أخرى. الأمل واليأس تعاقبا على الحياة والموت بداخلي.

"إنها أيضاً شابة ولها انحياز مسبق لنوعها. أنا أكبر سن وأمدح نفسي بأنني أستطيع أن اقرأ الرجل بطريقة أكثر وضوحاً. لا اعتراض لدي على باتروكلوس ليكون رفيقك".

شعرت بجسدي يتجوف من الارتياح، كما لو أن عاصفة مـــرت من خلاله.

"لن تكون مسرورة بذلك، لكنني قد تعرضت لغضب الآلهة مـــن قبل". توقف هنيهة، ثم أضاف: "والآن الوقت متأخر، وقد حان الوقت لتناما".

"شكرا لك، معلم تشيرون". بدا صوت أخيل جـــدي وقـــوي. وقفنا، لكنني ترددت.

"أنا فقط أريد -" رفت أصابعي نحو تشـــيرون. ففهـــم أخيـــل واختفى داخل الكهف.

والتفت لمواجهة السنتور قائلاً: "سأغادر، إذا كان ذلك سيسبب مشاكل".

كان هناك صمت طويل، واعتقدت تقريباً أنه لم يسمعني. أخـــيراً قال: "لا تدع ما اكتسبته اليوم أن يكون سهل الخسارة".

ثم تمنى لي ليلة سعيدة، والتفت لأنضم إلى أخيل في الكهف.

الفصل التاسع

في صباح اليوم التالي استيقظت على الأصوات الخافتة لتشـــيرون وهو يجهز الإفطار. كان السرير سميك تحتي، و قد نمت جيدا، وبعمق. تمددت، دهشت قليلاً عندما اصطدام أحد أطرافي بأخيل، كان لا يزال نائماً بجانبـــي.

راقبته للحظة، الخدين الوردية، والأنفاس المنتظمة. شيء ســـحب فيني، فقط تحت جلدي، لكن بعد ذلك رفع تشيرون يده بالتحية عـــبر الكهف، ورفعت له واحدة بخجل في المقابل، ثم كان منسياً.

في ذلك اليوم، بعد أن أكلنا، انضممنا لتشيرون للقيـــام بأعمالـــه الروتينية. كانت سهلة، ممتعة العمل: جمع التوت، واصـــطياد الأسمـــاك للعشاء، وضع الفخاخ للسمان. بداية دراستنا، إذا كان من الممكـــن أن ندعوها ذلك. الطريقة التي يحب تشيرون أن يعلم بها، ليست في مجموعة الدروس، لكن في الفرص. عندما تمرض الماعز التي تتجـــول في الـــتلال، تعلمنا كيف نمزج بورغاتيفيس لبطونهم المريضة، وعندما يتعـــافون مـــرة أخرى، كيف نصنع كمادات لتطرد القراد منهم. عندما سقطت في واد شديد الانحدار، كسر ذراعي وتمزقت ركبتي بجرح مفتوح، تعلمنا كيف نضع الجبائر، ننظف الجروح، وما الأعشاب التي تعطى ضد العدوى.

في رحلة صيد، وبعد أن أجفلنا بطريق الخطأ طائر الصفرد مـــن عشه، علمنا كيف نتحرك بصمت، وكيف نقرأ أثار الأقدام. وعنـــدما وجدنا الحيوان، ما أفضل طريقة لتسديد القوس أو الحبال حتى يكـــون موته سريعاً.

كنا إذا عطشنا وليس لدينا سقاء، كان يعلمنا عن النباتات التي تحمل جذورها فقاعات من النداوة. عندما يسقط شجر دردار الجبل، تعلمنا النجارة، فصل اللحاء بعيداً، صقل وتشكيل الخشب المتبقي. صنعت مقبض فأس، وأخيل مقبض رمح؛ قال تشيرون أننا سريعاً ما سنتعلم كيف نطرق الريش لمثل هذه الأشياء.

ساعدنا كل مساء وكل صباح في الوجبات، مخض حليب الماعز السميك للزبادي والجبن، سلخ الأسماك. كان عمل لم يسمح لنا بالقيام به من قبل، كأمراء، وسقطنا عليه بفارغ الصبر. باتباع تعليمات تشيرون، شاهدنا في ذهول كيف تشكلت الزبدة أمام أعيننا، في الطريقة التي سلق وتصلب بها بيض طائر الدراج على النار الدافئة فوق الصخور.

بعد شهر، خلال وجبة الإفطار، سألنا تشيرون عن ماذا نرغب أن نتعلم أيضاً. "عن تلك". أشرت إلى الأدوات على الحائط. أدوات إجراء عملية جراحية، كما قال. وأنزلهم إلينا، واحداً تلو الآخر.

"احذر، الشفرة حادة جداً. إنها تستخدم عند وجود تعفن في اللحم يجب أن يقطع. اضغط على الجلد حول الجرح، وسوف تسمع فرقعة".

ثم تتبع معنا العظام في أجسادنا، أجرى يد فوق سلسلة فقرات ظهر كلاً منا. أشار بأصابعه، يعلمنا الأماكن تحت الجلد حيث أودعت أجهزتنا.

"أي جرح في أي واحد منهم سيكون في نهاية المطاف مميتاً. لكن الموت الأسرع هو هنا". نقر إصبعه بخفة على تجويف صدغ أخيل. سرت بي قشعريرة وأنا أرى لمسته، ذلك المكان حيث حياة أخيل محمية برهافة. كنت سعيداً عندما تكلمنا عن أشياء أخرى.

في الليل، استلقينا على العشب الناعم أمـــام الكهـــف، وأشـــار تشيرون إلى الأبراج، مخبراً إيانا قصصهم - أندروميدا، ترتعد أمام فك وحش البحر، كما يستعد فرساوس لإنقاذها؛ الحصان الخالد بيغاسوس، مرتفعاً بجناحيه، مولود من الرقبة المقطوعة لميدوسا. وأخبرنا أيضاً عـــن هيراكليس، ولادته، الجنون الذي طغى عليه. في قبضته لم يميز زوجتـــه وأطفاله، فقتلهم من أجل الأعداء.

سأل أخيل: "كيف لم يميز زوجته؟".

"هذه هي طبيعة من الجنون" أجاب تشيرون بصوت بدا أعمق من المعتاد، لقد عرف هذا الرجل، تذكرت. وكان يعرف الزوجة.

"لكن لماذا أتاه هذا الجنون؟".

"رغبت الآلهة في معاقبته"، أجاب تشيرون.

هز رأسه أخيل، بفارغ الصبر. وأضاف: "لكن هذا كان عقـــاب أكبر لها. لم يكن عادلاً بالنسبة لهم".

"لا يوجد قانون يقول أن الآلهة يجب أن تكون عادلة، يا أخيل"، قال تشيرون وأضاف: "ولعل أكبر الحزن، بعد كل شيء، أن تترك على الأرض عندما يرحل الآخر. ألا تعتقد ذلك؟".

"ربما"، اعترف أخيل.

استمعت و لم أتحدث. كانت عينا أخيل مشرقة على ضوء النـــار، وجهه مرسومة بشكل حاد من قبل الظلال المتحركة. كنت لأعرفه في الظلام أو الخفاء، قلت لنفسي. سأعرفه حتى في الجنون.

"تعالوا" قال تشيرون ثم أضاف: "هـــل أخـــبرتكم بأســـطورة أسكليبيوس، وكيف تمكن من معرفة أسرار الشفاء؟".

لقد أخبرنا، لكننا أردنا سماعها مرة أخرى، قصـــة كيـــف أن البطل، ابن أبولو، أنقذ حياة ثعبان، فقام الثعبان بلعق أذنيـــه حـــتى

أصبحت نظيفة في امتنان، لذلك ربما هو قد سمع همسها له بأسرار الأعشاب.

قال أخيل: "لكنك كنت من علمه الشفاء حقاً". فرد: "نعم، أنا".

"ولا تمانع في أن يحصل الثعبان على كل الفضل؟".

ظهرت أسنان تشيرون خلال لحيته الداكنة بابتسامة وقال: "لا، يا أخيل، لا أمانع".

في وقت لاحق عزف أخيل على القيثارة، بينما استمعت وتشيرون. قيثارة أمي، وكان قد أحضرها معه.

"تمنيت لو كنت أعرف" قلت له في اليوم الأول، عندما أراني إياها.

فقلت له: "تقريباً لم أكن لآتي، لأنني لم أكن أريد تركها".

ابتسم وقال: "الآن أعرف كيف أجعلك تتبعني في كل مكان".

غرقت الشمس تحت تلال بيليون، ونحن سعداء.

مر الوقت بسرعة على جبل بيليون، انزلقت الأيام في قصيدة.

كان هواء الجبل بارد الآن في الصباح عندما نستيقظ، ويدفأ فقط على مضض في ضوء الشمس الرقيق الذي تمت تصفيته من خلال الأوراق الميتة. أعطانا تشيرون الفراء لارتدائها، وعلق جلود الحيوانات على مدخل الكهف ليحافظ على الدفء فيها بالداخل. خلال الأيام جمعنا الخشب لنار الشتاء، أو اللحم المملح لمدة لحفظه. الحيوانات لم تذهب بعد إلى أوكارها، لكنها ستفعل قريباً، اخبرنا تشيرون. في الصباح، تعجبنا من أوراق الصقيع المحفورة. كنا نعرف الثلج من الشعراء والقصص، لم يسبق لنا رؤيته أبداً.

في صباح أحد الأيام، استيقظت لأجد تشيرون قد ذهب، وهذا لم يكن أمر غير عادي. في كثير من الأحيان يستيقظ قبل أن نفعل، لحلب

الماعز أو لقطف الفاكهة للإفطار. غادرت الكهف بحيث يكمل أخيل نومه، وجلست بانتظار تشيرون في المساحة الصغيرة. رماد نار الليلة الماضية كان أبيض وبارد. حركته متمهل بعصا، مستمعاً إلى الغابة من حولي. تمتم طير سمان في الخمائل، وناحت حمامة منادية. سمعت حفيف الأرض المكسوة، من الريح أو وزن حيوان مهمل. في لحظة سأحضر المزيد من الخشب وأشعل النار.

بدأت الغرابة تنخس جلدي. أولاً صمت طير السمان، ثم الحمامة. هدأت الأوراق، ومات النسيم، و لم يتحرك أي حيوان في الأجمة. كان هناك ميزة في ذلك الصمت كحبس بالأنفاس. مثل الأرنب تحت ظل الصقور. يمكنني أن أشعر بنبضاتي تقرع جلدي.

في بعض الأوقات، ذكرت نفسي، يقوم تشيرون ببعض الحيل السحرية الصغيرة، حيل إلاهية، مثل تدفئة المياه أو تهدئة الحيوانات.

"تشيرون؟" ناديت. تردد صوتي، رقيقاً. "تشيرون؟".

"إنه ليس تشيرون".

التفت. وقفت ثيتيس على حافة المساحة الصغيرة، جلدها بلون العظام الأبيض، وشعرها أسود مشرق مسرح كالبرق. الفستان الذي تلبسه التصق على مقربة من جسدها وتلألأ مثل قشرة الأسماك. ماتت أنفاسي في حلقي.

"لم يكن من المفترض أن تكون هنا"، قالت. بصوت بدا كشط صخور مسننة على بدن سفينة.

تقدمت إلى الأمام، وبدا العشب بالذبول تحت قدميها، كانت حورية بحر، وأشياء الأرض لم تكن تحبها.

"أنا آسف"، تمكنت من قول ذلك، وصوتي كورقة مجففة، يتحشرج في حلقي.

"حذرتك"، قالت، وبدا أن سواد عينيها يتسرب إلي، ملء حنجرتي إلى درجة الاختناق. لم أتمكن من الصراخ فيما تجرأت على ذلك.

انتبهت إلى الضوضاء ورائي، ثم علا صوت تشيرون في الصمت.

"تحية طيبة، ثيتيس".

تدفق الدفء مرة أخرى في جلدي، وعادت أنفاسي. ركضت إليه تقريباً. لكن نظرتها جمدتني هناك، لا أتزعزع. لم أشك في أنها يمكن أن تصل إلي إذا أرادت.

"لقد أخفيت الصبي" قال تشيرون.

فردت: "إنه لا ينتمي إلى هنا"، شفتيها حمراء كما لو أن دمها أريق حديثاً.

حطت ذراع تشيرون بحزم على كتفي. "باتروكلوس"، قال ثم أضاف: "سوف تعود إلى الكهف الآن. وسأتحدث إليك في وقت لاحق".

وقفت، بغير ثبات، وأطعت.

"لقد عشت مع البشر فترة طويلة جداً، سنتور"، سمعتها تقول قبل أن تغلق جلود الحيوانات خلفي. ارتخيت على جدران الكهف؛ ذاق حلقي الملح الأجاج الخام.

"أخيل"، قلت.

فتح عينيه، وكان بجانبي قبل أن أتمكن من الحديث ثانية.

"هل أنت بخير؟".

"أمك هنا"، قلت.

رأيت العضلات تتشنج تحت جلده.

"هي لم تصبك بأذى؟".

هززت رأسي نفياً، و لم أضِف أنني اعتقدت أنها تريد أن تفعل. بل أنها قد تكون فعلت، لو لم يأت تشيرون.

"يجب أن أذهب"، قال. همست جلودنا لبعضها البعض بينما افترقت ببعده، ثم انزلقت منغلقة ثانية. لم أستطع سماع ما قيل في المساحة الصغيرة. أصواتهم كانت منخفضة، أو ربما ذهبوا للتحدث في مكان أخر. انتظرت، أتتبع الحلزون على طابق الأرض الموضب. لم أقلق من أجلي، لفترة أطول. تشيرون يريدني أن أبقى، وقد كان أكبر منها، كامل النمو عندما كانت الآلهة لا تزال تُهز في مهدها، عندما كانت فقط بيضة في رحم البحر. لكن كان هناك شيئاً آخر، أقل سهولة من تسميته. خسارة، أو تقليل، أخشى أن يجلبه حضورها.

كان منتصف النهار تقريباً عندما عادوا. ذهبت نظرتي إلى وجه أخيل أولاً، بحثت في عينيه، وطريقة فمه. لم أرَ شيء ولكن ربما لمسة من التعب. ألقى بنفسه على السرير بجانبي وقال: "أنا جائع".

قال تشيرون: "وكذلك يجب أن تكون أنت" وأضاف: "فات وقت الغداء بكثير". وكان بالفعل يعد الغداء لنا، يناور في فضاء الكهف بسهولة رغم كبر حجمه. تحول أخيل إلي وقال: "كل الأمور على ما يرام"، وأضاف: "إنها فقط تريد التحدث معي، تريد أن تراني".

"قالت إنها سوف تأتي للتحدث معه مرة أخرى"، قال تشيرون، وكما لو إنه يعرف ما فكرت به، أضاف: "بطريقة مناسبة. فهي والدته".

وهي إلهة أولاً، فكرت.

حتى الآن، ونحن نأكل، خفت مخاوفي. لقد كنت نصف خائف إنها ربما أخبرت تشيرون بيوم الشاطئ، لكنه لم يختلف نحو أي منا، وأخيل نفسه كان كما كان دائماً. ذهبت إلى السرير، إن لم يكن في سلام، باطمئنان على الأقل.

جاءت في كثير من الأحيان بعد ذلك اليوم، كما قال تشيرون أنها ستفعل. تعلمت أن أستمع إليه - لذلك الصمت الذي يسقط كالستار - وأعرف أن أبقى على مقربة من تشيرون حينها، ومن الكهـــف. لم يكن التطفل كثيراً، وقلت لنفسي أنني لم أكن احسدها. لكنني كنـــت سعيداً دائماً عندما تغادر مرة أخرى.

جاء الشتاء، وتجمد النهر. غامرت أنا وأخيل عليـــه، انـــزلقت أقدامنا. في وقت لاحق، قصصنا دوائر منه وأسقطنا خيـــوط للصـــيد، كانت اللحوم الطازجة الوحيدة لدينا، كانت الغابات فارغة من الجميع ماعدا الفئران والسمور في بعض الأحيان.

جاء الثلج، كما وعد تشيرون أنه سوف يـــأتي. تمـــددنا علـــى الأرض، وسمحنا للندف بتغطيتنا، ننفخهم بأنفاسنا حتى تذوب. لم يكن لدينا أحذية، ولا معاطف ماعدا فراء تشيرون، وكنا ســـعداء بـــدفء الكهف. حتى تشيرون ارتدى قميص علوي أشعث، خاطه من جلـــد الدب.

أحصينا الأيام بعد سقوط الثلج الأول، ووسمناها بالخطوط علـــى حجر. "عندما تصلون إلى الخمسين" قال تشيرون، "سيبدأ جليد النـــهر بالتصدع". في صباح يوم اليوم الخمسين سمعنا ذلك، صوت غريـــب، وكأنه سقوط شجرة. شاقاً قسم السطح المتجمد ما يقرب من الضـــفة للأخرى. "سيأتي الربيع قريباً الآن"، قال تشيرون.

لم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ العشب في النمو مرة أخـــرى، وظهرت السناجب الهزيلة بسوط رقيق من جحورها.

تتبعناهم، ونحن نتناول وجبات الإفطار في فصل الربيـــع الجديـــد بهوائه النقي. كان في أحد هذه الصباحات حينما طلب أخيـــل مـــن تشيرون أن يعلمنا القتال. لا أعرف ما الذي جعله يفكـــر في هـــذا في

ذلك الحين. غادرنا الشتاء، مع عدم التدرب بما يكفي ربما، أو لزيـــارة أمه، قبل أسبوع. ربما لا هذا ولا ذاك.

هلا علمتنا القتال؟

كانت هناك وقفة قصيرة، لذلك قد أكون تقريباً قد تخيلتها، قبل أن يجيب تشيرون: "إذا كنت ترغب في ذلك، سوف أعلمك".

في وقت لاحق من ذلك اليوم، أخذنا إلى مساحة صغيرة، مرتفعة فوق التلال. معه رماح بقبضات وسيفين تدريب لنا، أخذهم من خزانة في بعض زاويا الكهف. طلب منا أداء كل التدريبات الــتي نعرفهــا. ففعلت، ببطء، الحواجز والضربات وحركة القدمين كما تعلمــت في ثيا. إلى جانبــي، فقط في زاوية رؤيتي، أطراف أخيل تضرب بضبابية.

جلب تشيرون طاقم بعصابات برونــزية، ووسطهم مــن حــين لآخر في طريقنا، للتحقق منها، واختبار ردود أفعالنا.

بدا أنها سوف تستمر لفترة طويلة، فألمتني ذراعي أكثر مع رفــع ووضع رأس السيف. أخيراً، نادى تشيرون لنتوقف. شربنا بعمق مــن السقاء وتمددنا على ظهورنا على العشب. صدري يعلو ويهبط بعنف. وصدر أخيل منتظم.

كان تشيرون صامت، يقف أمامنا.

"حسنا، ما رأيك؟" كان أخيل متلهف، وتذكرت أن تشيرون لم يكن سوى الشخص الرابع الذي شهده يقاتل أبداً.

لم أكن أعرف ما كنت أتوقع أن يقول سنتور، لكنه لم يكن كما تبع ذلك.

"لا يوجد شيء أستطيع أن أعلمك إياه. تعلم جميعاً مــا عرفــه هيراكليس، وأكثر من ذلك. أنت أعظم محارب في جيلــك، وجميــع الأجيال من قبل".

تدفق لون في خدي أخيل، لم أتمكن من معرفة ما إذا كان إحراجاً أو سروراً أو كليهما.

"سوف يسمع الرجال بمهاراتك، وسوف يرغبون أن تحارب في حروبهم". توقف هنيهة، ثم أضاف: "بماذا سوف تجيب؟".

"لا أعرف"، قال أخيل.

"هذا جواب في الوقت الراهن، لكنها لن تكون جيدة بما يكفي في وقت لاحق"، قال تشيرون.

كان هناك صمت بعد ذلك، وشعرت بالضيق في الهواء من حولنا. وجه أخيل، للمرة الأولى منذ أن قدمنا، بدا مقبوض ورسمي.

"ماذا عني؟" سألت.

انتقلت عيني تشيرون الداكنة لتستريح على عيني وقال: "أنت لن تكتسب الشهرة بقتالك أبداً. هل هذا مفاجئ لك؟".

كان بلهجته يقرر أمر واقع، وعلى نحو ما خفف ذلك من الألم.

"لا"، قلت بصدق.

"ومع ذلك فهو أمر لا يتجاوزك أن تكون جندياً مؤهلا. هل ترغب في تعلم ذلك؟".

فكرت في عيني الصبي المعتمة، وكيف بسرعة أغرق دمه الأرض. فكرت في أخيل، أعظم محارب في جيله، فكرت في ثيتيس التي تود أن تأخذه مني، لو استطاعت.

"لا"، قلت.

وكان ذلك نهاية دروسنا في الجندية.

مر الربيع إلى الصيف، ونمت الغابات حارة ووفيرة، خصبة بالطرائد والفاكهة. أصبح أخيل في الرابعة عشر، وأحضر الرسل الهدايا له من بيليوس. كان من الغريب أن نراهم هنا، في زيهم وألوان القصر.

شاهدت أعينهم، تومض أكثر علي، وعلى أخيل، والأهم من ذلك كله على تشيرون. القيل والقال محبوبة في القصر، وسوف يستقبل هؤلاء الرجال مثل الملوك عند عودهم. كنت سعيداً لرؤيتهم يحملون على أكتافهم صناديقهم الفارغة ويغادرون.

كانت الهدايا مرحباً بها - أوتار قيثارة جديدة وستر طرية، نسجت من أجود أنواع الصوف. كان هناك أيضاً قوس جديدة، وسهام برؤوس حديدية. لمسنا بأصابعنا معدنها، الحافة الحادة تشير إلى أنها سوف تجلب عشاءنا في الأيام المقبلة.

بعض الأشياء كانت أقل فائدة، عباءات مطعمه بالذهب الصلب، التي من شأنها أن تعطي حضور لمالكها بعيداً في الخمسين الخطوة، وحزام مرصع بجوهرة، ثقيل جداً لارتدائه لأي شيء عملي. كان هناك كذلك رداء حصان، مطرز بغزارة، يهدف إلى تزين مطية ولي العهد.

"آمل أن هذا ليس لي"، قال تشيرون، رافعاً حاجب. مزقناه إلى كمادات وضمادات ولفرك الملابس؛ المادة الخشنة مثالية لسحب قشور الأوساخ والغذاء.

بعد ظهر ذلك اليوم، تمددنا على العشب أمام الكهف. "لقد مضى ما يقارب العام منذ أن وصلنا" قال أخيل. كان النسيم بارد على جلودنا.

"لا أشعر بأنها طويلة جداً"، أجبت. كنت نصف نائم، وقد ضاعت عيني في الزرقة المائلة لسماء بعد الظهر.

"هل تفتقد القصر؟".

فكرت في هدايا والده، الخدم ونظراتهم، وهمسات القيل والقال التي سيجلبونها معهم مرة أخرى إلى القصر.

"لا"، قلت.

"ولا حتى أنا" قال وأضاف: "اعتقدت أنني ربما سأفعل، لكنني لم أفعل".

دارت الأيام، والأشهر، ومرت سنتان.

الفصل العاشر

كان الربيع، وقد أصبحنا في الخامسة عشر. دام الجليد في فصل الشتاء وقتاً أطول من المعتاد، وكنا مسرورين بخروجنا مرة أخرى، تحت الشمس. تجاهلنا ستراتنا، ووخز النسيم الخفيف جلودنا. لم أتجرد من ملابسي طوال الشتاء؛ كان بارداً جداً لخلع فراءنا وعباءاتنا، وراء غسل سريع في التجويف الصخري الذي كان بمثابة حمامنا.

تمدد أخيل، يبسط أطرافه المتيبسة من البقاء فترة طويلة جدا في الداخل. قضينا الصباح في السباحة ولعبة المطاردة عبر الغابة. شعرت بعضلاتي مرهقة برضى، سعيدة باستخدامها ثانية.

راقبته، بخلاف وجه النهر المتقلب، لم يكن هناك مرايا على جبل بيليون، لذلك تمكنت من قياس نفسي فقط خلال التغييرات في أخيل. كانت أطرافه لا تزال نحيلة، لكنني أستطيع أن أرى عضلاتها الآن، ترتفع وتهبط تحت جلده، و هو يتحرك. وجهه، أيضاً، كان أكثر حزماً، وكتفيه أوسع مما كانت عليه.

"تبدو أكبر سناً"، قلت.

توقف، والتفت إلي قائلا: "هل أبدو كذلك؟".

"نعم". أومأت برأسي موافقاً، وسألت: "هل أبدو أنا كذلك؟".

"تعال إلى هنا" قال. وقفت، ومشيت إليه. تفحصني للحظة ثم قال: "نعم، تبدو كذلك".

"كيف؟" سألت، أردت أن أعرف. "كثيرا؟".

"وجهك مختلف"، قال.

"أين؟".

لمس فكي بيده اليمنى، ورسم بأصابعه على امتداده وقال: "هنـــا، وجهك أوسع مما كان من قبل". رفعت لأتلمسه بيدي، لأرى مـــا إذا كنت سأشعر بهذا الاختلاف، لكنه كان نفس الشيء بالنسبة لي، عظم وجلد. فأخذ بيدي ونقلها أسفل ترقوتي وقال: "أصبحت أعرض هنـــا أيضاً"، وأضاف: "وهذا"، لمست إصبعه بلطف، التفاحة الناعمة الـــتي ظهرت من حلقي. ابتلعت ريقي، وشعرت بأصابعه تقتفي أثر الحركة.

"أين أيضاً؟" سألت.

فأشار إلى الدرب الجميلة من الشعر الداكن الذي ركض أســـفل صدري وغطى معدتي.

توقف، وأصبح وجهي دافئ.

"هذا يكفي" قلت، بصوت حاد مفاجئ أكثر مما عنيت. جلست ثانية على العشب، واستأنف هو تمدده. راقبت النسيم يحـــرك شـــعره؛ راقبت سقوط أشعة الشمس على جلده الذهبـــي، ثم اتكأت إلى الوراء وسمحت لها أن تسقط كذلك علي.

بعد بعض الوقت، توقف وجاء للجلـــوس بجانبـــــي. شـــاهدنا العشب، والأشجار، ونتوءات البراعم الجديدة، تنمو ببساطة.

صوته كان بعيد، لا مبالي تقريباً. "لن تكون مستاء، علـــى مـــا أعتقد، مع مظهرك الآن".

ازداد دفـء وجهي مرة أخرى. لكننا لم نتكلم أكثر من ذلك.

كنا في السادسة عشر تقريباً. سيصل رسل بيليوس قريبا بالهدايا؛ قريبا سوف يستوي التوت، والفواكه ستتورد و تسقط بـــين أيـــدينا. السادسة عشر كانت سنتنا الأخيرة في مرحلة الطفولة، العام قبـــل أن ينادينا آباؤنا بالرجال، سوف نبدأ بارتداء رداء الرؤوس والخيتون كذلك

وليس فقط السترات. سيتم ترتيب زواج أخيل، وأنا ربما أتخذ زوجة، إذا أردت. فكرت ثانية في الفتيات الخادمات بأعينهم الباهتة. تذكرت نتفة من محادثة كنت قد سمعتها من الأولاد، الحديث عن الثديين والوركين والاقتران.

إنها مثل كريم، إنها بتلك الليونة.

عندما تصبح فخذيها من حولك، سوف تنسى اسمك.

أصوات الأولاد تحتد مع الإثارة، وترتفع ألوانهم. لكن عندما حاولت أن أتخيل ما تكلموا عنه، ينزلق ذهني بعيداً، مثل سمكة لن يتم صيدها.

جاءت صور أخرى عوضاً عنهم. منحنى رقبة انحنت على قيثارة، شعر يلمع في ضوء النار، أيدي تتلاعب بالأوتار. كنا معاً طوال اليوم، وأنا لم أستطع الهرب: رائحة الزيوت التي يستخدمها على قدميه، لمحات من جلده بينما هو يرتدي ملابسه. أود أن أسحب نظرتي منه، وأتذكر يوم الشاطئ، البرودة في عينيه وكيف هرب مني.

ودائماً ما تذكرت والدته.

بدأت بالخروج لوحدي، في وقت مبكر من الصباح، عندما يكون أخيل ما زال نائماً، أو في فترة بعد الظهر، عندما كان يتمرن على ضربات رمحه. أحضرت معي ناي، لكن نادراً ما عزفت عليه. بدلاً عن ذلك أجد شجرة أتكئ إليها و أتنفس التدفق الحاد لرائحة السرو، تهب من قمة الجبل.

ببطء، كما لو كنت أهرب من ملاحظاتي، تتحرك يدي لتستريح بين فخذي. لقد كان هناك خزياً في هذا الشيء الذي فعلته، وخزياً أكبر لا يزال في الأفكار التي تأتي معه. لكن التفكير بهم داخل كهف الكوارتز الوردي سيكون أسوأ، حين يكون بجانبي.

كان من الصعب في بعض الأحيان، العودة بعد ذلك إلى الكهف.

"أين كنت؟ "يسأل.

"فقط" أود أن أقول، وأشير بشكل مبهم. يومئ برأسه. لكـــني كنت أعرف أنه رأى الاحمرار الذي لون خدي.

أزداد الصيف حرارة أكثر، وسعينا لظل النهر، مياهه التي ألقـــت أقواس الضوء ونحن نرش بلطف. صخور القاع مطحلبة وباردة، تدور تحت أصابعي بينما أخوضها. صحنا، وأخفنا الأسماك، الذين فـــروا إلى ثقوبهم الموحلة أو إلى مياه منبع أكثر هدوء. الجليـــد المتســـارع ذاب برحيل الربيع، استلقيت على ظهري، وسمحت للتيار الناعس بحملـــي. أحببت الشعور بالشمس على معدتي وبرودة أعماق النهر تحتي. طفـــا أخيل بجانبـــي أو سبح ضد جريان النهر الساحب ببطء.

عندما نتعب من هذا، فإننا نغتنم فروع الصفصاف الدانية ونرفع أنفسنا بنصف خروج من الماء. في هذا اليوم ركلنا بعضـــنا الـــبعض، تشابكت أرجلنا، محاولة إزاحة الأخرى، أو ربما التسلق إلى فـــرعهم. باندفاع، أفلت فرعي ولففت يدي حول جذعه. زفر "أوف" متفاجئ. تصارعنا بهذه الطريقة للحظة، ضحكنا، ذراعي ملفوفة حوله. ثم كـــان هناك صوت كسر حاد، وتهاوى فرعه، ضارب بنا في النهر. أغلقـــت المياه الباردة فوق رؤوسنا، ونحن لا نـــزال نتصارع، بالأيـــدي علـــى الجلد الزلق.

عندما طفونا إلى السطح، كنا نلهث ومتحمسين. قفـــز علـــي، ووجهني إلى أسفل خلال المياه الصافية. اشتبكنا، نظهـــر تـــواقين إلى الهواء، ثم نغرق مرة أخرى.

على مدى ذلك، اتقدت رئتينا، ووجوهنا تحولت حمراء من طول الفترة التي قضيناها تحت الماء، جررنا أنفسنا إلى الضفة وتمددنا هناك بين

حشائش البردي وأعشاب المستنقعات. غرقت أقدامنا في الوحل البارد لحافة المياه.

المياه لا تزال تتدفق من شعره، شاهدت حباتها، اقتفيت آثارها عبر ذراعيه وخطوط صدره.

في صباح يوم عيد ميلاده السادس عشر استيقظت مبكــراً. أراني تشيرون شجرة على أقصى منحدر بيليون تحمل ثمار تين نضجت لتوها، الأولى في الموسم. لم يعرف أخيل بها، أكد سنتور ذلك لي. راقبتــهم لعدة أيام، عقدهم الخضراء الصلبة تورمت وأصبحت داكنــة، نمــت حاملة معها البذور. والآن أود أن أقطفها لإفطاره.

لم يكن هديتي الوحيدة. كنت قد وجدت قطعة خشــب دردار متبلة وبدأت بصقلها سراً، نحتُ عنها طبقاتها اللينة.

على مدى ما يقرب شهرين برز شكل - صبــي يعزف قيثارة، رأسه مرفوع إلى السماء، فمه مفتوح، كما لو كان يغني. كانت معي الآن، وأنا أمشي.

تعلقت التين غنية وثقيلة على الشجرة، قشرتها المقوسة مطواعــة للمسة يدي - يومين بعد وستكون ناضجة أكثر من اللازم. جمعتــهم في وعاء خشبــي منحوت وحملتهم بعناية عائداً إلى الكهف.

جلس أخيل في المساحة الصغيرة مع تشيرون، صندوق جديد من بيليوس يستريح، لم يفتح بعد عند قدميه. رأيت الاتساع السريع لعينيه حينما رأى التين. وقف على قدميه، ليصل إلى الوعاء بفارغ الصبر قبل أن أتمكن حتى من وضعها بجانبه. أكلنا حتى أتخمنا، أصابعنا وذقوننــا لزجة بالحلاوة:

الصندوق من بيليوس كان به سترات أكثر وأوتار قيثــارة، وفي هذه المرة، في عيد ميلاده السادس عشر، عباءة مصبوغة بــالأرجواني

الغالي من محارة موريكس. لقد كانت رداء رأس أمير، ملك المستقبل، ورأيت كم سره ذلك.

ستبدو جيدة عليه، أعرف ذلك، والأرجواني لا يزال يبدو أكثر ثراء بجانب ذهب شعره.

تشيرون، أيضاً، أعطاه هدايا - عصا للمشي، وحزام سكين جديد. وأخيراً، مررت له التمثال. تفحصه، أنامله تتحرك على العلامات الصغيرة التي خلفتها السكين وراءها.

"إنه أنت"، قلت، مبتسماً بحماقة.

نظر إلى أعلى، بمتعة مشرقة في عينيه وقال: "أعرف".

ذات مساء، لم يمضِ وقت طويل بعد على ذلك، بقينا حتى وقت متأخر بجوار جمرة النار. ذهب أخيل طويلاً من بعد ظهر اليوم، ثيتيس كانت قد جاءت وأبقته معها لفترة أطول من المعتاد. الآن كان يعزف على قيثارة أمي. كانت الموسيقى هادئة وساطعة، كما هي النجوم فوق رؤوسنا.

بجواري، سمعت تشيرون يتثاءب، يستوي أكثر عمقاً على ساقيه المطويتين. بعد لحظة توقفت القيثارة، وجاء صوت أخيل عال في الظلام. "هل أنت متعب، تشيرون؟".

"نعم، أنا كذلك".

"إذن، سنتركك لترتاح".

لم يكن من عادته الذهاب سريعاً جداً، ولا الكلام عني، لكنني كنت متعباً و لم أعترض. ارتفع وتمنى لتشيرون ليلة سعيدة، عائداً إلى الكهف. تمددت، تشربت بضع لحظات أخرى من ضوء النار، ثم تبعته. داخل الكهف، كان أخيل سبق وأصبح في السرير، وجهه رطب من غسله من النبع. غسلت أيضاً، الماء البارد تخلل جبيني.

قال: "أنت لم تسألني عن زيارة أمي حتى الآن".

فقلت له: "كيف هي؟".

"إنها على ما يرام". كان دائماً ما يعطي هذا الجواب، لذلك لم أسأله في بعض الأحيان.

"جيد". قلت، ورفعت قليلاً من الماء، لأشطف الصابون من وجهي. صنعناه من زيت الزيتون، ولا تزال رائحته تشبهه بخفة، غني وجميل.

تكلم أخيل ثانية: "تقول إنها لا تستطيع أن ترانا هنا".

لم أكن أتوقع منه أن يقول أكثر من ذلك. "هممم؟".

"إنها لا تستطيع أن ترانا هنا. على بيليون".

كان هناك شيء في صوته، توتر. التفت إليه.

"ماذا تقصد؟".

مشطت عينيه السقف وقال: "تقول - سألتها إذا كانت تراقبنا هنا". كان صوته عالياً وأضاف: "قالت، إنها لا تفعل ذلك". ساد الصمت في الكهف. صمت، لكن ليس بالنسبة لصوت انحدار المياه ببطء.

"أوه"، قلت.

"وددت أن أخبرك. لأن -" توقف هنيهة، ثم قال: "اعتقدت أنك تود أن تعرف. أنها -" تردد ثانية، ثم قال: "لم تكن مسرورة لأنني سألتها".

"لم تكن مسرورة"، كررت. شعرت بالدوار، ذهني يدور ويدور خلال كلماته. إنها لا تستطيع أن ترانا. أدركت أنني كنت واقفاً نصف متجمد من حوض المياه، وما زالت المنشفة مرفوعة لذقني. أجبرت نفسي على أن أضع الملابس جانباً، لأنتقل إلى السرير. كانت هناك وحشية فيني، من الأمل والذعر.

سحبت الأغطية وتمددت على الفراش الذي سبق وتدفأ بملمسه. كانت عيناه ما تزال ثابتة على السقف.

قلت في نهاية المطاف: "هل أنت - مسرور بجوابها؟".

"نعم"، قال.

تمددنا هناك للحظة، في ذلك الصمت المتوتر والحي.

عادة في الليل نحكي لبعضنا النكات أو القصص. السقف أعلى رؤوسنا منقوش بالنجوم، كنا إذا تعبنا من الحديث، نشير إليهم. "أوريون"، أقول، متتبعاً إصبعه. "الثريا".

ولكن الليلة لم يكن هناك شيء. أغمضت عيني وانتظرت، دقائق طويلة، حتى خمنت أنه كان نائماً. ثم التفت لأنظر في وجهه.

كان على جنبه، يراقبني. لم أكن قد سمعته يلتف. أنا لا أسمعه على الإطلاق. كان بلا حراك تماماً، ذلك السكون كان له وحده. تنفست، وكنت مدركاً للوسادة الداكنة الممتدة بيننا.

انحنى إلى الأمام.

أفواهنا فتحت تحت بعضها البعض، ودفء حلاوة حلقه تدفقت إلى حلقي. لم أستطع أن أفكر، ولا فعل أي شيء عدا امتصاصه في، كل نفس كما جاء، والحركات الناعمة لشفتيه. كانت معجزة.

كنت أرتعش، أخشى أن أجعله يحلق. لم أكن أعرف ماذا أفعل، ماذا يحب. قبلت رقبته، وامتداد صدره، وتذوقت الملح. بدا يرتفع/يزداد تحت وقع لمساتي، قريباً من النشوة. رائحته كاللوز والأرض. ضغط بجسده علي، سحق شفتي وحولهما إلى نبيذ.

ما يزال كما أخذته بين يدي، ناعم مثل الدقيق الشهي من البتلات. كنت أعرف جلد أخيل الذهبي ومنحنى رقبته، و انحناءات

مرفقيه. أعرف كيف يبدو السرور عليه. أجسادنا كملت بعضها البعض مثل اليدين.

التوت البطانيات حولي. فنزعهم منا على حد سواء. صعقني مرور الهواء فوق بشرتي، فتجمدت. كان مؤطر برسمات النجوم؛ بولاريس جلس على كتفه. انزلقت يده من جراء الارتفاع المتسارع وسقطت على بطني المتنفس.

داعبني بلطف، كما لو كان يمهد أجمل الملابس، وركي ارتفعا للمسته. جذبته إلي، وارتعشت وارتعشت. وكان هو أيضاً يرتعش. وبدا كما لو أنه كان يركض بعيداً وبسرعة.

قلت اسمه، على ما أعتقد. انفجر من خلالي؛ كنت أجوف كقصب علق للريح ليرن. لم يكن هناك وقت يمر ما عدا أنفاسنا.

وجدت شعره بين أصابعي. كان هناك تجميع بداخلي، خفقات الدم تحت حركة يده. ضغط وجهه تجاهي، لكنني ما زلت أحاول أن أتشبث به ليقترب أكثر، قلت له لئلا يتوقف.

فلم يتوقف. تجمع الشعور وتجمع حتى قفزت من حلقي صرخة غليظة، وقادتني الزهرة الحادة، متقوساً، عليه.

لم يكفي ذلك. مددت يدي، ووجدت مكان متعته. أغمض عينيه، كان هناك إيقاع أحبه، يمكنني الإحساس به، الإمساك بأنفاسه، اللهفة. أصابعي كانت متواصلة، تتابع كل لهاث متسارع. جفونه بلون سماء الفجر، ورائحته كرائحة الأرض بعد المطر. فتح فمه في صرخة عاجزة عن التعبير، كنا منصهرين قريب جداً حتى شعرت بدفقة سائلة دافئة منه علي. اهتز، ثم تمددنا بسكون.

ببطء، مثل سقوط الغسق، تبينت عرقي، ورطوبة الأغطية، والبلل الذي انزلق بين بطوننا. انفصلنا، تقشرنا بعيداً عن بعضنا البعض،

وجوهنا منتفخة ونصف مرضوضة بالقبلات. رائحة الكهف حارة وحلوة، مثل فاكهة تحت الشمس. التقت أعيننا، ولم نتكلم. ارتفع الخوف في، مفاجئ وحاد. وكانت هذه لحظة الخطر الحقيقي، وتوترت، خوفاً من ندمه.

قال: "لم أكن أعتقد -" وتوقف. لم يكن هناك شيء في العالم أريده أكثر من أن أسمع ما لم يقله.

"ماذا؟" سألته. إذا كان سيئاً، فلننهي ذلك سريعاً.

"لم أكن أعتقد أننا سوف نقوم أبداً -" كان متردد على كل كلمة، وأنا لا يمكن أن ألومه على ذلك.

"لم أكن أعتقد ذلك أيضاً" قلت.

"هل أنت آسف؟" خرجت الكلمات منه بسرعة، بنفس واحد.

"أنا لست كذلك" قلت.

"أنا أيضاً لست كذلك".

كان هناك صمت بعد ذلك، ولم أهتم بالسرير الرطب أو كيف كنت متعرقاً. كانت عيناه لا تتزعزع، خضراء ببقع ذهبية. فارتفع اليقين فيني، واستقر في حلقي. لن أتركه أبداً. سيكون هذا، دائماً، طالما يسمح لي.

لو كان لي كلمات تتكلم عن شيء من هذا القبيل، لقلتها. لكن لم يكن هناك شيء تبدو كبيرة بما يكفي لذلك، لتمسك بتلك الحقيقة المتورمة.

كما لو أنه سمعني، وصل ليدي. لم أكن في حاجة للنظر؛ حفرت أصابعه في ذاكرتي، نحيلة كبتلة متعرقة، قوية وسريعة ولا تخطئ أبداً.

"باتروكلوس"، قال. لقد كان دائماً أفضل تعبيراً بالكلمات مني.

في صباح اليوم التالي استيقظت دائخاً، جسدي مشوش الـــذهن بدفء وسهولة. بعد الحنان جاءت عاطفة أكبر، كنا حينـــها أبطـــأ، متريثين، ليلة حالمة امتدت أكثر وأكثر. الآن، مشـــاهدته بجانبـــي تثيرني، يده تستريح على معدتي، رطبة و لولبية كزهرة عند الفجـــر، كنت متوتراً ثانية. تذكرت الأشياء التي كنـــت قلتـــها وفعلتـــها في اندفاعي، الضوضاء التي أحدثتها. خشيت أن التعويذة كســـرت، أن الضوء المتسلل من خلال مدخل الكهف من شأنه أن يحول كل شيء إلى حجر.

لكنه بعد ذلك كان مستيقظاً، شفتيه تشكل نصف تحية نعسان، ويده سبق أن امتدت لتصل إلى يدي. تمددنا هناك، مثل ذلك، حـــتى أصبح الكهف مشرق بالصباح، ودعانا تشيرون. أكلنـــا، ثم ركضـــنا لنغتسل في النهر. استمتعت بمعجزة أن أكون قادر على مشاهدته بكل صراحة، للاستمتاع بمسرحية الضوء المرقط على أطرافه، وتقوس ظهره بينما يغوص تحت الماء. في وقت لاحق، تمددنا على ضفة النهر، نـــتعلم خطوط أجسادنا من جديد. هذا، وهذا وهذا.

كنا مثل الآلهة في بزوغ فجر العالم، وفرحنا مشع حتى لا يمكننـــا أن نرى شيء آخر ما عدا الآخر.

إذا كان تشيرون قد لاحظ تغيير، فهو لم يتكلم عنـــه. لكـــن لم يمكنني أن لا أقلق.

"هل تعتقد أنه سيكون غاضب؟".

كنا قرب بستان الزيتون على الجانب الشمالي من الجبل. كانـــت النسائم هنا أحلى، باردة ونظيفة كنبع الماء.

"لا أعتقد أنه سوف يكون كذلك"، قال ومد يده لترقوتي، الخط الذي كان يحب أن يرسمه بإصبعه للأسفل.

"ولكنه قد يغضب. بالتأكيد هو يعرف الآن. هل ينبغي أن نقول له شيء؟".

هذه ليست المرة الأولى التي تساءلت فيها عن هذا. وقد ناقشنا ذلك في كثير من الأحيان، حريصين على التآمر.

"إذا كنت تحب ذلك". وهذا ما كان قد قاله من قبل.

وأضاف: "ألا تعتقد أنه سيكون غاضباً؟".

توقف الآن، ونظر. أحب هذا فيه. بغض النظر عن كم مرة سألته، يجيبني كما لو كنت اسأله للمرة الأولى.

"لا أعرف". التقت عيناه بعيني. "هل يهم؟ لن أتوقف" صوته كان دافئاً بالرغبة، شعرت بالرد يتدفق عبر بشرتي.

"لكنه يمكن أن يخبر والدك، الذي قد يكون غاضباً".

قلت بيأس تقريباً. قريباً سوف تصبح بشرتي دافئة جداً، ولن أكون قادرا على التفكير.

"وماذا لو كان كذلك؟" المرة الأولى التي يقول فيها شيئاً مثل هذا، كنت مصدوماً. أن والده قد يكون غاضباً وأخيل لا يزال سيفعل كما تمنى، كان شيئاً لم أفهمه، وبالكاد يمكنني أن أتصوره. سماعه يقول ذلك كان له تأثير كالمخدر.

لم أتعب أبداً منه.

"وماذا عن أمك؟".

كان هذا ثالوث مخاوفي - تشيرون، بيليوس، وثيتيس.

هز كتفيه وقال: "ماذا يمكن أن تفعل؟ اختطافي؟".

تستطيع أن تقتلني، فكرت. لكنني لم أقل هذا. النسائم حلوة جداً، والشمس دافئة جداً للحديث في فكرة مثل هذه.

تفحصني للحظة ثم قال: "هل يهمك إذا كانوا غاضبين؟".

نعم. سأكون مذعور حينما أجد تشيرون متضايق مني. الرفض قد نخر دائماً في أعماقي، لا يمكنني أن أهز كتفي لأتخلص منه كما فعل أخيل. لكنني لن أدعه يفرقنا، إذا وصل الأمر إلى ذلك.

"لا"، قلت له.

"جيد"، قال.

مددت يدي إلى أسفل لأداعب خصلات الشعر على صدغه. فأغمض عينيه. راقبت وجهه، يميل ليقابل الشمس. كان هناك رهافة لملامحه تجعله في بعض الأحيان يبدو أصغر مما كان عليه. شفتيه متورده وممتلئة.

فتح عينيه وقال: "سم لي بطلاً واحداً كان سعيداً".

فكرت. هيراكليس ذهب الجنون بعقله وقتل عائلته؛ ثيسيوس فقد عروسه وأبيه؛ أطفال جايسون وزوجته الجديدة قتلوا على يد صديقه القديم؛ بيلليروفون قتل الكمير لكن أقعد بالسقوط من ظهر بيغاسوس.

"لا يمكنك ذلك". كان يجلس الآن، يميل إلى الأمام.

"لا أستطيع".

"أعلم. أنهم لن يسمحوا لك أن تكون مشهوراً وسعيد"، رفع حاجبه وقال: "سأخبرك سراً".

"قل لي". أحببته عندما يكون مثل هذا.

"سأكون الأول"، أخذ كفي وأمسك بها بكفه.

"أقسم بذلك".

"لماذا أنا؟".

"لأنك أنت السبب. أقسم بذلك".

"أقسم بذلك"، قلت، وأنا أضيع في اللون العالي لوجنتيه، في اللهب في عينيه.

"أقسم بذلك"، ردد.

جلسنا كذلك للحظة، الأيادي تتلامس. ابتسم ابتسامة عريضة وقال: "أشعر أنني يمكنني أن آكل العالم نيء".

نفخ بالبوق، في مكان ما على المنحدرات تحتنا. كانت مفاجئة وخشنة، بدت كما لو أنها إنذار. قبل أن أتمكن من الكلام أو الحركة، كان يقف على قدميه، وقد أشهر خنجره، أخرجه من غمده أعلى فخذه. كانت مجرد سكين صيد، و لكن في يديه ستكون كافية. وقف مستعداً، ساكن تماماً، يستمع بكل حواس نصفه الإلهي.

كان لدي سكين، أيضاً. بهدوء، وصلتها ووقفت. وضع نفسه بيني وبين الصوت. لم أكن أعرف ما إذا كنت يجب أن اذهب إليه، أقف بجانبه بسلاحي المرفوع. في النهاية، لم أفعل. كان ذلك بوق جندي، والقتال، كما قال تشيرون بصراحة، كان هبته وليست هبتي.

نُفخ البوق مرة أخرى. سمعنا حفيف الخمائل، تشتبك بزوج أقدام. رجل واحد. ربما كان ضائعاً، ربما كان في خطر.

تقدم أخيل خطوة نحو الصوت. كما في الجواب، جاء صوت البوق مرة أخرى. صاح صوت أعلى الجبل: "الأمير أخيل!" جمدنا.

"أخيل! أنا هنا من أجل الأمير أخيل!".

اندفعت الطيور من الأشجار، فارة من الصخب.

"من والدك"، همست. فقط رسول الحاكم قد يعرف أين ينادي علينا.

أومأ أخيل، لكنه يبدو متردداً بغرابة للإجابة. تصورت مدى صعوبة ضربات نبضاته، كان قد استعد للقتل قبل لحظة.

"نحن هنا!" صرخت في الراحتين المقعرة ليدي.

توقفت الضوضاء لحظة.

"أين؟".

"هل تستطيع تتبع صوتي؟".

استطاع ذلك، على الرغم من توعكه. مضى بعض الوقت قبل أن يتقدم إلى الأمام إلى المقاصة. وجهه مخدوش، وقد تعرق خلال سترته الخاصة بالقصر. ركع مع نعمة مرضه، باستياء. خفض أخيل سكينه، على الرغم من أنني رأيت كيف ما زال يمسكها بإحكام.

"نعم؟" سأل أخيل بصوت بارد.

"والدك يستدعيك. هناك عمل عاجل في المنزل".

شعرت بنفسي أُسكن بلا حراك، كما سكن أخيل قبل لحظة. لو كنت بقيت ساكن بما يكفي، ربما لن نكون مضطرين للذهاب.

"أي نوع من الأعمال؟" سأل أخيل.

كان الرجل قد استرد نفسه، إلى حد ما. متذكراً أنه كان يتحدث إلى الأمير.

"مولاي، ألتمس عفوك، لا أعرفه كله. جاء رسل إلى بيليوس من ميسيناي مع أخبار. خطط والدك ليتكلم إلى الشعب هذه الليلة، ويتمنى أن تكون هناك. لدي خيول من أجلك في الأسفل".

كان هناك لحظة صمت. اعتقدت تقريباً أن أخيل سوف يرفض. لكن في النهاية قال: "باتروكلوس، ونحن سنحتاج إلى حزم أشياءنا".

في طريق العودة إلى الكهف وإلى تشيرون، تكهنت وأخيل حول هذه الأنباء. ميسيناي كانت بعيدة إلى جنوبنا، وملكها كان أجاممنون، الذي يحب أن يسمي نفسه بسيد الرجال. كان يقال أنه يملك أعظم جيش في كل ممالكنا.

"أيا كان ذلك، سنذهب فقط لليلة أو اثنين"، قال أخيل لي. فأومأت برأسي موافقاً، ممتناً لسماعه يقول ذلك. فقط بضعة أيام.

تشيرون كان بانتظارنا. "سمعت الصيحات" قال سنتور. أنا وأخيل، نعرفه جيداً، ميزنا الاستهجان في صوته. لم يعجبه أن يبدد سلام جبله.

"لقد استدعاني والدي للمنـــزل" قال أخيل، "فقط لهذه الليلـــة. أتوقع أنني سوف أعود قريباً".

"فهمت"، قال تشيرون. بدا أكبر من المعتاد، واقفاً هناك، حوافره باهتة مع العشب المشرق، خاصرته كستنائية اللون مضيئة من الشمس. كنت أتساءل إذا كان سيكون وحيداً بدوننا. لم أكن قد رأيتـــه مـــع سنتور آخر. سألناه عنهم ذات مرة، فتصلب وجهه وقال: "البرابرة".

جمعنا أشياءنا. لم يكن لي أي شيء تقريباً لأحضره معي، بعـــض الستر، والناي. أخيل كان لديه فقط عدد قليل من الممتلكات أكثر من ذلك، ملابسه، وبعض رؤوس الحراب التي كان قد صنعهم، والتمثـــال الذي نحته له. وضعناها في أكياس جلدية وذهبنا لوداع تشيرون. أخيل، دائماً أكثر جرأة، احتضن السنتور، طوقت ذراعيه المكان الذي تنتـــهي فيه خاصرة الحصان في اللحم. الرسول، ينتظر ورائي، يتحرك.

"أخيل"، قال تشيرون، "هل تتذكر عندما سألتك مـــاذا كنـــت ستفعل عندما يريدك الرجال أن تقاتل؟".

"نعم"، قال أخيل.

"يجب عليك أن تفكر بإجابتك" قال تشيرون. قشعريرة عبرت من خلالي، لكن لم يكن لدي الوقت لأفكر فيها. تحول تشيرون إلي.

"باتروكلوس"، قال، مستدعياً. فمشيت إلى الأمام، ووضع يـــده، كبيرة ودافئة مثل الشمس، على رأسي. تنفست رائحته وحده، رائحة حصان وعرق وأعشاب وغابات.

صوته هادئ. "أنت الآن لا تسلم الأمور بهذه السهولة كما فعلت ذات مرة".

لم أعرف ماذا أقول لهذا، لذلك قلت: "شكرا لك".

بأثر ابتسامة قال: "كن جيداً"، ثم ذهبت يده، وتركت رأسي بارداً في غيابها.

"إننا سوف نعود قريباً"، قال أخيل، مرة أخرى.

كانت عينا تشيرون مظلمة في ضوء الظهيرة المائل وهو يجيب: "سأتطلع لعودتكم".

حملنا حقائبنا على أكتافنا وغادرنا المساحة الصغيرة للكهف. الشمس كانت سبق وتجاوزت الزوال، وكان الرسول نافذ الصبر. انتقلنا بسرعة إلى أسفل التل وتسلقنا الخيول التي انتظرتنا. كان السرج غريباً بعد سنوات عديدة على الأقدام، وترتني الخيول. وأنا نصف متوقع منها أن تتكلم، لكنها بالطبع لم تستطع. التويت في مقعدي لأنظر إلى الوراء إلى بيليون. أملت أنني ربما أكون قادراً على رؤية كهف الكوارتز الوردي، أو ربما تشيرون نفسه. لكننا كنا بعيدين جداً. التفت لأواجه الطريق وسمحت لنفسي بأن تقاد إلى ثيا.

الفصل الحادي عشر

مع آخر خيط مشتعل من الشمس على الأفق الغربـــي كنا قـــد تجاوزنا حجر الحدود الذي يميز أرض القصر. سمعنا صرخة ترتفع مـــن الحراس، وبوق إجابة. بلغنا قمة التل، وكان القصر ينبســـط أمامنـــا؛ ووراءه يجلس البحر.

وهناك على عتبة المنـــزل، فجأة كالصاعقة، وقفـــت ثيتـــيس. شعرها الأسود أشرق على الرخام الأبيض للقصر. فستانها داكن، لونه كلون المحيط المضطرب، البنفسجي المســـحوق مختلطـــاً بالتموجـــات الرمادية. في مكان ما بجوارها كان هناك حراس، وبيليوس أيضاً، لكنني لم أكن أنظر إلى هؤلاء. رأيتها فقط، وشفرة السكين المنحنية من فكها.

"أمك"، همست إلى أخيل. يمكنني أن اقسم أن عينيها ومضـــت علي كما لو كانت قد سمعتني. ابتلعتُ ريقي وأجبرت

نفسي للتوجه للأمام. إنها لن تؤذيني، تشيرون قال أنها لن تؤذيني.

كان من الغريب رؤيتها بين البشر، لقد جعلتهم كلهم، الحـــراس وبيليوس متشابهون على حد سواء، يبدون بيض وشاحبون، على الرغم من أن جلدها كان شاحب كالعظام. وقفت بشكل جيد بعيداً عنهم، تطعن السماء كالرمح بطولها الغير طبيعي. خفض الحراس عيـــونهم في خوف وإذعان. تأرجح أخيل مترجلاً من فوق حصانه، وتبعته. أخذته ثيتيس في أحضانها، ورأيت الحراس يحركون أقدامهم.

كانوا يتساءلون كيف هو الشعور ببشرتها، وكانوا سعيدين لأنهم لم يعرفوا ذلك.

"ابن رحمي، وقطعة مني، يا أخيل"، قالت. الكلمات لم تقال بصوت عال لكنها انتشرت خلال الفناء.

"مرحباً بك في المنزل".

"شكراً لك، أمي"، قال أخيل. وقد فهم أنها تدعي استحقاقها له. كلنا فعلنا. كان من المناسب للابن تحية والده أولاً؛ الأمهات يأتينَ ثانياً، على كل حال. لكنها كانت إلهة. فم بيليوس مشدودة، لكنه لم يقل شيئاً. عندما أطلقت سراحه، ذهب إلى والده. "مرحباً بك يا بني"، قال بيليوس وقد بدا صوته ضعيفاً بعد زوجته الآلهة، وبدا أكبر سناً مما كان عليه. لقد غبنا لثلاث سنوات.

وأضاف: "مرحبا بك أيضاً، باتروكلوس".

التفت الجميع لي، وتمكنت من أن أنحني. كنت مدركاً لنظرات ثيتيس، التي تنبشني. شعرت ببشرتي لاذعة، كما لو أنني ذهبت من بقعة أشواك إلى المحيط. كنت سعيداً عندما تكلم أخيل.

"ما هي الأخبار، يا أبي؟".

حدق بيليوس في الحراس. التكهنات والشائعات تتسابق أسفل كل ممر.

"لم أعلن عنها، ولن أفعل حتى يجتمع الجميع. كنا بانتظارك، تعال ودعنا نبدأ".

تبعناه إلى القصر. رغبت في التحدث إلى أخيل لكنني لم أجرؤ؛ ثيتيس تمشي وراءنا تماماً. ركض الخدم بعيداً عنه، ينفخون متفاجئين. إلهة. لم تحدث قدميها أي صوت جراء انتقالها على الأرضيات الحجرية.

اكتظت قاعة الطعام الكبيرة ممتلئة بالطاولات والمقاعد. سارع الخدم بأطباق الطعام أو بجر أوعية خلط النبيذ المترعة. كانت هناك

منصة نُصبت في الجزء الأمامي من الغرفة. هنا سيجلس بيليوس، بجوار ابنه وزوجته. ثلاثة

أماكن. احمرت خداي. ماذا كنت أتوقع؟

حتى في خضم ضجيج الاستعدادات بدا صـوت أخيـل عـال: "أبـي، لا أرى مكاناً لباتروكلوس". فأصبح احمرار خدودي أعمق.

"أخيل"، بدأت في الهمس. لا يهم، أردت أن أخبره. سأجلس مع الرجال، الأمر على ما يرام. لكنه تجاهلني.

"باتروكلوس هو رفيقي المحلف. مكانه بجانبـي". ومضت عـيني ثيتيس، يمكنني أن أشعر فيهم بالكره. رأيت الرفض على شفتيها.

"حسنا جداً"، قال بيليوس، وأومأ إلى خادم فأضيف مكـان لي، الحمد لله على الجانب الآخر من الطاولة من ثيتيس.

صغرت نفسي قدر ما استطعت، تبعت أخيل إلى مقاعدنا.

"سوف تكرهني الآن"، قلت.

"هي بالفعل تكرهك من قبل"، فأجاب، بلمعة ابتسامة.

لكن ذلك لم يطمئني. "لماذا أتت؟" همست. شيء مهـم حقـاً سيجرها من كهفها في البحر. كان بغضها لي شيئاً لا يذكر لما رأيتـه على وجهها عندما نظرت إلى بيليوس.

هز رأسه. "لا أعرف، إنه غريب. لم أرهما معاً منـذ أن كنـت صبياً".

تذكرت كلمات وداع تشيرون لأخيل: يجب عليـك أن تفكـر بإجابتك.

"تشيرون يعتقد أن الأخبار ستكون الحرب".

عبس أخيل، وأضاف: "لكن هناك دائماً حرب في ميسـيناي، لا أرى لماذا تم استدعاءنا".

جلس بيليوس، ونفخ المنادي ثلاثة نفخات قصيرة في بوقه. إشارة لبدء تناول الوجبة. عادة ما يستغرق اجتماع الرجال عدة دقائق، يتلكؤون في ميدان التدريب، يستنفذون الجزء الأخير من ما كانوا يفعلونه. لكن هذه المرة جاءوا كالفيضان بعد تكسر الجليد في الشتاء. بسرعة، أصبحت الغرفة متورمة بهم، يتزاحمون على المقاعد والنميمة.

سمعت الحدة في أصواتهم، ترتفع بإثارة. لم يزعج أحد نفسه أن يشير لخادماً أو يركل جانباً كلباً متسولاً. لم يكن هناك شيء في عقولهم ما عدا الرجال من ميسيناي والأخبار التي أحضروها معهم.

جلست ثيتيس أيضاً. لم يكن هناك صحن لها، ولا سكين: تعيش الآلهة على طعام الآلهة وشراب الآلهة، على تذوق قرباننا المقدم، والنبيذ الذي نسكبه على مذابحهم. الغريب، أنها لم تكن مرئية هنا، كانت متوهجة عندما كانت في الخارج. الأثاث الضخم العادي بدا كأنه يقلل منها، بطريقة أو بأخرى.

وقفت بيليوس. سكتت الغرفة، امتداداً إلى أبعد مقاعد.

رفع كأسه وقال: "لقد تلقيت كلمة من ميسيناي، من أبناء أتريوس، أجاممنون ومينيلوس". التحركات النهائية واللغط توقفت، تماماً. توقف حتى الخدم. لم أكن أتنفس. وراء الطاولة، حيث ضغط أخيل بساقه على ساقي.

"لقد وقعت جريمة"، توقف مرة أخرى، كما لو كان يزن ما سيقوله. "زوجة مينيلوس، الملكة هيلين، قد اختطفت من القصر في سبارتا".

هيلين! الهمس المتكتم من الرجال إلى مجاوريهم. منذ زواجها وحكايات جمالها لا تزال تنمو وتعظم. مينيلوس قد بنى حول قصرها

جدران سميكة بطبقات مزدوجة من الصخور، ودرب جنوده لمدة عشر سنوات للدفاع عنها.

لكن، مع كل ما قدمه من عناية، سرقت. من الذي قد يفعل ذلك؟

"رحب مينيلوس بالسفارة المرسلة من الملك بريام من طروادة. على رأسهم كان ابن بريام، الأمير باريس، وهو من كان مسؤول. سرق ملكة سبارتا من حجرة نومها خلال نوم الملك".

دمدمة غاضبة. فقط الشرقي يقوم بإهانة لطف مضيفه. الجميع يعرف كيف تقطر منهم العطور، فسدوا برغد العيش.

من شأن البطل الحقيقي أن يأخذها علناً، بقوة سيفه.

"أجاممنون وميسيناي يناشدون رجال هيلاس للإبحار إلى مملكة بريام لنجدتها. طروادة غنية وسيكون من السهل أخذها، كما يقولون. جميع المقاتلين سيعودون إلى أوطاهم أثرياء ومشهورين".

كانت هذه لهجة جيدة. الثروة والسمعة كانت الأشياء التي يقاتل شعبنا من أجلها دائماً.

"لقد طلبوا مني إلى إرسال وفد من الرجال من ثيا، وقد وافقت". انتظر سكون الدمدمة قبل أن يضيف: "على الرغم من أنني لن أخذ أي رجل لا يرغب في الذهاب. ولن أقود الجيش بنفسي".

"من الذي سيقوده؟" صاح شخص.

"لم يحدد ذلك بعد"، قال بيليوس. لكنني رأيت عينيه تومض تجاه ابنه.

لا، فكرت. شدت يدي على حافة الكرسي. ليس بعد. على الجانب الآخر مني كان وجه ثيتيس بارداً وساكناً، عينيها بعيدة. أدركت أنها قد كانت تعرف ما هو قادم. إنها تريده أن يذهب.

تشيرون والكهف الوردي بدوا حلماً بعيداً؛ أنشودة طفولية. فجأة فهمت، وزن كلمات تشيرون: الحرب كانت ما سيقول العالم أن أخيل ولد من أجله. لهذا أبدعت يداه وقدماه السريعتين، لهذا وحده - لسحق جدران طروادة القوية. سيرمونه بين آلاف من رماح طروادة ويشاهدون ببهجة انتصار بينما يلطخ يديه العادلتين بالأحمر.

أومأ بيليوس إلى فيونكس، صديقه القديم، على إحدى الطاولات الأولى: "سيد فيونكس سوف يسجل أسماء كل الذين يرغبون في القتال".

كانت هناك حركة في المقاعد، حيث بدأ الرجال يقومون. لكن بيليوس رفع يده. وقال: "هناك المزيد". رفع قطعة كتان، داكنة بعلامات كثيفة. "قبل خطوبة هيلين إلى الملك مينيلوس، كان لها خطاب كثيرون. يبدو أن هؤلاء الخطاب قد أقسموا يمين بحمايتها، أيا كان من قد يفوز بيدها. أجاممنون ومينيلوس الآن يحملون هؤلاء الرجال للوفاء بقسمهم وإعادتها إلى زوجها الشرعي". وسلم ورقة الكتان إلى المنادي.

حدقت. اليمين. في ذهني، الصورة المفاجئة للمجمرة، وتسرب الدم من المعزة البيضاء. القاعة الغنية، مليئة بالرجال الضخام.

رفع المنادي القائمة. بدت الغرفة منحدرة، وعيني لا تستطيع التركيز. بدأ في القراءة.

أنتينور.

يوربليس.

ماتشين.

تعرفت على العديد من الأسماء؛ كلنا فعلنا. كانوا أبطال وملوك عصرنا. لكنهم كانوا أكثر من ذلك بالنسبة لي.

لقد رأيتهم، في غرفة حجرية مثقلة بأدخنة النار. أجاممنون. ذكرى لحية سوداء كثيفة؛ رجل ممل بعينين مراقبتين صغيرتين.

أوديسيوس. الندبة التي غطت ساقه، وردية كالعلكة.

أياكس. أضخم مرتين من أي رجل في الغرفة، مع درعه الضخمة وراءه.

فيلوكتيتيس، رامي النبال.

مينوتيوس.

توقف المنادي للحظة، وسمعت دمدمة: من؟

لم يميز والدي نفسه في السنوات التي تلت نفيي. تضاءلت شهرته؛ ونُسي اسمه. أولئك الذين عرفوه لم يسمعوا بابن له. جلست متجمداً، أخشى أن أتحرك لئلا أضيع نفسي بعيداً. أنا مقيد إلى هذه الحرب.

صفى المنادي حنجرته.

أدومينوس.

ديوميديس.

"هل هذا أنت؟ كنت هناك؟" التفت أخيل إلى الوراء ليواجهني. كان صوته منخفضاً، بالكاد يسمع، لكنني مع ذلك خشيت أن يسمعه شخص ما.

أومأت برأسي موافقاً. حلقي جاف جداً على الكلمات. لقد فكرت فقط في الخطر المحدق بأخيل، عن كيفية الإبقاء عليه هنا، لو استطعت. لم أفكر حتى بنفسي.

"اسمع. إنه ليس اسمك بعد الآن. لا تقل شيئاً. سنفكر فيما سنفعله. سنسأل تشيرون". لم يتكلم أخيل أبداً بهذه الطريقة، كل كلمة تقطع المقبلة على عجل. إلحاحه أعادني إلى نفسي، قليلاً، فأخذت قلب عينيه على عيني. وأومأت مرة أخرى.

استمرت الأسماء تتتابع، وجاءت الذكريات معهم. ثلاث نســاء على منصة، وواحدة منهن هيلين. كومة كنوز، وعبوس والدي. الحجر تحت ركبتي. لقد ظننت أنني حلمت به. لكنني لم أفعل.

عندما انتهى المنادي، وصرف بيليوس الرجال.

وقفوا مرة واحدة، نبذوا المقاعد، تواقون للوصول إلى فيــونكس ليعبأ أسمائهم. التفت بيليوس إلينا وقال: "تعالوا.

أود أن أتكلم معكما أكثر". نظرت إلى ثيتــيس، لأرى مــا إذا كانت ستأتي أيضاً، لكنها كانت قد ذهبت.

جلسنا إلى جانب مدفأة بيليوس، قدم لنا النبيذ، بالكاد تسقى.

رفضها أخيل. أخذت الكأس، لكن لم أشربها. كــان الملــك في كرسيه القديم، أقرب واحد إلى النار، مع وســائده وظهــره العــالي. استراحت عينيه على أخيل.

"لقد دعوتك إلى المنــزل مع فكرة انك قد ترغب بقيادة هــذا الجيش".

لقد قالها. فرقعت النار، كان خشبها أخضر.

التقى أخيل نظرات والده. "لم أنتهي بعد مع تشيرون".

"لقد بقيت على بيليون أطول مما فعلت، أكثر من أي بطل قبل".

وأضاف "هذا لا يعني أنني يجب أن أركض لمساعدة أبناء أتريوس في كل مرة يفقدون زوجاهم".

اعتقدت أن بيليوس قد يبتسم لذلك، لكنه لم يفعل ذلك. "أنا لا أشك في أن يحتدم مينيلوس على فقدان زوجته، ولكن الرسول جاء من أجاممنون. لقد شاهد طروادة تنمو غنية ويانعة لسنوات، والآن يفكــر في قطفها. أخذ طروادة بطولة يستحقها أعظم أبطالنا. ربمــا ســيكون هناك شرف كبير ليكتسب من الإبحار معه".

اشتدت فم أخيل. "سيكون هناك حروب أخرى".

بيليوس لم يومئ برأسه، تماماً. لكنني رأيته يسجل حقيقة ذلك.

"ماذا عن باتروكلوس إذن؟ لقد ناداه الواجب".

فرد: "إنه لم يعد ابن مينوتيوس. لم يعد مقيد باليمين".

التقي بيليوس رفع حاجب وقال: "هناك بعض الخلط".

"أنا لا أعتقد ذلك". رد أخيل، ورفع ذقنه. "تم التراجع عن اليمين، عندما تبرأ منه والده".

"أنا لا أرغب في الذهاب" قلت بهدوء.

تفحصنا بيليوس كلينا للحظة واحدة، ثم قال: "مثل هذا الشيء لا يعود لي لاتخاذ القرار، سأتركه لكم".

شعرت بالتوتر ينزلق مني قليلاً، إنه لن يفضحني.

"أخيل، الرجال أتون إلى هنا للحديث معك، ملوك أرسلهم أجاممنون".

خارج النافذة، سمعت همس المحيطات الهادئ مقابل الرمال. يمكنني أن أشتم رائحة الملح.

"سوف يطلبون مني القتال" قال أخيل. لم يكن هذا السؤال.

وأضاف "سيفعلون".

"أنت تتمنى أن أمنحهم حق الاستماع".

"نعم، أتمنى ذلك".

كان هناك هدوء مرة أخرى. ثم قال أخيل، "أنا لن أهينهم، أو أهينك. سأستمع إلى أسبابهم. لكنني أخبرك أنني لا أعتقد أنهم سوف يقنعونني".

رأيت أن بيليوس متفاجئ، قليلاً، من يقين ابنه، لكنه ليس مستاء.

"هذا أيضاً ليس من شأني لاتخاذ القرار"، لقد قال أقل ما يقال.

فرقعت النار ثانية، باصقة شرارها.

ركع أخيل، ووضع بيليوس يداً واحدة على رأسه. لقد اعتدت على رؤية تشيرون يفعل بذلك، ويد بيليوس بدت ذابلة على سبيل المقارنة به، مخاطة بأوردة مرتجفة. كان من الصعب أن نتذكر، في بعض الأحيان، أنه كان محارباً، مشى مع الآلهة.

غرفة أخيل كانت كما تركناها، باستثناء السرير المتنقل، الذي أزيل في غيابنا. كنت سعيداً، بل كان ذريعة سهلة، في حال سأل أي شخص لماذا نتشارك السرير. تلمسنا لبعضنا البعض، وفكرت كم من الليالي اضطجعت مستيقظاً في هذه الغرفة، أحبه في صمت.

في وقت لاحق، ضغط أخيل نفسه ملتصقاً بي ليصل إلى نشوته، همس بنعاس: "إذا كان عليك أن تذهب، تعرف أنني سوف أذهب معك". ونمنا.

استيقظت على احمرار أجفاني إجهاد من الشمس. كنت بـــارداً، كتفي الأيمن مكشوف للنسائم من النافذة، تلك التي تواجـــه البحـــر. المساحة بجانبـــي على السرير فارغة، لكن الوسادة لا تـــزال محتفظـــة بشكله، والأغطية تحمل رائحتينا معاً.

كنت قد أمضيت الكثير من الصباحات وحدي في هذه الغرفـــة، بينما يزور والدته، لم أعتقد أنه من الغريب أن أجده قد ذهب. أغلقت عيوني، وغرقت ثانية في متابعة أفكار الأحلام. بمرور الوقت، أصبحت أشعة الشمس حارقة على عتبة النافذة. استيقظت الطيـــور، والخـــدم، وحتى الرجال. وصلتني أصواتهم من الشاطئ وقاعة التدريب، الثرثـــرة وضجة الأعمال. جلست. صندله مقلوبة بجوار السرير، منسية. لم يكن ذلك غير عادي، كان يذهب حافي القدمين إلى معظم الأماكن.

لقد ذهب لتناول الإفطار، خمنت. لقد تركني لأحظـــى بـــبعض النوم. نصفي يريد البقاء في الغرفة حتى عودته، لكن ذلك كان جبناً. لي حق الجلوس بجانبه الآن، ولن أسمح لعيون الخدم بدفعي بعيداً. وضعت سترتي علي وغادرت للبحث عنه.

لم يكن في القاعة الكبرى، مشغولاً مع الخدم بإزالة نفس الصحون والأطباق التي كانت هناك دائماً. لم يكن في قاعة مجلس بيليوس، معلق إلى البساط البنفسجي وأسلحة ملوك ثيا السابقين، ولم يكن في الغرفـــة التي اعتدنا عزف القيثارة فيها. الصندوق الذي حفظ أدواتنا ذات مرة جلس مهجوراً في وسط الغرفة.

لم يكن في الخارج، ليس في كل من الأشجار حيث تسلقت وإياه، ولا قرب البحر، على الصخور الناتئة حيث كان ينتظر أمه. ولا في فناء التدريب حيث يعرق الرجال خلال التدريبات، يضربون بسيوفهم الخشبية.

ولست بحاجة لأقول أن رعبي تضخم، وأنه أصبح شيء حي، غامض وأصم لسبب من الأسباب. ازدادت سرعة خطواتي؛ المطبخ، الطابق السفلي، المخازن حيث جرار الزيت والنبيذ. وما زلت لم أجده.

كان منتصف النهار عندما بحثت خارج غرفة بيليوس. كان ذهابي إلى هناك نذير لحجم قلقي على الإطلاق: لم أتحدث قط إلى الرجل العجوز وحده من قبل. الحراس في الخارج أوقفوني عندما حاولت الدخول. قالوا إن الملك يستريح. لوحده، ولن يرى أحداً.

"لكن أخيل –" ابتلعت ريقي، محاولاً أن لا أجعل من نفسي مشهداً، يغذي الفضول الذي رأيته في أعينهم. "هل الأمير معه؟".

رد واحد منهم مكرراً: "إنه لوحده".

ذهبت بعد ذلك إلى فيونكس، المستشار القديم الذي كان يرعى أخيل عندما كان صبياً. كنت أختنق بالخوف تقريباً وأنا أمشي إلى قاعته الفاخرة، غرفة مربعة متواضعة في قلب القصر. أمامه طاولات من صلصال، وعليها علامات الرجال من الليلة السابقة، كزوايا وخطوط متقاطعة، يتعهدون بأسلحتهم إلى الحرب ضد طروادة.

"الأمير أخيل –" قلت بتردد، صوتي غليظ بالذعر. "لا أستطيع أن أعثر عليه".

تطلع إلى أعلى مع بعض المفاجأة. لم يسمعني عندما دخلت الغرفة؛ كان سمعه ضعيف، وعيناه عندما التقت بعيني كانت دبقه وكامدة بعتمة.

"لم يخبرك بيليوس إذن". كان صوته ناعماً.

"لا" كان لساني كحجر في فمي، كبير جداً حتى أنني بالكاد أتكلم من حوله.

"أنا آسف" قال بعطف. "لقد أخذته أمه. أخذته الليلة الماضية بينما كان نائماً. ذهبوا، ولا أحد يعرف إلى أين".

في وقت لاحق، كنت أستطيع أن أرى العلامات الحمراء حيث حفرت أظافري كفي. لا أحد يعلم إلى أين. إلى أوليمبوس ربما، حيث لا أستطيع أن أتبعه. إلى أفريقيا، أو الهند. إلى بعض القرى حيث لم أكن لأفكر أن أنظر.

قادتني يد فيونكس الرقيقة عائداً إلى غرفتي. التوى ذهني اليائس من الفكرة تلو الفكرة. سوف أعود إلى تشيرون لأساله النصيحة. سأسير في أرجاء البلاد، منادياً اسمه. يجب أن تكون قد خدرته، أو خدعته. هو لن يذهب بإرادته.

تكومت في غرفتنا الفارغة، وأنا أتصور ذلك: الإلهة تميل علينا، باردة وبيضاء بجانب دفء أجسادنا النائمة.

أظافرها تنخس جلده وهي ترفعه، رقبتها فضية في ضوء القمر المتسلل من النافذة. جسده يتدلى على كتفها، نائماً أو مسحور. تحمله مني كجندي قد يحمل جثة. إنها قوية، يتطلب الأمر واحدة فقط من يديها لمنعه من السقوط.

لم أتساءل لماذا أخذته، لقد عرفت. كانت تريد أن تفرقنا، أول فرصة لديها، في أقرب وقت كنا فيه خارج الجبال.

كنت غاضباً من حماقتنا. بالطبع، ستفعل هذا، لماذا اعتقدت أننا سوف نكون بأمان؟ أن حماية تشيرون ستمتد إلى هنا، حيث لم تكن من قبل.

ستأخذه إلى الكهف في البحر وتعلمه احتقار البشـــر. ســـتطعمه غذاء الآلهة وتحرق دمه البشري من عروقه. ستشكله في شخصية مـــن المفترض أن ترسم على المزهريات، لينشد عنه في الأغاني، ليقاتل ضـــد طروادة. تخيلته في درع سوداء، خوذة داكنة لا تظهر منه سوى العينين، درع برونـــزية تغطي قدميه. وقف يحمل رمح في كل يد ولا يعرفني.

انطوى الوقت على نفسه، أغلق علي، دفنني. خارج نافذتي، انتقل القمر خلال أشكاله وعاد مكتملاً مرة أخرى. كنت أنام قليلاً، وأكل أقل؛ سمرني الحزن إلى السرير كمرساة. لقد كانت فقط ذكرى تشيرون التي تطعنني من دفعي أخيراً للأمام. أنت لا تستسلم بسهولة كما فعلت ذات مرة.

ذهبت إلى بيليوس. ركعت أمامه على ســـجادة مـــن صـــوف، منسوجة بالأرجواني المشرق. بدأ في الكلام، لكنني كنت أسرع منـــه. إحدى يدي ذهبت لتشتبك بركبتيه، امتدت الأخرى صعوداً، لتمسك بذقنه. وضعية التوسل. كانت لفتة قد رأيتها مرات عديدة، لكـــنني لم أقم بها بنفسي أبداً. كنت تحت حمايته الآن، وهـــو ملزمـــاً ليعـــاملني بإنصاف، وفقا لقانون الآلهة.

"أخبرني أين هو"، قلت.

لم يتحرك. بإمكاني سماع الضرب المكتوم لقلبه على صـــدره. لم أكن أدرك كم كان التوسل حميمياً، كيف سنكون مضغوطين بتقارب. أضلاعه حادة تحت خدي، جلد ساقيه لينة ورقيقة مع تقدم العمر.

"لا أعرف"، قال، وتردد صدى الكلمـــات في الغرفـــة، وأثـــار الحراس. شعرت بأعينهم على ظهري. التوسل كـــان نـــادراً في ثيـــا، بيليوس ملك جيد جداً ولم يصادف مثل هذه التدابير اليائسة.

سحبت ذقنه، جاذبني وجهه لوجهي. لم يقاوم.

"أنا لا أصدقك" قلت.

مرت لحظة.

"اتركونا"، قال. كانت العبارة للحراس. جروا أقدامهم، لكنهم أطاعوا. كنا لوحدنا.

مال إلى الأمام، وصولاً إلى أذني. وهمس، "سايروس".

مكان، جزيرة. أخيل.

عندما وقفت، آلمتني ركبتي، كما لو كنت راكعاً منذ وقت طويل. ربما فعلت. لا أعرف كم من اللحظات الكثيرة مرت بيننا في تلك القاعة الطويلة لملوك ثيا. أعيننا كانت في مستوى واحد الآن، لكنه تفادى نظراتي. لقد أجابني لأنه كان رجلاً تقياً، لأنني طلبت منه بصفة التوسل، لأن الآلهة طالبت بذلك، ليس لديه خيار آخر. كان هناك فتور في الهواء بيننا، شيء ثقيل، كالغضب.

"سوف أحتاج إلى المال" قلت له. لا أعرف من أين جاءت هذه الكلمات. لم أتحدث كذلك قط من قبل، لأي شخص.

لكن لم يبقى لي شيء لأخسره.

"تحدث إلى فيونكس، وسوف يعطيه لك".

بالكاد أومأت برأسي. كان من المفترض أن أقوم بأكثر من ذلك بكثير. كان ينبغي أن أركع مرة أخرى وأشكره، أن أمسح جبهتي بسجاده الغالي. لم أفعل. أنتقل بيليوس إلى التحديق خارج النافذة؛ كان البحر مستتر خلف منعطف المنزل، لكن كان بإمكان كلينا سماعه، الهمس البعيد للموجات على الرمال.

"مسموح لك أن تذهب" قال لي. أعتقد أنه قصد أن تكون باردة، ورافضة؛ ملك مستاء من صاحب الموضوع. لكن كل ما سمعته كان الإنهاك.

أومأت مرة أخرى وغادرت.

الذهب الذي أعطاني إياه فيونكس يمكنه أن يحملني إلى سايروس ويعيدني منها مرتين. حدق قبطان السفينة عندما سلمته إيـــاه. رأيـــت عينيه تنقض عليه، تزن قيمته، وعدّ ما يمكن أن يشتري به.

"سوف تأخذني؟".

استاء من حماسي. لا يحبذ رؤية اليأس في هؤلاء الذين يســـعون للمرور؛ تكلم على عجل بيد خالية عن الجرائم الخفية. لكن الـــذهب كان كثير عليه ليعترض. أحدث ضوضاء تـــذمر لقبـــولي، وأرســـلني لمضجعي.

لم أكن قط في البحر من قبل وفوجئت كم هو بطيء. القارب ذو بطن تجاري كبير، جعله الدوران على الجزر كسول، يتشاطر الصوف، الزيت، والأثاث المنحوت من البر الرئيسي مع الممالك الأكثر عزلـــة. كل ليلة نضع رحلنا في منفذ مختلف لتعبئة الأواني بالماء وتفريغ مخازننا.

خلال الأيام وقفت في مقدمة المركب، مراقباً سقوط الموجـــات بعيداً عن هيكلنا المطلي بالغار الأسود، في انتظـــار رؤيـــة الأرض. في وقت آخر كنت سأكون قد فتنت بكل شيء: أسماء أجزاء الســـفينة، حبل الراية، الصاري، كوتل مؤخرة السفينة، لون المياه؛ الرائحة النقيـــة النظيفة للرياح. لكنني بالكاد لاحظت هذه الأشياء. فكرت فقـــط في الجزيرة الصغيرة النائية في مكان ما أمامي، والصبـــي أشقر الشعر الذي كنت آمل أن أجده هناك.

كان خليج سايروس صغير جداً بحيث أنني لم أره حتى تأرجحنـــا حول الحافة الجنوبية للجزيرة الصخرية وكنا تقريباً فوقها. انضـــغطت سفينتنا بشق الأنفس بين أذرعها الممتدة، والبحارة انحنوا على الجـــانبين ليشاهدوا الصخور المنـــزلقة بالقرب، حابسين أنفاسهم. حالما أصبحنا

في الداخل، كانت المياه هادئة تماماً، وتوجب على الرجال صفنا في بقية الطريق. كانت الحدود صعبة المناورة، لم أحسد القبطان على رحلة الخروج.

"نحن هنا"، أخبرني متجهماً، وقد كنت أسير بالفعل في الممشى.

ارتفع وجه الهاوية أمامي بحدة. كان هناك مسار من الخطوات المنحوتة في الصخر، تلتف إلى أعلى لتصل إلى القصر، فسرت عليها. في قمتها كانت هناك أشجار مبعثرة وماعز، وقصر متواضع وباهت، مصنوع نصفه من الحجر والنصف الآخر من الخشب. إذا لم يكن المبنى الوحيد في الأفق، قد لا أعرف منزل الملك. فذهبت إلى الباب و دخلت.

القاعة كانت ضيقة ومظلمة، والهواء كئيب برائحة عشاء قديم. في النهاية البعيدة وضعا كرسيا عرش خاليين.

بعض الحراس تلكأوا على الطاولات، يلعبون النرد. نظروا إلى أعلى.

"حسناً؟" سألني أحدهم.

"أنا هنا لرؤية الملك ليكوميديس" قلت. رفعت ذقني، ليعرفوا أنني رجل له بعض الأهمية. كنت قد لبست أجمل سترة وجدتها، واحدة من ستر أخيل.

"سأذهب"، قال أحدهم لرفاقه. رمى نرده بجلبة وتراجع خارجاً من القاعة. بيليوس لم يكن يسمح أبداً بمثل هذا السخط، أبقى رجاله بحال جيدة وتوقع الكثير منهم في المقابل. كل شيء في الغرفة يبدو مهلهلاً ورمادي.

ظهر رجل من جديد وقال: "تعال"، فتبعته، وقفز قلبي عالياً. لقد فكرت طويلاً حول ما سأقوله. لقد كنت مستعد.

"من هنا"، أومأ برأسه إلى باب مفتوح، ثم تحول عائداً لنرده.

تقدمت خلال المدخل. في الداخل، جلست امرأة شابة أمام البقايا الناعمة للنار.

"أنا الأميرة دادميليا"، أعلنت. صوتها كان مشرقاً وتقريباً مرتفع بطريقة طفولية، كانت مذهلة بعد بلادة القاعة. لها أنف مستدق مرفوع ووجه حاد، كالثعلب. كانت جميلة، وتعرف أنها كذلك. استجمعت شجاعتي والعادات المتبعة و انحنيت قائلاً: "أنا شخص غريب، جاء يلتمس لطف والدك".

"لماذا ليس لطفي؟" ابتسمت، وأمالت رأسها. كانت صغيرة بشكل مثير للدهشة، أخمن أنها بالكاد ستصل إلى صدري إذا وقفت. "والدي مسن ومريض. يمكنك توجيه عرضيتك لي، وسأجيب عليها". قالت متصنعة الوضعية الملكية المتمركزة بعناية، بحيث تضيء النافذة خلفها.

"أنا أبحث عن صديقي".

"أوه؟" ارتفع حاجبها. وأضافت: "ومن هو صديقك؟".

"شاب"، قلت، بعناية.

"فهمت. لدينا بعض منهم هنا". كانت لهجتها لعوب، واثقة بنفسها. سقط شعرها الداكن أسفل ظهرها في تجعيدات كثيفة. حركت رأسها قليلاً، وهي تأرجحه، وتبتسم في وجهي مرة أخرى.

"ربما ترغب في أن تبدأ بأخباري اسمك؟".

"كايورنايدس"، قلت. ابن تشيرون.

جعدت أنفها لغرابة الاسم.

"كايورنايدس. و؟".

"أسعى لصديق لي، الذي وصل إلى هنا ربما قبل شهر واحد. هو من ثيا".

لمع شيء في عينيها، أو ربما تخيلته.

"ولماذا تسعى وراءه؟" سألت. اعتقدت أن لهجتها لم تعد خفيفة كما كانت.

"لدي رسالة له". تمنيت كثيراً لو أهم قادوني إلى الملك المسن المريض وليس إليها. وجهها كان زئبقي، سباق دائماً لشيء جديد. لقد جعلتني مضطرب.

"همم. رسالة". ابتسمت باحتشام، وهي تنقر ذقنها بإصبع مطلية. "رسالة لأحد الأصدقاء. ولماذا ينبغي أن أخبرك فيما إذا كنت أعرف هذا الشاب أم لا؟".

"لأنك أميرة قوية، وأنا المتواضع الملتمس للطفك". قلت وركعت.

سرها ذلك وقالت: "حسناً، ربما أنا أعرف مثل هذا الرجل، وربما لا. سأفكر في ذلك. سوف تبقى لتناول العشاء وتنتظر قراري. إذا كنت محظوظاً، حتى أنني قد أرقص لك، مع نسائي". أطرقت برأسها، فجأة، ثم سألت: "هل سمعت بنساء دادميليا؟".

"آسف لقولي إنني لم أفعل".

تجهمت مستاءة وقالت: "كل الملوك يرسلون بناهم إلى هنا لرعايتهم. الجميع يعرف ذلك ما عداك".

خفضت رأسي، متحسراً وقلت: "لقد قضيت وقتي في الجبال و لم أرَ الكثير من العالم".

عبست قليلاً. ثم أشارت بيدها إلى الباب. "حتى العشاء، يا كايورنايدس".

قضيت فترة ما بعد الظهر في ساحة الفناء المتربة. جلس القصر على أعلى نقطة في الجزيرة، مرفوعاً تجاه زرقة السماء، وكان المنظر

جميلاً، على الرغم من رداءته. جلست، محاولاً أن أتذكر كل ما كنت قد سمعته عن ليكوميديس. عُرف بأنه لطيف بما يكفي، لكنه ملك ضعيف، موارده محدودة. وابية من الغرب وآيونيا من الشرق قد وضعا أعينهم على أرضه لفترة طويلة؛ قريباً، أحدهما سيعلن الحرب، على الرغم من الشاطئ الوعر. لو سمعوا أن امرأة تحكم هنا، لعجل ذلك انقضاضهم.

عدت إلى القاعة بغروب الشمس. كانت المشاعل قد أضيئت، ولكن يبدو أنها فقط كانت لزيادة الكآبة. دادميليا، بطوق ذهبي يلمع في شعرها، تقود رجل عجوز إلى الغرفة. بظهر محدودب، مكسياً بالفراء حتى أنني لا يمكنني أن أحدد أين يبدأ جسده. أجلسته على العرش ولوحت للخدم بشكل مهيب. وقفت مرة أخرى، بين الحراس وعدد قليل من الرجال الآخرين الذين لم تتضح وظائفهم على الفور. مستشارين؟ أبناء عمومة؟

لهم نفس المظهر الرث كما كان كل شيء آخر في الغرفة. فقط دادميليا يبدو أنها هربت منها، بخديها المزهرين وشعرها اللامع. أومأ خادماً إلى المقاعد المتصدعة والطاولات، فجلست. لم ينضم الملك والأميرة إلينا، جلسوا على عروشهم في نهاية القاعة الأخرى. وصل الطعام، ودي بما فيه الكفاية، لكن عيني لم تنفك تعود إلى الجزء الأمامي من الغرفة. لم أستطع أن أعرف ما إذا كان ينبغي أن أعرف عن نفسي. هل نسيتني؟

ولكن بعد ذلك وقفت وحولت وجهها نحو طاولتنا.

"الغريب من بيليون"، دعت، ثم أكملت: "لن تستطيع أن تقول مرة أخرى أنك لم تسمع بنساء دادميليا". تلويحة أخرى، بيد مسورة. دخلت مجموعة نساء، ربما دزينتين، يتحدثن بوداعة مع بعضهن البعض،

شعورهن مغطاة ومربوطة إلى الوراء بقطعة قماش. وقفوا في المنطقة الوسطى الفارغة، التي رأيت الآن أنها كانت دائرة رقص.

عدد قليل من الرجال أخذوا المزامير والطبول، واحد للقيثارة. لم يبدو أن دادميليا تتوقع استجابة مني، أو حتى تهتم إذا كنت قد سمعت. تقدمت متنحية عن منصة العرش إلى النساء، مناديه أطول واحدة كشريكة.

بدأت الموسيقى. كانت الخطوات معقدة، والفتيات يتحركن من خلالهم بمهارة. على الرغم من نفسي، أثاروا إعجابي. دارت ملابسهم، واهتزت المجوهرات حول معاصمهم وكواحلهم كأنها منسوجة. ألقوا برؤوسهم كما لو أنهم في دوامة، مثل خيول عالية الحماسية.

دادميليا كانت أجملهن، بالطبع. بتاجها الذهبي وشعرها الطليق، عينيها مرسومتين، معصميها اللامعين على نحو جميل في الهواء. تورد وجهها بالسرور، وبينما أراقبها، رأيت إشراقها لا يزداد أكثر فأكثر. كانت تبتسم مبتهجة لشريكتها، وتدللها تقريباً. الآن وجهت أنظارها إلى المرأة، الخطوات أصبحت وثيقة الآن كما لو كانت تمازحها بلمسها. بفضول، رفعت رأسي لأرى المرأة التي تراقصها، لكن حشد الفساتين البيضاء حجبها.

ترددت الموسيقى إلى نهايتها، وانتهوا الراقصات. قادتهم دادميليا إلى الأمام في خط لتلقي ثنائنا. شريكتها وقفت بجانبها، خافضة الرأس. انحنت مع البقية ونظرت إلى أعلى.

أحدثت صوتاً ما، قفز النفس في حلقي. كان هادئاً، لكنه كان كافياً. رمشت الفتاة بعينيها لي.

حدثت العديد من الأشياء في وقت واحد. أخيل، لأنه أخيل، ألقى بيد دادميليا وقذف بنفسه فرحاً علي، ضربني إلى الوراء بقوة

عناقه. صرخت دادميليا "بيرا!" وانفجرت في البكـــاء. ليكوميـــديس، الذي لم يغرق بعد في مرحلة الهرم كما جعلتني ابنته اعتقد، وقف.

"بيرا، ما معنى هذا؟".

بالكاد سمعت. أخيل وأنا تشبثنا ببعضنا البعض، غير متماســكين تقريباً بارتياح.

"أمي"، همس، "أمي، إنها –".

"بيرا!" حملت القاعة الطويلة صوت ليكوميديس، ارتفـــع فـــوق شهقات ابنته الصاخبة. أدركت أنه كان يتحـــدث إلى أخيـــل، بـــيرا الشقراء.

تجاهله أخيل؛ فصرخت دادميليا بصوت أعلى. الملك، مبدياً حكمة فاجأتني، رمى عينه على بقية بلاطه، النساء والرجال على حـــد ســـواء. "إلى الخارج"، أمر. أطاعوه على مضض، يتابعون بنظراتهم وراءهم.

"الآن". جاء ليكوميديس إلى الأمام، ورأيت وجهه للمرة الأولى. اصفرت بشرته، وبدا شيب لحيته كالصوف القذر، و مع ذلك كانت عيناه حادة بما فيه الكفاية. "من هو هذا الرجل، بيرا؟".

"لا أحد!" استولت دادميليا على ذراع أخيل"، وجذبته إليها.

في نفس الوقت، أجاب أخيل ببرود، "زوجي".

أغلقت فمي بسرعة، لئلا أبدو كسمكة تتثاءب.

"لا! هذا ليس صحيحاً! "ارتفع صوت دادميليا عاليـــاً، مفزعـــاً الطيور الجاثمة في العوارض الخشبية. بعض الريشات اندفعت وصولاً إلى الأرض. ربما هي قد قالت أكثر من ذلك، لكنها كانت تبكـــي ومـــن الصعب جداً أن تتحدث بشكل واضح.

تحول ليكوميديس إلي كما لو كان يبحث عـــن مـــلاذ، رجـــل لرجل. "سيدي، هل هذا صحيح؟".

عصر أخيل أصابعي.

"نعم"، قلت.

"لا!" صرخت الأميرة.

تجاهل أخيل جذبها له، ومال برأسه برشاقة لليكوميديس. "لقد جاء زوجي من أجلي، والآن أنا أستطيع أن أغادر بلاطك. شاكرة لك لحسن ضيافتك". انحنى أخيل. لاحظت بجزء خامل ومبهور من ذهني أنه فعل ذلك بشكل بارع.

رفع ليكوميديس يده لمنعنا. "يجب علينا مشاورة أمك أولاً. هي من أعطاك لي لرعايتك. هل تعرف عن هذا الزوج؟".

"لا!" قالت دادميليا مرة أخرى.

"ابنتي!" كان هذا ليكوميديس، مقطباً بطريقة لم تكن على خلاف عادة ابنته. "أوقفوا هذا المشهد. أطلقي سراح بيرا".

وجهها ذو الشامة متورم بالدموع، وصدرها يجيش بالتنهدات.

"لا!" التفتت إلى أخيل. "أنت تكذب! لقد خنتني! وحش! لا مبالي!" بلا قلب.

جمد ليكوميديس. شدت أصابع أخيل على أصابعي. في لغتنا، الكلمات جاءت لجنسين مختلفين. استخدمت صيغة المذكر.

"ماذا كان ذلك؟" قال ليكوميديس، ببطء.

شحب وجه دادميليا، لكنها رفعت ذقنها في تحد، وصوتها لا يتزعزع.

أضافت: "إنه رجل"، ثم قالت بعد ذلك: "نحن متزوجان".

"ماذا!" أمسك ليكوميديس بحنجرته.

لم أستطع الكلام، يد أخيل كانت الشيء الوحيد الذي يبقيني على الأرض.

"لا تفعلي هذا"، قال أخيل لها. "أرجوكِ".

يبدو أنه أثار حنقها. "سأفعل ذلك!" التفتت إلى والدها وقالت: "أنت أحمق! أنا الشخص الوحيد الذي يعرف! كنت أعرف!" وضربت صدرها بتأكيد. "والآن أنا أقول الجميع. أخيل!".

صرخت كما لو أنها ستفرض اسمه من خلال الجدران الحجرية المتينة، صعوداً إلى الآلهة أنفسهم. "أخيل! أخيل! سأخبر الجميع!".

"لن تفعلي". الكلمات كانت باردة وحادة كالسكين، قطعت صيحات الأميرة بسهولة.

أعرف ذلك الصوت. التفت.

وقفت ثيتيس في المدخل. وجهها يتوهج، بالأبيض والأزرق لمركز الشعلة. كانت عيناها السوداء، محفورة في بشرتها، ووقفت أطول مما كنت قد رأيتها من أي وقت مضى. شعرها حريري كما كان دائماً، وملابسها جميلة، لكن كان هناك شيء فيها يجعلها تبدو متوحشة، كما لو أسواط رياح غير مرئية ضربت حولها. كانت مثل الغضب، و الشياطين التي تأتي لدم الرجال. شعرت بفروة رأسي تحاول أن ترتفع عن رأسي؛ حتى دادميليا انتبذت من الصمت ركناً.

وقفنا هناك للحظة، في مواجهتها. ثم مد أخيل يده صعوداً وانتزع الحجاب عن شعره. قبض على خط عنق ملابسه و مزقه حتى أسفل مقدمته، كاشفاً عن صدره تحته. تراقص ضوء النار على جلده، واتقد بلون الذهب.

"لا أكثر، يا أمي"، قال.

ترقرق شيء تحت ملامحها، تشنج من نوع ما. كنت نصف خائف أنها ستضرب إلى الأسفل. لكنها فقط راقبته بتلك العيون السوداء التي لا تهدأ.

ثم تحول أخيل إلى ليكوميديس قائلاً: "أنا ووالدتي قمنا بخداعك، ولذلك أقدم اعتذاري. أنا الأمير أخيل، ابن بيليوس. هي لم تشأ أن أذهب إلى الحرب وخبأتني هنا، كواحدة من بناتك اللاتي ترعاهم".

ابتلع ليكوميديس ريقه و لم يتحدث.

"إننا سوف نغادر الآن"، قال أخيل بلطف.

هزت الكلمات داديميليا من غشيتها. "لا"، قالت، بصوت مرتفع مرة أخرى. "لا تستطيع. لقد قالت أمك العبارات فوقنا، نحن متزوجان. أنت زوجي".

صرّ ليكوميديس متنفساً بصوت عال في الغرفة؛ عينيه كانت لثيتيس وحدها. "هل هذا صحيح؟" سأل.

"إنها كذلك"، أجابت الإلهة.

سقط شيء من ارتفاع عالي في صدري. التفت إلي أخيل، كما لو كان سيتحدث. ولكن والدته كانت أسرع.

"أنت مقيد بنا الآن، يا ملك ليكوميديس. سوف تستمر تأوي أخيل هنا. لن تقول شيئاً عن من هو. في المقابل، ابنتك في يوم من الأيام ستكون قادرة على المطالبة بزوج مشهور". ذهبت عيناها إلى نقطة فوق رأس داديميليا، ثم عادت.

وأضافت "أفضل مما كانت لتفعل".

فرك ليكوميديس عنقه، كما لو كان يملس تجاعيده.

"ليس لدي خيار" قال. "كما تعلمون".

"ماذا لو لم ألتزم الصمت؟" ارتفع لون داديميليا.

"لقد دمرتني، أنت وابنك. لقد نمت معه، كما قلت لي، وذهب شرفي. سوف أطالب به الآن، أمام البلاط، كتعويض".

لقد نمت معه.

"أنت فتاة حمقاء"، قالت ثيتيس. سقطت كل كلمة مثل شفرة فأس حادة، وقاطعة. "فقيرة وعادية، أنتِ وسيلة فقط. أنتِ لا تستحقين ابني. سوف تحتفظين بصمتك أو سأحفظه أنا لك".

خطت دادميليا إلى الوراء، بعينين متسعة، تحولت شفتيها بيضاء. وارتعشت يديها. رفعت أحدها إلى بطنها وقبضت على نسيج فستانها هناك، كما لو كانت تكبح نفسها. خارج القصر، وراء المنحدرات، يمكننا أن نسمع الموجات الضخمة تتكسر على الصخور، محطماً الشاطئ إلى أشلاء.

"أنا حامل"، همست الأميرة.

كنت أراقب أخيل عندما قالت ذلك، ورأيت الرعب على وجهه. أحدث ليكوميديس ضجة ألم مكتومة.

شعرت بصدري يسقط مجوفاً، كقشرة بيض رقيقة. يكفي. ربما قلت ذلك، ربما أنا فقط فكرت بذلك. أفلت يد أخيل وخطوت خطوات كبيرة نحو الباب. لا بد أن ثيتيس تنحت جانباً من أجلي؛ كنت سأتوجه إليها لو لم تفعل ذلك. وحيداً، تقدمت نحو الظلام.

"انتظر!" صاح أخيل. استغرق منه الوصول إلي وقتاً أطول مما كان ينبغي أن يكون، لاحظت بحياد. لا بد أن اللباس التوى بساقيه. قبض علي، واحتجز ذراعي.

"اتركني" قلت.

"أرجوك انتظر. أرجوك، اسمح لي أن أشرح. لم أكن أريد أن أفعل ذلك. أمي -" كان متقطع الأنفاس، يتكلم لاهثاً تقريباً. لم أره متضايقاً أبداً هكذا.

"قادت الفتاة إلى غرفتي. جعلتني أقوم بذلك. لم أكن أريد ذلك. أمي قالت - لقد قالت -" كان يتلعثم بالكلمات.

"أخبرتني أنه إذا فعلت كما تقول، أنها سوف تخبرك عن مكاني".

ماذا اعتقدت دادميليا أن يحدث، تساءلت، عندما أحضرت نساءها ليرقصون لي؟ هل اعتقدت حقاً أنني لن أعرفه؟ أنا يمكنني أن أميزه باللمس وحده، بالرائحة؛ سأعرفه حتى لو كنت أعمى، بالطريقة التي يزفر بها أنفاسه ويضرب قدميه على الأرض. سأعرفه لو كنت ميتاً، في نهاية العالم.

"باتروكلوس"، طوق خدي بيده. "هل تسمعني؟ أرجوك، قل شيئاً".

لم أستطع التوقف عن تخيل بشرتها بجوار بشرته، ثدييها المتورمين ووركيها المقوسين. تذكرت أيام حزني الطويلة عليه، يدي الفارغة والخاملة، تنقر الهواء كما تنقر الطيور الأرض الجافة.

"باتروكلوس؟".

"لقد قمت بذلك للاشيء".

جفل من الفراغ في صوتي. لكن ماذا غير ذلك سيبدو صوتي؟

"ماذا تقصد؟".

"أمك لم تخبرني أين كنت. كان بيليوس".

شحب وجهه، كأنما استنزف حتى جف. "لم تخبرك؟".

"لا، هل كنت تتوقع حقاً أنها سوف تفعل؟" صوتي بدا أقسى من ما قصدت.

"نعم"، همس.

هناك آلاف الأشياء التي كنت قد أقولها، لأعيب عليه سذاجته. لقد كان دائماً يثق بسهولة كبيرة، كان لديه القليل جداً في حياته

ليخاف منه أو يشتبه به. في الأيام التي سبقت صداقتنا، كنت قد كرهته تقريباً لهذا، وبعض الشرارات القديمة لهذا اشتعلت في، محاولة أن تشتعل مجدداً. أي شخص آخر كان ليعرف أن ثيتيس تتصرف وفقاً لأغراضها الخاصة فقط. كيف يمكن أن يكون غبياً إلى هـذا الحـد؟ وخـزت الكلمات الغاضبة فمي.

ولكن عندما حاولت أن أنطقهم، وجدت أنني لم أستطع. توهج خديه بالعار، والجلد تحت عينيه كان مرهقاً. ثقته كانت جـزء منـه، بقدر يديه أو قدميه الخارقة. وعلى الرغم من ألمي، أنـا لم أرغـب في رؤيته يضيع، لرؤيته مهموماً و خائفاً كما هو حال بقيتنا، بأي ثمن.

كان يراقبني عن كثب، يقرأ وجهي مراراً وتكراراً، مثل كـاهن يفتش البشائر بحثاً عن إجابة. يمكنني أن أرى الخط الطفيف في جبهتـه والذي يعني أنه يمنحني أقصى تركيزه.

تبدل شيئاً في داخلي حينذاك، مثل السطح المتجمد لأبيدونس في فصل الربيع. كنت قد رأيت الطريقة التي نظر فيهـا إلى داديميليـا؛ أو بالأحرى الطريقة التي لم ينظر بها. كانت نفس الطريقة التي نظر بها إلى الأولاد في ثيا، فارغة وغير مرئية. لكنه أبداً، ولا مرة، نظر إلي بهـذه الطريقة.

"سامحني"، قال مرة أخرى. "لم أكن أريد ذلك. لم يكن أنت. لم أكن – لم أحب ذلك".

سماع ذلك خفف من آخر الحزن المسنن الذي كان قد بدأ عندما صاحت داديميليا باسمه. كان حلقي غليظ مع مقدم الدموع. "لا يوجد شيء ليغفر"، قلت.

عدنا إلى القصر في وقت لاحق من ذلك المساء. القاعة الكـبرى كانت معتمة، احترقت نارها جمراً. أصلح أخيل لباسه كأفضـل مـا

يستطيع، لكنه لا يزال مشقوقاً إلى وسطه، أمسك به مقفلاً في حال التقينا بحارس طويل. جاء الصوت من الظلال، مروع لنا.

"لقد عدتم". ضوء القمر لم يصل تماماً إلى العرش، ولكن شاهدنا الخطوط العريضة لرجل هناك، مكسو بالفراء السميكة. بدا صوته أعمق مما كان عليه من قبل، وأثقل.

"لقد عدنا"، قال أخيل. يمكنني أن أسمع التردد الطفيف الذي سبق إجابته. لم يتوقع أن يواجه الملك مرة أخرى بهذه السرعة.

"لقد رحلت أمك، لا أعرف إلى أين". توقف الملك، كما لو كان ينتظر رداً.

لم يقل أخيل شيئاً.

"ابنتي، زوجتك، تبكي في غرفتها. كانت تأمل بأن تأتي لها".

شعرت بالتواني لذنب أخيل. جاء كلامه خارجاً بتصنع، لم يكن شعوراً اعتاد عليه.

"من المؤسف أنها أملت بهذا".

"بالفعل"، قال ليكوميديس.

وقفنا في صمت للحظة. ثم سحب ليكوميديس نفساً منهك.

"أفترض إن كنت تريد غرفة لصديقك؟".

"إذا كنت لا تمانع" قال أخيل، بعناية.

أفلت ليكوميديس ضحكة ناعمة. "لا، أيها الأمير أخيل، أنا لا أمانع". كان هناك صمت آخر. سمعت الملك يرفع قدحاً، يشرب، يعيدها إلى الطاولة.

"الطفل يجب أن يحمل اسمك. تفهم هذا؟" هذا ما جعله ينتظر في الظلام ليقوله، تحت فراءه، إلى جانب النار المحتضرة.

"أفهم ذلك" قال أخيل بهدوء.

"وتقسم عليه؟".

كان هناك مقدار شعره من التوقف. أشفقت على الملك القـدم. سعدت عندما قال أخيل، "أقسم عليه".

أطلق الرجل العجوز صوتاً يبدو وكأنه تنفس الصعداء. لكن كلماته، عندما جاءت، كانت رسمية، لقد عاد ملكا مرة أخرى.

"أتمنى لكما ليلة سعيدة".

انحنينا وتركناه.

في أعماق القصر، وجد أخيل حارس ليرينا مسكن الضيوف. الصوت الذي استخدمه عالي كصوت المزمار، صوته كفتاة. رأيت عيني الحارس تشتعل فوقه، تتعلق بالحواف الممزقة من اللباس، وشعره أشعث. ابتسم لي ابتسامة عريضة بكل أسنانه.

"حالاً، أيتها العشيقة"، قال.

في القصص، الآلهة لديها القدرة على تأخير مسار القمر لو رغبوا في ذلك، لتدور ليلة واحدة بطول ليال عديدة. مثل هذا كانت هذه الليلة، مكافأة للساعات التي لم تركض جافة أبداً. شربنا بعمق، عطشى لكل ما افتقدناه في الأسابيع التي فُرقنا فيها. لم أتذكر ما قاله لليكوميديس في القاعة حتى بدأت السماء تبيض أخيراً إلى الرمادي. في خضم لم شملنا نسينا حمل دادميليا، وزواجه.

"أمك كانت تحاول أن تخفيك من الحرب؟".

أومأ وقال: "إنها لا تريدني أن أذهب إلى طروادة".

"لماذا؟" اعتقدت دائماً أنها تريده أن يقاتل.

"لا أعرف. تقول أنني صغير جداً. ليس بعد، تقول".

"وكانت فكرتها -" مشيراً إلى بقايا الفستان.

"بالطبع. لم أكن لأفعل ذلك بنفسي". قال مكشراً وانتزع شعره، الذي لا يزال متعلقاً بتجعيدات الشعر النسائي.

متهيجاً، لكن لم يشله العار، كما كان سيكون حال أي صبـــي آخر. لا يخشى السخرية، لأنه لم يعرفها. "على أي حال، هذا فقـــط حتى يغادر الجيش".

تصارع ذهني مع هذا.

"وهكذا، حقاً، لم يكن هذا بسببـــي؟ أخذها لك؟".

"دادميليا كانت بسببك، على ما أعتقد". حدق في يديه للحظة، ثم أضاف "لكن البقية كانت بسبب الحرب".

الفصل الثالث عشر

الأيام التالية مرت بهدوء. أخذنا وجباتنا إلى غرفتنا وقضينا الساعات الطويلة بعيداً عن القصر، مكتشفين الجزيرة، ساعين خلف ما ظلل هناك تحت الأشجار المهلهلة. كان علينا أن نكون حذرين؛ لا يمكننا أن نسمح برؤية أخيل يتحرك بسرعة كبيرة جداً، ويتسلق بمهارة عالية، ويمسك الرمح. لكننا لم نكن متبوعين، وكان هناك العديد من الأماكن حيث يستطيع أن يسقط تنكره بأمان.

على الجانب البعيد من الجزيرة كان هناك امتداد مهجور للشاطئ، الصخور متخمة لكن بضعف حجم مسار ركضنا.

انبعث من أخيل صوت بهجة عندما رآها، ومزق ثوبه. شاهدته يتسابق عبرها، بسرعة كما لو أن الشاطئ منبسط.

"عد لي"، صرخ، من فوق كتفه. ففعلت، ناقراً على الرمال لأحتفظ بالوقت.

"كم؟" نادى، من نهاية الشاطئ.

"ثلاثة عشر"، أجبته منادياً.

"أنا أسخن فقط"، قال.

في المرة التالية كانت إحدى عشر، في المرة الأخيرة كانت تسعة. جلس إلى جواري، بالكاد يتنفس، وقد توهجت وجنتيه بسعادة. كان قد أخبرني عن أيامه كامرأة، الساعات الطويلة من الضجر القسري، وليس لديه سوى الرقص كمتنفس. حر الآن، مدد عضلاته كواحدة من القطط الجبلية لبيليون، مترف بقوته.

على الرغم من ذلك، كان علينا أن نعود إلى القاعة الكبرى في المساء. نافراً، يقوم أخيل بوضع الثوب عليه وإعادة تمليس شعره. غالباً ما كان يربطه عالياً بقطعة قماش، كما كان في تلك الليلة الأولى؛ الشعر الذهبي استثنائي بما يكفي ليتم التعليق عليه من قبل البحارة والتجار الذين مروا خلال مينائنا. لو وجدت حكاياتهم آذان شخص ذكي بما فيه الكفاية- لم أرغب في التفكير في الأمر.

أُعدّت طاولة لنا في الجزء الأمامي من القاعة بالقرب من العرش. كنا نأكل هناك، نحن الأربعة، ليكوميديس، دادميليا، أخيل، وأنا. في بعض الأحيان ينضم إلينا مستشار أو اثنين، وأحياناً لا. هذه العشاءات كانت في معظمها صامتة، بل كانت شكلية، لقمع القيل والقال والحفاظ على رواية أن أخيل زوجتي وتحت وصاية الملك. عيون دادميليا تندفع نحوه بفارغ الصبر، على أمل أن ينظر إليها. لكنه لم يفعل ذلك أبداً.

"مساء الخير" كان يقول، في صوته النسائي المناسب، بينما نجلس، لكن لا شيء أكثر من ذلك. كان عدم اكتراثه شيء واضح، ورأيت وجهها الجميل يجفل خلال مشاعر العار والأذى والغضب. ظلت تتطلع إلى والدها، كما لو كانت تأمل أن يتدخل. لكن ليكوميديس كان يضع اللقمة تلو اللقمة في فمه ولم يقل شيئاً.

في بعض الأحيان كانت تراني وأنا أراقبها، فيتصلب وجهها حينذاك، وتضيق عينيها. تضع يداً على بطنها، بتملك، كما لو كانت تصد بعض التعويذات التي قد ألقيها. ربما ظنت أنني كنت أسخر منها، مباهياً بانتصاري. ربما ظنت أنني أكرهها. هي لا تعرف أنني سألته تقريباً، مائة مرة، ليكون ألطف قليلاً معها. فكرت أنه ليس عليك أن تذلها تماماً. لكن لم يكن لأنه يفتقر إلى اللطافة، بل كان الاهتمام. يمر بصره عليها كما لو لم تكن هناك.

حاولت ذات مرة أن تتحدث إليه، يرتعش صوتها بالأمل.

"هل أنت على ما يرام، بيرا؟".

واصل الأكل، بقضمات سريعة أنيقة. كنا أنا وهو قد خططنا لأخذ الرماح إلى الجانب البعيد من الجزيرة بعد العشاء، واصطياد السمك في ضوء القمر. كان تواقاً للرحيل. اضطررت إلى وكزه، تحت الطاولة.

"ماذا هناك؟" سألني.

"الأميرة تريد أن تعرف ما إذا كنت على ما يرام".

"أوه"، حملق فيها لفترة وجيزة، ثم عاد إلي قائلاً: "أنا بخير".

تعاقبت الأيام، اعتاد أخيل الاستيقاظ مبكراً، ليستطيع أن يتدرب بالرماح قبل أن ترتفع الشمس عالياً. أخفينا الأسلحة في البستان البعيد، ليتدرب هناك قبل أن يعود إلى الأنوثة في القصر. أحياناً قد يزور والدته بعد ذلك، يجلس على واحدة من صخور سايروس المسننة، مدلياً قدميه إلى البحر.

كان أحد هذه الصباحات، حين غادر أخيل، كان هناك قرعاً صاخباً على بابي.

"نعم؟" ناديت. لكن الحراس كانوا قد خطو بالفعل إلى الداخل. كانوا أكثر رسمية من أي وقت قد رأيتهم فيه، يحملون

رماحهم ويقفون متأهبين. كان من الغريب رؤيتهم بلا نرد.

"أنت ستأتي معنا"، قال أحدهم.

"لماذا؟" كنت بالكاد خارج السرير وما زلت مشوشاً بالنوم.

"الأميرة أمرت بذلك". أخذني الحراس من ذراعي وسحبوني إلى الباب. عندما تمتمت محتجاً، انحنى أول حارس نحوي، عيناه على عيني. وقال: "سيكون من الأفضل لو ذهبت بهدوء". وضع إبهامه على رأس رمحه متوعداً.

لم أكن أعتقد حقاً أنهم سوف يؤذيني، لكنني لم أرد أن أجر خلال قاعات القصر. "حسناً"، قلت.

لم أكن قد زرت من قبل أبداً هذه الممرات الضيقة حيث قادوني. كانت سكن النساء، تلتف خارجة من الغرف الرئيسية، خلية نحل من الخلايا الضيقة حيث كانت أخوات دادميليا الوصيات ينمن ويعشن. سمعت الضحك من وراء الأبواب، وأش- أش لا نهائية من المغزل. قال أخيل أن الشمس لا تأتي من خلال النوافذ هنا، وليس هناك من نسيم. لقد قضى ما يقارب الشهرين فيها، لم أستطع تخيل ذلك.

أخيراً وصلنا إلى باب كبير، قطع من خشب جميل على خلاف البقية. طرق الحارس عليه، فتحه، ودفعني خلاله.

سمعته يغلق بحزم ورائي.

في الداخل، جلست دادميليا بتزمت على كرسي مغطى بالجلد، تتفحصني. كان هناك طاولة إلى جانبها، وكرسي صغير بلا ظهر عند قدميها، فيما عدا ذلك كانت الغرفة فارغة.

لا بد أنها قد خططت لهذا، أدركت. لقد عرفت أن أخيل سيكون بعيداً.

لم يكن هناك مكان لي لأجلس، فوقفت. كانت الأرض حجرية باردة، وقدمي كانت عارية. كان هناك باب ثاني، أصغر، خمنت أنه يؤدي إلى غرفة نومها.

راقبتني وأنا أنظر، عينيها مشرقة كالطير. لم يكن هناك شيء فطن ليقال، لذلك قلت شيئاً أحمق.

"هل أردت التحدث معي".

شخرت قليلاً، بازدراء. "نعم، باتروكلوس. لقد أردت أن أتحدث معك".

انتظرت، لكنها لم تقل شيء أكثر من ذلك، فقط درستني، إصبعها ينقر على ذراع كرسيها. فستانها كان أكثر مرونة من المعتاد، لم تربطه عبر خصرها كما تفعل غالباً، لإظهار بنيتها. شعرها غير مقيد ومعقود إلى الخلف على صدغيها بمشط عاج منحوت. مالت برأسها وابتسمت لي.

"أنت حتى لست وسيم، هذا هو الشيء المضحك. أنت عادي جدا".

تمتلك طريقة والدها في التوقف كما لو كانت تتوقع رداً. شعرت بنفسي أتورد. يجب أن أقول شيئاً. نظفت حلقي.

نظرت إلي بنظرة ساخطة وقالت: "أنا لم أعطك الأذن بالكلام". قبضت على نظرتي للحظة، كما لو كانت تتأكد من أنني لن أعصيها، ثم واصلت: "أعتقد أنه مضحك. انظر إليك". قامت، أكلت خطواتها السريعة المساحة بيننا.

"رقبتك قصيرة. صدرك نحيل كصبي". أومأت بأصابعها المترفعة إلي. "وجهك". قالت مكشرة: "بشع. نسائي يوافقن على ذلك تماماً. حتى والدي يوافق". شفتيها الحمراء الجميلة افترقت مظهرة أسنانها البيضاء. كانت أقرب إلي من أي وقت مضى. يمكنني أن أشم رائحة شيء حلو، مثل زهرة الأقنثة؛ عن قرب، استطعت أن أرى أن شعرها لم يكن أسود فقط، لكن من خلال إطلاقه تحولت ألوانه إلى اللون البني الغني.

"حسناً؟ ماذا تقول؟" كانت يديها على وركها.

" لم تعطني الأذن لأتحدث"، قلت.

لمع الغضب على وجهها. "لا تكن أحمقاً"، ثم بصقت علي.

" لم أكن –".

صفعتني. يدها كانت صغيرة لكنها تحمل قـــوة مفاجئـــة. أدارت رأسي جانباً بفظاظة. لسعني جلدي، ونبضت شفتي بشكل حاد حيث أصابتها بخاتمها.

لم أكن قد ضُربت مثل هذا منذ كنت طفلاً. الأولاد لم يكونـــوا يصفعون عادة، لكن الأب قد يفعل ذلك لإظهار احتقاره.

فعلها أبـــي. كانت صدمة لي، لم أكن أستطيع أن أتحدث حتى لو كنت أعرف ماذا أقول.

كشفت أسنانها في وجهي، كما لو كانت تتحداني أن أضربها في المقابل. عندما رأت أنني لن أفعل، التوى وجهها انتصار وقالت: "أيها الجبان. أنت جبان بالإضافة إلى قبحك. ونصف معتـــوه إلى جانـــب ذلك، أنا أسمع. لا أفهم ذلك! أن ذلك بلا منطق، أنه ينبغي –".

توقفت فجأة، وزاوية فمها سحبت إلى أسفل، كمـــا لـــو أنهـــا اصطيدت بصنارة أحد الصيادين. أدارت ظهرها لي ثم كـــان هنـــاك صمت. مرت لحظة. كنت أستطيع سماع صوت أنفاســـها، تســـحب ببطء، لئلا أظن أنها كانت تبكي. لقد عرفت الخدعة. كنت أقوم بهـــا بنفسي.

"أنا أكرهك"، قالت، لكن صوتها كان سميكاً و لم يكـــن بـــه أي قوة. تنامى فيني نوع من الشفقة، برد حرارة خدي.

تذكرت كيف كان من الصعب تحمل اللامبالاة.

سمعتها تبلع ريقها، ويدها تتحرك بسرعة على وجهها، كما لـــو كانت تمسح دموعها بعيداً. "سأغادر غداً"، قالت.

وأضاف: "هذا يجب أن يجعلك سعيداً. والدي يريدني أن أبـــدأ عزلتي مبكراً. يقول أن رؤية حملي قبل أن يعرف بزواجي ســـتجلب العار علي".

العزل. سمعت المرارة في صوتها عندما قالت ذلك. منـــزل صغير، على حافة أرض ليكوميديس. لن تكون قادرة على الرقص أو التحدث مع رفاقها هناك. ستكون وحيدة، مع الخدم وبطنها المتنامية.

"أنا آسف" قلت.

لم تجب. شاهدت النعومة المرتفعة لظهرها تحت الثوب الأبـــيض. تقدمت خطوة باتجاهها، ثم توقفت. لقد فكرت بلمسها، تمليس شعرها لأواسيها. لكنها لن تكون مواساة، من قلبـــي. انخفضت يـــدي مـــرة أخرى إلى جانبـــي. وقفنا هناك بمثل هذا لبعض الوقت، صوت أنفاسنا يملئ القاعة. عندما التفتت، كان وجهها متورد من البكاء.

"أخيل لا يهتم لي". ارتعش صوتها قليلاً.

"على الرغم من أنني أحمل ولده، وأنا زوجته. هل تعـــرف لمـــاذا يحدث هذا؟".

كان سؤالاً طفولي، مثل لماذا يسقط المطر أو لماذا حركة البحر لا تتوقف. شعرت أنني أكبرها عمراً، على الرغم من أنني لم أكن.

"لا أعرف" قلت بهدوء.

التوى وجهها. "هذا كذب. أنت هو السبب. سوف تبحر معه، وأنا سوف أُترك هنا".

لقد عرفت شيئاً عن كيف هي الحال عندما تكون وحيداً. عـــن كيف ينخسك حظ الآخرين الجيد مثل المهماز. لكن لم يكـــن هنـــاك شيء يمكنني أن أفعله.

"يجب أن أذهب" قلت، بكل ما أستطيع من لطف.

"لا!" انتقلت بسرعة لمنع طريقي. كلماتها هوت خارجـــاً. "لا تستطيع. سأدعو الحراس إذا حاولـــت. ســـأفعل - ســـأقول أنـــك هاجمتني".

الحزن عليها جرفني، إلى أسفل. حتى لو كانت دعتهم، حتى لو صدقوها، فإنهم لا يستطيعون أن يساعدوها. أنا رفيق أخيل ومنيع ضد المخاطر.

لا بد أن مشاعري ظهرت على وجهي، ارتدت عني كما لو كانت قد اكتوت، وأشعلت الحرارة فيها مرة أخرى.

"كنت غاضب لأنه تزوجني، لأنه نام معي. لقد كنت غيوراً. يجب أن تكون كذلك". رفعت ذقنها، مثلما كان عليه.

"لم تكن فقط لمرة واحدة".

كان ذلك مرتين. أخبرني أخيل. اعتقدت أنها تملك القوة على دق إسفين بيننا، لكن لم يكن لديها شيء.

"أنا آسف" قلت مرة أخرى. لم يكن لدي شيئاً أفضل لأقوله. لم يحبها؛ ولن يحبها أبداً.

كما لو أنها سمعت أفكاري، تغضن وجهها. سقطت دموعها على الأرض، محولة الحجر الرمادي إلى أسود، قطرة قطرة.

"اسمح لي أن أنادي والدك"، قلت. "أو إحدى نسائك".

نظرت إلى أعلى باتجاهي. "أرجوك"، همست. "أرجوك لا تغادر".

كانت ترتعش، كشيء ولد للتو. دائماً قبل ذلك، كان ألمها أصغر، وكان هناك شخص ما لتقديم المواساة لها. الآن لم يعد لديها سوى هذه الغرفة، الجدران العارية والكرسي الواحد، خزانة حزنها.

خطوت باتجاهها على كره تقريباً. أفلتت تنهيدة صغيرة، كطفل نعسان، وتدلت بامتنان في دائرة ذراعي. دموعها نزفت خلال سترتي، أمسكت بانحناءات خصرها، شعرت بالدفء، البشرة الناعمة لذراعيها. لقد أمسك بها بمثل هذه الطريقة، ربما. لكن أخيل يبدو بعيد

المنال؛ إشراقه ليس له مكان في هذه الغرفة الباهتة المملة. وجهها ساخن كما لو كانت مصابة بالحمى، ملتصق بصدري. كل ما أمكنني رؤيتـــه منها كان أعلى رأسها، اللفائف المتداخلة لشعرها الداكن البراق، الفروة الشاحبة تحتها.

بعد مرور الوقت، هدأت شهقاتها، وسحبتني لأكـــون أقـــرب. شعرت بيديها تمسد ظهري، وطول جسدها يضغط على جســـدي. في البداية لم أفهم. ثم فعلت.

"أنت لا تريدين هذا"، قلت. ثم تقدمت خطوة إلى الوراء، لكنها تشبثت بـــي بكل إحكام.

"بل أريد". عيناها كانت قوية بطريقة أخافتني تقريباً.

"دادميليا". حاولت أن أستدعي الصوت الذي كنت قد استخدمته لجعل بيليوس يتنازل. "الحرس في الخارج. يجب عليك ألا -".

لكنها كانت هادئة الآن، ومتأكدة. "إنهم لن يزعجوننا".

ابتلعت ريقي، وقد جف حلقي بذعر. "أخيل سوف يبحث عني".

ابتسمت بأسف. "لكنه لن يبحث هنا". أخذت بيدي.

"تعال"، قالت. وسحبتني خلال باب غرفة نومها.

أخيل كان قد أخبرني عن لياليهم معاً عندما سألته. لم يكن ذلك غريباً بالنسبة له للقيام به، لا شيء محظوراً فيما بيننا.

جسدها، كما قال، كان لين وصغير مثل الطفـــل. جـــاءت إلى خليته في الليل مع أمه وتمددت بجانبه على السرير.

كان يخشى أن يؤذيها، كان سريعاً، ولزم كلاً منهما الصـــمت. تعثر أثناء محاولته لوصف الرائحة الثقيلة السميكة، الرطوبة بين ساقيها. "دهني"، قال، "مثل الزيت "، وعندما ضغطت عليه أكثر، هز رأســـه. "لا أستطيع التذكر، حقاً.

كان ظلام، وأنا لم أستطع أن أرى. أردت أن ينتـــهي ذلـــك". داعب خدي. "اشتقت إليك".

أغلقت الباب وراءنا، كنا لوحدنا في غرفة متواضـــعة. علقـــت المفروشات على الجدران، والأرض كانت سميكة بسجاد جلد الغـــنم. كان هناك سرير، دُفع إلى النافذة، للقبض على لمحات النسيم.

سحبت فستانها فوق رأسها، ورمته على الأرض.

"هل تظن أنني جميلة؟" سألتني.

كنت ممتناً للإجابة البسيطة. "نعم"، قلت. جسدها كان صـــغيراً مخلوق بدقة، مع فقط أثداء ارتفعت فوق بطنها حيث يكـــبر الطفـــل. عيني انسحبت إلى أسفل وصولاً إلى ما لم أره أبداً من قبل، منطقة وبر صغيرة، الشعر الداكن ينتشر صعوداً بصورة طفيفة. رأتـــني أحـــدق. توصلت إلى يدي وقادتني إلى ذلك المكان، الذي يشع حرارة مثل جمر النار.

الجلد الذي انـــزلق تحت أصابعي كان دافئ، مرهف، وهش حتى أنني تقريباً خفت أن أمزقه بلمستي.

ارتفعت يدي الأخرى لتداعب خدها، لتقتفي النعومـــة تحـــت عينيها. كانت النظرة فيها رهيبة لتُشاهد: لم يكن هناك أمل أو متعـــة، فقط عزيمة.

تقريباً، هربت. لكنني لم أستطع أن أتحمل رؤية وجهها يتكســـر بمزيد من الحزن، بخيبة أمل أخرى، صبـــي آخر لم يستطع أن يعطيها ما أرادت. لذا سمحت ليديها، بأن تتحسسني قليلاً، لتسحبني إلى السرير، لتقودني بين فخذيها، حيث افترق الجلد الناعم، باكياً بقطرات دافئـــة بطيئة. شعرت بالمقاومة وكنت سأتراجع إلى الوراء، لكنها هزت رأسها بعنف. وجهها الصغير مشدوداً بالتركيز، وفكها مثبتاً كما لو كانـــت

ستقاوم الألم. شعرت بالراحة من أجلنا معاً عندما تخفف الجلد أخيراً، مفسحاً الطريق. عندها انزلقت إلى غمد الدفء بداخلها.

لن أقول أنني لم أكن مثاراً. شدة بطيئة متسلقة تحركت خلالي. كان غريباً، شعور ناعس، مختلف جداً عن حدتي، ورغباتي الأكيدة لأخيل. يبدو أنها تألمت بسبب هذا، غطائي الثقيل استراح. أصبح أكثر لامبالاة. وهكذا سمحت لنفسي بالتحرك، مصدراً أصوات متعة، ضاغط بصدري على صدرها كما لو كنا نتشارك العاطفة، مسطحاً صدرها الناعم الصغير تحتي.

أعربت عن سرورها حينذاك، أصبحت شرسة فجأة، سحبتني ودفعتني بشكل أقوى وأسرع وعيناها مضيئة بانتصار للتغييرات التي اعترت أنفاسي. ثم بعد ذلك، حينما ارتفع مائي بداخلي ببطء، ساقيها، خفيفة لكن حازمة، التفت حول ظهري، تدفعني بداخلها، مستحلبة تشنجات متعتي.

بعد ذلك تمددنا مقطوعي الأنفاس، جنباً إلى جنب لكن غير متماسين. وجهها معتم وبعيد، تيبست في وضعيتها بغرابة. ذهني لا يزال مشوش بذروة الرعشة، لكني مددت يدي لأمسك بها. أستطيع أن أقدم لها هذا، على الأقل.

لكنها انسلت بعيداً عني ووقفت، عينيها يقظتين؛ الجلد تحتهما داكن بكدمات. التفتت لتلبس، وأردافها ذات الشكل القلبي تحدق بي بعتب. لم أفهم ماذا كانت تريد، عرفت فقط أنني لم أعطها إياه. وقفت وسحبت سترتي علي. كنت لألمسها، أداعب وجهها، لكن عينيها حذرتني بأن أبقى بعيداً، حادة ومليئة. أمسكت بالباب المفتوح. بيأس، صعدت على العتبة. "انتظر". صوتها بدا غرّ. التفت. "قل له وداعاً" قالت. ثم أغلقت الباب، داكن وسميك فيما بيننا.

عندما وجدت أخيل ثانية، ضغطت نفسي إليه ارتياحاً للفرح الذي بيننا، لتحريرنا من حزنها وأذاها. في وقت لاحق، أقنعت نفسي تقريباً أنه لم يحدث، أنه كان حلم يقظة، مستمدة من أوصافه وقدراً كبيراً من الخيال. لكن تلك ليست هي الحقيقة.

الفصل الرابع عشر

غادرت دادميليا في صباح اليوم التالي، كما سبق وقالت أنها ستفعل. "تزور عمتها" قال ليكوميديس للبلاط على الإفطار، بصوت مسطح. لو كان هناك أسئلة، لم يجرؤ أحد على طرحها. ستغيب حتى يولد الطفل، ويمكن تسميته بأبيه أخيل.

الأسابيع التي مرت الآن كانت فضولية مع وقف التنفيذ. قضيت أنا وأخيل الكثير من الوقت بعيداً عن القصر قدر المستطاع، وفرحنا، المتفجر بلم شملنا، بُدل بنفاد الصبر. أردنا أن نغادر، نعود إلى حياتنا في بيليون، أو في ثيا.

أحاط بنا المكر والإحساس بالذنب برحيل الأميرة؛ شحذت أعين البلاط علينا، وأصبحت أكثر إزعاجاً. وليكوميديس كان يعبس كلما رآنا.

وبعد ذلك كانت الحرب. حتى هنا، في البعد، في سايروس المنسية، جاء خبر ذلك. خطاب هيلين السابقين وفّوا بنذرهم، وجيش أجاممنون كان غنياً بالدم الأميري. قيل بأنه فعل ما لم يستطع فعله رجل قبله: وحّد ممالكنا العنيدة تحت قضية مشتركة. تذكرت الوجه ذو الظلال القاتمة، الأشعث كالدب. إلى سنوات التسع، كان شقيقه مينيلوس الأكثر تعلقاً بالذاكرة من الاثنين، بشعره الأحمر وصوته المرح. لكن أجاممنون كان الأكبر سناً، وجيوشه أكبر، سيقود الحملة إلى طروادة.

كان صباحاً، في أواخر الشتاء، على الرغم من أنه لم يبدو كذلك. بعيداً في أقصى الجنوب، لم تتساقط الأوراق ولا صقيع سرق

نسيم الصباح. تسكعنا على جرف صخري، أشرف على مدى الأفق، نتفرج بكسل على السفن أو اللمعة الرمادية لظهـــر دولفـــين. ألقينـــا الحصى من الجرف، مللنا لنراقبها ترتطم بأسفل وجه الصـــخور. كنـــا مرتفعين لدرجة أننا لم نتمكن من سماع صوت تكسرها على الصخور في الأسفل.

"أتمنى لو أن قيثارة أمك لدي"، قال.

"أنا أيضاً". لكنها كانت في ثيا، تركت خلفنا مع كـــل شـــيء. صمتنا للحظة، مسترجعين حلاوة أوتارها.

انحنى أخيل إلى الأمام. "ما هذا؟".

حدقت بعينين نصف مغمضتين. جلست الشمس في الأفـــق الآن بشكل مختلف لأنه الشتاء، ويبدو أنها مالت إلى عيني من كل زاوية.

"لا أستطيع أن أحدد". حدقت في الضباب حيث يتلاشى البحر في السماء. كانت هناك بقعة بعيدة التي ربما تكون سفينة، أو خدعة من الشمس على الماء. وأضفت: "إذا كانت سفينة، ستكون هناك أخبار"، قلت، مع انقباض مألوف في معدتي. في كل مرة أخشى أن تأتي الأخبار عن البحث عن آخر خطاب هيلين، الذي حنث بيمينه. كنت صـــغيراً آنذاك؛ و لم يخطر لي أنه لا قائد سيتمنى أن يكون على علم، بأن البعض لم يستجب لاستدعائه.

"إنها سفينة، بكل تأكيد" قال أخيل. كانت البقعة أقرب الآن؛ لا بد أن السفينة تتحرك بسرعة كبيرة. الألوان الزاهية للأشـــرعة حلـــت نفسها لحظة بلحظة من البحر الأزرق الرمادي.

"ليس تاجر"، علق أخيل. البواخر التجارية تســـتخدم الأشـــرعة البيضاء فقط، عملية ورخيصة، الرجل يجب أن يكون غنياً بالفعل ليبدد صباغه على قماش الشراع. أشرعة رسل أجاممنون قرمزية وبنفســـجية،

ورموزه مسروقة من ملوك الشرق. أشرعة هذه السفينة كانت صفراء، منسوجة برسوم سوداء.

"هل تعرف التصميم؟" سألت.

هز أخيل رأسه.

شاهدنا السفينة تطوف حول الفم الضيق لخليج سايروس وتـــدفع بنفسها على الساحل الرملي. المرساة الحجرية الوعرة طرحت من فوق سطح السفينة، وأنـــزل الممشى. كنا بعيداً جداً عن رؤية الكثير مـــن الرجال على ظهرها، إلى ما وراء الرؤوس الداكنة.

بقينا أطول مما ينبغي. وقف أخيل وطوى شعره الطليق في الريح إلى الوراء تحت وشاحه. شغلت يدي بطيات ملابسه، تسويتهم أكثر كياسة عبر كتفيه، ربط حزامه والأشرطة، كان غريباً بعد الآن رؤيته في ذلـــك. عندما انتهينا، مال أخيل تجاهي في قبلة. شفتيه على شفتي كانت ناعمة، وأثارتني. قبض على التعبير المرتسم في عيني وابتسم قـــائلاً: "لاحقـــاً"، وعدني، ثم تحول وذهب راجعاً إلى أسفل الطريق إلى القصر. سيذهب إلى مساكن النساء وينتظر هناك، وسط النول والثياب، حتى يغادر الرسل.

خطوط الشعر ضُربت بصداع كانت بدايته وراء عيني، ذهبت إلى غرفة نومي، باردة ومظلمة، مصاريعها حجبت شمس منتصف النـــهار، ونمت.

أيقظتني ضربة على الباب. ربما الخادم، أو ليكوميديس. عـــيني لا تزال مغلقة، ناديت: "تعال".

"بالأحرى لقد فات الأوان لذلك"، أجاب صوت. كانت لهجتـــه مستمتعة وجافة كالأخشاب الطافية. فتحت عيني و جلســـت. وقـــف رجل داخل الباب المفتوح. كان قوياً نامي العضلات، مع لحية فيلسوف قصيرة مقصوصة بدقة، بنية داكنة مشوبة باحمرار ضـــعيف. ابتســـم لي،

ورأيت الخطوط حيث ارتسمت الابتسامات الأخرى. كانت حركة سهلة بالنسبة إليه، سريعة وممارسة. هناك شيئاً حياله انبعث في ذاكرتي.

"أنا آسف إذا كنت أزعجتك". كان صوته لطيفاً، بطبقة جيدة.

"لا عليك" قلت، بعناية.

"كنت آمل أنني قد أحظى بكلمة معك. هل تمانع أن أجلس؟" أومأ نحو كرسي بكفين عريضين. الطلب قدم بأدب؛ رغم قلقي، لم أستطع أن أجد أي سبب لرفضه.

أومأت برأسي موافقاً، وسحب الكرسي إليه. يديه متصلبة وخشنة، لن تبدو خارج موضعها لو أمسكت بمحراث، و مع ذلك طريقته توحي بالنبل. لأماطل وقفت وفتحت المصاريع، على أمل أن ينفض ذهني ضباب النعاس عنه.

لم أستطع أن أفكر في أي سبب يجعل أي رجل يريد لحظة من وقتي. إلا إذا كان قد جاء ليطالبني بيميني. تحولت لمواجهته.

"من أنت؟" سألت.

ضحك الرجل. "سؤال جيد. لقد كنت فظاً بشكل رهيب، اقتحمت غرفتك بهذه الطريقة. أنا أحد نقباء الملك العظيم أجاممنون. أسافر الجزر وأتحدث إلى الشبان الواعدون، مثلك" - مال رأسه نحوي - "عن الانضمام لجيشنا ضد طروادة. هل سمعت بالحرب؟".

"لقد سمعت بها"، قلت.

"جيد". ابتسم ومدد قدميه أمامه. الضوء المتلاشي سقط على رجليه، كاشفاً عن ندبة وردية خاطت اللحم البني لربلة ساقه من الكاحل إلى الركبة. ندبة وردية. انخفضت معدتي كما لو أنني اتكأت فوق أعلى منحدرات سايروس، لا شيء تحتي ما عدا السقطة طويلة إلى البحر. لقد كان أكبر سناً الآن، وأضخم، وصل إلى كامل فورة قوته.

أوديسيوس. قال شيئاً، لكنني لم أسمعه. رجعت إلى قاعة تنديريوس، تذكرت عينيه الذكية الداكنة التي لا يفوتها شيء.

هل عرفني؟ حدقت في وجهه، لكن لم أرَ سوى حيرة، توقعت أنه ينتظر جواباً. اضطررت إلى خفض خوفي.

"أنا آسف" قلت. "لم أسمعك. ماذا؟".

"هل أنت مهتم؟ بالانضمام إلينا للقتال؟".

"لا أعتقد أنك كنت لتريدني. أنا لست جندياً جيداً".

التوى فمه بامتعاض. "إنه أمر مضحك، لا أحد بدا كذلك، عندما جئت منادياً" كانت لهجته خفيفة، كانت مزحة مشتركة، وليست تأنيب.

"ما اسمك؟".

حاولت أن أبدو عفوي مثله. "كايورنايدس".

"كايورنايدس"، كرر. راقبته منتظراً عدم تصديقه، لكنني لم أرَ شيء. التوتر في عضلاتي انحسر قليلاً. بالطبع هو لم يتعرف علي. لقد تغيرت كثيراً منذ كنت في التاسعة.

"حسناً، كايورنايدس، أجاممنون وعد الذهب والشرف لكل من يحارب من أجله. الحملة تتطلع إلى أن تكون قصيرة، سنعيدك إلى وطنك بحلول الخريف المقبل. سأكون هنا لبضعة أيام، وأرجو أن تفكر في الموضوع"، خفض يديه على ركبتيه بحسم، ووقف.

"هذا كل شيء؟" توقعت المزيد من الإقناع والضغط، ومساء طويل بهما. .

ضحك، بمودة تقريباً. "نعم، هذا كل شيء. أفترض أنني سأراك على العشاء؟".

أومأت برأسي موافقاً. تظاهر أنه ذاهب، ثم توقف وقال: "هل تعرف، إنه أمر مضحك؛ أظل أفكر بأنني قد رأيتك من قبل".

"أشك في ذلك" قلت بسرعة. "أنا لم أتعرف عليك".

درسني لحظة، ثم هز كتفيه، مستسلماً. "لا بد أنني خلطت بينك وبين شاب آخر. أنت تعرف ما يقال. كل ما كبرت أكثر، كل ما تذكرت أقل"، حك لحيته مفكراً. "من والدك؟ ربما هو من أعرف".

"أنا منفي".

أظهر وجه متعاطف. "أنا آسف لسماع ذلك. من أين أتيت؟".

"الساحل".

"الشمال أو الجنوب؟".

"الجنوب".

هز رأسه بأسى. "أكاد أن أقسم أنك من الشمال. في مكان ما بالقرب من ثيساليا، لنقل. أو ثيا. لك نفس استدارة حروف العلة كالذي يقومون به".

ابتلعت ريقي. في ثيا، كانت الحروف الساكنة أصعب من أي مكان آخر، وحروف العلة على نطاق أوسع. بدت لي قبيحة، حتى سمعت أخيل يتكلم. لم أكن أدرك مقدار تبنيي لها.

"أنا – لم أكن أعرف ذلك" تمتمت. قلبي يقرع سريعاً جداً. فقط لو أنه يغادر.

"أخشى أن المعلومات المهدورة هي لعنتي". عاد مستمتعاً مرة أخرى، بابتسامة طفيفة. "الآن لا تنسى أن تبحث عني إذا قررت أن تنضم إلينا. أو إذا كنت تعرف أي شباب من المرجح أنني يجب أن أتكلم إليهم". ضرب الباب مغلقاً وراءه.

رن جرس العشاء وكانت الأروقة مشغولة بالخدم يحملون الصحون والكراسي. عندما دخلت إلى القاعة، زائري كان هناك بالفعل، واقفاً مع ليكوميديس ورجل آخر.

"كايورنايدس"، عبر ليكوميديس عن وصولي. "هذا هو أوديسيوس، حاكم إيثاكا".

"الحمد لله على المضيف" قال أوديسيوس. "أدركت بعد أن غادرت أنني لم أخبرك أبداً باسمي".

وأنا لم اسأل لأنني كنت أعرفه. كان ذلك خطأ لكن لم يكن غير قابل للإصلاح. اتسعت عيني. "أنت ملك؟" منخفضاً على ركبتي، بأفضل ما لدي من إكبار مشدوه.

"في الواقع، هو ليس سوى أمير"، تشدق صوت. "أنا هو الملك" نظرت إلى أعلى لألتقي أعين الرجل الثالث؛. كانتا باللون البني الخفيف الذي يكاد أن يكون أصفر تقريباً، وفطنتين. لحيته قصيرة سوداء، وقد أظهرت الخط المائل الحليق لوجهه.

"هذا هو السيد ديوميديس ملك أرغوس" قال ليكوميديس "رفيق أوديسيوس"، وخاطب آخر لهيلين، على الرغم من أنني لم أتذكر ما يزيد عن اسمه.

"سيدي". انحنيت له. لم يكن لدي وقت للخوف من التعرف - كان سبق وتحول بعيداً.

"حسناً". أومأ ليكوميديس إلى الطاولة. "هلا أكلنا؟".

على العشاء انضم إلينا عدد من مستشارين ليكوميديس، وكنت سعيداً بالتلاشي بينهم. أوديسيوس وديوميديس تجاهلونا إلى حد كبير، واستغرقوا في نقاش مع الملك.

"وكيف هي إيثاكا؟" سأل ليكوميديس بأدب.

"إيثاكا على ما يرام، شكراً لك"، أجاب أوديسيوس. "تركت زوجتي وابني هناك، كلاهما في صحة جيدة".

"اسأله عن زوجته" قال ديوميديس. وأضاف "أنه يحب أن يتحدث عنها. هل سمعت كيف التقى بها؟ إنها قصته المفضلة".

كان هناك هامش همز في صوته، بالكاد مغمد. توقف الرجال حولي عن تناول الطعام، ليراقبوا.

نقل ليكوميديس نظره بين الرجلين، ثم غامر، "وكيف تعرفت بزوجتك، يا أمير إيثاكا؟".

لو كان أوديسيوس شعر بالتوتر، فهو لم يظهره. "لطف منك أن تسأل. عندما بحث تنديريوس عن زوج لهيلين، جاء الخطاب من كل مملكة. أنا متأكد أنك تذكر ذلك".

"كنت متزوجاً بالفعل"، قال ليكوميديس. "لهذا لم أذهب".

"بالطبع. وأخشى أن هؤلاء كانوا صغاراً جداً"، ألقى إلي بابتسامة، ثم التفت إلى الملك.

"من بين كل هؤلاء الرجال، كنت محظوظاً بوصولي أولاً. دعاني الملك لتناول الطعام مع العائلة: هيلين؛ أختها، كلوتاى منسترا؛ وابنة عمهما بينيلوب".

"دعاك" سخر ديوميديس. "هل هذا ما يسمونه بالزحف من خلال أجمة السرخس للتجسس عليهم؟".

"أنا متأكد من أن أمير إيثاكا لا يفعل مثل هذا الشيء". عبس ليكوميديس.

"لسوء الحظ أنا فعلت ذلك ببساطة، على الرغم من أنني أقدر إيمانك في". وقدم ليكوميديس ابتسامة ودية. "لقد كانت بينيلوب من أمسك بي، في الواقع. لقد كانت تراقبني لأكثر من ساعة وكان

ينبغي أن تتدخل قبل أن أصطدم بشجيرة الأشواك. وبطبيعة الحال، كان هناك بعض الإحراج في ذلك، لكن تنديريوس جاء في نهاية المطاف إلي وطلب مني البقاء. في سياق العشاء، توصلت إلى أن بينيلوب كانت بضعف ذكاء أبناء عمومتها وجميلة. لذا -".

"جميلة مثل هيلين؟" قاطعه ديوميديس. "هل هذا هو السبب أنها كانت في العشرين وغير متزوجة؟".

كان صوت أوديسيوس دمث. "أنا متأكد أنك لن تطلب من رجل مقارنة زوجته سلباً بامرأة أخرى".

أدار ديوميديس عينيه واستوى إلى الوراء لتنظيف أسنانه برأس سكينه.

عاد أوديسيوس إلى ليكوميديس. "وهكذا، في سياق حديثنا، عندما اتضح أن السيدة بينيلوب تفضلني -".

"ليس لمظهرك، بالتأكيد"، علق ديوميديس.

"بالتأكيد لا"، وافقه أوديسيوس. "سألتني ما هي هدية العرس التي سأقدمها لعروسي. سرير الزفاف، قلت بشجاعة، من أروع بلوط الجزر الصغيرة. لكن هذا الجواب لم يسعدها. "سرير الزفاف لا ينبغي أن يكون من الخشب الميت الجاف، لكن من شيء أخضر وحي"، قالت لي. "وماذا لو تمكنت من صنع مثل هذا السرير؟". "هل تكونين لي؟" فقالت -".

أصدر ملك أرغوس ضوضاء اشمئزاز. "لقد سئمت حتى الموت من هذه القصة حول سرير زواجك".

"إذن ربما كان لا ينبغي لك أن تقترح أن أقصها".

"وربما يجب أن تحصل على بعض القصص الجديدة، لـئلا أقتل نفسي من الضجر".

بدا ليكوميديس مصدوماً، الفحش كان للغرف الخلفية وفناءات التدريب، وليس العشاءات الرسمية. لكن أوديسيوس فقط هز رأسه بأسف. "صدقاً، الرجال من أرغوس يصبحون همجيون أكثر وأكثر مع مرور كل سنة. ليكوميديس، دعنا نظهر لملك أرغوس قليلاً من الحضارة. لقد كنت آمل بالحصول على لمحة للراقصات الشهيرات في جزيرتك".

ابتلع ليكوميديس ريقه. "نعم"، قال. "لم أكن قد فكرت -" أوقف نفسه، ثم بدأ مرة أخرى، بأكثر صوت ملكي استطاع استدعاءه. "إذا رغبتم في ذلك".

"نرغب بذلك". وكان هذا ديوميديس.

"حسناً". اندفعت عيني ليكوميديس بين الرجلين. ثيتيس كانت قد أمرته بحفظ النساء بعيداً عن الزوار، لكن الرفض قد يكون مريباً. نظف حلقه، مقرراً. "حسناً، دعونا ندعوهم، إذن". أومأ لخادم بحدة، الذي التفت راكضاً من القاعة.

أبقيت عيني على صحني، لئلا يروا الخوف في وجهي.

فوجئت النساء باستدعائهن وكن مازلن يجرين تعديلات صغيرة في ملابسهن وشعرهن وهن يدخلن القاعة. كان أخيل بينهن، رأسه مغطى بعناية، ونظره خفيض بتواضع. ذهبت عيني بلهفة على أوديسيوس وديوميديس، لكن لا أحد منهما ألقى حتى نظرة سريعة إليه.

أخذت الفتيات أماكنهم، وضربت الموسيقى. شاهدنا بينما بدأوا بسلسلة الخطوات المعقدة. كانت جميلة، على الرغم من نقص غياب دادميليا، لقد كانت أفضلهم.

"أي واحدة هي ابنتك؟" سأل ديوميديس.

"إنها ليست هنا، يا ملك أرغوس. إنها في زيارة عائلية".

"سيئ للغاية"، قال ديوميديس. "كنت آمل أنها تلك". أشار إلى فتاة في النهاية، صغيرة وداكنة، بدت تشبه دادميليا بعض الشيء، وكاحليها كانا جميلين بشكل خاص، تلمع تحت الهدب الملفوف بملابسها.

نظف ليكوميديس حنجرته. "هل أنت متزوج يا سيدي؟".

ابتسم ديوميديس نصف ابتسامة. "في الوقت الراهن". وعيناه لم تغادر أبداً النساء.

عندما انتهى الرقص، وقف أوديسيوس، ارتفع صوته ليسمعه الجميع. "نحن فخورون حقاً بأدائكم؛ لا يمكن لأي شخص أن يقول أنه شاهد راقصات سايروس. كإمارة لإعجابنا فقد جلبنا الهدايا لكم، ولملككم".

همهمة من الإثارة. الكماليات لا تأتي إلى سايروس في كثير من الأحيان، لا أحد هنا يملك المال لشرائها.

"أنت لطيف جداً". توهج وجه ليكوميديس بمتعة حقيقية، لم يكن يتوقع هذا السخاء. جلب الخدم الصناديق صعوداً مع إشارة أوديسيوس وبدأوا بتفريغها على الطاولات الطويلة. رأيت لمعان الفضة، تألق الزجاج والأحجار الكريمة.

كلنا، الرجال والنساء على حد سواء، انحنينا إلى الأمام باتجاهها، تواقون للرؤية.

"أرجوكم، خذوا ما تريدون" قال أوديسيوس. تحركت الفتيات بسرعة إلى الطاولات، شاهدتهم يشيرون إلى الحلي المشرقة: عطور في عبوات زجاجية حساسة مقفلة بقليلٍ من الشمع؛ مرايا بمقابض عاجية منحوتة؛ أساور من الذهب الملتوي؛ شرائط صبغت بعمق في البنفسجي

والأحمر. ومن بين هذه، عدد قليل من الأشياء افترضت أنها قصدت لتكون لليكوميديس ومستشاريه: دروع محاطة بالجلد، مقابض رماح المنحوتة، سيوف فضية بأغماد نضرة كبشرة الطفل. عيني ليكوميديس تسمرت على واحدة من هذه، مثل سمكة علقت بخيط. وقف أوديسيوس بالقرب، مترأساً بإحسان.

بقي أخيل في الخلف، انجرف ببطء على طول الطاولات. توقف ليضع قطرات من بعض العطور على معصميه الرفيعة، داعب المقبض المصقول للمرآة. تريث للحظة من أجل زوج من الأقراط، أحجار زرقاء صفت في سلك من الفضة.

لفت انتباهي حركة في النهاية البعيدة للقاعة. ديوميديس عبر الغرفة وكان يتحدث مع أحد خدمه، الذي أومأ وغادر خلال الأبواب المزدوجة الكبيرة. مهما كان لا يمكن أن يكون هاماً، ديوميديس بدا نصف نائم، جفنيه مثقلتين وضجرة.

نظرت ثانية إلى أخيل. كان يرفع الأقراط إلى أذنيه الآن، يقلبهم بهذه الطريقة هكذا وهكذا، يزم شفتيه، يلعب بطريقة خاصة بالفتيات. ذلك ممتعاً له، وزاويا فمه انحنت إلى أعلى. رفرفت عينيه حول القاعة، آسرة وجهي للحظة. لم أستطع تمالك نفسي. فابتسمت.

نفير بوق، بصوت عال ومذعور. جاء من الخارج، نوتة مطردة، تليها ثلاثة نفخات قصيرة: إشارة لأقصى كارثة وشيكة. ترنح ليكوميديس على قدميه، رؤساء الحراس انتفضت نحو الباب. صرخت الفتيات وتشبثوا ببعضهن البعض، مسقطين كنوزهم على الأرض في رنين للزجاج المتهشم.

كل الفتيات ماعدا واحدة. قبل أن تنتهي النفخة الأخيرة، اجتاح أخيل أحد السيوف الفضية وطرح غمده النضر كبشرة الطفل بعيداً.

اعترضت الطاولة طريقه إلى الباب، فقفزها بضبابية، ويده الأخرى استولت على رمح وهو يمر بها. هبط، وكانا سلاحيه قد رفعا بالفعل، يقبضهما في اتزان قاتل لا يشبه أية فتاة، ولا أي رجل. أعظم محارب في جيله.

انتزعت نظرتي إلى أوديسيوس وديوميديس، وكنت مذعوراً برؤيتهم يتسمون. "تحية طيبة، أيها الأمير أخيل"، قال أوديسيوس، وأضاف "لقد كنا نبحث عنك".

وقفت عاجز بينما وجوه بلاط ليكوميديس تسجل كلمات أوديسيوس، وتتحول محدقة نحو أخيل. للحظة لم يتحرك أخيل. ثم ببطء، خفض أسلحته.

"سيد أوديسيوس"، قال. كان صوته هادئاً بشكل ملحوظ. "سيد ديوميديس"، أمال رأسه بأدب، من أمير إلى آخر.

"يشرفني أن أكون موضوع كثيراً من الجهد". كانت إجابة جيدة، مليئة بالكرامة ولفتة بسيطة من الاستهزاء. سيكون من الصعب عليهم إذلاله الآن.

"أفترض أنك ترغب في التحدث معي؟ فقط لحظة، وسأنضم إليكم"، وضع السيف والرمح بعناية على الطاولة.

بأصابع ثابتة حل وشاحه، وأزاحه عنه. شعره، ظهر، لامع كالبرونز المصقول. رجال ونساء بلاط ليكوميديس همس أحدهم إلى الآخر في فضيحة صامتة؛ أعينهم تشبثت بقسماته.

"ربما هذا سوف يساعد؟" أوديسيوس كان قد دعا بسترة من بعض الأكياس أو الصناديق. قذفها لأخيل، الذي التقطها.

"شكراً لك"، قال أخيل. راقب البلاط، منوماً، بينما تكشف، تجرد حتى الخصر، وسحب السترة على نفسه.

تحول أوديسيوس إلى الجزء الأمامي من الغرفة. "ليكوميديس، هل يمكننا اقتراض غرفة رسمية، من فضلك؟ لدينا الكثير لنناقشه مع أمير ثيا".

وجه ليكوميديس كان كقناع مجمد. كنت أعرف أنه كان يفكر في ثيتيس، والعقاب. لم يجب.

كان صوت ديوميديس حاد "ليكوميديس"، يكسر كضربة.

"نعم"، نعق ليكوميديس. أشفقت عليه. أشفقت علينا كلنا.

"نعم. فقط من هناك" مشيراً.

أومأ أوديسيوس برأسه. "شكراً لك". انتقل نحو الباب، بثقة، كما لو أنه لم يشكك أبداً أن أخيل سيتبعه.

"من بعدك"، ديوميديس مبتسماً بتكلف. تردد أخيل، وذهبت عينيه علي، لمجرد لمحة صغيرة.

"أوه، نعم"، نادى أوديسيوس من فوق كتفه. "مرحب بك أن تجلب باتروكلوس إلى جانبك، إذا أردت. لدينا عمل معه، أيضاً".

الفصل الخامس عشر

كان في الغرفة قلة من المفروشات الرثة وأربعة كراسي. أجبرت نفسي على الجلوس مستقيماً مقابل خشب الظهر الصلب، كما ينبغي لأمير. وجه أخيل مشدود بالانفعالات، وعنقه متوهج.

"لقد كانت خدعة"، اتهمهم.

رد أوديسيوس باتزان. "لقد أخفيت نفسك بذكاء؛ فتوجب علينا أن نكون أكثر ذكاء في إيجادك". رفع أخيل حاجباً في استكبار أميري. "حسناً؟ ها قد وجدتني. فماذا تريد؟".

"نريد منك أن تأتي لطروادة" قال أوديسيوس.

"وإذا كنت لا أريد أن آتي؟".

"سنجعل هذا الأمر معروفاً". رفع ديوميديس فستان أخيل المرمي.

توهج أخيل كما لو أنه قد ضرب. أن تلبس فستان بلا ضرورة شيء، وأن يعرف العالم بذلك شيء آخر. احتفظ شعبنا بأبشع أسمائهم للرجال الذين يتصرفون كالنساء؛ الأرواح كانت تزهق لمثل هذه الشتائم.

رفع أوديسيوس يده زاجراً. "كلنا هنا رجال نبلاء، ولا ينبغي للأمر أن يصل إلى مثل هذه التدابير. آمل أن نقدم لك أسباب أكثر سعادة للموافقة. الشهرة، على سبيل المثال. ستفوز بالكثير منها، إذا حاربت من أجلنا".

"سيكون هناك حروب أخرى".

"ليس مثل هذه"، وقال ديوميديس. "هذه ستكون أعظم حروب شعبنا، ستذكر في الأساطير والأغاني على مر الأجيال. أنت أحمق إذا لم ترَ ذلك".

"لا أرى شيء سوى زوج مخدوع وجشع أجاممنون".

"إذن أنت أعمى. ما هو العمل الأكثر بطولة من القتال من أجل شرف أجمل امرأة في العالم، ضد أعتق مدينة في الشرق؟ فرساوس لا يستطيع أن يقول أنه فعل الكثير، ولا جايسون. هيراكليس سيقتل زوجته مرة أخرى للحصول على فرصة لينضم إلينا. سوف نسيطر على الأناضول وصولاً إلى العربي. سوف ننحت أنفسنا في قصص العصور المقبلة".

"اعتقدت أنك قلت أنها ستكون حملة سهلة، وأننا سنعود لأوطاننا في الخريف القادم"، تمكنت أن أقول. كان لا بد لي أن أفعل شيئاً لأوقف تدفق كلماتهم التي لا هوادة فيها.

"لقد كذبت". هز أوديسيوس كتفيه. "ليس لدي أي فكرة كم من الوقت سوف تستغرق. ستكون أسرع لو كنت معنا". و نظر إلى أخيل. عينيه الداكنة تجذبك مثل المد والجزر، مهما سبحت ضدها. "أبناء طروادة معروفين بمهاراتهم القتالية، وموتهم سيرفع اسمك في مصاف النجوم. إذا فوت ذلك، سوف تفوت فرصتك في الخلود. ستبقى في الخلف، غير معروف. ستتقدم في العمر، وستهرم في العتمة".

عبس أخيل. "لا تستطيع أن تعرف ذلك".

"في الواقع، يمكنني ذلك"، انحنى إلى الخلف في كرسيه. "أنا محظوظ أن لدي بعض المعرفة من الآلهة". ابتسم كما لو كان في الذاكرة بعض من أذى الإلهة. "والآلهة رأت أنه من المناسب مشاركتي نبوءة عنك".

كان يجب أن أعرف أن أوديسيوس لن يـأتي بـابتزاز رخـيص كعملته الوحيدة. أسمته قصص بوليتروبيس، الرجل كثير الدوران. أثار الخوف في نفسي كالرماد.

"ما هي النبوءة؟" سأل أخيل، ببطء.

وأضاف "هذا إذا لم تأتي إلى طروادة، الآلهة الخاصة بك سـتذبل فيك، غير مستخدمة. سوف تتقلص قوتك. في أحسن الأحوال، سوف تكون مثل ليكوميديس هنا، ستتعفن على جزيرة منسية مع بناتك فقط لخلافتك. سيتم غزو سايروس قريباً من قبل أقرب دولة، تعرف هـذا كما أعرفه. إنهم لن يقتلوه؛ لماذا يفعلون ذلك؟ يستطيع أن يعيش باقي سنواته في بعض الزوايا يأكل الخبز الذي يلين لـه، يخـرف وحيـداً. وعندما يموت، سيقول الناس، من هذا؟".

ملئت الكلمات الغرفة، مرققة الهواء حتى أننـا لم نـتمكن مـن التنفس. مثل هذه الحياة كانت رعب محض.

لكن صوت أوديسيوس كان لا هوادة فيه. "إنـه معـروف الآن فقط بسبب الطريقة التي تمس فيها قصـته قصـتك. إذا ذهبـت إلى طروادة، شهرتك ستكون عظيمة جداً لدرجة أن الرجل سوف يكتب في الأساطير الأبدية فقط لمجرد تمريره الكوب إليك. سوف تكون -".

الأبواب تفجرت مفتوحة بشظايا طائرة في غضب شديد. وقفت ثيتيس في المدخل، ساخنة كلهب حي. ألوهيتها اجتاحتنا كلنا، تسـفع أعيننا، مفحمة حواف الباب المكسورة. يمكنني أن أشعر بها تسـحب عظامي، تمتص الدم في عروقي كما لو كانت ستشربني. احتميت، كما خلق الرجال ليفعلوا.

لحية أوديسيوس الداكنة كانت مغبرة بالحطام الرقيق من تـدمير الباب. وقف. "تحية طيبة، ثيتيس".

ذهبت نظرتها إليه كما تذهب نظرة الثعبان إلى فريسته، وقد اتقدت بشرتها. بدا الهواء حول أوديسيوس يرتعش قليلاً، كما في الحرارة أو النسيم. ديوميديس، على الأرض، طوحا بعيداً. أغلقت عيني، لئلا أرى الانفجار.

ساد الصمت، وأخيراً فتحت عيني. وقف أوديسيوس دون أن يمسه سوء. قبضات ثيتيس تخنق نفسها مبيضة. لم يعد النظر إليها محرقاً.

"العينين الرمادية العذراء لم تكن بهذا اللطف معي في أي وقت مضى"، قال أوديسيوس معتذراً تقريباً. "إنها تعرف لماذا أنا هنا، وهي تبارك وتحرس هدفي".

كما لو أنني قد فوت خطوة من حديثهما. ناضلت لأتابع الآن. العينين الرمادية العذراء إلهة الحرب وفنونها. يقال أنها حازت جائزة الذكاء فوق كل شيء.

"أثينا لا يوجد لديها طفل لتخسره". كلمات صرّت من حلق ثيتيس، معلقة في الهواء.

لم يحاول أوديسيوس أن يجيب، التفت فقط إلى أخيل. "اسألها، "قال. "اسأل أمك عن ما تعرفه".

ابتلع أخيل ريقه، بصوت عال في الغرفة الصامتة. التقى بعيني أمه السوداء. "هل ما يقوله صحيح؟".

خفتت آخر نيرانها؛ ولم يبقى سوى الرخام. "صحيح. لكن هناك ما هو أكثر، وأسوأ من ذلك لم يقله لك". الكلمات جاءت بلا نبرة، كما لو أن تمثال يتحدثها. "إذا ذهبت إلى طروادة، سوف لن تعود أبداً. سوف تموت شاباً هناك".

شحب وجه أخيل. "وهل هذا مؤكد؟".

هذا ما يسأله كل البشر أولاً، بعدم تصديق، وصدمة، وخوف.

هل هناك استثناء لي؟

"مؤكد".

لو أنه نظر إلي حينها، لكنت انكسرت. لبدأت بالنحيب ولن أتوقف عنه أبداً. لكن كانت عينيه مثبتة على والدته.

"ماذا علي أن أفعل؟" همس.

الارتعاشة الطفيفة، فوق مياه وجهها الساكنة. "لا تطلب مني أن اختار"، قالت، وتلاشت.

لا أستطيع أن أتذكر ما قلناه للرجلين، وكيف غادرناهم، أو كيف وصلنا إلى غرفتنا. أتذكر وجهه، الجلد المسحوب بإحكام على وجنتيه، الشحوب البليد لجبينه. كتفاه، عادة مستقيمة وجميلة، بدت متهاوية. تضخم الحزن بداخلي، يخنقني. موته. شعرت كما لو أنني أحتضر بمجرد التفكير في الأمر، أسقط خلال سماء عمياء سوداء.

يجب أن لا تذهب. كنت سأقولها تقريباً، ألف مرة. بدلاً من ذلك أمسكت يديه بسرعة بين يدي، كانتا باردتين، وساكنتين جداً.

"لا أعتقد أنني يمكن أن أتحمله"، قال أخيراً. كانت عيناه مغلقتين، كما لو كانت تصد الرعب. كنت أعرف أنه لا يتكلم عن موته، لكن عن الكابوس الذي نسجه أوديسيوس، فقدان تألقه، هلاك نعمته. كنت قد رأيت المتعة التي تتولاه بمهاراته، الحيوية الصاخبة التي كانت تحت السطح على الدوام. من هو إذا لم يكن معجزة مشعة؟ من هو إذا لم يكن مقدر له الشهرة؟

"لا يهمني" قلت. خاضت الكلمات في فمي. وأضافت "مهما تصبح. فإنه لا يهمني. سنكون معاً".

"أعرف"، قال بهدوء، لكن لم ينظر إلي.

كان يعرف، لكن ذلك لم يكن كافياً. كان الحزن كبير حتى أنه قد هدد بتسييل الدموع خلال بشرتي. عندما يموت، كل شيء سريع وجميل ومشرق سيدفن معه. فتحت فمي، لكن بعد فوات الأوان.

"سوف أذهب" قال. "سأذهب إلى طروادة".

بريق شفتيه الوردي، الأخضر المحموم لعينيه. لم يكن هناك أي خط في أي مكان على وجهه، لا شيء أجعد أو أشيب؛ كله نضر. لقد كان نابض، ذهبي ومشرق. حاسده الميت سيشرب دمه، ويعود شاب مرة أخرى.

كان يراقبني، وعينيه بعمق الأرض.

"هل ستأتي معي؟" سأل.

آلام الحب والحزن لا تنتهي. ربما في حياة أخرى كان يمكن أن أرفض، يمكن أن أمزق شعري وأصرخ، وأجعله يواجه اختياره لوحده. لكن ليس في هذه. سيبحر إلى طروادة وسوف أتبعه، حتى إلى الموت.

"نعم"، همست. "نعم".

انبعث الارتياح في وجهه، ومد يديه ليصل إلي. سمحت له أن يمسك بي، ليضغط طوله إلى طولي قريبان جداً حتى أنه لا شيء قد يأتي بيننا.

جاءت الدموع، وسقطت. فوقنا، نسجت النجوم والقمر يخطو على مساره بضجر. تمددنا مكروبين بلا نوم فيما الساعات تمر.

عندما جاء الفجر، قام بتكلف. "يجب أن أذهب لأخبر أمي"، قال. كان شاحباً، عينيه تحفها الظلال. بدا أكبر سناً بالفعل. ارتفع الذعر في نفسي. لا تذهب، أردت أن أقول. لكنه وضع سترته عليه وذهب.

تمددت ثانية وحاولت عدم التفكير في الدقائق التي تمر. إلى الأمس فقط كان لدينا ثروة منهم. الآن كل واحدة كقطرة من دماء القلب لو ضاعت.

تحولت الغرفة إلى الرمادي، ثم الأبيض. شعرت بالسرير بارد من دونه، وكبير جداً. سمعت اللاصوت، وأخافني السكون. إنه كالضريح. قمت وفركت أطرافي، صفعتهم لأوقظهم، محاولاً أن أكبح هستيريا بدأت ترتفع. وهذا ما سيكون عليه الحال، كل يوم، من دونه. شعرت بضيق وحشي محدق في صدري، كالصرخة. كل يوم، من دونه.

غادرت القصر، يائس لإسكات أفكاري. جئت إلى منحدرات وصخور سايروس العظيمة الناتئة فوق البحر، وبدأت بالتسلق. سحبتني الرياح، والحجارة كانت دبقة بالرذاذ، لكن التوتر والخطر ثبتاني. تسلقت صعوداً، نحو القمة الأكثر غدراً، حيث كنت من قبل أخشى جداً أن أذهب. يدي تقطعت تقريباً إلى حد الدم بشظايا الصخور المسننة.

قدمي خلفت بقعاً حيث خطت. الألم كان موضع ترحيب، عادي ومستنفذ. كان أمر مثير للضحك كم من السهل جداً أن تتحمل.

وصلت إلى القمة، كومة صخور مهملة على حافة الهاوية، وقفت. جاءتني الفكرة وأنا أتسلق، وشعرت أنها شرسة و متهورة.

"ثيتيس!" صرخت بها في الرياح الخاطفة، ووجهي نحو البحر. "ثيتيس!" كانت الشمس مرتفعة الآن؛ اجتماعهما قد انتهى منذ فترة طويلة. سحبت نفساً ثالثاً.

"لا تنطق باسمي مرة أخرى".

انعطفت للقائها وفقدت توازني. اضطربت الصخور تحت قدمي، ومزقتني الرياح. قبضت على نتوء، ثبت نفسي.

ونظرت إلى أعلى.

بشرتها أكثر شحوباً من المعتاد، بلون جليد أول الشتاء. سحبت شفتيها إلى الوراء، لتظهر أسنانها.

"أنت أحمق"، قالت. "انــزل. إن موتك نصف مبلل لن ينقذه".

لم أكن مقداماً كما اعتقدت، جفلت من الحقد في وجهها. لكنني أجبرت نفسي على الكلام، أن أسأل عن الشيء الذي يجب أن أعرفــه منها. "كم سيعيش بعد؟".

أصدرت ضوضاء من حلقها، كنباح فقمة. استغرقني الأمر لحظة لأفهم أنها كانت تضحك. "لماذا؟ هل ستعد نفسك لــذلك؟ تحــاول وقف ذلك؟" امتد الازدراء عبر وجهها.

"نعم"، أجبت. وأضفت "إذا ما استطعت".

صدر الصوت مرة أخرى.

"أرجوك". جثوت. "أرجوك أخبريني".

ربما كان ذلك لأنني جثوت. توقف الصوت، وتمعنتني للحظــة. "هيكتور سيموت أولاً"، قالت.

"هذا هو كل ما سوف أعطيه لتعرفه".

هيكتور. "شكراً لك" قلت.

ضاقت عينيها، وهسهس صوتها كصوت دلق الماء على الجمــر. "لا تفترض أن تشكرني. لقد جئت لسبب آخر".

انتظرت. وجهها كان أبيضاً كالعظام المتشظية.

"لن يكون الأمر سهل كما يعتقد. الأقدار تعد بالشهرة، لكن كم مقدارها؟ سيحتاج إلى حماية شرفه بعناية. إنه يثق بســهولة. رجــال اليونان" - بصقت الكلمات - "كالكلاب على عظمة. لــن يتخلــوا ببساطة عن المكانة العالية لواحد آخر. سأفعل ما بوســعي. وأنــت". طرفت عينيها فوق ذراعي الطويلتين وركبتي النحيلة. "أنت لن تجزيه. هل تفهم؟".

هل تفهم؟

"نعم"، قلت. وفعلت. شهرته يجب أن يستحق الحياة التي دفعها لذلك. نسمة رقيقة من الهواء لمست هدب فستانها، و عرفت أنها كانت على وشك المغادرة، لتختفي مرة أخرى في كهوف البحر. شيء ما جعلني جريء.

"هل هيكتور جندي بارع؟".

"إنه الأفضل"، أجابت. وأضافت "لكن بعد ابني".

ومضت نظرتها إلى اليمين، حيث سقط الجرف بعيداً.

"إنه قادم"، قالت.

تسلق أخيل القمة جاء إلى حيث أجلس. تطلع في وجهي وبشرتي الدامية. "سمعتك تتحدث"، قال.

"لقد كانت والدتك"، قلت.

جثا وأخذ قدمي في حضنه. بلطف، استخرج شظايا الصخور من جراحي، ينظف الأوساخ والغبار الطباشيري.

مزق شريط من هدب سترته وضغط عليه بإحكام ليضع حداً للدم.

أغلقت يدي على يديه. "يجب عليك أن لا تقتل هيكتور" قلت.

نظر إلى أعلى، وجهه الجميل مؤطر بذهب شعره.

"أخبرتك والدتي ببقية النبوة".

"لقد فعلت".

"وأنت تعتقد أن لا أحد بإمكانه أن يقتل هيكتور غيري".

"نعم"، قلت.

"وتعتقد أنك ستسرق الوقت من الأقدار؟".

"نعم". .

"آه". انتشرت عبر وجهه ابتسامة ماكرة، كان يحب التحدي دائماً. "حسناً، لماذا يجب أن أقتله؟ هو لم يفعل شيئاً لي".

لأول مرة حينها، شعرت بنوع من الأمل.

غادرنا بعد ظهر ذلك اليوم، لم يكن هناك سبب للتواني. مطيعاً للعرف، جاء ليكوميديس لوداعنا. نحن الثلاثة وقفنا جنباً إلى جنب بتصنع؛ كان أوديسيوس وديوميديس قد ذهبا إلى السفينة قدما. سيرافقوننا عائدين بنا إلى ثيا، حيث يحشد أخيل قواته.

كان هناك شيء واحد بعد مما ينبغي القيام به هنا، وكنت أعرف أن أخيل لا يرغب في القيام به.

"ليكوميديس، والدتي طلبت مني أن أنقل لك رغباتها".

اختلاجة رقيقه عبرت وجه الرجل العجوز، لكنه التقى نظرات صهره. "إنها بخصوص الطفل"، قال.

"هي كذلك".

"وبماذا ترغب في ذلك؟" سأل الملك، بضجر.

"إنها تود أن تربيه بنفسها. هي -" تعثر أخيل أمام النظرة على وجه الرجل العجوز. "لقد قالت بأن الطفل سوف يكون صبياً. عندما يفطم، سوف تطالب به".

ساد الصمت. ثم أغلق ليكوميديس عينيه. كنت أعرف أنه كان يفكر في ابنته، ذراعاها فارغين من زوجها وطفلها.

"أتمنى أنك لم تأتي أبداً"، قال.

"أنا آسف"، قال أخيل.

"اتركاني"، همس الملك القديم. فأطاعنا.

السفينة التي أبحرنا عليها كانت رشيقة، مصنوعة بإحكام والمأهولة بشكل جيد. تحرك الطاقم بأسطول مختص، الحبال لمعت بألياف جديدة، والصواري بدت نضرة كالأشجار الحية. الجمال كان في قطعة مقدمة المركب، أجمل شيء قد رأيته: امرأة، طويلة القامة، بشعر وعينين

داكنتين، شبكت يديها أمامها كما لو كانت تتأمل. كانت جميلة، لكن لها فك رائع تماماً، والشعر المردود إلى الوراء يظهر رقبة مرهفة. لقد رسمت بمحبة، كل دكنة أو إضاءة رسمت بكمال.

"أنت معجب بزوجتي، كما أرى". انضم أوديسيوس لنا على السور، متكئاً على عضلات ساعديه. "لقد رفضت في البداية، لم تسمح للفنان بالاقتراب منها. لقد كان علي أن أجعله يلاحقها بسرية. أعتقد أنه انتهى بشكل جيد، في الواقع".

الزواج من أجل الحب، نادر بندرة الأرز من الشرق. إنه تقريباً جعلني أود أن أحبه. لكن كنت قد رأيت ابتساماته في كثير من الأحيان الآن.

بأدب، سأل أخيل، "ما هو اسمها؟".

"بينيلوب"، قال.

"هل هي سفينة جديدة؟" سألت. إذا أراد أن يتحدث عن زوجته، فأنا أريد أن يتكلم في شيء آخر.

"جداً. لآخر قطعة خشب منها، من أفضل خشب إيثاكا" ثم صفع السور بكفه الكبيرة، كما يمكن للمرء أن يصفع خاصرة الحصان.

"تتبجح بسفينتك الجديدة مرة أخرى؟" انضم ديوميديس إلينا. ثبت شعره إلى الوراء بشريط جلدي، جعل وجهه يبدو أكثر وضوحاً من المعتاد.

"أنا أفعل".

بصق ديوميديس في الماء.

"ملك أرغوس طلق اللسان بشكل غير عادي اليوم"، علق أوديسيوس.

لم يرَ أخيل ألعابهم من قبل، كما كان لي. عينيه انتقلت ذهاباً وإياباً بين الرجلين. تلوت ابتسامة صغيرة في زاوية فمه.

"قل لي" واصل أوديسيوس. "هل تعتقد أن مثل خفة دم هذه تأتي من والدك بعد أن يأكل عقل ذلك الرجل؟".

"ماذا؟" بقيت فم أخيل معلقة مفتوحة.

"أنت لا تعرف حكاية تايديوس العظيم، ملك أرغوس، آكل العقول؟".

قال "لقد سمعت عنه. لكن ليس حول - العقول".

"لقد كنت أفكر في رسم المشهد على لوحاتنا"، قال ديوميديس.

في القاعة، كنت قد اعتبرت ديوميديس كلباً لأوديسيوس. لكن كان هناك حماسة تنشط بين الرجلين، متعة في سجالهم لا يمكن أن تأتي إلا من تساويهم. تذكرت أن ديوميديس أشيع عنه أنه المفضل لأثينا أيضاً.

خلق أوديسيوس وجهاً. "ذكرني ألا أتناول الطعام في أرغوس في أي وقت قريب".

ضحك ديوميديس. لم يكن هذا صوت لطيف.

الملوك استغرقوا في الحديث والتسكع على السور معناً. مرروا القصص ذهاباً وإياباً: عن الرحلات البحرية الأخرى، عن الحروب، عن الفوز في مسابقات الألعاب في الماضي. كان أخيل جمهور المتلهف، بالسؤال بعد السؤال.

"من أين لك هذا؟" كان يشير إلى الندبة على ساق أوديسيوس.

"آه"، فرك أوديسيوس يديه معاً. وأضاف "تلك حكاية تستحق أن تروى. على الرغم من أنني يجب أن أتحدث إلى الكابتن أولاً". أومأ لأشعة الشمس، متعلقة بنضج وعلى ارتفاع منخفض فوق الأفق. قال "سوف نحتاج إلى التوقف قريباً لنخيم".

"سأذهب". ديوميديس وقف من حيث اتكأ على السور. "لقـــد سمعت هذه القصة تقريباً بعدد مرات سماعي لقصة السرير المقيتة".

"ستخسر"، نادى عليه أوديسيوس. "لا تؤاخذونه. زوجته كلبـــة جحيم عاهرة، والتي من شأنها أن تعكـــر مـــزاج أي شـــخص. الآن، زوجتي -".

"أقسم". صوت ديوميديس حُمل عائداً على طول السفينة. "لـــو أنهيت هذه الجملة، سوف أرميك من فوق ظهرها ويمكنك الســـباحة لطروادة".

"انظر؟" هز أوديسيوس رأسه. "مُعكر". ضحك أخيل، مســـروراً بهما على حد سواء. يبدو أنه قد غفر جانبهم في إماطة لثامه، وكل ما جاء بعد ذلك.

"الآن، ماذا كنت أقول؟".

"الندبة"، قال أخيل، بفارغ الصبر.

"نعم، الندبة. عندما كنت في الثالثة عشر -".

شاهدته يعتمد على كلمات الرجل الآخر. يثق بسهولة. لكنني لن أكون غراب على كتفه طوال الوقت، أتكهن بالسوء.

انـــزلقت الشمس منخفضة في السماء، واقتربنا مـــن الظـــلال الداكنة للأرض حيث سننصب مخيمنا. عثرت السفينة علـــى مينـــاء، وسحبها البحارة صعوداً على الشاطئ لقضاء الليلة. فرغـــت المـــؤن - الطعام والفراش والخيام للأمراء.

وقفنا بجانب المخيم الذي نصب لنا، نار صغيرة وسرداق. "هـــل كل شيء على ما يرام؟" كان أوديسيوس قد جاء ليقف معنا.

"حسناً جداً"، قال أخيل مبتسماً، ابتسامته الســـهلة، الصـــادقة. "شكراً لك".

ابتسم أوديسيوس في المقابل، بأسنان بيضاء مقابل لحيته الداكنــــة.
"ممتاز. آمل أن خيمة واحدة تكفي؟ لقد سمعـــت أنكمـــا تفضـــلان المشاركة. الغرف وأغطية السرير على حد سواء، كما يقولون".

الحرارة والصدمة جرت خلال وجهي. بجانبـــي، سمعت أخيـــل يتوقف عن التنفس.

"تعالا الآن، ليس هناك ما يستدعي الخجل، إنه أمر شائع بما فيـــه الكفاية بين الأولاد"، حك فكه، مفكراً. "على الرغم من أنكم لم تعودا حقاً أولاد. كم عمرك؟".

"هذا ليس صحيحاً" قلت. الدم في وجهي أطلق صوتي. رن عالياً إلى أسفل الشاطئ.

رفع أوديسيوس حاجب. "الصحيح هو ما يعتقده الرجال، وهـــم يعتقدون هذا عنك. لكن ربما هم مخطئون. إذا كانت الشائعات تهمك، إذن دعها وراءك عندما تبحر إلى الحرب".

كان صوت أخيل مشدوداً وغاضب. "هذا ليس من شأنك، أمير إيثاكا".

رفع أوديسيوس يديه. "اعتذاري إذا كنت قد أسأت. أنا فقـــط جئت لأتمنى لكما ليلة سعيدة وأتأكد من أن كل شيء مرضي. أمـــير أخيل. باتروكلوس"، أمال رأسه والتفت عائداً إلى خيمته.

داخل الخيمة كان هناك هدوء بيننا. كنت قد تساءلت متى سيأتي هذا. كما قال أوديسيوس، يتخذ الكثير من الأولاد بعضـــهم الـــبعض عشاق. لكن مثل هذه الأمور يتخلون عنها عندما يكبرون في السن، إلا إن كانت مع عبيد أو أولاد مستأجرين. رجالنا يحبون الغزو؛ لا يثقون برجل انتزع من قبل.

لا تخزيه، هذا ما قالته الآلهة. وهذا بعض ما كانت تعنيه.

"ربما كان على حق"، قلت.

ارتفع رأس أخيل، مقطب. وأضاف "أنت لا تعتقد ذلك".

"أنا لا أقصد -" لويت أصابعي. "سأظل معك. لكن بإمكاني النوم خارجاً، لئلا يكون ذلك واضحاً. لا أحتاج لحضور مجلسك. أنا -".

"الثينيين لن يهتمون. والآخرين يمكنهم أن يتحدثوا كما يحلو لهم. سأظل أريستوس أخيون/ أشن". أفضل اليونانيين.

"قد يتلطخ شرفك بهذا".

"ليتلطخ إذن". انطلق فكه إلى الأمام، بتعنت. وأضاف "سيكونون حمقى إذا جعلوا مجدي يرتفع أو يسقط على هذا".

"لكن أوديسيوس -".

عينيه خضراء، كأوراق الربيع، التقت بعيني. "باتروكلوس. لقد أعطيتهم ما يكفي. لن أعطيهم هذا".

بعد ذلك، لم يكن هناك شيء أكثر ليقال.

في اليوم التالي، أمسكت الريح الجنوبية بتلابيب شراعنا، ووجدنا أوديسيوس قرب المقدمة.

"أمير إيثاكا" قال أخيل. بصوت رسمي، ولم يكن هناك أي من الابتسامات الصبيانية لليوم السابق. "أود أن أسمعك تتحدث عن أجاممنون والملوك الآخرين. أود أن أعرف الرجال الذين سأنضم إليهم، والأمراء الذين سأقاتل معهم".

"حكيم جداً، أمير أخيل". إذا كان أوديسيوس قد لاحظ تغييراً، فهو لم يعلق على ذلك. قادنا إلى المقاعد في قاعدة الصاري، تحت الشراع ذو البطن الكبير وقال: "الآن، من أين أبدأ؟" بذهول تقريباً، وهو يفرك الندبة على ساقه.

كانت أكثر وضوحاً في ضوء النهار، مجعدة وبلا شعر. وقال "هناك مينيلوس، الذي سنذهب لاسترداد زوجته. بعد أن اختارته هيلين زوج لها - باتروكلوس يستطيع أن يخبرك عن ذلك، أصبح ملك سبارتا. إنه كما هو معروف كرجل طيب، جسور في المعارك ومحبوب في العالم. كثير من الملوك احتشدوا لقضيته، وليس فقط أولئك الذين ألزموا بيمينهم".

"مثل؟" سأل أخيل.

عدهم أوديسيوس على يدي المزارع الكبيرة خاصته. "ميريونس، أدومنيوس، فيلوكتيتيس، أياكس. كلا أياكس، الضخم والأصغر". أحدهم رجل تذكرته من قاعة تنديريوس، رجل ضخم مع درع، والآخر لم أعرفه.

"الملك القديم نيستور من بيلوس سيكون هناك أيضاً". لقد سمعت بالاسم كان قد أبحر مع جايسون في شبابه، للبحث عن الصوف الذهبي. لقد مضت أيام قتاله الآن، لكن جلب أبناءه للحرب، ومستشاريه، أيضاً.

وجهه أخيل ملأ بالتصميم، وعيناه داكنتين. "والطرواديون؟".

"بريام، بالطبع. ملك طروادة. يقال أن الرجل لديه خمسين من الأبناء، كلهم نشأوا والسيوف في أيديهم".

"خمسون من الأبناء؟".

وأضاف: "وخمسين من البنات. لقد عرف عنه التقى ومحبوب جداً من قبل الآلهة. أبنائه مشهورون بأنفسهم - باريس، بالطبع، حبيب الإلهة أفروديت، ذائع الصيت لجماله. حتى أصغرهم، الذي بالكاد يكون في العاشرة، من المفترض أن يكون شرساً. اسمه ترويلوس على ما أعتقد. لديهم ابن عم ولدته الآلهة سيحارب معهم، أيضاً. اينيس، اسمه، وهو طفل لأفروديت نفسها".

"وماذا عن هيكتور؟" لم تغادر عيون أخيل أوديسيوس.

"الابن الأكبر لبريام ووريثه، المفضل للإله أبولو. أعـــتى مـــدافعي طروادة".

"كيف يبدو؟".

هز أوديسيوس كتفيه. "لا أعرف. يقولون أنه ضخم، لكن هذا ما يقال عن معظم الأبطال. سوف تلتقي به قبل أن أفعل، لذا يجب عليك أن تخبرني".

ضاقت عيني أخيل. "لماذا تقول ذلك؟".

لوى أوديسيوس وجهه ساخراً. "كما أنني متأكد أن ديوميـــديس سيوافق، أنا جندي كفؤ لكن لا أكثر؛ مواهبـــي تكمن في مكان آخر. لو كان لي أن ألتقي بهيكتور في المعركة، لن أعود بالأخبار عنه. أنت، بالطبع، مسألة مختلفة. ستفوز بأعظم شهرة من وفاته".

أصبحت بشرتي باردة.

"ربما سأفعل، لكنني لا أرى أي سبب لقتله". أجاب أخيل ببرود. "هو لم يفعل شيئاً لي".

ضحك أوديسيوس، كما لو أن مزحة قد قيلت. "لـــو أن كـــل جندي قتل فقط أولئك الذين قد أساءوا له شخصياً، بـــيلاديس، لـــن يكون لدينا أي حروب على الإطلاق"، رفع حاجب. "على الرغم، أن هذه ربما ليست فكرة سيئة. في ذلك العالم، ربما ســـأكون أريســـتوس أخيون/ أشن، بدلاً منك".

لم يجب أخيل. كان قد التفت لينظر من فوق جانب السفينة إلى الموجات خلفنا. سقط الضوء على خده، وجعله متوهجـــاً. "أنـــت لم تخبرني بشيء عن أجاممنون"، قال.

"نعم، ملكنا الجبار من ميسيناي". قال أوديسيوس متكـــأ مـــرة أخرى. "سليل فخور لبيت أتريوس. جده الأكبر

تنتالوس كان ابنا لزيوس. بالتأكيد سمعت عن قصته".

نعلم جميعاً عن عذاب تنتالوس الأبدي. لمعاقبة احتقاره لقوهم، ألقت به الآلهة في أعمق حفرة في العالم السفلي.

هناك ابتلوا الملك بالعطش والجوع الدائم، بينما وضع الطعام والشراب بعيد عن متناوله.

"لقد سمعت عنه. لكن لم أعرف أبداً ما هي جريمته"، قال أخيل.

"حسناً. في أيام الملك تنتالوس، كل ممالكنا كانت بنفس الحجم، والملوك يعيشون في سلام. لكن تنتالوس ازداد عدم رضاه بنصيبه، فبدأ باغتصاب أراضي جيرانه بالقوة. تضاعفت أملاكه، ثم تضاعفت مرة أخرى، لكن تنتالوس لا يزال غير راضٍ. نجاحه جعله فخوراً، وتفوقه على كل الرجال الذين جاءوا قبله، جعله يسعى ليتفوق على الآلهة أنفسهم. ليس بالسلاح، لأنه لا يوجد رجل كفؤ لمقابلتهم في المعركة. لكن في الخداع. تمنى أن يثبت أن الآلهة لا تعرف كل شيء، كما يقولون أنهم يفعلون.

"فنادى ابنه، بيلوبس، وسأله إذا كان يريد أن يساعد والده. "بالطبع"، قال بيلوبس. ابتسم والده واستل سيفه. بضربة واحدة نحر عنق ابنه. شرح الجسد إلى قطع دقيقة وصفها في سيخ على النار".

ثقلت معدتي من فكرة السيخ الحديد المطرز بلحم الصبي الميت.

"عندما تم طهي الصبي، تنتالوس نادى والده زيوس من أوليمبوس. 'أبي!' قال. 'لقد أعددت وليمة تكريماً لك ولأقاربك. أسرع، فيما لا يزال اللحم طرياً، وطازجاً.' الآلهة يحبون مثل هذه الولائم فجاءوا بسرعة إلى قاعة تنتالوس. لكن عندما وصلوا، رائحة اللحم المطهي، التي عادة ما تكون محبوبة، بدا أنها خنقتهم. في لحظتها

عرف زيوس ما حصل. قبض على تنتالوس من ساقيه وألقوا به في الجحيم، ليلاقي عقوبته الأبدية".

كانت السماء مشرقة، والرياح نشيطة، لكن بسحر قصة أوديسيوس شعرت أننا قرب المدفأة، والليل يتسلل في الأرجاء.

"ثم جمع زيوس قطع الصبي معاً مرة أخرى ونفخ فيه حياة ثانية. بيلوبس، على الرغم من أنه مجرد صبي، أصبح

ملك ميسيناي. وكان الملك الصالح، تميز بالتقوى والحكمة، ومع ذلك ابتلي حكمه بالعديد من المآسي. البعض يقول أن الآلهة قد لعنت خط تنتالوس، وحكمت عليهم كلهم بالعنف والكوارث. أبناء بيلوبس، أتريوس وثايتس، ولدوا بطموح جدهم، وجرائمهم كانت شريرة ودموية، كما كان هو من قبلهم. ابنة يغتصبها أبوها، ابن يطبخ ويؤكل، كل ذلك في تنافسهم المرير على العرش.

"فقط الآن، بفضل أجاممنون ومينيلوس، بدأ حظ العائلة بالتغير. أيام الحروب المدنية قد ولت، ازدهرت ميسيناي تحت حكم أجاممنون. لقد ذاع صيته لمهارته بالرمح ولصرامة قيادته. نحن محظوظون لأنه الجنرال الخاص بنا".

لقد كنت أعتقد أن أخيل لم يعد يستمع. لكنه التفت الآن، مقطباً. "كل منا جنرالاً".

"بالطبع"، وافق أوديسيوس. وأضاف: "لكننا جميعاً سنقاتل نفس العدو، أليس كذلك؟ دزينتين من الجنرالات على ميدان معركة واحد ستخلف الفوضى والهزيمة". قدم له ابتسامة. "أنت تعرف كيف ننسجم جيداً - سينتهي بنا الحال على الأرجح في نهاية المطاف بقتل بعضنا البعض بدلاً من الطرواديون. النجاح في الحرب كهذه يأتي فقط من خلال رجال اجتمعوا لغرض واحد، يطلقون سرب ضربة رمح واحدة

بدلاً من طعنة ألف إبرة. أنت تقود الثينيين، وأنا أقود الإثيكان، لكن يجب أن يكون هناك شخص يستخدمنا وفقاً لقدراتنا" - وأمال يد كريمة نحو أخيل - "مهما تكن عظمة تلك القدرات".

تجاهل أخيل المجاملة. الشمس المتربعة في السماء قطعت الظلال على وجهه، عيناه صريحة وقاسية. "لقد جئت بإرادتي، يا أمير إيثاكا. سآخذ بمشورة أجاممنون، لكن لن آخذ بأوامره. أود أن تفهم هذا".

هز أوديسيوس رأسه. "لتنقذنا الآلهة من أنفسنا. لسنا في المعركة بعد، وها قد بدأنا بالقلق بالفعل على الشرف".

"أنا لست -".

لوح أوديسيوس بيده. "صدقني، أجاممنون يفهم قيمتك الكبيرة لقضيته. لقد كان أول من أرادك أن تأتي. سيرحب بك في جيشنا بكل الأبهة التي ترغب بها".

لم يكن ذلك ما قصده أخيل، بالضبط، لكنه كان قريب بما فيه الكفاية. كنت سعيداً عندما بشرت طلائع الأفق باليابسة أمامنا.

في ذلك المساء، عندما وضعنا العشاء جانباً، تمدد أخيل ثانية على السرير. "ما رأيك في هؤلاء الرجال الذين سوف نلتقيهم؟".

"لا أعرف".

"أنا سعيد بذهاب ديوميديس، على الأقل".

"أنا أيضاً". لقد أُنزلنا الملك على الطرف الشمالي لوابية، بانتظار جيشه من أرغوس. "أنا لا أثق بهم".

"أفترض أننا سوف نعرف قريباً بما يكفي من هم"، قال.

صمتنا للحظة، نفكر في ذلك. في الخارج، يمكننا أن نسمع بدايات المطر، ناعمة، وبالكاد تسمع على سطح الخيمة.

"أوديسيوس قال أنه سيكون هناك عاصفة هذه الليلة".

عاصفة بحر إيجة، تأتي بسرعة وتذهب بسرعة. سحب قاربنا بسلام، وغداً سيكون واضحاً مرة أخرى.

كان أخيل ينظر إلي. "شعرك لا يتمدد بتمام الاستواء أبداً هنا". لمس رأسي، فقط وراء أذني. "لا أعتقد أنني قد أخبرتك في أي وقت مضى كم أحبه".

وخزتني فروة رأسي تحت موضع أصابعه. "لا، لم تفعل" قلت.

"كان يجب أن أفعل". انجرفت يده وصولاً إلى المخروط أسفل حلقي، تتبع النبض بحنان. "ماذا عن هذا؟ هل أخبرتك ما أفكر في هذا، هنا فقط؟".

"لا"، قلت.

"هذا إذن بالتأكيد". تحركت يده عبر عضلات صدري؛ اتقدت بشرتي تحته. "هل أخبرتك عن هذا؟".

"أخبرتني عن هذا". توقفت أنفاسي قليلاً وأنا أتكلم.

"ماذا عن هذا؟" تريثت يده فوق وركي، يرسم خط فخذي. "هل تحدثت عن هذا؟".

"نعم، فعلت".

"وهذا؟ بالتأكيد، لم أكن قد نسيت هذا". ابتسامة القطة ارتسمت على وجهه. "قل لي أنني لم أفعل".

"أنت لم تفعل".

"هناك، أيضاً". لم تتوقف يده الآن. "أعرف أنني قد أخبرتك بهذا".

أغمضت عيني. "أخبرني ثانية" قلت.

في وقت لاحق، نام أخيل بجانبي. جاءت عاصفة أوديسيوس، والنسيج الخشن لجدران الخيمة ترتجف مع قوتها.

أسمع لسعالها تصفع، مراراً وتكراراً، بموجات تلوم الشاطئ. يهيج ويهيج الهواء معه، حاملاً رائحة المسك الحلو لجسده. أفكر: هـــذا مـــا سوف أفتقده. أفكر: سوف أقتل نفسي بدلاً من افتقاده. أفكر: كـــم تبقى لنا؟

وصلنا إلى ثيا في اليوم التالي. كانت الشمس فقط فوق الـزوال، وقد وقفت مع أخيل ننظر فوق السياج.

"هل ترى ذلك؟".

"ماذا؟" كما هو الحال دائماً، كانت عيناه أكثر حدة من عيني.

"الشاطئ. يبدو غريبا".

كلما اقتربنا رأينا لماذا. كان يضج بالناس، يتدافعون بفارغ الصبر، رافعين أعناقهم باتجاهنا. والصوت: في البداية كان يبدو أنه يأتي مـن الأمواج، أو من السفينة بينما تخوض فيهم، هـدير متسـارع. لكنـه تصاعد مع كل ضربة من مجاذيفنا، حتى أدركنا أنه كان أصـوات، ثم كلمات. جاءت مراراً وتكراراً. الأمير أخيل! أريستوس أشن/ أخيون!

بينما لامست سفينتنا الشاطئ، ألقت مئات الأيدي بنفسـها في الهواء، وصدحت مئات الحناجر بالهتاف. كل الأصـوات الأخـرى، الدرج الخشبـي المتحرك يخبط أسفل الصخور، أوامر البحارة، ضاعت فيه. كنا نحدق، في حالة صدمة.

لعلها كانت تلك اللحظة، التي تغيرت فيها حياتنا. ليس قبل ذلك في سايروس، ولا قبل ذلك في بيليون. لكن هنا، بينما بـدأنا نفهـم العظمة، الآن ودائما، التي من شأنها أن تتبعه أينما ذهب. لقد اختـير ليصبح أسطورة، وكانت هذه هي البداية.

تردد، فلامست يده بيدي، حيث لا يمكن للحشد أن يرى ذلك.

"اذهب"، حثثته. وأضفت: "إنهم بانتظارك".

تقدم أخيل إلى الأمام على الدرج المتحرك، رافعاً ذراعه في تحية، فصرخت الحشود بصوت أجش. كنت نصف خائف أن يتسلقون السفينة، لكن الجنود واصلوا المضي قدماً واصطفوا على الممشى، خالقين مسار مستقيم خلال الجمهور المحتشد.

التفت أخيل إلي ثانية، وقال شيئاً. لم أتمكن من سماعه، لكنني فهمت. تعال معي. أومأت برأسي موافقاً، وبدأنا المسير. على جانبينا، اندفع الحشد ضد حاجز الجنود. في نهاية الممر كان بيليوس ينتظرنا. وجهه مبلل، لم يبذل أي محاولة لمسح دموعه جانباً. جذب أخيل إليه، ضمه إليه طويلاً قبل أن يطلقه.

"لقد عاد أميرنا!" كان صوته أعمق مما تذكرت، رناناً وصادحاً، فوق ضجيج الحشود.

سكتوا، ليستمعوا لكلمات ملكهم.

"قبلكم كلكم أقدم الترحيب لابني المحبوب، الوريث الوحيد لمملكتي. سيقودكم إلى طروادة بمجد، سيعود إلى الوطن بانتصار".

حتى هناك تحت أشعة الشمس المتوهجة، شعرت بجلدي تجتاحه موجة باردة. هو لن يعود إلى الديار على الإطلاق.

لكن بيليوس لم يكن يعرف هذا، حتى الآن.

وأضاف: "كبر رجلاً، وابن آلهة. أريستوس أشن/ أخيون!".

لم يكن هناك وقت للتفكير في ذلك الآن. الجنود يضربون على دروعهم برماحهم؛ النساء تصرخ، وعوى الرجال.

قبضت على النظرة على وجه أخيل؛ كانت نظرة مذهول، لكن ليس مستاء. كان يقف بشكل مختلف، كما لاحظت، أكتافه إلى الوراء والساقين متأهبة. بدا أكبر سن، بطريقة أو بأخرى، أطول حتى. مال ليقول شيئاً في أذن والده، لكنني لم أتمكن من سماع ما قاله.

العربة في الانتظار، صعدنا إليها وشاهد تيار الجماهير وراءنا حتى الشاطئ.

بداخل القصر، المرافقين والخدم تحلقوا حولنا. أعطينا لحظة لتناول الطعام والشراب الذي ضغط بين يدينا. ثم انقدنا إلى فناء القصر، حيث ينتظرنا مائة وخمسة وعشرين رجل. باقترابنا رفعوا دروعهم المربعة، ساطعة مثل الدرع الذابل القرني، في تحية لجنرالهم الجديد. هذا، من بين كل ذلك، ربما كان الأمر الأغرب: أنه كان قائدهم الآن.

سيكون من المتوقع أن يعرفهم كلهم، أسمائهم ودروعهم وقصصهم. هو لم يعد ينتمي لي وحدي.

لو كان متوتراً، حتى أنا لم أستطع أن أحدد ذلك. شاهدته وهو يحييهم، يحدثهم بكلمات رنانة جعلت وقفتهم أكثر استقامة. ابتسموا، أحبوا كل شبر من أميرهم الخارق: شعره اللامع، يديه القاتلتين، قدميه الرشيقتين. انحنوا نحوه، مثل الزهور لأشعة الشمس، ليشربوا بريقه. إنه كما كان أوديسيوس قد قال: لديه من الضوء ما يكفي لجعلهم كلهم أبطال.

لم نكن لوحدنا أبداً. هناك حاجة دائماً لأخيل لشيء ما - عينيه على مسودة صحيفة ورموز، مشورته بشأن الإمدادات الغذائية وقوائم الرسوم. فيونكس، مستشار والده القديم، سوف يصحبنا، لكن لا يزال هناك آلاف الأسئلة لأخيل ليجيبها - كم؟ مقدار كم؟ من سيكون نقيبك؟ فعل ما يستطيع، ثم أعلن، "أنا أحيل كل ما تبقى من مثل هذه المسائل لصاحب الخبرة فيونكس". سمعت خادمة تتنهد ورائي. وسيم وكريم، على حد سواء.

كان يعرف أنه لم يكن لدي الكثير لأقوم به هنا. وجهه، عندما يلتفت إلي، كان اعتذارياً على نحو متزايد. كان يحرص دائماً على وضع

الطاولات حيث يمكنني أن أراهم أيضاً، ليسأل رأيي. لكنني لم أسهل الأمر عليه، بوقوفي في الخلف، فاتر وصامت.

حتى هناك، لم أتمكن من الهرب. من خلال كل نافذة جاءت القعقعة المستمرة للجنود، يفاخرون ويحفرون ويشحذون رماحهم. المرميدونيون، كانوا قد بدأوا يطلقون على أنفسهم، الرجال النمل، وهو اللقب قديم للشرف. أمر آخر كان على أخيل أن يشرحه لي: أسطورة زيوس بأنه خلق أول الثينين من النمل. شاهدهم يسيرون، صف صف ببهجة. رأيتهم يحلمون بالغنيمة التي سيعودون بها للديار، والانتصار. لم يكن هناك ثمة حلم كهذا لنا.

بدأت في الانزلاق بعيداً. كنت سأجد سبباً لأتخلف وراءهم بينما يستبشر الحاضرين بمقدمه: حكة، أو رباط طليق لحذائي. غافل، أسرعوا، التفوا حول زاوية، وتركوني فجأة، لحسن الحظ، وحيداً. سلكت الممرات الملتوية التي تعلمتها منذ عدة سنوات ووصلت ممتناً لغرفتنا الخالية. هناك استلقيت على الحجر البارد للأرض، وأغلقت عيني.

لم أستطع أن أتوقف عن تخيل النهاية، رأس رمح أو ضربة سيف، أو محطماً من قبل مركبة. التسارع، دماء قلبه اللانهائية.

ذات ليلة في الأسبوع الثاني، بينما تمددنا نصف ناعسين، سألته: "كيف ستخبر والدك؟ عن النبوة؟".

جاءت الكلمات عالية في صمت منتصف الليل. لحظة كان ساكناً. ثم قال: "لا أعتقد أنني سوف أخبره".

"أبداً؟".

هز رأسه، فقط بظل طفيف. "لا يوجد شيء يمكنه القيام به. لن يجلب له سوى الحزن".

"وماذا عن أمك؟ ألن تخبره؟".

"لا"، قال. "لقد كانت واحدة من الأشياء التي سألتها أن تعدني بها، في اليوم الأخير على سايروس".

عبست. لم يخبرني بهذا من قبل. "وما هي الأمور الأخرى؟".

"رأيته يتردد. لكننا لم نكذب على بعضنا البعض، لم نفعل أبداً، سألتها أن تحميك"، قال. وأضاف: "بعد موتي".

حدقت في وجهه، وفمي جاف. "ماذا قالت؟".

صمت آخر. ثم، بهدوء شديد يمكنني تصور الأحمر الباهت للخجل يغطي وجنتيه، فقال: "قالت لا".

في وقت لاحق، عندما نام، تمددت يقظاً أراقب النجوم، فكرت في هذا. معرفة أنه سألها أدفأ قلبي وطرد بعيداً بعض برودة الأيام هنا في القصر، عندما يُطلب في كل لحظة، على عكسي.

أما جواب الإلهة، فلم أكترث به. فلن أكون بحاجة إليها. أنا لا أخطط للعيش بعد رحيله.

مرت ستة أسابيع - الأسابيع الستة التي استغرقت في تنظيم الجنود، تجهيز الأسطول، حزم الأطعمة والملابس لتستمر طول مدة الحرب - ربما عام، أو اثنين. لطالما استغرق الحصار وقتاً طويلاً.

أصر بيليوس أن لا يجهز أخيل سوى بالأفضل. دفع ثروة صغيرة في الدروع، أكثر مما سيحتاجه ستة رجال. هناك دروع تم طرقها من البرونز، المحفورة بالأسود وطائر عنقاء يطير، جلد قاسي لدرع الساق بعصابات ذهبية، خوذة بشعر خيل أملس، سيوف فضية مصاغة، وعشرات رؤوس الرماح، ومركبة خفيفة بعجلتين. مع هذا يأتي فريق من أربعة خيول، بما في ذلك الزوج الذي أعطته الآلهة لبيليوس في حفل زفافه. زانثوس وبيليوس، كانت تسمى: الذهبي والمرقش، كانت

أعينهم تدور بنفاذ صبر عندما يحبسان عن الركض. قدم إلينـــا أيضـــاً سائق عربة، وهو صبـــي أصغر مما كنا عليه، لكن بنيته ثابتة ويقال بأنه ماهراً مع الخيول العنيدة. كان اسمه اوتومودن.

أخيراً، آخر شيء: رمح طويل، من خشب الـــدردار منحـــوت ومصقول حتى توهج كالشعلة الرمادية. من تشيرون، قال بيليوس، وهو يسلمه لابنه. انحنينا عليه، أصابعنا تتلمس سطحه كما لو كنا سنمسك بحضور السنتور العملاق. مثل هذه الهدية الجميلة قد استغرقت أسابيع من ماهر كتشيرون لتشكيلها، لا بد أنه بدأها تقريباً في اليـــوم الـــذي غادرنا فيه. هل علم، أو خمن فقط مصير أخيل؟ بينما يتمدد وحيداً في كهفه الوردي اللون، هل أتاه بعض البصيص من النبوءة؟ ربما هو فقط افترض: مرارة العادة، لتدريب الموسيقى والطب لصبـــي بعد صبـــي، وإطلاق العنان للقتل.

مع ذلك هذا الرمح الجميل صقل بالحب وليس بالمرارة. شكله لن يلائم يد أي أحد عدا أخيل، وثقله لن يلائم قوة أحد عـــداه. وعلـــى الرغم من أن رأسه كانت قاطعة ومميتة، الخشب نفسه انـــزلق تحـــت أصابعنا كوتر قيثارة مرهفاً متبختر.

وأخيراً جاء يوم رحيلنا. كانت سفينتنا جميلة، أجمل حـــتى مـــن سفينة أوديسيوس – مصقولة ورشيقة كرأس سكين، لتقطـــع البحـــر. انخفضت في المياه، مثقلة بمخازن الأغذية والإمدادات.

وتلك لم تكن سوى السفينة القائدة. بجانبها، تســـعة وأربعـــين أخريات، مدينة من الأخشاب، جرت بلطف في مياه ميناء ثيا. قطـــع المقدمة المشرقة لها كانت وحـــوش مـــن الحيوانـــات والحوريـــات والمخلوقات في المنتصف بينهما، و صواريها وقفت طويلـــة القامـــة كمثل الأشجار التي نحتت منها. في الجزء الأمامي من كل من هـــذه

السفن، وقف بانتباه أحد قباطنتنا الجدد، يحيينا كلما صعدنا المنحدر إلى حاوية سفينتنا.

ذهب أخيل أولاً، ترفرف عباءته الأرجوانية بنسيم البحر، ثم فيونكس، ثم أنا بعباءة جديدة، ممسكاً بذراع الرجل العجوز لأثبت خطواته. هلل الشعب لنا ولجنودنا، راكبين على سفنهم. في كل مكان حولنا انطلقت صياحات الوعود الأخيرة: للمجد، للذهب الذي سيجردونه ويحضرونه من مدينة الغني بريام.

وقف بيليوس على حافة الشاطئ، رافعاً ذراع واحدة في وداع. وفاء بكلمته، لم يخبره أخيل بالنبوءة، فقط عانقه بإحكام، كما لو أنه سينقع الرجل العجوز في جلده. كنت قد عانقته أيضاً، تلك الأطراف الوترية الرقيقة. فكرت، هذا ما سيكون عليه حال أخيل عندما يكبر. ثم تذكرت: إنه لن يكبر أبداً.

مجلس السفينة ما زال لزجاً بالراتنج الجديد. ملنا على السياج لنلوح بوداعنا الأخير، الخشب الدافئ بالشمس يضغط على بطوننا. رفع البحارة المرساة، مربعة، وطباشيرية بنظارات، وأرخيت الأشرعة. ثم أخذوا مقاعدهم إلى المجاذيف التي هدبت القارب كالرموش، منتظرين العد. بدأت الطبول تقرع، ورفعت المجاذيف وانخفضت، تدفعنا إلى طروادة.

لكن أولاً، لأوليس. أوليس، إصبع بارز من الأرض بشاطئ يكفي لركن جميع سفننا في آن واحد. أجاممنون رغب في تجميع قواته الجبارة مكان واحد قبل أن تبحر. رمز ربما: للقوة الواضحة لليونانيين المستائين.

بعد خمسة أيام من الخوض خلال المياه العنيفة لساحل وابية، استدرنا حول آخر عقبة ملتفة على التوالي، وهناك كانت أوليس. ظهرت كلها مرة واحدة، كما لو أن حجاب انتزع: الشاطئ مزدحم بالسفن من كل حجم ولون وشكل، و شاطئه مغطى بسجادة متحركة من آلاف، آلاف الرجال. وراءهم امتدت أشرعة الخيام إلى الأفق، تحمل شعارات مشرقة تشير لأجنحة الملوك. بذل رجالنا جهدهم في التجديف، وتوجيهنا نحو آخر مكان فارغ على الشاطئ المزدحم- الكبير بما فيه الكفاية ليتسع لأسطولنا كله. ألقيت خمسين مرساة من مؤخرات السفن.

نفخ البوق. المرميدونيون من السفن الأخرى كانوا يخوضون بالفعل على الشاطئ. وقفوا الآن على حافة المياه، محيطين بنا، السترات البيضاء تتطاير. في إشارة لا نستطيع رؤيتها بدأوا يهتفون باسم أميرهم، مائة وخمسة وعشرين رجل يتحدثون كرجل واحد. أخيل! بطول الشاطئ، التفت الرؤوس - الإسبارطيون، الآرغوسين، الميسينيون، وبقية العالم.

ذهبت الأخبار متماوجة خلالهم، أحدهم يمرر لآخر. أخيل هنا.

بينما يخفض البحارة الممشى شاهدناهم يتجمعون، الملوك وجنودهم على حد سواء. لم أتمكن من رؤية الوجوه الأميرية من هذا البعد، لكنني ميزت الشعارات التي رفعها حملة الدروع أمامهم: الراية الصفراء لأوديسيوس، الزرقاء لديوميديس، ثم اللامعة، الكبيرة الأرجوانية برمز أسد، لأجاممنون وميسيناي.

نظر أخيل لي، ثم سحب نفس للداخل؛ الحشد الصارخ في ثيا كان لا شيء بالمقارنة مع هذا. لكنه كان مستعداً. رأيته في الطريقة التي رفع بها صدره، في الشراسة الخضراء لعينيه. مشى إلى ممشى ووقف على قمته. أبقى المرميدونيون على هتافهم، لكنهم لم يكونوا لوحدهم الآن، آخرون في الحشد انضموا لهم. نقيب مرميدوني عريض الصدر وضع يديه حول فمه صارخاً: "الأمير أخيل، ابن الملك بيليوس والإلهة ثيتيس. أريستوس أشن/ أخيون!".

كما لو أنها إجابة، تغيير الهواء. تكسر ضوء الشمس المشرق وانسكب فوق أخيل، ذهب ليلف شعره لأسفل وظهره و جلده، محولاً إياه إلى ذهب. لقد بدا فجأة أكبر، وسترته التي تجعدت من السفر، استقامت حتى أشرق بياضها ونظافتها كشراع. قبض شعره على الضوء كشعلة متوهجة.

ارتفعت الصيحات بين الرجال؛ تفجرت هتافات جديدة. ثيتيس، فكرت. لا يمكن أن يكون أي أحد آخر. كانت تجذب

ألوهيته صعوداً، لتغطيه بها مثل الكريم على كل شبر من جلده. مساعدة ابنها ليحقق المدى القصوى من شهرته التي اشتراها غالياً.

يمكنني أن أرى هزة طفيفة لابتسامة في زاويا فمه. لقد كان مستمتعاً به، لاعقاً عبادة الحشد له عن شفتيه. لم يكن يعرف، أخبرني في وقت لاحق، ما كان يحدث. لكنه لم يسأل، لم يبدو غريباً له.

فتحت الطريق له، مباشرة خلال قلب الحشد إلى حيث تجمع الملوك.

كل أمير وصل قدم نفسه لأقرانه ولقائده الجديد؛ والآن كان دور أخيل. خطى بخطوات كبيرة نحو اللوح الخشبي حيث اصطف الرجال، ووقف ربما على بعد عشرة أقدام من الملوك. كنت وراءه بخطوات قليلة.

أجاممنون كان بانتظارنا. أنفه معقوف وحاد مثل منقار النسر، وعيناه تلمع بذكاء جشع. بنيته متينة بصدر عريض، زرعت بحزم فوق قدميه. بدا محنكاً، لكن أيضاً مرهق - أكبر من الأربعين عاماً التي كنا نعرفه بها. على جانبه الأيمن، وهو مكان الشرف، وقف أوديسيوس وديوميديس. وعلى يساره كان شقيقه، مينيلوس ملك سبارتا، سبب الحرب. الشعر الأحمر المتقد الذي أتذكره من قاعة تنديريوس قد لامسته الآن خيوط رمادية. مثل شقيقه كان طويل القامة ومربع، كتفيه قويين كقرني ثور. أعين عائلته الداكنة والأنف المعقوف بدت أكثر ليونة عليه، أكثر اعتدالاً.

كان وجهه مبتسماً ووسيم بعكس شقيقه.

الملك الآخر الذي تمكنت من تمييزه بكل ثقة كان نستور - الرجل العجوز، ذقنه بالكاد مغطى بلحية بيضاء متناثرة، عينيه حادة في عمره- وجهه مبري. كان أكبر رجل حي، كما يشاع، الناجي الحكيم من آلاف الفضائح والمعارك والانقلابات. حكم الشريط الرملي من بيلوس، الذي لا يزال العرش يتمسك به بعناد، عشرات الأبناء مخيبي الآمال الذين كبروا أكثر ثم أكثر، مع أنه ولد له أبناء جدد من صلبه المعروف المهترئ. اثنان من هؤلاء الأبناء أمسكا بذراعيه بثبات الآن، ليقف كتف إلى كتف مع الملوك الأخرى جانباً ليحصل على مكان في الجبهة. عندما كان يشاهدنا بقيت فمه معلقة مفتوحة، وأنفاسه تنفخ لحيته الرثة مع الإثارة. كان يحب الضجة.

تقدم أجاممنون إلى الأمام. فتح يديه في لفتة ترحيب ووقف منتظراً المراسيم الملكية، في انتظار الانحناء، الإكبار، و قسم الولاء الذي يستحقه. كان دور أخيل ليركع ويقدمهم.

لم يركع. لم ينادي بتحية إلى أعظم الملوك، أو يحني رأسه أو يقدم هدية. لم يفعل شيئاً عدا الوقوف باستقامة، بذقن يرتفع فخراً، أمامهم كلهم.

اشتد فك أجاممنون؛ بدا سخيف بهذا المظهر، بذراعيه المفتوحين، وكان يعرف ذلك. تعلقت نظرتي بأوديسيوس وديوميديس؛ أعينهم كانت ترسل رسائل حادة. انتشر حولنا الصمت المقلق. تبادل الرجال النظرات.

أمسكت يدي بعضها البعض وراء ظهري وأنا أشاهد أخيل واللعبة التي يلعبها. وجهه بدا كأنه قد من حجر

وهو يحدق محذراً ملك ميسيناي، أنت لا تأمرني. استمر الصمت أكثر، وأكثر، مؤلماً ومنتزعاً للأنفاس، كمغني بالغ لإنهاء عبارته.

ثم، عندما تحرك أوديسيوس إلى الأمام للتدخل، تكلم أخيل. "أنا أخيل، ابن بيليوس، وليد الآلهة، أفضل الإغريق"، قال. "لقد جئت لأجلب لك النصر". ثانية من الصمت المروع، ثم هدر الرجال بموافقتهم. أصبح الفخر لنا – الأبطال لا يتواضعون أبداً.

عيني أجاممنون أصبحت منبسطة. ثم كان هناك أوديسيوس، يده الصلبة على كتف أخيل، تجعد النسيج بينما صوته يمهد الهواء.

"أجاممنون، سيد الرجال، أحضرنا الأمير أخيل ليكرس ولاءه لك". نظر إلى أخيل محذراً – لم يفت الأوان بعد.

لكن أخيل ابتسم ببساطة وتقدم إلى الأمام حتى سقطت يد أوديسيوس المستقرة على كتفه.

"لقد جئت بكامل إرادتي لأعرض معونتي لقضيتكم" قال بصوت عال.

ثم التفت إلى الجمع من حوله، "يشرفني أن أقاتل مع هذا العدد الكبير من المحاربين النبلاء لممالكنا".

هتاف آخر، بصوت عال وطويل، لتطيح بما شعرت أنها دقائق موت. أخيراً، من حنجرته العميقة، تحدث أجاممنون، بصبر امتلكه بشق الأنفس، ومارسه بصعوبة.

"بالفعل، لدي خيرة الجيوش في العالم. وأنا أرحب بك لتنضم إليه، أيها أمير ثيا الشاب". ثم قطع ابتسامته بشكل حاد. "من المؤسف أنك كنت بطيء جداً بقدومك".

كان هناك تضميناً هنا، لكن أخيل لم يجد الفرصة للرد. أجاممنون كان يتحدث بالفعل ثانية، رفع صوته فوقنا جميعاً:

"رجال اليونان، لقد تأخرنا طويلاً بما فيه الكفاية. سنغادر لطروادة غداً. أصلحوا معسكراتكم واجعلوا عبيدكم متأهبين". ثم التفت مع كلمته النهائية وسار حتى الشاطئ.

ملوك الدائرة الداخلية لأجاممنون تبعوه، مختفين إلى سفنهم - أوديسيوس، ديوميديس، نيستور، مينيلوس، وأكثر.

لكن آخرين تريثوا ليلتقوا بالبطل جديد: ثاساليان يوربيلس وأنتيلوتش من بيلوس، ميريونيس كريت وبوداليريس الطبيب. رجال جذبهم إلى هنا المجد أو الالتزام بالقسم، من كل حنجرة نائية من ممالكنا. العديد منهم كان هنا منذ أشهر، بانتظار احتشاد بقية الجيش تشريده معاً. بعد هذه الفترة المملة، قالوا، وهم ينظرون بمكر إلى أخيل، إنهم رحبوا بأي تسلية غير مؤذية. ولا سيما على حساب - "أمير أخيل"، توقف فيونكس. "أرجوك اعذر مقاطعتي. لقد ظننت أنك تود

أن تعرف أن مخيمك قد تم إعداده" كان صوته قاسي بعدم الموافقة، لكن هنا، أمام الآخرين، فإنه لن يعنفه.

"شكراً لك، أيها الفاضل فيونكس"، وقال أخيل. "نستميحكم جميعاً العذر؟".

نعم، نعم، بالطبع سيفعلون. سيأتون في وقت لاحق، أو غداً. يريدون جلب أفضل النبيذ لنسكبه معاً. شبك أخيل يديه معهم، واعداً إياهم بذلك.

في المخيم، تدفق المرميدونيون حولنا يفرغون الأمتعة والغذاء والأعمدة والقماش. رجل في كسوة اقترب وانحنى - واحد من رسل مينيلوس. ملكه لم يستطع أن يأتي بنفسه، معرباً عن أسفه، لكنه قد أرسل رسوله هنا مكانه للترحيب بنا. تبادلت لمحة مع أخيل. كانت هذه دبلوماسية ذكية، نحن لم نصادق شقيقه، لذلك مينيلوس لم يأتي بنفسه. حتى الآن، بعض الترحيب كان يعود لأفضلية اليونانيين. "رجل يلعب على كلا جانبي السياج" همست لأخيل.

"رجل لا يستطيع أن يسيء لي إذا كان يريد أن تعود زوجته" همس مرة أخرى.

هل نقبل القيام بجولة؟ سأل الرسول. نعم، قلنا، بأفضل طريقة أميرية. لقد فعلنا.

المعسكر الرئيسي كان فوضى مذهلة، حركة هرج ومرج - الشعارات ترفرف باستمرار، الغسيل على الحبال، جدران الخيمة، الأجسام السريعة لآلاف والآلاف الرجال. خلف هذا كان النهر، بعلاماته المائية القديمة من عند قدوم الجيوش لأول مرة، وهو أعلى بقدم على الضفة. ثم مركز السوق، أغورا، بمذبحها والمنصة المؤقتة.

أخيراً، المراحيض - طويلة، خنادق مفتوحة، مشغولة بالرجال. أينما ذهبنا، كنا مراقبين. تفحصت أخيل عن كثب، منتظراً لأرى ما إذا كانت ثيتيس ستقوم مرة أخرى بجعل شعره أكثر إشراقاً أو عضلاته أكبر. فيما لو فعلت، فأنا لم أتبين ذلك؛ كل النعمة التي رأيتها حينذاك كانت له: بسيطة، غير مزين، مجيد. لوح للرجال المحدقين به؛ ابتسم وحياهم وهو يمر.

سمعت الكلمات، همس من وراء اللحى والأسنان المكسورة واليدين المتصلبة: أريستوس أشن \ أخيون. هل كان كما وعد أوديسيوس وديوميديس؟ هل كانوا يعتقدون أن تلك الأطراف المرهفة ستتماسك أمام جيش طروادة؟ هل يمكن لصبي السادسة عشر أن يكون حقاً أعظم محاربينا؟ وفي كل مكان، كما شاهدت الأسئلة، رأيت أيضاً الأجوبة.

نعم، أومأ واحدهم إلى الآخر، نعم، نعم.

الفصل الثامن عشر

استيقظت في تلك الليلة لاهثاً. غارقاً في العرق، وشعرت بالخيمة دافئة بشكل جائر. بجانبي نام أخيل، جلده رطب كما هو حال جلدي.

خطوت إلى الخارج، متلهفاً إلى النسيم فوق الماء. لكن هنا، أيضاً، كان الهواء ثقيلاً ورطباً. كان ساكن، ومن الغريب جداً أن يكون كذلك. لم أسمع أي رفرفة قماش، ولا صلصلة أي سرج غير محكم. حتى البحر كان صامت، كما لو أن الموجات قد توقفت عن التكسر فوق الشاطئ. وما وراءها كان منبسط كمرآة برونزية مصقولة.

أدركت أنه لم يكن هناك رياح. هذا هو سبب الغرابة. الهواء حولي ساكناً لا يتحرك، حتى مع أدنى همسة حالية.

أتذكر أنني كنت أفكر: إذا استمر هكذا فنحن لن نستطيع الإبحار غداً. غسلت وجهي، سعيداً ببرودة الماء، ثم عدت إلى أخيل وضيق الصدر، متحولاً للنوم.

في صباح اليوم التالي كان الأمر نفسه. استيقظت في بركة من العرق، بشرتي مجعدة ومتعطشة. بامتنان تجرعت الماء الذي جلبه اوتومودن لنا. استيقظ أخيل، يده ترسم جبهته الغارقة. عبس، ذهب خارجاً، وعاد:

"لا يوجد رياح".

أومأت موافقاً.

"لن نغادر اليوم". رجالنا ملاحين أقوياء، لكن حتى هم لا يستطيعون أن يقدموا قوة رحلة يوم كامل. نحن بحاجة إلى الرياح لتأخذنا إلى طروادة.

لم تأتي في ذلك اليوم، أو في تلك الليلة، أو في اليوم التالي. أجبر أجاممنون على الوقوف في السوق، معلناً المزيد من التأخير. حالما تعود الرياح، سوف نغادر، وعدنا.

لكن الرياح لم ترجع. نعاني من الحرارة طوال الوقت، والهواء يبدو كنفخات نار، محرقة رئتينا. لم نلحظ من قبل كيف يمكن للرمال المسفوع أن يكون، كيف يخشن بطانياتنا. نزاعات غاضبة، وصراعات تندلع. قضيت وأخيل كل وقتنا في البحر، سعياً وراء الراحة الضئيلة التي يقدمها.

تمر الأيام وجباهنا تغضنت بالقلق. أسبوعين بلا رياح أمر غير طبيعي، لكن أجاممنون لا يفعل شيئاً. أخيراً قال أخيل، "سوف أتحدث إلى والدتي". جلست في خيمة متعرقاً ومنتظراً بينما يستدعيها. عندما عاد، قال: "أنها الآلهة". لكن أمه لن تستطيع أن تقول من.

ذهبنا إلى أجاممنون. جلد الملك أحمر بطفح الحرارة الجلدي، وهو غاضب طيلة الوقت، على الريح، على جيشه الهائج، على أي شخص سوف يعطيه ذريعة لذلك. قال أخيل، "أنت تعرف أن أمي إلهة".

زمجر أجاممنون تقريباً بجوابه. ووضع أوديسيوس يد مهدئة على كتفه.

"هي تقول أن الطقس غير طبيعي. إنها رسالة من الآلهة".

لم يسر أجاممنون بالاستماع لذلك، حملق بسخط وصرفنا.

مر شهر، شهر منهك بالنوم المحموم والأيام القائظة. وجوه الرجال مثقلة بالغضب، لكن لم يكن هناك مزيد من المعارك - كان الجو حاراً جداً. يتمددون في العتمة كارهين بعضهم البعض.

شهر آخر. ونحن جميعاً، كما أعتقد، سنذهب إلى الجنون، مختنقين بوزن الهواء الساكن. كم سوف يستمر هذا الوضع بعد؟ إنه لأمر فظيع: السماء الغاضبة التي تغرس الدبابيس تحت الجمهور، الحرارة الخانقة التي نمتصها مع كل نفس. حتى أنا وأخيل، وحيدين في خيمتنا مع مئات الألعاب التي اتخذناها من أجل واحدنا الآخر، نشعر كمنخل عاري. متى سينتهي كل هذا؟

أخيراً، جاءت كلمة. أجاممنون قد تحدث مع رئيس كهنته، كالشيس. نعرفه - فهو صغير، بلحية بنية غير مكتملة.

رجل قبيح، بوجه حاد مثل ابن عرس وعادة تمرير لسانه على شفتيه قبل أن يتكلم. لكن الأكثر قبحاً فيه هو عينيه:

زرقاء، زرقاء ساطعة. عندما يراهم الناس، يتراجعون. مثل هذه الأمور عجيبة. هو محظوظ أنه لم يقتل عند ولادته.

يعتقد كالشيس أننا قمنا بإهانة الآلهة أرتميس، على الرغم من أنه لا يخبرنا لماذا. أعطى الوصفة المعتادة: تضحية هائلة. بإخلاص، جُمعت الماشية، ومُزج العسل والنبيذ. في اجتماعنا المقبل في المخيم، أعلن أجاممنون أنه دعا ابنته للمساعدة في ترأس الشعائر. إنها قسيسة آرتيميس، وأصغر امرأة تم مسحها على الإطلاق، ربما يمكنها تهدئة الإلهة الهائج.

ثم سمعنا أكثر - هذه ابنة جُلبت من ميسيناي ليس فقط لحضور الشعائر، لكن للزواج إلى أحد الملوك. حفلات الزفاف دائماً ملائمة، لإرضاء الآلهة، ربما هذا سوف يساعد أيضاً.

استدعانا أجاممنون أخيل وأنا إلى خيمته. وجهه يبدو مجعد ومنتفخ، جلد لرجل لم يكن ينام. أنفه لا يزال أحمر بطفح جلدي. يجلس بجانبه أوديسيوس، بارد كما هو دائماً.

نظف أجاممنون حلقه. "أمير أخيل. لقد دعوتك إلى هنا بعـــرض. ربما كنت قد سمعت أن –" توقف، نظف حلقه ثانية.

وقال: "لدي ابنة، ليفيجينايا. وأنا أود أن تكون زوجتك".

حدقنا. فتح أخيل فمه، وأغلقه.

قال أوديسيوس: "أجاممنون يقدم لك شرف عظيم، أمير ثيا".

تمتم أخيل، وحماقاته نادرة. "نعم، وأنا أشكره".

ذهبت عينيه إلى أوديسيوس، وعرفت أنه يفكر: ماذا عن دادميليا؟ أخيل متزوج بالفعل، وأوديسيوس يعرف ذلك جيداً.

لكن ملك إيثاكا أومأ بخفة بحيث لا يلاحظه أجاممنون. أرادنا أن نتظاهر أن أميرة سايروس غير موجودة.

"يشرفني أنك فكرت فيني"، قال أخيل، وما زال متردداً. عينيــه تومض لي، في سؤال.

لاحظ أوديسيوس، كما يلاحظ كل شيء. "للأســف، فإنــك ستحظى معها بليلة واحدة فقط قبل أن يتوجب عليها المغــادرة مــرة أخرى. على الرغم، بالطبع، فإن الكثير يمكن أن يحــدث في ليلــة"، ابتسم. بينما لم يفعل أحد غيره.

"سيكون ذلك جيداً، أعتقد، حفل زفاف"، كلمات أجــاممنون تأتي ببطء. "جيد لعائلاتنا، وجيد للرجال". متجنباً أنظارنا.

أخيل يراقب جوابــي، سوف يقول لا إذا كنت أتمــنى ذلــك. طعنتني الغيرة، لكن على نحو ضعيف. ستكون فقط ليلــة، علــى مــا أعتقد. سيظفر بالمكانة والسطوة، والتصالح مع أجاممنون. لن تعني شيئاً. أومأت بخفة، كما فعل أوديسيوس.

قدم أخيل يده. "أنا أقبل، أجاممنون. سوف أكون فخــور بــأن أكون صهرك".

أخذا أجاممنون يد الرجل الأصغر سناً. راقبت عينيه وهو يفعل ذلك، باردة وحزينة تقريباً. في وقت لاحق، سأتذكر هذا.

نظف حنجرته، للمرة الثالثة. "ليفيجينايا"، قال، "فتاة صالحة".

"أنا متأكد أنها كذلك"، قال أخيل. "وسيشرفني أن أحظى بها كزوجة".

أومأ أجاممنون، لننصرف، فتحولنا مغادرين. ليفيجينايا. اسم راقص، كصوت حوافر ماعز على الصخر، سريعة، حيوية، وجميلة.

بعد بضعة أيام، وصلت مع حرس صارم من الميسينين - رجال كبار السن، أولئك الذين لا يصلحون للحرب. بينما اهتزت عربتها فوق الطريق الحجري إلى معسكرنا، جاء الجنود محدقين. لقد مضت فترة طويلة الآن، منذ أن رأى العديد منهم امرأة. استمتعوا بمنحنى عنقها، ومضة كاحلها، يديها تسوي على نحو جميل تنورة ثوب زفافها. عينيها البنيتين اشتعلت بالإثارة، كانت قادمة لتتزوج أفضل اليونانيين.

سيقام حفل الزفاف في سوقنا المؤقتة، المنصة الخشبية المربعة بمذبح مرتفع وراء ذلك. اقتربت العربة أكثر، متجاوزة الرجال المتجمعين بتزاحم. وقف أجاممنون على المنصة، يحيط به أوديسيوس وديوميديس؛ كالشيس أيضاً كان قريباً. انتظر أخيل، كما يفعل العرسان، على جانب المنصة.

نزلت ليفيجينايا بدقة من عربتها على الأرض الخشبية المرتفعة. كانت يافعة جداً، لم تتجاوز الرابعة عشر بعد، حوصرت بين اتزان القسيسة وتوق طفولي. ألقت بيديها حول عنق والدها، تخللت يديها خلال شعره. همست له بشيء وضحكت. لم أستطع أن أرى وجهه، لكن يديه اشتدت على كتفيها المرهفتين.

تقدم أوديسيوس وديوميديس إلى الأمام مبتسمين ومنحنيين، لتقديم تحياتهم. استجابتها كانت كريمة، لكن نافذة الصبر. عينيها كانت

قد بدأت بالفعل البحث عن الزوج الذي وعدت. وجدته بسهولة، تسمرت نظراتها على شعره الذهبي. ابتسمت لما رأت.

عندما رآها، تقدم أخيل إلى الأمام للقائها، يقف الآن فقط على حافة المنبر. كان بإمكانه أن يلمسها حينذاك، ورأيته يبدأ بذلك، مد يديه ليصل نحو أصابعها المدببة، جميلة كأصداف البحر المصقولة.

ثم تعثرت الفتاة. أتذكر عبوس أخيل. أتذكر حركته لالتقاطها. لكنها لم تسقط. بل سُحبت إلى الوراء، إلى المذبح وراء ظهرها. لم يرى أحد ديوميديس وهو يتحرك، لكن يديه كانت عليها الآن، ضخمة على ترقوتها المرهفة، يضعها فوق سطح الحجر. كانت مصدومة جداً لتكافح، لتعرف ما كان يحدث. انتزع أجاممنون شيء من حزامه. لمع في الشمس وهو يلوح به.

سقطت حافة السكين على حلقها، وتدفق الدم على المذبح، ممتداً إلى أسفل ثوبها. مختنقة، حاولت أن تتكلم، لكن لم تستطع. سحق جسدها وتلوى، لكن أيدي الملك سمرتها أرضاً. أخيراً أصبح نضالها أضعف، وركلها أقل؛ وأخيراً تمددت ساكنة.

لمع الدم على يدي أجاممنون. تحدث في الصمت: "تم استرضاء الإلهة".

من كان يدري ما كان يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ الهواء مسدود برائحة الحديد والملح لموتها. التضحية البشرية كانت رجساً، مبعداً عن أراضينا منذ فترة طويلة. لقد كانت ابنته. كنا مروعين وغاضبين، وكانت هناك وحشية فينا.

ثم، قبل أن نتمكن من التحرك: شيء ما على خدينا. توقفنا، غير متأكدين، ثم جاء مرة أخرى. ناعمة وباردة و تحمل رائحة البحر.

سرت همهمة من خلال الرجال. الرياح. لقد عادت الرياح. ارتخت الفكوك، وخففت العضلات. لقد استرضيت الإلهة.

بدا أخيل متجمداً، ثابت إلى مكانه بجوار المنصة. أخذت ذراعه وسحبته خلال الحشد نحو خيمتنا. عينيه كانت متوحشة، ووجهه ملطخاً بدمها. رطبت قطعة قماش وحاولت أن أمسحها بعيداً، لكنه أمسك يدي. "كان بوسعي أن أمنعهم". قال، وجلد وجهه شاحب جداً؛ وصوته أجش. قال "كنت قريباً بما فيه الكفاية. كان بإمكاني أن أنقذها".

هززت رأسي. "لم تكن تعلم بذلك".

دفن وجهه بين بيديه في حزن، ولم يتكلم. ضممته وهمست له بكل كلمات المواساة المكسورة التي استطعت أن أجدها.

بعد أن غسل يديه الملطخة بالدماء وغير ملابسه، دعانا أجاممنون جميعاً للعودة إلى السوق. أرتميس، قال: إنه مستاء من سفك الدماء الذي قصد به الجيش الضخم. طالبت بثمن لذلك، في المقابل، بمثله. كانت الأبقار لا تكفي.

وهناك حاجة إلى كاهنة عذراء، دم إنسان مقابل دم إنسان؛ الابنة البكر للزعيم ستفي بالغرض على أفضل وجه.

لقد عرفت ليفيجينايا، قال، ولقد وافقت على القيام بذلك. معظم الرجال لم يكونوا على مقربة بما يكفي ليروا الذعر المشدوه في عينيها. بامتنان، صدقوا كذبة جنرالهم.

أحرقوها في تلك الليلة على خشب السرو، شجرة أحلك آلهتنا. أجاممنون سفح مئة برميل من النبيذ للاحتفال، سنغادر لطروادة على مد وجزر الصباح. بداخل خيمتنا سقط أخيل مستنفذ في النوم، رأسه في حضني. داعبت جبهته، مراقبة ارتعاشات وجهه الحالم. في الزاوية تقبع

سترة العرس الملطخة بالدماء. انظر إليها، إليه، فيتقد صدري ويضيق. كانت أول وفاة يشهدها على الإطلاق.

أرحت رأسه من على ركبتي ووقفت. في الخارج، غنى الرجال وصاحوا، مخمورين أكثر فأكثر. على الشاطئ احترقت المحرقة عالياً، يغذيها النسيم. كنت أخطو بسرعة متجاوزاً نيران المخيم، متجاوزاً الجنود المترنحين. كنت أعرف إلى أين كنت ذاهباً.

كان هناك حرس خارج خيمته، لكنهم تراجعوا، نصف نعاساً. "من أنت؟" سأل أحدهم، بادئ. تقدمت متجاوزاً إياه وفتحت باب خيمة.

التفت أوديسيوس. كان يقف إلى طاولة صغيرة، إصبعه على خريطة. كان هناك صحن عشاء نصف مأكول بجانبه.

"أهلاً، باتروكلوس. الأمر على ما يرام، أنا أعرفه"، مخاطباً الحارس المتلعثم بالأعذار ورائي. انتظر حتى ذهب الرجل. "اعتقدت أنك قد تأتي".

تقدمت محدثاً ضجيج ازدراء. "لتقل كل ما تعتقده".

نصف مبتسم. "اجلس، إذا أردت. أنا فقط سأنهي عشائي".

"لقد تركتهم يقتلونها". بصقت الكلمات في وجهه.

سحب كرسياً إلى الطاولة. "ما الذي يجعلك تعتقد أنني أستطيع إيقافهم؟".

"تستطيع، لو كانت ابنتك". شعرت بعيني ترمي الشرر إليه، لقد أردته أن يحترق.

"ليس لدي ابنة". قال، ممزقاً قطعة من الخبز، ثم غمسها في المرق وأكلها.

"زوجتك إذن. ماذا لو كانت زوجتك؟".

تطلع في وجهي. "ماذا تريدني أن أقول؟ بأنني لم أكن لأفعل ذلك؟".

"نعم".

"لم أكن لأفعل. لكن ربما هذا هو السبب في أن أجاممنون هو ملك ميسيناي، وأنا أحكم إيثاكا فقط".

جاءت إجابته لي بسهولة جداً. حلمه أغضبني.

"موتها على يديك".

التوى فمه ساخراً. "أنت تنسب لي الكثير من الفضل. أنا مجرد مستشار، باتروكلوس. لست جنرال".

"أنت كذبت علينا".

"بخصوص حفل الزفاف؟ نعم. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي من شأنها أن تجعل زوجة أجاممنون تسمح للفتاة بالقدوم". الأم، في أرغوس. وارتفعت الأسئلة في رأسي، لكنني كنت أعرف حيلته. ولن أدعه يحولني عن غضبي. غرست إصبعي في الهواء.

"أنت أهنته". أخيل لم يفكر في هذا الموضوع بعد، كان حزيناً جداً بموت الفتاة. لكنني فعلت. لقد لوثوه بمكرهم.

لوح أوديسيوس بيده. "لقد نسي الرجال بالفعل أنه كان جزء منه. لقد نسوه عندما أريقت دماء الفتاة".

"إنه لأمر مريح لك أن تفكر كذلك".

سكب لنفسه كوب من النبيذ، وشرب. "أنت غاضباً، وتملك الأسباب لذلك. لكن لماذا تأتي لي؟ لم أمسك بالسكين، أو الفتاة".

"كانت هناك دماء"، زمجرت. "تغطيه كله، وجهه. في فمه. هل تعرف ماذا فعلت به؟".

وأضاف: "إنه حزين لأنه لم يمنع ذلك".

"بالطبع"، زمجرت. وأضفت: "إنه بالكاد يستطيع أن يتحدث".

هز أوديسيوس كتفيه. "له قلب رقيق. جودته مثيرة للإعجاب، بالتأكيد. إذا كان ذلك سيساعد ضميره، أخبره أنني وضعت ديوميديس حيث كان الغرض. حتى لا يرى أخيل إلا بعد فوات الأوان".

لقد كرهته كثيراً حتى لم أستطع الكلام.

مال إلى الأمام في كرسيه. "هل لي أن أقدم لك بعض النصح؟ إذا كنت صديقه حقاً، سوف تساعده على ترك هذا القلب الضعيف وراءه. إنه ذاهب إلى طروادة لقتل الرجال، وليس إنقاذهم". أمسكت عينيه الداكنتين بي برشاقة متواصلة. "إنه سلاح، قاتل. لا ننسى ذلك. يمكنك أن تستخدم رمح بمثابة عصا مشي، لكن ذلك لن يغير طبيعته".

عبارته قطعت الأنفاس عني، تركتني أتمتم. "إنه ليس -".

"لكنه كذلك. أفضل ما خلقت الآلهة على الإطلاق. حان الوقت له ليعرف ذلك، ولتعرف أنت أيضاً. إذا لم تسمع أي شيء آخر عدا ما أقول، فاسمع ذلك. أنا لا أقول ذلك في خبث".

لم أعيره الكثير ولا كلماته التي استقرت كالريش ولن أتزعزع مستسلماً.

"أنت مخطئ" قلت. لم يجبني، فقط راقبني وأنا التفت وأفر منه في صمت.

الفصل التاسع عشر

غادرنا في اليوم التالي، مبكراً، مع بقية الأسطول. من مؤخرة سفينتنا، شاطئ أوليس بدا عارياً بغرابة. فقط حفر المراحيض والأنقاض الرمادية البيضاء لمحرقة الفتاة خلفت لتخبر بعبورنا. كنت قد أيقظته هذا الصباح بأخبار أوديسيوس أنه لا يمكنه أن ينظر لديوميديس لمدة من الوقت. استمع لي بخفوت، والكدمات حول عينيه على الرغم من طول المدة التي نامها. ثم قال: "إنها ميتة، إنه نفس الشيء".

الآن يسير بخطى على ظهر السفينة ورائي. حاولت أن أشير له ببعض الأمور - الدلافين التي تركض بجوارنا، المطر، السحب المتضخمة في الأفق - لكنه كان فاتر ونصف مستمع فقط. فيما بعد أمسكت به يقف وحيداً، يتدرب على نقل الخطوات وتقليب السيف مقطب لنفسه.

كل ليلة نتوقف في منفذ مختلف؛ قواربنا لم تبنى للرحلات الطويلة، لمدة يوم بعد يوم من الانغماس. الرجال الوحيدون الذين رأيناهم كانوا الثيين خاصتنا، وآرغوسيين ديوميديس. تقسم الأسطول بحيث لا تكون كل جزيرة مضطرة لإعطاء يابستها للجيش بأكمله. كنت واثقاً أنه لم يكن من قبيل المصادفة اقتران ملك أرغوس معنا. هل يعتقدون أننا سوف نهرب؟ بذلت قصارى جهدي لتجاهله، وبدا راضياً بتركنا في سلام.

كل الجزر بدت كأنها نفسها - منحدراتها عالية مبيضة، وشواطئها مرصوفة بالحصى الذي يخدش الجانب السفلي من سفننا

بأظافره الطباشيري. كانت غالباً وعرة، أغصانها تكافح بجوار الزيتون وأشجار السرو. بالكاد أخيل لاحظ أي من ذلك. انحنى على سلاحه، يلمعه حتى لمع مشرق كاللهب.

في اليوم السابع وصلنا إلى يمنوس، فقط عبر فم هيليسبونت الضيقة. كانت أخفض من معظم جزرنا، مليئة بالمستنقعات والبرك الراكدة المختنقة بزنابق الماء. عثرنا على بركة بعيدة بعض الشيء من المخيم، وجلسنا لجوارها. تجمع البق على سطحها، والعيون المنتفخة أطلت من وسط الأعشاب الضارة. كنا فقط على بعد يومين من طروادة.

"ماذا كان شعورك عندما قتلت هذا الفتى؟".

نظرت إلى أعلى. كان وجهه في الظل، وشعره متساقط حول عينيه.

"مثل ماذا؟" سألت.

أومأ، محدقاً في الماء، كما لو كان يقرأ أعماقها.

"ماذا كان شعورك؟".

"من الصعب وصفه". قلت، لقد أخذني على حين غرة. أغلقت عيني لأستحضره. "تدفق الدم بسرعة، أتذكر ذلك. لم أستطع أن أصدق كم كان هناك. كان رأسه منقسم، وقد ظهر مخه قليلاً. "حاربت الغثيان الذي أمسك بتلابيبي، حتى الآن. "أتذكر الصوت الذي صدر عندما اصطدمت رأسه بالصخرة".

"هل فرفر؟ كما تفعل الحيوانات؟".

"لم أبقَ لفترة كافية لأراقب".

كان صامتاً لحظة. "أخبرني والدي ذات مرة أن أفكر فيهم مثل الحيوانات. الرجال الذين أقتلهم".

فتحت فمي لأتكلم، ثم أغلقته ثانية. لم يرفع رأسه من يقظته فوق سطح الماء.

"لا أعتقد أنني يمكنني فعل ذلك"، قال. ببساطة، كما هي طريقته.

كلمات أوديسيوس ضغطت علي، مثقلة لساني. جيد، أردت أن أقول. لكن ماذا أعرف أنا؟ ليس علي الفوز بخلودي بالحرب. سكت مسالماً.

"لا أستطيع التوقف عن رؤيته" قال بهدوء. "موتها". لم أستطع أنا أيضاً، الرذاذ الصارخ للدم، الصدمة والألم في عينيها.

"لن تكون الحال دائماً كذلك"، سمعت نفسي أقول. "كانت فتاة وبريئة. أنت ستحارب الرجال، محاربين سيقتلونك إذا لم تضرب أولاً".

التفت ليتفحصني، بنظرة مصممة.

"لكنك لن تقاتل، حتى لو ضربوك أولاً. أنت تكره ذلك".

لو كان رجل آخر، لكانت كلماته إهانة.

"لأنني لا أملك المهارة"، قلت.

"لا أعتقد أن هذا هو السبب الوحيد"، قال.

كانت عينيه خضراء وبنية كالغابات، وحتى في الضوء المعتم يمكنني أن أرى الذهب.

"ربما لا"، قلت، أخيراً.

"لكنك سوف تغفر لي؟".

وصلت ليده وأخذتها. "لا حاجة لي لأغفر لك. لا يمكنك الإساءة لي". كانت كلمات متسرعة، لكنني قلتها بكل قناعة من قلبي.

تطلع لحظة إلى أسفل في أيدينا حيث استقرت فوق بعضها. ثم يده انتزعت نفسها من يدي بعدم وضوح وتجاوزتني بسرعة لا يمكنني

متابعتها. كان يقف، شيء رخو وطويل تتدلى من بين أصابعه. حدقت عيني فيه، غير مصدقة.

"هايدروس" قال أخيل. ثعبان المياه. كان بلون رمادي كميت، ورأسها المسطح المكسور معلق على جانبها. جسمها لا يزال يرتعش قليلاً، محتضراً.

تدفق الضعف خلالي. تشيرون كان قد جعلنا نستذكر منازلهم وألوانهم. البني والرمادي، عن طريق المياه. سريعة الغضب. لدغتها قاتلة.

"أنا حتى لم أره"، تمكنت من القول. ألقى الشيء جانباً، ضارباً به المتطفلين المخادعين بين الأعشاب. وقد كسر عنقه.

"لم تكن بحاجة لذلك" قال. "أنا رأيت ذلك".

كان سلس بعد ذلك، لم يعد يخطو فوق سطح السفينة، ويحدق. لكنني كنت أعرف أن ليفيجينايا لا تزال تثقل كاهله. كاهلينا معاً. اعتاد على حمل أحد الرماح معه دائماً. يبرمه في الهواء ويقبض عليه، مراراً وتكراراً.

ببطء، الأسطول المتفرق اجتمع مرة أخرى. البعض ذهب بطريق طويل حولها، جنوباً من جزيرة ليسبوس. آخرين، أخذوا بأقصر الطرق، انتظروا بالفعل بالقرب سقييم، شمال غربي طروادة. ولا زال البعض الآخر يصلون كما فعلنا، على طول ساحل التراقي. موحدين مرة أخرى، احتشدنا بالقرب من تيندوس، جزيرة مقابل الشاطئ العريض لطروادة. يصرخ من سفينة إلى سفينة، يمررون كلمة أجاممنون في الخطة: الملوك سيأخذون خط الجبهة، ورجالهم ينتشرون من وراءهم. المناورة في المكان كانت فوضى، وكانت هناك ثلاثة اصطدامات، وكلا يكسر المجاديف على بدن شخص آخر.

أخيرا اصطففنا، مع ديوميديس على يسارنا وميريونيس على يميننا. بدأت الطبول بالقرع وخط السفن دفع إلى الأمام، الضربة تلو الضربة. أجاممنون أعطى الأوامر بالذهاب ببطء، للحفاظ على الخط والمسير ككيان واحد.

لكن ملوكنا كانوا لا يزالون غير معتادين على الانصياع لأوامر رجل آخر، أراد كل منهم أن ينال شرف طروادة أولاً. العرق المتدفق من وجوه المجدفين بينما قادهم يصيحون بهم.

وقفنا في مقدمة المركب مع فيونكس واوتومودن، مراقبين الشاطئ يقترب. بإهمال، برم أخيل رمحه والتقطه. بدأ الملاحين بالفعل في ضبط ضرباهم وفقاً لذلك، ثابتة، متكررة، صفعة الخشب على كفه.

أقرب، بدأنا نميز ما على الشاطئ: الأشجار العالية والجبال تنحل من الأرض الخضراء البنية الضبابية.

قد ارتفعنا أمام ديوميديس وكان طول السفينة كلها أمام ميريونيس.

"هناك رجال على الشاطئ"، قال أخيل. نظر شزراً. "مسلحون".

قبل أن أتمكن من الرد، نفخ بوق من مكان ما في الأسطول، وأجابه آخرون. ناقوس الخطر. مع الرياح جاء صدى خافت لصراخ. كنا نظن أننا سوف تفاجئ الطرواديين، لكنهم كانوا يعرفون أننا قادمون. كانوا ينتظروننا.

على طول الخط، المجدفين عرقلوا بمجاديفهم في الماء لإبطاء نهجنا. الرجال على الشاطئ كانوا جنود بلا شك، جميعهم يرتدون القرمزي الداكن رمز قصر بريام. حلقت مركبة على طول صفوفهم، مخلفة وراءها دوامة رمال.

الرجل فيها ارتدى خوذة شعر خيل، وحتى من هذه المسافة البعيدة يمكننا أن نرى خطوط جسده القوية. كان ضخم، نعم، لكن

ليس بضخامة أياكس أو مينيلوس. جاء قوته من عربته، أكتافه المربعة المتقنة، الخط المستقيم لظهره يشير إلى السماء. هذا لم يكن أميراً مترهلاً من قاعات النبيذ والفجور، كما يقال عن الشرقيين. هذا الرجل ينتقل كأن الآلهة كانوا يراقبونه، كل لفتة يقوم بها مستقيمة وصحيحة. لم يكن هناك أحد آخر يمكن أن يكونه عدا هيكتور.

قفز من العربة، صارخاً برجاله. شاهدنا الرماح ترتفع والسهام تضرب. كنا لا نزال بعيداً جداً عن نبالهم، لكن المد كان يسحبنا على الرغم مجاديفنا، والمراسي لم تقبض على شيء. جاءت الصيحات أسفل الخط، مرتبكة.

أجاممنون لم يعطِ أي أوامر؛ أمسكوا مواقعكم؛ لن تنزلوا إلى اليابسة.

"نحن تقريباً في مرمى سهامهم"، علق أخيل. لم يبدو أنه منزعج من ذلك، على الرغم من تصاعد الذعر من حولنا و أصوات الأقدام تسحق ظهر السفينة.

حدقت فيما الشاطئ يقترب. ذهب هيكتور الآن، سلم الشاطئ إلى جزء مختلف من جيشه. لكن كان هناك رجل آخر أمامنا، نقيب، بدرع جلدية وخوذة كاملة غطت كل شيء إلا لحيته. جذب وتر قوسه إلى الوراء فيما خط السفن يقترب. لم يكن سلاحاً كبيراً كسلاح فيلوكتيتيس، لكنه لم يكن بعيداً. صوب على طول الرمح مستعداً لقتل أول يوناني. لكنه لم يحظَ بالفرصة أبداً. لم أرَ أخيل يتحرك، لكنني سمعته: صفير الهواء، وزفراته الناعمة. انطلق الرمح من يده وحلق عبر المياه التي تفصل سطح سفينتنا من الشاطئ. كانت مجرد تلويحة فقط. لا يوجد رامي رماح يستطيع أن يرمي سهم يطير نصف مسافة ما فعل هذا الرمح. فانه سيسقط أقل بكثير أيضاً.

لم يفعل ذلك. رأسه الأسود اخترق صدر رامي السهم، دافعاً إياه إلى الوراء وأكثر. سهمه رن متجهاً إلى الهواء، منطلقة باستسلام من أصابعه الواهنة. سقط على الرمال و لم يرتفع.

من السفن بجوارنا، هتف أولئك الذين رأوا، وأطلقوا أبواق الظفر. اندلعت الأخبار على طول خط السفن اليونانية، في كلا الاتجاهين: الدم الأول كان لنا، سُفك من قبل آلهة كأمير ثيا.

كان وجه أخيل ساكناً، مسالم تقريباً. لا يبدو كرجل اجترح معجزة. على الشاطئ، الطروادين هزوا أسلحتهم وصاحوا بكلمات غريبة، وقاسية. مجموعة منهم ركعت حول الرجل المنطرح. ورائي سمعت فيونكس يهمس شيئاً لاوتومودن، الذي أسرع راكضاً. بعد لحظة عاد للظهور مع حفنة من الرماح. أخذ أخيل واحد دون النظر، وازن ثقله، ورماه. راقبته هذه المرة، المنحني الرشيق لذراعه، رفعة ذقنه. لم يتوقف، كما يفعل معظم الرجال، لهدف أو يصوب. كان يعلم أنه سيذهب. سقط رجل آخر على الشاطئ.

كنا قريبين الآن، وبدأت السهام بالطيران في كلا الجانبين. ضرب العديد منها الماء، والبعض الآخر علق في الصواري والهياكل. عدد قليل من الرجال صرخ على طول خطنا، وعدد قليل من الرجال على طول خطهم سقطوا. أخيل أخذ بهدوء درع من اوتومودن. "قف ورائي"، قال. ففعلت. عندما جاء سهم قريب، نحاه جانباً بالدرع. وأخذ حربة أخرى.

تزايدت وحشية الجنود - سهامهم المتحمسة جداً ورماحهم غطت الماء. في مكان ما أسفل الخط بروتيسالاوس، أمير فايلس، قفز ضاحكاً من قوس سفينته وبدأ في السباحة إلى الشاطئ. ربما كان ثملاً، وربما فار دمه بآمال المجد، وربما تمنى التفوق على أمير ثيا. رمح مغزول،

من هيكتور نفسه، ضربه، والسطح من حوله هاج احمراراً. كـــان أول من مات من اليونانيون.

انــزلق رجالنا أسفل الحبال، ورفعوا الدروع الضخمة لتغطيــة أنفسهم من السهام، وبدأوا بالتدفق إلى الشاطئ.

الطرواديون منظمون جيداً، لكن الشاطئ لم يقدم لهـــم طبيعـــة دفاعية ونحن نفوقهم عدداً. بأمر من هيكتور حملـــوا رفـــاقهم الـــذين سقطوا وأخلوا الشاطئ. لقد أوضحوا وجهة نظرهم: لن يكـــون مـــن السهل جداً قتلهم.

الفصل العشرون

استولينا على الشاطئ، وسحبت السفن الأولى إلى الرمال. أرسلوا الكشافة قدماً لمراقبة إذا ما كان هناك مزيد من كمائن الطرواديين، ونشر حراس. على الرغم من الحرارة، لم ينزع أي أحد درعه.

بسرعة، فيما لا تزال السفن تسد الميناء وراءنا، خصصوا موضع مخيم كل مملكة. المركز المسند إلى الثينيين كان في أبعد نهاية للشاطئ، بعيداً عن حيث سيكون السوق، بعيداً عن طروادة وعن جميع الملوك الآخرين. اختزلت لمحة سريعة إلى أوديسيوس؛ إنه هو من خصص المراكز. كان وجهه لطيف ومبهم كما هو حاله دائماً.

"كيف لنا أن نعرف إلى أي مدى نذهب؟" سأل أخيل. مظللاً عينيه ومتطلعاً إلى الشمال. يبدو أن الشاطئ سيمتد إلى الأبد.

"عندما تنتهي الرمال" قال أوديسيوس.

لوح أخيل لسفننا على الشاطئ، وبدأ قادة المرميدونيون بحل أنفسهم من خطوط الأسطول الأخرى ليتبعوه. تغلبت الشمس علينا، تبدو أكثر إشراقاً هنا، لكن ربما كان ذلك فقط بياض الرمال. مشينا حتى وصلنا إلى ارتفاع معشوشب يبرز من الشاطئ. كانت على شكل هلال، احتضنت مخيمنا المستقبلي من الجانب والخلف. كان في قمتها غابة انتشرت شرقاً نحو نهر متألق.

إلى الجنوب، كانت طروادة كلطخة في الأفق. إذا كان الاختيار من تصميم أوديسيوس، فنحن مدينون له بالشكر - كان أفضل المخيمات على الإطلاق، يهب الخضرة والظل والهدوء.

غادرنا المرميدونيون تحت إدارة فيونكس واتخذنا طريقنا إلى المخيم الرئيسي. في كل مكان مشينا ضج بنفس الأنشطة: سحب السفن إلى الشاطئ، نصب الخيام، وتفريغ الإمدادات. كانت هناك طاقة محمومة في الرجال، هوس بتحقق الغرض. كنا هنا، أخيراً.

على طول الطريق مررنا بمعسكر ابن عم أخيل الشهير، أياكس الهائل، ملك جزيرة سلاميس. كنا قد رأيناه من بعيد في أوليس وسمعنا الشائعات: إن سطح السفينة يتصدع عندما يسير، وأنه حمل ثور على ظهره لمدة ميل. وجدناه يرفع أكياس ضخمة من مخازن سفينته. بدت عضلاته كبيرة كالصخور.

"ابن تيلامون" قال أخيل.

تحول الرجل الضخم. ببطء، متفحصاً الصبي الذي لا يمكن الالتباس بشأنه أمامه. ضاقت عينيه، ثم أخذت الكياسة مكان القسوة. "بيلايدس"، قال بصوت أجش. وضع حمله أرضاً، وعرض يد صلبة كمقبض الزيتون. أشفقت على أياكس، قليلاً. لولا أخيل لكان أريستوس أشن/ أخيون.

عودة إلى المعسكر الرئيسي، وقفنا على التلة التي ميزت الحدود بين الرمل والعشب، لتقدير الأشياء التي جئنا من أجلها. طروادة. كان يفصلنا عنها فسحة مسطحة من العشب ومؤطرة باثنين من الأنهار الواسعة البطيئة. حتى على هذا البعد، قبضت أحجار جدرانها على الشمس الحادة ولمعت. توهمنا أننا نستطيع أن نبصر البريق المعدني لبوابة سكاتشين الشهيرة، يقال أن مفصلها النحاسي بطول قامة رجل.

في وقت لاحق، كنت سأرى تلك الجدران عن قرب، أحجارها المربعة الحادة مقصوصة بإتقان وصفت بعناية بجانب بعضها البعض، عمل الآلهة أبولو كما يقال. تساءلت حينها، كيف يمكن أن تؤخذ

المدينة. لأنها كانت عالية جداً لأبراج الحصار، وقوية جداً للمقاليع، ولا يوجد أي شخص عاقل على الإطلاق سيحاول أن يتسلق أحجارها العمودية، بوجوهها المصقولة إلهياً.

عندما تعلقت الشمس منخفضة في السماء، دعا أجاممنون إلى الاجتماع الأول للمجلس. نصبت خيمة كبيرة وملئت ببضعة صفوف من الكراسي في نصف دائرة غير منظمة. في مقدمة الغرفة جلس أجاممنون ومينيلوس، يحيط بهما أوديسيوس وديوميديس. جاء الملوك وأخذوا مقاعدهم واحداً تلو الآخر.

متسلسلين من الولادة بشكل هرمي، الملوك الأقل اتخذوا أقل الأماكن، وتركوا الصفوف الأمامية لأقرانهم الأكثر شهرة. بدون أي تردد اتخذ أخيل مقعداً في الصف الأول وأومأ لي لأجلس بجانبه. ففعلت ذلك، منتظراً أن يعترض شخص ما، أو أن يطلب إزالتي. لكن بعد ذلك وصل أياكس مع أخيه غير الشقيق توشير، وجلب ادومينيوس مرافقه و قائد عربته. على ما يبدو سمحوا للأفضل بأن يتدللوا.

خلافاً لتلك الاجتماعات التي قد سمعنا فيها شكاوى في أوليس (الفخامة، لا فائدة منه، لا نهائية)، كان هذا يتعلق بالأعمال والمراحيض، الغذاء والإمدادات، والاستراتيجية. انقسم الملوك بين مهاجم وديلوماسي - ألا يجب علينا أولاً ربما أن نحاول أن نتحضر؟ المثير للدهشة، مينيلوس كان الأعلى صوتاً لصالح التفاوض. "سوف أذهب بكل سرور للتعامل معهم بنفسي". "إنه مكتبي".

"ما الذي قطعنا كل هذا الطريق من أجله، إذا كنت تنوي التحدث إليهم في الاستسلام؟" اشتكى ديوميديس. "لكنت بقيت في دياري".

"نحن لسنا متوحشين"، قال مينيلوس بعناد. "ربما سوف يستمعون إلى هذا المنطق".

"لكن من المحتمل لا. لماذا نضيع الوقت؟".

"لأنه، عزيزي ملك أرغوس، إذا جاءت الحرب بعد بعض الدبلوماسية أو تأخرت، فإننا لا نبدو كثير كالأشرار"، كان هذا أوديسيوس. "مما يعني أن مدن الأناضول لا تشعر بالكثير من المسئولية لمساعدة طروادة".

"هل ستكون لها إذن، إيثاكا؟" سأل أجاممنون.

هز أوديسيوس كتفيه. "هناك العديد من الطرق لبدء الحرب. لقد اعتقدت دائماً أن الإغارة بداية جيدة. وهي تحقق تقريباً نفس ما تحققه الدبلوماسية، لكن بربح أكثر".

"نعم! الإغارة!" هدر نيستور. "لا بد أن نستعرض قوتنا قبل أي شيء آخر!".

فرك أجاممنون ذقنه وأجال بصره في أنحاء غرفة الملوك. وأضاف "أعتقد أن نستور وأوديسيوس على حق. الغارات أولاً. ثم ربما سوف نقوم بإرسال رُسلنا. سنبدأ غداً".

لم يحتج إلى إعطاء أي تعليمات أخرى. كانت الإغارة حركة نموذجية لحصار الحرب - أنت لن تهاجم المدينة، لكن الأراضي المحيطة التي توفر لها الحبوب واللحوم. ستقتل هؤلاء الذين يقاومون، وتستعبد أولئك الذين لن يفعلوا ذلك. كل غذائهم سيذهب الآن إليك، وستمسك بناقم وزوجاقم كرهائن لولائهم. أولئك الذين سيفرون إلى المدينة التماساً للملاذ الآمن. النزل سوف تمتلئ بسرعة بالجماهير والمتمردين؛ ستظهر الأمراض. في نهاية المطاف، ستفتح البوابات من اليأس، إذا لم يكن من الشرف.

كنت آمل أن يعترض أخيل، أن يعلن أنه لا يوجد مجد في قتل المزارعين. لكنه أومأ برأسه فقط، كما لو أن هذا كان حصاره المائة، كما لو أنه لم يفعل شيئاً طيلة حياته عدا قيادة الغارات.

"أمرٌ أخير - إذا كان هناك هجوم، فأنا لا أريد الفوضى. يجب أن يكون لدينا خطوط، وسرايا". تحول أجاممنون في كرسيه، وبدا عصبياً تقريباً. إضافة إلى أنه قد يكون لأن؛ ملوكنا كانوا شائكين، وهذا كان أول توزيع للشرف:

المكان في الخط. إذا كان هناك تمرد ضد سلطته، فالآن سيكون الوقت لذلك. يبدو أن التفكير بذلك يغضبه، فازداد صوته خشونة. كان هذا خطأ متكرر من جانبه: كلما تزعزع موقفه، كلما قلت محبته.

"أنا ومينيلوس، سوف نأخذ الوسط، بالطبع". كان هناك موجة سخط خافتة على أثر ذلك، لكن أوديسيوس أضاف بعده.

"حكيم جداً، يا ملك ميسيناي. هكذا سوف يعثر عليك الرسل بسهولة".

"بالضبط، هو كذلك". اومأ أجاممنون بخفة، كما لو أن ذلك كان بالفعل هو السبب. "إلى يسار أخي سيكون أمير ثيا.

وإلى يميني، أوديسيوس. وفي الأجنحة سيكون ديوميديس وأياكس". كل هذه كانت المراكز الأكثر خطورة، الأماكن التي سوف يسعى العدو إلى النهش أو اللكم من خلالها. وهكذا فقد كانوا الأكثر أهمية لشغلها بأي ثمن، وبالأروع.

"البقية سيتحدد بالقرعة". عندما ماتت الدمدمة، وقف أجاممنون. "اتفقنا إذن. سنبدأ غداً الغارات، مع طلوع الشمس".

كانت الشمس تغرب للتو بينما نحن نمشي عائدين إلى الشاطئ، إلى مخيمنا. كان أخيل مسروراً. أعظم الأماكن صدارة كانت من نصيبه، ودون أي قتال. كان من المبكر جداً تناول العشاء، لذلك تسلقنا التلة المعشبة التي تقع فقط إلى وراء معسكرنا، الدفعة الرقيقة

للأراضي الخارجة من الغابة. توقفنا هناك للحظة، نعاين المخيم الجديد والبحر وراءه. الضوء الميت يتعثر في شعره، ووجهه عذب في الأصيل.

السؤال الذي كان يحرقني منذ المعركة على متن السفن، لكن لم يكن هناك أي وقت قبل الآن لطرحه.

"هل فكرت بهم كالحيوانات؟ كما قال والدك؟".

هز رأسه. "لم أفكر على الإطلاق".

فوق رؤوسنا صرخت النوارس ودارت. حاولت أن أتخيله ملطخ بالدماء وقاتل بعد غارته الأولى غداً.

"هل أنت خائف؟" سألت. صدح أول نداء للعندليب في الأشجار وراء ظهورنا.

"لا"، أجاب. "هذا ما ولدت لأجله".

استيقظت في صباح اليوم التالي على صوت أمواج طروادة تتكسر على شاطئها. أخيل لا يزال ناعس بجانبي، لذلك غادرت الخيمة لأدعه ينام. في الخارج كانت السماء صافية كما كانت في اليوم السابق: الشمس مشرقة وثاقبة، و البحر يرمي أوراق كبيرة من الضوء. جلست وشعرت بقطرات العرق تخز وتتجمع على جلدي.

في أقل من ساعة سوف تبدأ الغارة. لقد نمت وأنا أفكر فيها، وهأنا ذا أستيقظ معها. كنا قد ناقشناها، بالفعل، أنا لن أذهب. معظم الرجال لن يفعلوا. كانت هذه غارة ملوك، اختيرت لتمنح الشرف الأول لأفضل المحاربين. سيكون أول قتل حقيقي له.

نعم، هناك الرجال على الشاطئ، في اليوم السابق. لكن ذلك كان شيء بعيد، ولا دماء نستطيع أن نراها. لقد سقطوا تقريباً بشكل هزلي، بعيدين جداً لرؤية وجوههم أو الألم.

انبثق أخيل من الخيمة، مرتدياً ملابسه بالفعل. جلس بجــواري وتناول وجبة الإفطار الــتي كانــت في انتظــاره. لم نقــل ســوى القليل.

لم يكن هناك كلمات لأحدثه عن كيف شعرت. عالمنــا كــان واحد من الدم، والشرف الذي يكتسبه؛ فقط الجبناء لم يقاتلوا. بالنسبة للأمير لم يكن هناك أي خيار. إما أن تحــارب وتفــوز، أو تحــارب وتموت. حتى تشيرون بعث إليه برمح.

كان فيونكس مستعد بالفعل وينظم المرميدونيون الذين لازمــوه حتى حافة المياه. كانت معركتهم الأولى، وكانوا يريدون سماع صوت سيدهم. وقف أخيل، وراقبته وهو يخطو نحــوهم- طريقــة الأبــازيم البرونــزية التي اشتبكت بسترته رمت بومضــات ناريــة، وطريقــه الأرجواني الداكن على رداء رأسه أشرقت بشعره إلى ذهب الشــمس. بدا كثيراً كالبطل، وأنا بالكاد أتذكر أنه فقط في الليلة الســابقة كنــا نبصق نواة الزيتون على بعضنا البعض، عبر صحن الجبن الذي تركــه فيونكس لنا. أننا قد عوينا بفرحة عندما أنــزل واحدة، رطبــة وبهــا بعض فتات الفاكهة التي مازالت معلقة بها، في أذني.

كان يمسك برمحه وهو يتحدث، ويهز طرفها الرمادي، الــداكن كالحجر أو الماء العاصف. شعرت بالأسف للملوك الآخــرين الــذين اضطروا إلى الكفاح لنيل سلطتهم أو ارتدوها بضعف، إيماءتهم خشــنة وعنيفة. مع أخيل كانت رشيقة كالمباركة، وقد رفع الرجال وجوههم إليه، كما يرفعونها للكاهن.

بعد ذلك، جاء ليودعني. لقد عاد إلى حجمه الطبيعي مرة أخرى، وقد أمسك برمحه بتساهل، بتكاسل تقريباً.

"هل يمكنك مساعدتي وضع ما تبقى من درعي علي؟".

أومأت برأسي موافقاً وتبعه إلى براد الخيمة، متجاوزاً الباب القماشي السميك التي سقطت مغلقة وكأنها مصباح في مهب الريح. سلمته قطع من الجلد والمعدن التي أشار إليها، كاسياً أعلى فخذيه، ذراعيه، وبطنه. شاهدته يطوق هذه الأشياء عليه، الواحد تلو الآخر، راقبت صلابة الجلد تحفر جلده الناعم، الجلد الذي فقط حتى الليلة الماضية كنت أتتبعه بإصبعي. رفت يدي تجاهه، تتوق إلى سحب وفتح الإبزيم الضيق، إلى إطلاق سراحه. لكن لم أفعل. الرجال كانوا ينتظرون.

سلمته آخر قطعة، خوذته، بشعر الخيل المنتصب، وشاهدته يطبقها على أذنيه، تاركاً فقط شريط رقيق من وجهه مفتوحاً. انحنى نحوي، مؤطر بالبرونز، تفوح منه رائحة العرق والجلد والمعدن. أغمضت عيني، شعرت بشفاهه تحط على شفتي، الجزء الوحيد منه الذي لا يزال ناعم. ثم غادر.

من دونه بدت الخيمة فجأة أصغر بكثير، متقاربة وتفوح منها رائحة الجلود التي علقت على الجدران. استلقيت على السرير واستمعت إلى أوامره الصارخة، ثم وقع حوافر وصهيل الخيول. آخر شيء، صرير عجلات عربته بينما حملته بعيداً. على الأقل ليس لدي أي مخاوف على سلامته. طالما عاش هيكتور لا يمكن أن يموت. أغمضت عيني و نمت.

استيقظت وأنفه على أنفي، يضغطه بإصرار علي وأنا أكافح من شبكة أحلامي. رائحته حادة وغريبة، وللحظة كنت سأثور تقريباً على هذا المخلوق الذي التصق بي وضغط بوجهه على وجهي. لكن بعد ذلك جلس مرة أخرى على عقبيه وكان أخيل مرة أخرى، شعره رطب وداكن، كما لو أن شمس صباح اليوم قد انسكبت منه. علقت في وجهه وأذنيه، مستوية ورطبة من الخوذة.

كان مغطى بالدم، البقع حية لم تجف بعد وتصدأ. فكــرتي الأولى كانت الرعب من أنه أصيب، وسينـــزف حتى المــوت. "مـــن أيـــن أصبت؟" سألت. تحققت عيني منه بحثاً عن مصدر الدم. لكـــن البقـــع بدت أنها تأتي من العدم. ببطء، ذهني الناعس الغبـــي بـــدأ يفهـــم. لم يكن دمه.

"لم يستطيعوا أن يقتربوا بما فيه الكفاية ليلمسوني"، قـــال. كـــان هناك نوعاً من التساؤل المنتصر في صوته. "لم أكن أعرف كم سيكون سهلاً. مثل اللاشيء. كان يجب أن ترى ذلك. هتف الرجال لي بعـــد ذلك". كانت كلماته حالمة تقريباً. "لم أخطئ. لكم أتمنى أنك رأيـــت ذلك".

"كم؟" سألت.

"اثنا عشر".

اثني عشر رجلاً مع لا شيء على الإطلاق للقيام به مع باريس أو هيلين أو أي واحد منا.

"مزارعين؟" كان هناك مرارة في صوتي يبدو أنها أعادته إلى نفسه.

"كانوا مسلحين" قال بسرعة. وأضاف: "لم أكن لأقتـــل رجـــل أعزل".

"كم سوف تقتل غداً، هل فكرت؟" سألت.

سمع الحدة في صوتي ونظر بعيداً. الألم علـــى وجهـــه ضـــربني، وخجلت. أين كان وعدي أن أغفر له؟ كنت أعرف ما كان مصيره، واخترت أن آتي إلى طروادة على أي حال. كان الأوان قد فات بالنسبة لي لأعترض ببساطة لأن ضميري قد بدأ يثور.

"أنا آسف" قلت. سألته ليخبرني كيف كان ذلك، كل تفاصيله، كما كنا نتحدث دائماً مع بعضنا البعض. وقد فعل، كل شيء، كيف

قد اخترقت أول رمح له تجويف خد رجل، حاملة اللحم معها وهـــي تخرج من الجانب الآخر. كيف سقط ثاني رجل بضربة خلال صدره، كيف قبض قفصه الصدري على الرمح عندما حاول أخيل اســترداده. كانت القرية تفوح برائحة فظيعة عندما تركوها، موحلــة وطنانــة، بالذباب الذي هبط عليها بالفعل.

استمعت إلى كل كلمة، تخيلت أنها كانت قصة فقط. كما لـــو كان يتحدث عن شخصيات مبهمة على جرة بدلاً من الرجال.

نشر أجاممنون الحراس لمراقبة طروادة في كل ساعة من كل يــوم. كنا جميعاً ننتظر شيئاً - هجوم، أو رسل، أو برهان للســلطة. لكــن طروادة أبقت بواباتها مغلقة، وهكذا تواصلت الغارات. تعلمت أن أنام خلال النهار لئلا أكون متعباً عند عودته؛ إنه يحتاج دائمــاً للحــديث عندها، ليخبرني وصولاً إلى أدق التفاصيل حول الوجوه والجــروح و حركات الرجال. وأردت أن أكون قادر على الاستماع، لهضم الصور الدامية، لرسمها صريحة وغير ملحوظة على إنــاء للأجيــال القادمــة. لأحرره منها ولأجعله أخيل مرة أخرى.

الفصل الواحد والعشرون

مع الغارات جاء التوزيع ومنح الجوائز، والمطالبة بغنائم الحـــرب. كان ذلك من أعرافنا. سمح لكل رجل بالاحتفاظ بما اكتسبه شخصياً، الدرع الذي جرد من الجندي القتيل، الجوهرة التي مزقها مـــن عنـــق أرملته. لكن البقية، الأباريق والبسط والمزهريات، تُحمـــل إلى المنصـــة وتتكدس عالياً للتوزيع.

لم يكن الأمر يتعلق كثيراً بقيمة أي غرض كما هـــو بالشـــرف. الجزء الذي سوف تُعطى سيكون مساوياً لموقعك في الجيش. الحصـــة الأولى تذهب عادة لأفضل جندي في الجيش، لكن أجاممنون سمى نفسه الأول وسمى أخيل الثاني.

فوجئت بأن أخيل هز كتفيه فقط. "الجميع يعلم أنني الأفضـــل. هذا فقط يجعل أجاممنون يبدو جشعاً". كان على حق، بـــالطبع. ومـــا جعله أحلى من كل شيء عندما هتف الرجال لنا، مترنحين تحت كومة كنـــزنا، وليس لأجاممنون. فقط صفق له الميسينين التابعين له.

بعد أخيل جاء أياكس، ثم ديوميديس ومينيلوس، وثم أوديســـيوس واستمروا حتى لم يبق لسبريونس إلا خوذات خشبية فقـــط وكـــؤوس متكسرة. في بعض الأحيان، رغم ذلك، إذا كان الرجل قد أبلى جيـــداً تحديداً في ذلك اليوم، فإن الجنرال قد يكافئه بشيء جميل له تحديداً، حتى قبل أول دور للزجل. وهكذا، حتى سبريونس كان لا يخلو من الأمل.

في الأسبوع الثالث، وقفت على المنصة فتـــاة وســـط الســـيوف والسجاد المنسوج والذهب. كانت جميلة، بشرتها بنية عميقة، شـــعرها

أسود وبراق. أعلى عظمة وجنتها انتشرت كدمات حيث استمرت براجم الإصبع بالضرب. في الغسق، بدت عينيها بكدمات كذلك، مظللة كما لو كانت تضع بعض الكحل المصري. فستانها ممزق في الكتف و ملطخ بالدماء. ويديها مقيدة.

تجمع الرجال بفارغ الصبر. كانوا يعرفون ماذا يعني حضورها - أجاممنون كان يعطينا الإذن بتجنيد الأتباع، زوجات احتياطيات وجواري سرير. حتى الآن، كانت النساء ببساطة تجبر في الحقول وتغادر. في خيمتك الخاصة سيكون للأمر ترتيب أكثر ملائمة.

ترأس أجاممنون المنصة، ورأيت عينيه تنزلق على الفتاة، بابتسامة خفيفة على شفتيه. كان معروفاً - كما هو حال جميع بيت أتريوس - بشهيته. لا أعرف ما الذي دهاني حينها. لكنني ضغطت ذراع أخيل وهمست في أذنه.

"خذها".

التفت لي، بعينين تتسع بالمفاجأة.

"خذها كجائزتك. قبل أن يفعل أجاممنون. أرجوك".

تردد، لكن فقط لثانية.

"رجال اليونان"، وتقدم إلى الأمام، لا يزال في درعه الذي لبسه اليوم، لا يزال ملطخ بالدماء. "ملك ميسيناي العظيم".

التفت أجاممنون لمواجهته، مقطباً. "بيلايدس؟".

"أود أن أحصل على هذه الفتاة كجائزة حرب".

في الجزء الخلفي للمنصة رفع أوديسيوس حاجب. غمغم الرجال من حولنا. طلبه كان غير عادي، لكن ليس غير معقول؛ في أي جيش آخر، سيكون الخيار الأول له على أي حال. ومض السخط في عينين أجاممنون. رأيت الأفكار تدور عبر وجهه: هو لا يحب أخيل، ومع

ذلك كان الأمر لا يستحق العناء، هنا، بالفعل، أن يكون فجاً. كانت جميلة، لكن سيكون هناك فتيات أخريات.

"أمنحك رغبتك، أمير ثيا. إنها لك".

صاح الحشد بموافقته - أحبوا كرم قائدهم، أبطالهم جريئين ومفعمين بالحيوية.

عينيها تتبعت المحادثات بإشراقة ذكاء. عندما فهمت أنها ستأتي معنا، رأيتها تبتلع ريقها، ونظراتها تنقض على أخيل.

"سأترك رجالي هنا، لبقية ممتلكاتي. الفتاة سوف تأتي معي الآن".

ضج الرجال بضحكات المديح والتصفير. ارتعدت الفتاة كلها، بخفة، كأنها أرنب تفحص من قبل الصقور. "تعالي"، أمر أخيل. وتحولنا لنذهب. برأس خفيض، تبعتنا.

عودة إلى معسكرنا، وجه أخيل سكينه، فارتعش رأسها قليلاً بالخوف. كان لا يزال دامياً من معركة هذا اليوم، وكانت قريتها تلك التي نهبها.

"اسمح لي"، قلت. سلم لي السكين وتراجع، محرجاً تقريباً.

"سأطلق سراحك" قلت.

عن قرب رأيت كم كانت عينيها داكنة، بنية بلون الأرض الخصبة، كبيرة في وجهها لوزي الشكل. نظراتها تضطرب بيني وبين الشفرة. فكرت في الكلاب المذعورة التي رأيتها، صغيرة متراجعة بحدة في الزوايا.

"لا، لا"، قلت بسرعة. "نحن لن نؤذيك. سوف أطلق سراحك".

تطلعت إلينا في رعب. الآلهة تعرف ما ظننت أنني أقول. كانت فتاة مزارعة من الأناضول، لا يوجد سبب يجعلها قد سمعت اليونانية من

قبل. تقدمت إلى الأمام لأضع يد على ذراعها، لطمأنتها. فجفلت كما لو كانت تتوقع ضربة.

رأيت الخوف في عينيها، من الاغتصاب وأسوأ.

لم أستطع تحمل ذلك. لم يكن هناك سوى شيء واحد كنت أفكر فيه. التفت إلى أخيل ووضعت يدي على مقدمة سترته. ثم قبلته.

عندما تركته ثانية، كانت تحدق بنا. وتحدق وتحدق.

أومأت إلى قيودها وإلى السكين. "هل الأمر على ما يرام الآن؟".

ترددت لحظة. ثم قدمت يديها ببطء.

غادر أخيل ليتحدث إلى فيونكس حول شراء خيمة أخرى. فأخذتها إلى جانب التل المعشوشب وأجلستها فيما أصنع كمادة لكدمات لوجهها. بحذر شديد، مسبلة العينين، أخذتها. أشرت إلى ساقها، كان جرحه ممزقاً ومفتوحاً، قطع طويل على طول قصبة ساقها.

"هل لي أن أراها؟" سألت، مشيراً. لم تقم بأي استجابة، لكنها سمحت لي على مضض أن آخذ ساقها، وأضمد الجرح، وأربطه لإغلاقه بالضمادات. تابعت كل حركة من يدي متجنبة نظرتي.

بعد ذلك، أخذتها لخيمتها الجديدة. بدت مذهولة منها، خائفة تقريباً من دخولها. رميت لأفتح الباب وأشرت لها - الطعام والبطانية، وإبريق ماء، وبعض الملابس النظيفة الملقاة. مترددة، تقدمت للداخل، فتركتها هناك، بعينين واسعة، تحدق في كل شيء.

في اليوم التالي ذهب أخيل للإغارة مرة أخرى. جرجرت قدمي في جميع أنحاء المخيم، جامعاً الأخشاب الطافية ومبرداً قدمي في الأمواج. كنت طيلة الوقت مدركاً للخيمة الجديدة في زاوية المخيم. لم نرَ شيئاً منها حتى الآن، الباب مغلق بإحكام كما هو حال طروادة. لدزينة من المرات تقريباً ذهبت لأناديها خلال القماش.

أخيراً، في منتصف النهار، رأيتها في المدخل. كانت تراقبني، نصف مختبئة وراء الطيات. عندما رأت أنني قد لاحظتها، التفتت مسرعة لتغادر.

قلت: "انتظري!".

تجمدت. السترة التي كانت ترتديها - إحدى ستراتي - تعلقت متجاوزة ركبتيها وجعلتها تبدو يافعة جداً. كم كان عمرها؟ لم أكن حتى أعرف.

مشيت حتى وصلت إليها. "مرحباً". حملقت فيَّ بتلك العيون الواسعة. شعرها كان قد سحب إلى الوراء، كاشفاً عن عظام وجنتيها الشهية. كانت جميلة جداً.

"هل نمت جيداً؟" أنا لا أعرف لماذا ظللت أتحدث إليها. اعتقدت أن ذلك قد يهدئها. كنت قد سمعت تشيرون يقول ذات مرة أن الحديث إلى الأطفال الرضع يهدئهم.

"باتروكلوس"، قلت، مشيراً إلى نفسي. طرفت عينيها لي، ثم تحولت بعيداً.

"با - ترو - كلوس". كررت ببطء. لم تجب، لم تتحرك؛ قبضت أصابعها على قطعة قماش من باب خيمة. شعرت بالخجل حينها. لقد كنت أخيفها.

"سوف أتركك" قلت. أملت رأسي واستدرت لأغادر. تحدثت بشيء، منخفض جداً حتى أنني لم أستطع سماعه.

توقفت.

"ماذا؟".

"برسيس"، كررت. مشيرة إلى نفسها.

"برسيس؟" قلت. فأومأت، بخجل.

تلك كانت البداية.

اتضح أنها كانت تعرف القليل من اليونانية. بضع كلمات كان والدها قد التقطها وعلمها إياها عندما سمع أن الجيش قادم. الرحمة كانت أحدها. نعم وأرجوك وماذا تريد؟ أب، يعلم ابنته كيف تكون عبدة.

خلال الأيام، كان المخيم يخلو تقريباً فيما عدانا. نجلس على الشاطئ ونقف على الجمل مع بعضنا البعض. لقد ازددت فهما لتعبيراتها أولاً، الهدوء العميق لعينيها، الابتسامة المرفرفة التي تخفيها وراء يدها. لم نتمكن من التحدث عن الكثير، في تلك الأيام الأولى، لكنني لم أمانع. كان هناك سلام في الجلوس إلى جانبها، والموجات المتداولة تتدحرج فوق أقدامنا. تذكرني تقريباً، بأمي، لكن عيني برسيس مشرقة بالملاحظة بينما عيني أمي لم تكن كذلك أبداً.

أحياناً في فترة بعد الظهر كنا نسير معاً حول المخيم، مشيراً إلى كل شيء لا تعرف اسمه حتى الآن. تكدست الكلمات بعضها فوق بعض بسرعة بحيث سرعان ما سوف نحتاج إلى الإيماء التفصيلي. طبخ عشاء، لديها حلم مزعج. حتى عندما كانت رسوماتي تبدو خرقاء، فهمتها برسيس وترجمتها إلى سلسلة من الإيماءات الدقيق حتى أنني يمكنني أن أشم رائحة طبخ اللحم. ضحكت كثيراً على براعتها، ومنحتني هي ابتسامتها السرية.

تواصلت الإغارات. كل يوم يتسلق أجاممنون المنصة وسط غنيمة اليوم ليقول: "لا أخبار". لا يوجد أخبار يعني لا جنود، لا إشارات، لا أصوات من المدينة. جلست في الأفق بعناد وجعلتنا ننتظر.

واسى الرجال أنفسهم بطرق أخرى. بعد برسيس كانت هناك فتاة أو اثنتين على المنصة كل يوم تقريباً. كانوا جميع الفتيات مزارعات

بأيد صلبة وأنوف محترقة، يستخدمون لأصعب الأعمال تحت الشمس. أخذ أجاممنون نصيبه، وكذلك الملوك الآخرين. تراهم في كل مكان الآن، ينسجون بين الخيام، يسكبون دلاء الماء على ثيابهم الطويلة المجعدة - ما كانوا يلبسونه في اليوم الذي أخذوا فيه. قدموا الفاكهة والجبن والزيتون واللحوم المقطعة، وملئوا أقداح النبيذ. لمعوا الدروع، دقوا قرني الذبل بين سيقاهم وهم جالسين على الرمل. بل أن بعضهم قد نسجت، و غزلت بالإبرة خلال العقد المتكتلة لصوف الأغنام، حيوانات كنا قد سرقناها في غاراتنا.

وفي الليل يخدمون بطرق أخرى، فانكمش تحت وطأة الصرخات التي تصل حتى ركن مخيمنا. حاولت أن لا أفكر في قراهم المحرقة ولا آبائهم القتلى، لكن كان من الصعب إبعادها. ختمت الغارات على وجه كل واحدة من الفتيات، مسحات حزن كبير أبقى أعينهم متذبذبة وطافحة كحال الدلاء التي تأرجحت إلى أرجلهم. مكدمين جداً، بالقبضات أو المرفقين، وفي بعض الأحيان دوائر كاملة - بأعقاب الرماح، على جباههم أو أصداغهم.

بالكاد يمكنني مشاهدة هؤلاء الفتيات وهم يتعثرون داخلين إلى المخيم ليتم توزيعهم. أرسلت أخيل ليطلبهم، ليسعى إلى أكبر عدد يستطيعه، فمازحه الرجال عن استهلاكه، عن قضيبه الذي لا يرتخي. "لم أكن أعرف حتى أنك تحب الفتيات"، مازحه ديوميديس.

كل فتاة جديدة ذهبت أولاً إلى برسيس، التي تحدثها لتهدئها بالأناضولية الناعمة. ومن ثم سوف يسمح لها بالاستحمام وسوف تعطى ملابس جديدة، ومن ثم ستنضم إلى الأخريات في الخيمة. نصبنا خيمة جديدة، أكبر، لتتسع لهم كلهم: ثمانية، عشرة، أحد عشر فتاة. في الغالب كنت وفيونكس من يتحدث إليهم؛ بقي أخيل بعيداً. كان

يعلم أنهم رأوه يقتل إخوانهم وأحبائهم وآبائهم. شيء لا يمكن أن يغتفر.

ببطء، أصبحوا أقل خوفاً. فخرجوا، وتحدثوا لغتهم الخاصة، متبادلين الكلمات التي التقطوها منا - كلمات مفيدة، مثل الجبن، أو الماء، أو الصوف. لم يكونوا سريعين كما كانت برسيس، لكنهم تلاحموا بما فيه الكفاية ليستطيعوا التحدث معنا.

لقد كانت فكرة برسيس بالنسبة لي لأقضي بضع ساعات معهم كل يوم، لأعلمهم. لكن الدروس كانت أكثر صعوبة من ما اعتقدت: كانت الفتيات حذرات جداً، تندفع عيونهم تجاه بعضهم البعض؛ لم يكونوا متأكدين مما تسبب في ظهوري المفاجئ في حياتهم. كانت برسيس ثانية من خفف مخاوفهم وجعل دروسنا تصبح أكثر تفصيلاً، تقدمنا بتفسير الكلمة أو توضيح لفتة. يونانيتها كانت جيدة جداً الآن، وأكثر فأكثر أصبحت أحيل الأمور لها. كانت معلمة أفضل مني، ومسلية للغاية. إيماءتها الصامتة جلبت الضحك لنا جميعاً: السحلية ذات العيون الناعسة، كلبين يقتتلون.

كان من السهل البقاء معهم لفترة طويلة ومتأخرة، حتى أسمع صرير العربة، وضجيج البرونز البعيد، فأعود لتحية أخيلي.

كان من السهل، في تلك اللحظات، أن أنسى أن الحرب لم تبدأ حقاً بعد حتى الآن.

كانت الغارات ظافرة، لكنها كانت فقط غارات. الرجال الذين لقوا حتفهم كانوا مزارعين، تجار، من شبكة واسعة للقرى التي تدعم المدينة القوية، وليسوا جنود. في المجالس شد أجاممنون على فكه على نحو متزايد، وكان الرجال هائجين: أين القتال الذي وُعدنا به؟

قريباً، قال أوديسيوس. أشار إلى الفيضان المستمر من اللاجئين إلى طروادة. يجب أن تكون المدينة قريبة من الانفجار الآن. العائلات الجائعة ستسقط في القصر، الخيام المؤقتة سوف تسد شوارع المدينة. لم تكن سوى مسألة وقت، أخبرنا.

كما لو أن ساحراً سمع نبوءته، علم التفاوض حلق فوق جدران طروادة في صباح اليوم التالي. الجندي المراقب على مدار الساعة ركض لأسفل الشاطئ ليخبر أجاممنون: الملك بريام على استعداد لاستقبال الرسل.

اشتعل المخيم بالأخبار. بطريقة أو بأخرى الآن، هناك شيء يمكن أن يحدث. سوف يعيدون هيلين، أو سوف يقاتلون من أجلها كما ينبغي، في الحقول.

مجلس الملوك أرسلت مينيلوس وأوديسيوس، الخيارات البديهية. غادر الرجلين عند أول ضوء فوق ظهور خيولهم العالية، التي لُمعت لتتألق وتجلجل بالزينة. راقبناهم يعبرون عشب السهل الواسع لطروادة، ثم تلاشوا في ضبابية الجدران الرمادية الداكنة.

انتظرت وأخيل في خيامنا، متسائلين. هل سوف يرون هـــيلين؟ باريس بالكاد يمكن أن يجرؤ على منعها من زوجها، و بالكاد يمكن أن يجرؤ على إظهارها لزوجها. مينيلوس قد ذهب أعزل بوضوح، ربما لأنه لا يثق بنفسه.

"هل تعرف لماذا اختارته؟" سألني أخيل.

"مينيلوس؟ لا" تذكرت وجوه الملوك في قاعة تنديريوس، متوهجة بالصحة وروح الدعابة. كان وسيم، لكن لم يكن أوسم الرجال هناك. كان قوياً، لكن كان هناك العديد من الرجال مع مزيد مـــن الثـــروة والمآثر المرتبطة بأسمائهم.

"لقد أحضر هدية سخية. وأختها كانت متزوجة بالفعـــل مـــن شقيقه، ربما كان هذا جزءاً من ذلك".

فكر أخيل بهذا، طاوياً ذراعه خلف رأسه. "هل تعتقد أنها ذهبت مع باريس عن طيب خاطر؟".

"أعتقـــد أنهـــا إذا فعلـــت، فهـــي لـــن تعتـــرف بـــذلك إلى مينيلوس".

"همم"، ناقراً بإصبعه على صدره، مفكراً. "على الرغم من ذلك أعتقد أنها يجب أن تكون قد ذهبت بإرادتها. قصر مينيلوس يشبه القلعة. إذا كانت قد كافحت أو صرخت، فلا بد أن يسمعها أحـــد. لقـــد عرفت أنه سيأتي وراءها، لشرفه إذا لم يكن من أجل أي شيء آخـــر. وأن أجاممنون سيغتنم هذه الفرصة ويناشد باليمين".

"لا علم لي بذلك".

"أنت غير متزوج إلى مينيلوس".

"إذن أنت تعتقد أنها فعلت ذلك عن قصد؟ للتسبب في الحـــرب؟ "صدمني ذلك.

"ربما. اعتادت أن تكون معروفة كأجمل امرأة في ممالكنـــا. الآن يقولون أنها أجمل امرأة في العالم"، وغنى بأفضل طبقات صوته العاليـــة. "ألف سفينة قد أبحرت من أجلها".

الألف كان الرقم الذي استخدمه شعراء أجاممنون؛ ألف، ومائـــة وستة وثمانون لا تتناسب بشكل جيد في نظم الشعر.

"ربما أغرمت حقاً بباريس".

"وربما كانت تشعر بالملل. بعد عشر سنوات محتجزة في ســـبارتا، أنا كنت لأود أن أغادر أيضاً".

"ربما جعلتها أفروديت تغادر".

"ربما سوف يعيدونها معهم".

فكرنا في هذا.

"أعتقد أن أجاممنون سيهاجم على أي حال".

"أعتقد ذلك أيضاً. إنهم حتى لا يذكرونها أبداً بعد الآن".

"إلا في خطبهم إلى الرجال".

كنا صامتين لحظة.

"إذن أي من الخطاب كنت ستختار؟".

دفعته أرضاً، فضحك.

عادوا بحلول الظلام، لوحدهم. أبلغ أوديسيوس المجلـــس، بينمـــا جلس مينيلوس صامتاً. رحب الملك بريام بهم بحـــرارة، و أولم لهـــم في قاعته. ثم وقف أمامهم، يحيط بها باريس وهيكتور، مع أبناءه الثمانيـــة والأربعون المحتشدين وراءه.

"نحن نعرف لماذا جئتم"، قال. وأضاف "لكن السيدة نفســـها لا ترغب في العودة، ووضعت نفسها تحت حمايتنا. لم يسبق لي أن رفضت الدفاع عن امرأة، ولن أبدأ بذلك الآن".

"ذكي"، قال ديوميديس. "لقد وجدوا طريقة للالتفاف حول جرمهم".

واصل أوديسيوس، "قلت لهم أنهم إذا كانوا مصرين على ذلك، فلم يعد هناك ما يقال".

قام أجاممنون، ورن صوته بشكل رائع. "بالفعل ليس هناك ما يقال. حاولنا بالدبلوماسية وتم الرفض. طريقنا الوحيد للشرف هو الحرب. غداً سنذهب لكسب المجد الذي نستحقه، حتى آخر رجل منكم".

كان هناك المزيد، لكنني لم أسمع ذلك. حتى آخر رجل منكم. تدفق الخوف خلالي. كيف لم أفكر بهذا؟ بالطبع سيكون من المتوقع أن أقاتل. نحن في الحرب الآن، والجميع سيخدم فيها. خصوصاً أقرب رفيق لأريستوس أخيون/ أشن.

في تلك الليلة لم أنم تقريباً. الرماح التي مالت على جدران خيمتنا بدت طويلة بطريقة مستحيلة، وتشوش ذهني ليتذكر بعض الدروس - كيف توزن، وكيف تنزلق. الأقدار لم تقل شيئاً عني - لا شيء عن كم سأعيش. أيقظت أخيل، فزعاً.

"سأكون هناك"، وعدني.

في الظلام قبل الفجر، ساعدني أخيل لأتسلح. درع الساق، القفازات، صدرة جلدية وصدرة برونزية فوقها. كل شيء بدا عائق أكثر منه كحامي، يقرع ذقني عندما كنت أمشي، حجز ذراعي، مثقلة إياي أرضاً. أكد لي أنني سوف أعتاد على ذلك. لم أصدقه. شعرت بالحماقة وأنا أمشي خارجاً من الخيمة إلى شمس الصباح، مثل صبي يحاول أن يجرب ملابس أخيه الأكبر. كان المرميدونيون ينتظرون، يتزاحمون مع بعضهم البعض من الإثارة. معاً بدأنا رحلتنا الطويلة إلى

أسفل الشاطئ إلى حشد الجيش الهائل. كانت أنفاسي بالفعل ضحلة وسريعة.

كان بإمكاننا أن نسمع الجيش قبل أن نراه؛ التفاخر، صلصلة الأسلحة، أبواق تنفخ. ثم كشف الشاطئ ومهد بحر من الرجال المنتصبين المنظمين الذين خرجوا في مربعات متقنة.

كل واحد قد تميز براية تعلن عن ملكها. فقط مربع واحد كان لا يزال فارغاً: مكان الصدارة، محفوظة لأخيل والمرميدونيون معه. سرنا إلى الأمام ونظمنا أنفسنا، أخيل في المقدمة، ثم خلفه توسطت سطر من النقباء على كلا الجانبين. وراءنا، اصطفت الرتب اللامعة وراء الرتب للثيين الفخورين.

أمامنا كان السهل المنبسط الواسع لطروادة، ينتهي بالبوابات الضخمة وأبراج المدينة. عند قاعدها قبعت معادن دوارة اصطفت ضدنا، ضبابية لرؤوس داكنة ودروع مصقولة قبضت على أشعة الشمس وبرقت. "ابقى ورائي"، التفت أخيل ليخبرني. أومأت برأسي موافقاً، فاهتزت الخوذة حول أذني. كان الخوف يلتوي بداخلي، بكوب متذبذب من الذعر يهدد بالتدفق في كل لحظة. درع الساق حفرت في عظام قدمي؛ ووزن رمحي أثقل ذراعي. نفخ بالبوق بصوت عالي وثقل صدري. الآن. إنه الآن.

بقعقعة، قعقعت كامل الكتلة، وبدأنا نتمايل راكضين. هكذا سنحارب - ركضة مميتة مشحونة نلتقي فيها بالعدو في الوسط. مع ما يكفي من النشاط يمكنك أن تهشم صفوفها جميعها مرة واحدة.

خطوطنا أضبحت شعثاء بسرعة لأن بعض المحاربين فاق الآخرين في سرعتهم، متعطشين للمجد، تواقين على أن يكونوا أول من يقتل طروادي حقيقي. في منتصف الطريق عبر السهل لم نعد في صفوف، أو حتى ممالك.

تجاوزني المرميدونيون بأشواط بعيدة، فجرفتني غيمة إلى اليسـار، واختلطت بين جموع إسبرطة ذات الشعر الطويل التابعة لمينيلوس، كلها مشحمة وممشطة من أجل المعركة.

ركضت، بضجيج درعي. جاءت أنفاسـي غزيـرة، واهتـزت الأرض تحت قصف الأقدام، وتعالى الهدير. الغبار المثار من قبل الهجوم كان مسبباً للعمى تقريباً. لم أستطع أن أرى أخيل. لم أستطع أن أرى الرجل إلى جانبـي. لم أستطع أن أفعل شيئاً عدا القبض على درعـي والركض.

اصطدمت الخطوط الأمامية في صوت انفجار، انفجر وابلاً مـن الشظايا والبرونـز والدم. كتلة تتلوى من الرجال والصراخ، ترتشـف الصف بعد الصف مثل رمضاء النار. رأيت أفواه الرجال تتحرك لكـن لا يمكنني سماعهم. لم يكن هناك سوى صوت تحطم الـدروع علـى الدروع، من البرونـز على الخشب المهشم.

سقط الإسبارطي الذي بجانبـي فجأة، طعن في صدره برمح. دار رأسي في الأرجاء، بحثاً عن الرجل الذي رماه، لكنني لم أرَ سوى خليط من الأجساد. ركعت بجانب الإسبارطي لأغلق عينيه، لأتلو عليه صلاة سريعة، ثم تقريباً تقيأت عندما رأيت أنه كان لا يزال على قيد الحيـاة، يتنفس بصفير باتجاهي في تضرع مرعب.

تحطم إلى جواري - جفلت ورأيت أياكس يسـتخدم درعـه العملاق كهراوة، يحطم بها الوجوه والأجساد. في ظهـره، صـرّت عجلات عربة طروادية بجانبه، وأطل صبـي فوق جانبـها، مظهـراً أسنانه ككلب. اجتاز أوديسيوس بسرعة، راكضـاً للقـبض علـى خيولها. تشبث الإسبارطي بـي، فيما دمه ينسكب على يدي. كان الجرح عميق جداً، ولم يكن هناك شيء يمكن القيام به. ارتياح فـاتر

تسرب إلي عندما تلاشى الضوء من عينيه أخيراً. أغلقتها بشجاعة، بأصابع مرتجفة.

ترنحت دائخاً إلى قدمي، السهل بدا موحلاً ومسحوقاً مثل الأمواج أمامي. عيني لا تستطيع التركيز، كان هناك الكثير من الحركة، فلاشات من الشمس والدروع والجلد.

ظهر أخيل من مكان ما. ملطخ بالدم ولاهث، وجهه متوهج، رمحه ملطخ بالأحمر حتى قبضته. ابتسم ابتسامة عريضة لي، ثم التفت وقفز إلى أجمة طروادة. تناثرت الأجساد على الأرض مع قطع من الدروع، مع قبضات الرماح وعجلات العربات، لكنه لم يتعثر، ليس لمرة واحدة. كان الشيء الوحيد على ساحة المعركة الذي لم يزفر بشكل محموم، مثل السطح المالح المملس للسفينة، حتى سئمت ذلك.

لم أقتل أحداً، أو حتى أحاول ذلك. في نهاية الصباح، ساعات وساعات من الفوضى المقرفة، عيني كانت عمياء من الشمس، وقد آلمتني يدي من القبض على رمحي - على الرغم أنني استخدمته في كثير من الأحيان لأتوكأ عليه أكثر من أن أهدد به. خوذتي كانت كجلمود يسحق أذني ببطء في جمجمتي.

شعرت أنني قد ركضت لأميال، على الرغم من أنه عندما نظرت إلى أسفل رأيت أن قدمي قد ضربت نفس الدائرة مراراً وتكراراً، مسطحاً نفس العشب الجاف كما لو كنت أجهز ميدان الرقص. الهلع المتواصل اختلسني واستنفذني، حتى ولو بدوت بطريقة أو بأخرى ساكناً، كيس غريب من الفراغ لا يهطل عليه أي من الرجال، لذلك أنا لم أهدد أبداً.

كان على قدر من البلاهة، والدوار، حتى أن الأمر استغرقني حتى وضح لأرى أن هذا كان من فعل أخيل. بصره علي دائماً، مستشعراً

بقوته الخارقة اللحظة التي تتسع فيها عيون جندي للهدف السهل الذي أمثله. قبل أن يسحب الرجل نفساً آخر، يكون قد أسقطه أرضا.

لقد كان أعجوبة، القبضة تلو القبضة تنطلق منه، الرماح التي يسحبها بسهولة من الأجساد المتكسرة على الأرض ليقذف بها أهداف جديدة. المرة تلو المرة رأيتها يلوي معصمه، كاشفاً الجزء السفلي الشاحب لها، تلك المزامير التي تشبه العظام تطعن برشاقة إلى الأمام. تدلى رمحي منسياً على الأرض وأنا أراقب.

لم أعد أستطيع حتى أن أرى فظاعة الوفيات بعد الآن، العقول، العظام المهشمة التي سأغسلها في وقت لاحق من بشرتي وشعري. كل ما رأيته كان جماله، غناء أطرافه، وسرعة خفقان قدميه.

وأخيراً جاء الغسق وأفرج عنا، أعرج ومستنفذ، عائداً إلى خيامنا، سُحب الجرحى والقتلى. يوم جيد، قال ملوكنا صافقين بأيديهم على ظهور بعضهم البعض. بداية مبشرة بالخير. غداً سوف نفعل ذلك مرة أخرى.

فعلنا ذلك ثانية، ثم ثانية. يوم من القتال أصبح أسبوع، ثم شهر. ثم اثنين.

كانت حرباً غريبة. لم يكتسب أي إقليم، ولم يتخذ أي سجناء. كانت من أجل الشرف فقط، رجل ضد رجل. بمرور الوقت، ظهر إيقاع متبادل: قاتلنا بتحضر سبعة أيام من عشرة، مع إجازة في الأعياد والجنازات. لا غارات، ولا هجمات مفاجئة. القادة، نشطوا مرة واحدة بآمال لتحقيق نصر سريع، بدأت الاستقالة من المشاركة المطولة. كانت الجيوش متطابقة جيداً بشكل ملحوظ، أن الصراع في الحقل يوم بعد يوم مع عدم وجود جانب أقوى محسوس. يُعزى ذلك في جزء منه

إلى الجنود الذين تدفقوا من جميع أنحاء الأناضول لمساعدة طروادة ولصنع أسمائهم. شعبنا لم يكونوا الوحيدين في الجشع للمجد.

أومأ أخيل متباهياً. ذهب إلى المعركة منتشياً، مبتسماً وهو يقاتل. لم يكن القتل هو ما يسره، سرعان ما تعلم أنه لا يوجد رجل واحد ند له. ولا أي رجلين، ولا ثلاثة. لم يجد أي متعة في مثل هذه الجزارة السهلة، وأقل من نصف الكثيرين سقطوا أمامه كما يفترض. لقد عاش من أجل الثمن، جماعة الرجال الهادرة تجاهه. هناك، وسط عشرين سيف طاعن سيتمكن أخيراً، من القتال بحق. فاخر بقوته، مثل فرس رهان كبتت لفترة طويلة جداً، سمح له بالركض أخيراً. محموماً بالنعمة المستحيلة قاتل ضد عشرة، خمسة عشر، خمسة وعشرين من الرجال. هذا، أخيراً، هو ما يمكنني القيام به حقاً.

لم يكن يتوجب علي الذهاب معه بقدر ما كنت أخشى. كلما طالت الحرب، بدا الذهاب أقل أهمية بمكان لسحب كل يوناني من خيمته. لم يكن أمير، بشرف على المحك.

لم أكن جندياً، مقيداً بالأوامر، أو بطلاً ستفوت مهارته. كنت منفي، رجل بلا أي مكانة أو رتبة. إذا رأى أخيل مناسبة تركه لي وراءه، فهذا شانه وحده.

تضاءلت زياراتي إلى الميدان إلى خمسة أيام، ثم ثلاثة، ثم مرة واحدة كل أسبوع. ثم أصبحت فقط عندما يطلب مني أخيل. و لم يكن هذا يحدث في كثير من الأحيان. معظم الأيام كان يرغب بالذهاب لوحده، ليهاجم بقوة ويؤدي لنفسه فقط. لكن من وقت لآخر كان يسئم من العزلة ويتسول إلي لأنضم إليه، لأشد علي حزام الجلد المتصلب بالعرق و الدم وأمشي بحذر فوق الأجساد معه. أتحمل لأشهد معجزاته.

في بعض الأحيان، بينما أراقبه، يمكنني أن أحدد مرأى لمربع من الأرض حيث لا يذهب الجنود. ستكون على مقربة من أخيل، وإذا حدقت فيها، تصبح أخف، ثم أخف وزناً.

أخيراً قد تسفر عن سرها على مضض: امرأة، بيضاء كالموت، أطول من الرجال الذين يكدحون من حولها. مهما ترشرش الدم، فإنه لم تسقط على فستانها الرمادي الشاحب اللون. لم يبدو أن قدميها العاريتين تلامس الأرض. هي لم تساعد ابنها، لم تكن في حاجة لذلك. فقط راقبت، كما فعلت أنا، بعينيها السوداء الضخمة. لم أستطع قراءة النظرة على وجهها، ربما تكون سروراً، أو حزناً، أو لا شيء على الإطلاق.

فيما عدا الوقت الذي تحولت فيه ورأتني. التوى وجهها باشمئزاز، وتباعدت شفتيها عن أسنانها. مهسهسة مثل ثعبان، ثم اختفت.

استقررت في الميدان إلى جانبه، وحصلت على ساقي البحر. كنت قادراً على أن أستشف الجنود الآخرين كلهم، وليس مجرد أجزاء من أجسادهم، لحم مجروح، أو برونز. يمكنني حتى أن أتحرك، مغطى بسقف حماية أخيل، على طول خطوط المعركة، أبحث عن الملوك الآخرين. الأقرب إلينا كان أجاممنون البارع بالرمح، القابع دائماً وراء كتلة من جنوده الميسينين المصطفين جيداً. من مثل مكانه الآمن كان يصرخ بالأوامر ويرشق الرماح. كان صحيح بما فيه الكفاية أنه بارع في ذلك: عليه أن يكون كذلك ليطيح برؤوس عشرين رجلاً.

ديوميديس، خلافاً لقائده، كان لا يعرف الخوف. قاتل مثل الوحش، الحيوانات الضارية، قفز إلى الأمام، بأسنان مكشوفة، وضربات سريعة التي لم تخترق الكثير من اللحم بقدر ما كانت تنتزعه. بعد ذلك، ينحي بحذر الذئب فوق الجسد لينهبه، قاذفاً بقطع الذهب وبرونز إلى مركبته قبل أن يتحرك قدماً.

فيما حمل أوديسيوس درع خفيفة وواجه خصومه جاثماً مثل الدب، ممسكاً بالرمح منخفضاً في يده المحمرة بالشمس. كان يراقب الرجل الآخر بعيون لامعة، مقتفياً ارتعاش عضلاته لأين وكيف سيأتي الرمح، وعندما يمر به دون أن يسبب له أذى، فإنه يندفع راكضاً إلى الأمام، ليغرسه فيه عن قرب، مثلما يصطاد رجل سمكة برمحه. كانت درعه دائماً تنقع بالدم مع نهاية اليوم.

لقد بدأت أعرف الطرواديين، وأيضاً: باريس، يطلق السهام المتهورة من عربة مسرعة. وجهه، حتى وهي مربوط و مضغوط بالخوذة، بدا جميل على نحو وحشي - عظامه جميلة كأصابع أخيل. وركيه الضئيلة تسترخي على جانبي عربته باستكبار مألوف، وقد سقطت عباءته الحمراء حوله في طيات غنية. لا عجب أنه المفضل لدى أفروديت: فقد بدا مزهواً مثلها.

من بعيد، فقط بمجرد لمحة سريعة، من خلال الدهاليز التي ينتقل إليها الرجال، رأيت هيكتور. كان وحيداً دائماً، منزوٍ بغرابة في المساحة التي أعطاه إياها الرجال الآخرين. كان قادراً ورصين وكثير التفكير، كل حركة كانت مدروسة. يديه كانت ضخمة ومخشوشنة بالعمل، وأحياناً، بينما يتراجع جيشنا، كنا نراه يغسل الدم عنها، ليصلي بطهر لا يخالطه شائبة. رجل لا يزال يحب الآلهة، حتى بالرغم من سقوط إخوته وأبناء عمومته بسببهم؛ الذي قاتل بشراسة من أجل عائلته بدلاً من قشرة الشهرة الهشة. ثم تغلق الصفوف، ويغادر.

لم أحاول أبداً أن أقترب منه، ولم يفعل أخيل كذلك، الذي التفت بحذر من لمحته الخاطفة ليواجه طرواديين آخرين، ليهاجم بقوة أفواج آخرين. بعذ مدة، عندما يسأله أجاممنون عن متى سيتحدى أمير طروادة، سيبتسم بأكثر ابتساماته براءة، وإثارة للغيظ. "وماذا سبق لهيكتور أن فعل لي؟".

الفصل الثالث والعشرون

في أحد أيام المهرجانات، بعد وقت قصير من نزولنا في طروادة، قام أخيل عند الفجر. "إلى أين أنت ذاهب؟" سألته.

"أمي"، قال، ثم تسلل عبر باب الخيمة قبل أن أتمكن من الحديث مرة أخرى.

والدته. كان جزء مني يتمنى بحماقة، أنها لن تتبعنا هنا. أن الحزن من شأنه أن يبقيها بعيداً، أو أن تبقى على مسافة.

لكنهم بالطبع لم يفعلوا. شاطئ الأناضول لم يكن أكثر إزعاجاً من شاطئ اليونان. وحزنها فقط جعل زياراتها تستمر لفترة أطول. يغادر عند الفجر، وتكون الشمس تقريباً في ذروتها قبل أن يعود. فانتظر، مسرع الخطى ومشوش. ما الذي يمكن أن تقوله له في هذه الفترة الطويلة؟ خشيت أن تكون بعض الكوارث الإلهية. بعض الأوامر السماوية التي ستأخذه مني.

جاءت برسيس في كثير من الأحيان لتنتظر معي. "هل ترغب في السير إلى الغابة؟" تقول. مجرد حلاوة صوتها المنخفض، حقيقة إنها تود فعلاً أن تواسيني، أخرجتني من نفسي. ورحلة معها إلى الغابة دائماً ما تهدئني. بدت تعرف كل أسرارها، تماماً كتشيرون - أين يختبئ الفطر، وجحور الأرانب. حتى أنها بدأت تعلمني الأسماء بلغتها للنباتات والأشجار.

عندما ننتهي، كنا نجلس على قمة التل، لننظر إلى المخيم، حتى أتمكن من مشاهدته لدى عودته. في هذا اليوم، كانت قد قطفت سلة

صغيرة من الكزبرة، ورائحة الأوراق الخضراء الجديدة تفوح من حولنا.

"أنا متأكدة أنه سوف يعود قريباً"، قالت. كلماها كانت كالجلد الجديد، لا تزال صلبة ودقيقة، حتى الآن لم تجري جنباً إلى جنب عند استخدامها. عندما لم أجب، سألت، "أين يبقى هذه الفترة الطويلة؟".

لماذا ينبغي ألا تعرف؟ لم يكن سراً.

"والدته إلهة" قلت. "حورية البحر. وهو ذاهب لرؤيتها".

توقعت أن تندهش أو تذعر، لكنها فقط أومأت برأسها. وقالت "اعتقدت أنه كذلك، شيء. أنه لا -" ثم توقفت. وأضافت "أنه لا يتحرك كالبشر".

ابتسمت حينها. "وكيف يتحرك البشر؟".

"مثلك"، قالت.

"كالأخرق، إذن".

لم تكن تعرف الكلمة. فتظاهرت بذلك، مفكراً في جعلها تضحك. لكنها هزت رأسها، بشدة. "لا، أنت لست كذلك. ليس هذا ما قصدته".

ولم أسمع ما كانت تقصده، ففي تلك اللحظة بلغ أخيل ذروة التل.

"اعتقدت أنني سأجدك هنا"، قال. استأذنت برسيس، وعادت إلى خيمتها. ألقى أخيل بنفسه أرضاً على الأرض، و يده وراء رأسه.

"أنا جائع"، قال.

"هاك". وأعطيته ما تبقى من الجبن الذي جلبناه معنا طعام للغداء. فأكل منه، بامتنان.

"عن ماذا كنت تتحدث مع والدتك؟" كنت تقريباً متوتراً لأسأله. تلك الساعات معها ليست ممنوعة علي، لكنها كانت دائماً منفصلة.

زفر أنفاسه، وإلى حد ما لم تكن تنهيدة. "إنها تشعر بالقلق علي"، قال.

"لماذا؟" اغتظت من فكرة أنها خائفة عليه، هذا كان من شأني أيضاً.

"تقول أن هناك غرابة بين الآلهة، وأنهم يقتتلون مع بعضهم البعض، متحيزين للأطراف في الحرب. كانت تخشى أن الآلهة قد وعدتني بالشهرة، لكنها لم تحدد مقدارها".

كان هذا مصدر قلق جديد لم أفكر فيه. لكن بطبيعة الحال: قصصنا كان لها شخصيات عديدة. فرساوس العظيم أو بيليوس المتواضع. هيراكليس أو المنسي تقريباً هايلس. بعضها ملحمة كاملة، والبعض الآخر مجرد شطر.

جلس، ولف ذراعيه حول ركبتيه. "أعتقد أنها تخشى أن شخصاً آخر سيقتل هيكتور. قبلي".

خوف آخر جديد. حياة أخيل ستقطع فجأة لتصبح أقصر مما هي بالفعل كذلك. "من تقصد؟".

"لا أعرف. لقد حاول أياكس وفشل. ديوميديس أيضاً. إنهم الأفضل من بعدي. لا يوجد أحد آخر يمكنني أن أفكر به".

"ماذا عن مينيلوس؟".

هز أخيل رأسه. "أبداً. فهو شجاع وقوي، لكن هذا هو كل شيء. سيتهشم ضد هيكتور كماء على صخرة. لذلك. إما أنا، أو لا أحد".

"أنت لن تفعل ذلك". حاولت أن لا أجعل ذلك يبدو توسلاً.

"لا" كان هادئاً للحظة. وأضاف "لكنني أستطيع أن أرى ذلك. وهذا هو الشيء الغريب. كما في الحلم. أستطيع أن أرى نفسي أرمي الرمح، أراه يسقط. أمشي لأصل إلى جسده وأقف فوقه".

تصاعدت الرهبة في صدري. أخذت نفساً، ونفخته بعيداً. وسألت "ثم ماذا؟".

"وهذا أغرب من كل شيء. فأنا أنظر أسفل إلى دمه وأعرف أن موتي قادم. لكنني في الحلم لا أمانع. ما أشعر به، فوق كل ذلك، هو الارتياح".

"هل تعتقد أنها يمكن أن تكون نبوءة؟".

يبدو أن السؤال جعله يعود إلى وعيه. هز رأسه. "لا، أعتقد أنه لا شيء على الإطلاق. حلم يقظة".

أجبر صوتي ليتماشى مع خفة صوته. "أنا متأكد من أنك على الحق. في المحصلة، هيكتور لم يفعل أي شيء لك".

ابتسم بعد ذلك، كما كنت آمل أن يفعل. "نعم"، قال. "لقد سمعت ذلك".

خلال الساعات الطويلة من غياب أخيل، بدأت بالابتعاد عن معسكرنا، أبحث عن الرفقة، شيء يشغل نفسي.

أخبار ثيتيس قد أزعجتني؛ الخصومات بين الآلهة، شهرة أخيل العظيمة المهددة بالانقراض. لم أكن أعرف ماذا أصنع منه، وأسئلتي طاردت نفسها حول رأسي حتى أنني أصبحت نصف مجنون. كنت في حاجة إلى الهاء، شيئاً معقولاً وحقيقياً. أشار لي أحد الرجال نحو خيمة الأطباء البيضاء. "إذا كنت تبحث عن شيء لتفعله، فإنهم دائماً بحاجة للمساعدة"، قال. تذكرت يد تشيرون الصبورة، والأدوات المعلقة على جدران الكوارتز الوردي. فذهبت.

داخل الخيمة كان خافت، والهواء داكن وحلو ومسكي، مثقل بالرائحة المعدنية للدم. في أحد الزوايا كان الطبيب ماتشين، الملتحي، بذقنه المربعة، عملي، عاري الصدر، وغلالة قديمة مربوطة بإهمال حول

خصره. كان أغمق من معظم اليونانيين، على الرغم من الفتـــرة الـــتي يقضيها في الداخل، وقد قص شعره ليصبح قصيراً عملي، لإبعاده مـــن عينيه. انحنى الآن على ساق رجل جريحة، إصبعه يتحقق برفق من نقطة سهم مترسخة. على الجانب الآخر من الخيمة أنهى شقيقه بـــودلاريس الضخم شد درعه. رمى كلمة مرتجلة لماتشين قبل أن يحمل على عاتقه متجاوزني خارجاً مع الباب. كان من المعروف جيداً أنه يفضل ســـاحة المعركة على خيمة الجراح، على الرغم من أنه يخدم في كليهما.

لم يرفع ماتشين رأسه وهو يتحدث: "لا يمكن أن تكون جـــريح جداً إذا كنت تستطيع أن تقف لفترة طويلة".

"لا"، قلت. "أنا هنا"، وتوقفت بينما جاء رأس الســـهم حـــر في أصابع ماتشين، والجندي تأوه بارتياح.

"حسناً؟" كان صوته مثل الأعمال التجارية ولكن ليس قاس.

"هل تحتاج إلى مساعدة؟".

أصدر ضجيجاً خمنت أنها موافقة. "اجلس وامسك المـــراهم لي"، قال، دون أن ينظر. أطعت، جامعاً الزجاجات الصغيرة المتناثرة علـــى الأرض، بعضها صاخباً بالأعشاب، والبعض ثقيلة بـــالمرهم. شممتـــها وتذكرت: الثوم و العسل مرهم ضد العدوى، الخشـــخاش للتخـــدير، والقيصوم لجعل الدم يتخثر. دزينة من الأعشاب التي جلبـــت أصـــابع السنتور الصبورة تعود لي، الرائحة الخضراء العذبة للكهف الوردي.

أمسكت خارجاً بتلك التي يحتاجها وشاهدت تطبيقه المـــاهر – يضع قبضة من المسكن على الشفة العلوية حتى الأنف للرجل ثم أخبره ليقضمها، ثم وضع مسحة من المرهم لدرء العدوى، ثم ضمدها لحزمها وربطها وتغطيتها. مهد ماتشين الطبقة الأخيرة من المرهم، تعبق برائحة شمع العسل على ساق الرجل، ثم نظر إلى أعلى بضجر.

"باتروكلوس، نعم؟ وقد درست مع تشيرون؟ مرحباً بك هنا".

تصاعد اللغط خارج الخيمة، وتعالت الأصوات وصرخات الألم. أومأ تجاهها. "لقد جلبوا لنا واحد آخر، خذه أنت".

الجنود، رجال نيستور حاملين زميلهم إلى النقالة الفارغة في ركن الخيمة. كان قد أطلق عليه سهم، بطرفه الشائك، خلال الكتف الأيمن. كان وجهه مزبد بالعرق - رغوة، وقد عض شفته تقريباً للنصف محاولاً أن لا يصرخ. جاءت أنفاسه الآن مكتومة، نبضاته متفجرة، وقد تدحرجت عينيه مذعورة ومرتعدة. قاومت رغبة لنداء ماتشين - كان مشغول مع رجل آخر كان قد بدأ بالعويل - مددت يدي لقطعة قماش لأمسح وجهه.

السهم كان نافذ خلال الجزء السميك من كتفه نصفه في الداخل ونصفه الآخر في الخارج، مثل إبرة مريعة.

سأضطر لكسر ريشة السهم وسحب النهاية من خلاله، دون المزيد من التمزيق للحم أو ترك شظايا قد تتفاقم.

بسرعة، أعطيته الخليط الذي كان تشيرون قد علمني إياه: مزيج من الخشخاش وقشرة الصفصاف التي تجعل المريض يشعر بالدوخة ويقلل الألم. لم يستطع الإمساك بالكأس، لذلك أمسكته له، فرفعته واحتضنت رأسه حتى لا يختنق، شاعراً بعرقه ورغوته ودمه تتسرب إلى سترتي.

حاولت أن أبدو مطمئناً، أن لا أظهر الهلع الذي كنت أشعر به. كان، كما رأيت، يكبرني بعام أو نحو ذلك. أحد أبناء نيستور، أنتيلوتش، شاب حلو الوجه شغف بحب والده. "ستكون على ما يرام"، قلت، مراراً وتكراراً، لنفسي، أو له، لم أكن أعرف.

المشكلة كانت برمح السهم؛ عـــادة الطبيــب يقضـم أحـد الأطراف، قبل سحبه من خلاله. لكن لم يكن هناك ما يكفـي مـن العصا الخارجة من صدره للقيام بذلك دون تمزيق المزيد من اللحم. لم أستطع تركه، ولا أن اسحب الريش من خلال الجرح. مـاذا بعـد ذلك؟

ورائي وقف أحد الجنود الذين كانوا قد أحضـروه في المـدخل. أومأت له من فوق كتفي.

"سكين، بسرعة. أحدّ ما يمكنك أن تجـد". أدهشـت نفسـي بالسلطة التي انتعشت في صوتي، والطاعة الفورية التي استحثتها. عـاد بشفرة قصيرة ناعمة مسنونة تستخدم لتقطيع اللحوم، لا تزال صـدئه بالدم الجاف. نظفها على سترته قبل أن يسلمها لي.

كان وجهه الصبـي مسترخي الآن، لسانه يتخبط رخو في فمه. ملت عليه وأمسكت بمقبض السهم، ساحقاً ريش السـهم في كفـي الرطبة. بيدي الأخرى، بدأت أنشر، أقطع خلال الخشب مفتت إيـاه، بخفة قدر الإمكان، حتى لا يهتز كتف الصبـي. شخر وتمتم، ضائع في ضباب الخليط.

نشرت ثم قبضت ثم نشرت. آلمني ظهري، ووبخت نفسي لتركي رأسه على ركبتي، لعدم اختيار وضعية أفضل.

أخيراً قطعت نهاية ريش السهم، تاركاً فقط شظية واحدة طويلـة سرعان ما استخرجتها أخيراً بالسكين.

ثم، بمثل صعوبة: سحب المقبض الجانب الآخر من كتفه. في لحظة إلهام، أمسكت مرهم العدوى وطليت الخشب به بعناية، على أمـل أن يخفف الرحلة ودرء للتعفن. ثم، قليلاً قليلاً، بدأت بسحب السهم مـن خلاله. بعد ما شعرت أنه ساعات، ظهرت نهاية الشـظية، منقوعـة

بالدماء. بأخر خيوط ذكائي، لففت وحشوت الجرح، مضـمد إيـاه بنوع من الحبال عبر صدره.

في وقت لاحق، أخبرني بودلاريس بأنني كنت مجنوناً لفعـل مـا فعلت، لقطع ذلك ببطء، بمثل تلك الزاوية - وجع جيد، قال، والنهاية ستكون قد انكسرت. جرح متنافر وشظايا ملعونة في الداخل، هنـاك رجال آخرين هم في حاجة إلى العناية. لكن ماتشين رأى كيف التئمت الكتف جيداً، مع عدم وجود عدوى والقليل من الألم، وفي المرة القادمة التي يكون فيها هناك جرح سهم كان يناديني ويمرر لي شفرة حـادة، ناظراً لي بترقب.

كان وقتاً غريباً. فوقنا، في كل ثانية، تدلى الرعب مـن مصـير أخيل، في حين تصاعد لغط الحرب بين الآلهة. لكن حتى أنا لا يمكـنني أن أملأ كل دقيقة بالخوف. سمعت أن الرجال الذين يعيشون بـالقرب من الشلال يتوقفون عن سماعه - بمثل هذه الطريقة تعلمت أن أعـيش بجانب السيل المتسارع لموته. مرت الأيام، وعاش. مرت الشـهور، و أصبح بإمكاني أن أذهب ليوم كامل دون أن أنظر فوق حافـة موتـه. معجزة لسنة، ثم اثنين.

بدا أن الآخرين يشعرون بألفة مماثلة. بدأ معسكرنا يشكل نـوع من العائلة، يجتمعون معاً حول لهيب نار عشاء.

عندما يرتفع القمر والنجوم تخز ظلمة السماء، سوف نجد جميعنا طريقنا إلى هناك: أخيل وأنا، والعجوز فيونكس، ثم النساء - الـلاتي كن في الأصل فقط برسيس، لكن الآن أجمة صـغيرة مـن الوجـوه المتمايلة، مطمئنين للترحيب الذي استقبلت به. لا يزال هناك واحـد أكثر - اوتومودن، أصغرنا سناً، فقط سبعة عشر. كان شاباً هادئـاً، كنت وأخيل قد شاهدنا قوته ورشاقته تنمو بينما هو يـتعلم قيـادة

خيول أخيل الصعبة، بالعجلات في جميع أنحاء ساحة المعركة مع ما يلزم من التباهي.

كان من دواعي سروري أنا وأخيل أن نستضيف موقدنا الخاص، نلعب دور الكبار الذي لم نشعر به تماماً، نمرر اللحم ونسكب النبيذ. وحينما تنطفئ النار، فإننا نمسح عصير الوجبة من وجوهنا ونطالب بصخب لقصص فيونكس. يميل إلى الأمام في مقعده مجبراً. ضوء النار يجعل عظام وجهه تبدو معبرة، شيء قد يحاول العراف أن يقرأه.

برسيس حكت لنا القصص أيضاً، غريبة وخيالية- حكايات من سحر، آلهة متقن للسحر والبشر الذين يتخبطون بهم من غير قصد، كانت الآلهة غريبة، نصف رجل ونصف حيوان: آلهة ريفية، وليست الآلهة السامية التي تعبدها المدينة. كانت هذه الحكايات جميلة، محكية بصوتها الرخيم المنخفض. في بعض الأحيان كانت مضحكة أيضاً، محاكاتها للعملاق، أو لشخير أسد تسعى خلف رجل مختبئ.

في وقت لاحق، عندما كنا لوحدنا، فإن أخيل يكرر مقتطفات قليلة منها، رافعاً صوته، عازفاً بعض النوتات على القيثارة. من السهل أن ترى كيف يمكن أن تصبح مثل هذه الأشياء الجميلة أغاني. وكنت مسروراً، لأنني شعرت أنه رآها، وفهم لماذا أقضي أيامي معها عندما يذهب. كنت أفكر أنها واحدة منا الآن. عضواً في دائرتنا، للحياة.

كانت واحدة من هذه الليالي حينها سألها أخيل ماذا كانت تعرف عن هيكتور.

كانت تميل على يديها إلى الوراء، وقد بان اللحم الداخلي لمرفقيها تدفئه النار. لكن على صوته، جفلت قليلاً وجلست. لم يكن يتحدث إليها مباشرة في كثير من الأحيان، ولا هي له. بقايا، ربما، لما حدث في قريتها.

"أنا لا أعرف الكثير"، قالت. "أنا لم أره، ولا أي أحد من عائلة بريام".

"لكنك كنت قد سمعت أشياء". قال أخيل وقد جلس الآن إلى الأمام بدوره.

"قليلاً. أنا أعرف أكثر عن زوجته".

"أي شيء"، وقال أخيل.

أومأت برأسها، وأجلت حلقها بهدوء كما تفعل غالبا قبل القصة. "اسمها أندروماش، وهي الابنة الوحيدة للإيشن ملك كيليكيا. يقال أن هيكتور أحبها فوق كل شيء". وأضافت "شاهدها للمرة الاولى عندما جاء إلى مملكة والدها لجمع الجزية. فرحبت به، ورفهت عنه في المأدبة ذلك المساء. في نهاية الليل، طلب هيكتور يدها للزواج من والدها".

"لا بد أن تكون جميلة جداً".

"يقول الناس أنها جميلة، لكن ليس أجمل فتاة قد يجدها هيكتور. عرفت بسجيتها الحلوة وروحها اللطيفة. أحبها الشعب لأنها غالبا ما تجلب لهم الطعام والملابس. كانت حاملاً، لكنني لم أسمع ما أصبح عليه الطفل".

"أين هي كيليكيا؟" سألت.

"إنها إلى الجنوب، على طول الساحل، ليست بعيدة من هنا بالحصان".

"قريبة من يسبوس"، قال أخيل. فأومأت برسيس.

في وقت لاحق، عندما ذهب البقية، قال: "لقد أغرنا على كيليكيا. هل تعلم ذلك؟".

"لا".

أومأ برأسه. "أتذكر ذلك الرجل، إيشن. كان لديه ثمانية أبناء. حاولوا التصدي لنا".

يمكنني أن أعرف من هدوء صوته.

"أنت قتلتهم". العائلة بأكملها، مذبوحة.

قبض على النظرة في وجهي على الرغم من أنني حاولت إخفاءها. لكنه لم يكذب علي، أبداً.

"نعم".

كنت اعرف أنه يقتل الرجال كل يوم، يعود إلينا مبتل بدمائهم، ملطخاً ببقعها التي ينظفها من جلده قبل العشاء. لكن هناك لحظات، مثل الآن، عندما تغمرني تلك المعرفة.

عندما أفكر في كل الدموع التي كان قد ذرفها، في كل السنوات التي مرت. والآن أندروماش، أيضاً، وحزن هيكتور بسببه. بدا يجلس عبر العالم مني حينها، على الرغم من أنه كان قريباً جداً، يمكنني أن أشعر بدفء يرتفع من جلده. كانت يداه في حضنه، متصلبة من الرماح لكنها لا تزال جميلة. لا يدين كانت لطيف جداً، أو مميتة جداً.

فوق رؤوسنا، حجبت النجوم. يمكنني أن أستشعر ثقل الهواء. ستكون هناك عاصفة هذه الليلة. سيبللنا المطر، سيملأ الأرض حتى تتفجر طبقاتها. سيتدفق إلى أسفل من قمم الجبال، جارفاً بقوته كل ما يقف في طريقها: الحيوانات و البيوت والرجال.

فهو سيكون مثل الفيضانات، اعتقدت.

اخترق صوته صمت أفكاري. "تركت ابن واحد على قيد الحياة"، قال. "الابن الثامن. لئلا يموت خط عائلتهم".

غريب أن مثل هذا اللطف الصغير شعرت به كنعمة. حتى الآن، ما من محارب آخر قد يفعل مثله؟ قتل عائلة كاملة كان شيء يُتباهى به، عمل مجيدة يثبت أنك قوي بما فيه الكفاية لمسح اسم من على وجه

الأرض. هذا الابن الناجي سيكون لديه أطفال، سوف يعطيهم اسم عائلته ويروون قصصهم. سيحافظ عليهم، في الذاكرة إن لم يكن في الحياة. "أنا سعيد" قلت، وقلبي ممتلئ.

أصبح الحطب أبيض مترمد في النار. "الغريب"، قال. "لقد قلت دائماً أن هيكتور لم يفعل شيء ليسيء لي به.

لكن لا يمكنه أن يقول الشيء نفسه، الآن".

الفصل الرابع والعشرون

مرت السنوات وبدأ أحد جنود أياكس يتذمر من طول فترة الحرب. في البداية تم تجاهله؛ كان الرجل قبيح مخيف و معروف أنه وغد. لكنه ازداد طلاقة. أربع سنوات، قال: و لم يظهر شيء. أين الكنز؟ أين المرأة؟ متى سنغادر؟ ضربه أياكس بقوة على رأسه، لكن الرجل لم يسكت. انظر كيف يعاملوننا؟

ببطء، انتشر سخطه من معسكر إلى التالي. كان موسماً سيئاً، رطب بصفة خاصة، وتعيس للقتال. كثرت الإصابات، الطفح الجلدي والكواحل الموحلة والالتهابات. وقد استقر الذباب اللاسع غزيراً على أجزاء من المخيم فبدا مثل سحب الدخان.

بوجوه متجهمة مخدوشة، بدأ الرجال يتلكؤون حول أغورا. في البداية لم يفعلوا شيئاً لكن تجمعوا في مجموعات صغيرة، يتهامسون. ثم انضم إليهم الجندي الذي كان قد بدأ ذلك، فتصاعدت أصواتهم.

أربع سنوات!

كيف نعرف حتى أنها هناك؟ هل رآها أي شخص؟

طروادة لن تستسلم لنا أبداً.

يجب علينا جميعاً أن نوقف القتال.

عندما سمع أجاممنون بذلك، أمرهم بجلدهم. في اليوم التالي كان هناك ضعف عددهم، أكثر من القليل منهم كان من رجاله الميسينيين. أرسل أجاممنون قوة مسلحة لتفريقهم، فانسل الرجال، ثم عادوا عندما ذهبت القوة. كإجابة، أمر أجاممنون كتيبة لحراسة أغورا كل يوم. لكن

هذا كان واجباً محبطاً تحت الشمس المحدقة، حيث يتكاثر معظم الذباب. بحلول نهاية اليوم، كانت الكتيبة ممزقة من فرار أفرادها وعدد المتمردين يتضخم. استخدام أجاممنون الجواسيس ليبلغوا عن أولئك المتذمرين؛ بعد ذلك تم ضبط هؤلاء الرجال وجلدهم. في صباح اليوم التالي، رفض عدة مئات من الرجال القتال. أعطى بعضهم المرض كعذر، وبعضهم لم يعطى أي عذر على الإطلاق. استغرق انتشر الخبر، والمزيد من الرجال مرضوا فجأة. ألقوا سيوفهم ودروعهم على المنصة في كومة وسدوا أغورا.

عندما حاول أجاممنون شق طريقه خلالهم بالقوة، قاموا بطي أذرعتهم و لم يتزحزحوا.

عصيان في أغورا خاصته، بدأ الأحمر يشيع في وجه أجاممنون، ثم أصبح أكثر احمرارا. شحبت أصابعه بيضاء على الصولجان الذي تمسك به، خشب متين مطوق بالحديد. وعندما بصق الرجل أمامه على قدميه، رفع أجاممنون الصولجان وانقض على رأسه بحدة. كلنا سمعنا فرقعة تكسر العظام. ثم سقط الرجل.

لا أعتقد أن أجاممنون قصد أن يضربه بهذه القوة. بدا متجمداً، يحدق في الجسد المتكوم عند قدميه، غير قادر على التحرك. ركع رجل أخر ليقلب الجسد، فتدحرجت نصف جمجمته بعيدا من قوة الضربة. هسهست الأخبار خلال الرجال بصوت كهشيم النار. العديد سحبوا سكاكينهم. سمعت أخيل يدمدم بشيء، ثم ذهب من جانبي. امتلأ وجه أجاممنون بالإدراك المتزايد لخطأه. وكان قد غادر بتهور حراسه الأوفياء وراءه.

لقد كان محاطاً الآن؛ والمساعدة لا يمكن أن تصل إليه حتى لو أرادت. حبست أنفاسي، متأكد أنني على وشك أن أراه يموت.

"رجال اليونان!".

تحولت الوجوه المشدوهة إلى الصراخ. وقف أخيل فوق كومة الدروع على المنصة. بدا بطلاً بكل شبر فيه، جميل وقوي، ووجهه جاد.

"أنتم غاضبون"، قال.

فشد انتباههم. كانوا غاضبين. كان أمر غير اعتيادي لجنرال أن يعترف بأن قواته قد تشعر بشيء من هذا القبيل.

"تحدثوا بشكواكم"، قال.

"نريد أن نغادر!" جاء صوت من الجزء الخلفي من الحشد. "هذه حرب ميؤوس منها!".

"الجنرال كذب علينا!".

صدرت غمغمة متلاطمة من أجاممنون.

"لقد انقضت أربع سنوات!" وكان هذا الأخير غضب الجميع. أنا لا يمكنني لومهم. فيما يتعلق بي هذه الأربع سنوات كانت فيض، الوقت الذي انتزع من أيدي الأقدار البخيلة. لكن فيما يتعلق بهم كانت حياة مسروقة: من أطفالهم وزوجاتهم، من العائلة والمنزل.

"من حقكم التساؤل عن مثل هذه الأشياء" قال أخيل. "أنتم تشعرون أنكم مضللون؛ كنتم موعودين بالنصر".

"نعم!".

لمحت وجه أجاممنون، يتخثر بالغضب.

لكنه كان عالقاً في الحشد، غير قادر على تحرير نفسه أو التحدث دون التسبب بثورة غضب.

"أخبروني"، وقال أخيل. "هل تعتقدون أن أريستوس أشن/ أخيون سيقاتل في حرب ميؤوس منها؟".

لم يجب الرجال.

"حسنا؟".

"لا"، قال أحدهم.

أومأ أخيل برأسه، بوجه كالح. "لا، لن أفعل، وأنا أقسم بذلك على أي يمين. أنا هنا لأنني أعتقد أننا سنفوز. وسأبقى حتى النهاية".

وأضاف: "هذا شأنك". صوت مختلف. "لكن ماذا عن أولئك الذين يرغبون في الذهاب؟".

فتح أجاممنون فمه ليرد. يمكنني أن أتصور ماذا كان سيقول. لن يغادر أحد! الفارون سوف يعدمون!

لكنه كان محظوظاً أن أخيل كان أسرع.

"أنتم مرحباً بكم لتغادروا وقتما شئتم".

"نحن كذلك؟" كان الصوت متشكك.

"بالطبع". وتوقف هنيهة، راسما أكثر ابتساماته براءة، وودية. وأضاف "لكنني سأحصل على حصتكم من الكنز عندما نستولي على طروادة".

شعرت أن التوتر في الهواء قد تلطف، وسمعت بعض تكشيرات الضحك الممتنة. تحدث الأمير أخيل عن كنز يفوزون به، وحيث يكون هناك جشع يكون هناك أمل.

رأى أخيل التغيير في نفوسهم. وقال: "لقد حان الوقت لنستولي على الميدان. سيبدأ الطرواديين بالاعتقاد أننا خائفون". فسحب سيفه وشهره في الهواء. "من يجرؤ على أن يبرهن لهم خلاف ذلك؟".

تعالت صيحات الموافقة، يليها صوت قعقعة عام بينما يستعيد الرجال دروعهم، ويمسكون برماحهم. رفعوا القتيل و حملوه؛ اتفق

الجميع أنه كان دائماً مصدر إزعاج. قفز أخيل من المنصة أرضاً ومر بأجاممنون بإيماءة رسمية.

لم يقل ملك ميسيناي شيئاً. لكنني راقبت عينيه تتبع أخيل لفترة طويلة بعد ذلك.

في أعقاب - التمرد تقريباً، وضع أوديسيوس مشروع للحفاظ على الرجال مشغولين جداً لتفادي مزيد من الاضطرابات: سور عملاق، يبنى حول المخيم بأكمله. عشرة أميال، أراد البدء فيه، حماية لخيامنا وسفننا من السهل وراءنا. وعند قاعدته سوف تحفر خندق، مليئة بالمسامير.

عندما أعلن أجاممنون عن المشروع، كنت متأكداً أن الرجال سيعرفون أنها كانت حيلة. في كل سنوات الحرب، لم يكن المخيم ولا السفن في خطر أبداً، مهما كانت الإمدادات العسكرية التي جاءت. وفوق كل شيء، من هذا الذي يستطيع أن يتجاوز أخيل؟

لكن حينها تقدم ديوميديس إلى الأمام، مشيداً بالخطة ومثيراً لرعب الرجال برؤى المداهمات الليلية وحرق السفن.

هذه الأخيرة تحديداً كانت فعالة - من دون السفن، فإننا لم نتمكن من العودة إلى ديارنا ثانية. بحلول نهاية الأمر، كانت أعين الرجال مشرقة وتواقة. ذهبوا مرحين إلى الغابة مع فؤوسهم الصغيرة ومسحاتهم، ثم وجد أوديسيوس مسبب المشكلة الأصلي الجندي - كان اسمه ثيرسايت، وضربه بهدوء حتى أفقده الوعي. وتلك كانت نهاية التمرد في طروادة.

تغيرت الأمور بعد ذلك، سواء بسبب المشروع المشترك للجدار أو بسبب الارتياح لإبعاد العنف. كلنا، بدأنا من أدنى رتبة للجندي إلى الجنرال نفسه، بالتفكير في تروي كنوع من الديار. أصبح غزونا

احتلال. قبل الآن كنا قد عشنا ننبش النفايات من الأرض والقرى التي هبناها. الآن بدأنا في البناء، ليس فقط الجدار، لكن كـــل مـــا يتعلـــق بالبلدة:

كير حداد، وحظيرة للماشية التي سرقناها من المزارع المجـــاورة، حتى سقيفة خزاف. هذه الأخيرة، الحرفيين الهواة جاهدوا لاســـتبدال السيراميك المكسور الذي كنا قد أحضرناه معنا، معظمهم يســـرب أو كسر من الاستخدام القاسي في المخيم. كل شيء كنا نملكه الآن كان مؤقتاً، مستعار، بعد أن عشنا على الأقل حياتين من قبل كشيء آخر. فقط قوات الملك المدرعة الشخصية بقيت كما هي، بشاراتها المصقولة النقية.

الرجال أصبحوا أيضاً أقل مثل عشرات الجيوش المختلفة، وأكثـــر مثل مواطنيه. هؤلاء الرجال، الذين غادروا أوليس ككريتيين وقبارصة وآرغوسين، كانوا الآن ببساطة إغريـــق - يصـــبون في نفـــس قـــدر الاختلاف عن طروادة، يتقاسمون الغذاء والنساء والملابـــس وقصـــص المعركة، أصبحت الفروق بينهم ضبابية بعيدة. تباهى أجاممنون بتوحيد اليونان لم يكن فارغ بعد كل شيء. حتى بعد سنوات هذه الصـــداقة الحميمة ستبقى، شعور الرفيق غير معهود لممالكنا الشرسة المتحاربـــة. لمدة جيل واحد، لن يكون هناك حروب بين أولئك الـــذين قـــاتلوا في طروادة منا.

حتى أنا لم أكن استثناء. خلال هذا الوقت - ستة، سبع سنوات التي قضيت فيها ساعات أكثر وأكثر في خيمة ماتشين و أقل مـــع أخيـــل في الميدان - تعرفت فيها على الرجال الآخرين جيداً. كل شخص في النهايـــة وجد طريقه إلى هناك، أقلها من أجل أصابع محطمة أو أظافر مغروســـة في اللحم. حتى اوتومودن جاء، مغطياً بقايا نـــزيف لدمل اجتاحـــت يـــده.

شغف الرجال حباً بجواريهم وأحضروهم لنا ببطون منتفخة. فولدنا أطفالهم بثابت، مع تيار صراخهم، ثم أصلحنا آلامهم وهم يكبرون.

ولم تكن مجرد جندية مشتركة: مع الوقت، لقد عرفت الملوك كذلك. نيستور مع شراب حلقه، بالعسل الدافئ، الذي يطلبه في نهاية اليوم؛ مينيلوس والأفيون الذي يتناوله من أجل صداعه؛ معدة أياكس الحمضية. حرك مشاعري أن أرى مقدار ثقتهم في، وجوههم المليئة بالأمل تلتفت تجاهي طلباً للراحة، فأصبحت أودهم، بغض النظر عن مدى صعوبتهم في المجلس.

طورت سمعتي ومكانتي في المخيم. لقد طُلبت، لما عرف عن سرعة يدي وكيف لا أسبب سوى القليل من الألم.

أقل فأقل غالباً ما أخذ بودلاريس دوره في الخيمة - كنت من يتواجد هناك عندما يغيب ماتشين.

لقد بدأت أفاجئ أخيل، عندما أحيي هؤلاء الرجال ونحن نمشي خلال المخيم. لقد أثلج صدري دائماً بالكيفية التي يرفعون فيها أيديهم كرد في المقابل، مشيرين إلى ندبة التئمت جيداً.

بعد أن يختفون، يهز أخيل رأسه متعجباً. "أنا لا أعرف كيف تتذكرهم كلهم. أقسم أنهم يبدون لي متشابهين".

فأضحك مشيراً إليهم مرة أخرى. "هذا سيثسينلس، قائد عربة ديوميديس. وهذا بادرشيس، الذي كان شقيقه أول من يموت، هل تذكر؟".

"هناك الكثير منهم"، قال. "سيكون الأمر أبسط إذا هم فقط تذكروني".

بدأت الوجوه حول موقدنا تتناقص، امرأة تلو الأخرى، وقد اتخذن بهدوء أحد المرميدونيون كحبيبها، ثم زوجها.

لم يعدن بحاجة إلى نارنا، لديهم نارهم الخاصة بهم. كنا سـعداء. تعالت الضحكات في المخيم، وأصوات المتعة في الليل، وحتى البطون المنتفخة - ابتسم المرميدونيون لها برضى - كانت أشياء رحبنا بها، الغرزة الذهبية لسعادهم كحدود نُحتت حولنا.

بعد مرور الوقت، لم يعد سوى برسيس فقط. لم تتخذ قط حبيباً، على الرغم من جمالها والعديد من المرميدونيون الذين لاحقوها. بـدلاً من ذلك أصبحت نوعاً ما عمة - امرأة مع حلويات وجرعـة حـب وقماش ناعم لتجفيف العينين.

هكذا كنت أفكر بنا، عندما أتذكر ليالينا في طروادة: أنا وأخيـل بجوار بعضنا البعض، وفيونكس يتسم، واوتومودن يتمتم خلال مجموعة خطوط النكات، وبرسيس بعينيها السرية والسريعة، تسفك الضحكات.

استيقظت قبل الفجر وشعرت بأول وخزة بـاردة للخريـف في الهواء. كان يوم مهرجان، لحصاد باكورة الفاكهة للآلهة أبولو. كـان أخيل دافئ بجانبـي، جسده العاري مثقل بالنوم. الخيمة مظلمة جداً، لكنني كنت ببساطة أستطيع أن أرى ملامح وجهـه، فكـه القويـة والمنعطفات اللطيفة لعينيه. أردت أن أوقظه وأرى تلك العيون مفتوحة. كنت قد رأيتها ألف ألف مرة، لكنني لم أملها أبداً.

انـزلقت يدي بخفة فوق صدره، تمسد العضلات أسـفلها. لقـد اكتملت قوانا الآن، من الأيام التي أمضـيناها في الخيمـة البيضـاء وفي الميدان، بل يصدمني أحياناً حينما ألمح نفسي. لقد بدوت كرجل، عريض كما كان والدي، على الرغم من ذلك كنت أصغر حجماً منه بكثير.

ارتعش تحت لمساتي، وشعرت بالرغبة تطغى علي. رميت الأغطية لأتمكن من رؤيته كاملاً. انحنيت وضغطت فمي على فمه، في قـبلات ناعمة زحفت حتى أسفل بطنه.

استرق الفجر النظر خلال باب الخيمة، مضيئاً الغرفة. رأيت اللحظة التي استيقظ فيها وعرفني. انزلقت أطرافنا الواحد على الآخر، على مسارات تتبعناها مرات عديدة من قبل، وحتى الآن لم تصبح قديمة.

في وقت لاحق بعد ذلك، قمنا وتناولنا إفطارنا. فتحنا باب الخيمة ليدخل الهواء، رفرف بمتعة فوق جلدنا الرطب.

خلال المدخل شاهدنا المرميدونيون يروحون جيئة وذهاباً في أعمالهم. رأينا اوتومودن يتسابق وصولاً إلى البحر ليسبح. رأينا البحر نفسه، منادياً ودافئ من صيف الشمس. يدي تجلس بحميمية على ركبته.

لم تأتِ من خلال الباب. كانت ببساطة هناك، في وسط الخيمة، حيث قبل لحظة لم يكن هناك إلا الفضاء الفارغ.

لاهثاً، انتزع يدي من حيث استراحت عليه. كنت أعرف أنها حماقة، ومع ذلك فعلتها. كانت إلهة، يمكنها أن ترانا كلما أرادت.

"أمي"، قال، في تحية.

"لقد تلقيت تحذيراً". انقطعت العبارة، مثل بومة تقضم خلال العظم. كانت الخيمة معتمة، لكن ثيتيس اتقدت باردة و مشرقة. كنت أستطيع أن أرى كل خط يشرح وجهها، كل طية متلألئة من ردائها. مرت فترة طويلة منذ أن رأيتها قريبة جداً، منذ سايروس. كنت قد تغيرت منذ ذلك الحسن. اكتسبت قوة وحجم، ولحية كانت لتنمو لو لم أحلقها بعيداً. لكنها كانت نفسها. بالطبع ستكون كذلك.

"أبولو غاضب ويبحث عن طرق للتحرك ضد الإغريق. هل سوف تضحي له اليوم؟".

"سوف أفعل"، قال أخيل. لقد راقبنا دائماً المهرجانات، نحرنا بإخلاص وشوينا الصفوة.

"يجب عليك أن تفعل"، قالت. عينيها ثابتة على أخيل، بل يبدو أنها لا تراني على الإطلاق. "المذبحة". قرباننا الأعظم، مائة رأس من الغنم أو الماشية. فقط أغنى وأقوى الرجال يمكنه تحمل مثل هذا الغلو في التقوى.

"مهما فعل الآخرون، افعل هذا. لقد اختارت الآلهة جانبين، وأنت يجب أن لا تجذب غضبهم".

سوف يستغرق الأمر منا معظم اليوم لذبحهم كلهم، ورائحة المعسكر ستصبح من المقبرة لمدة أسبوع. لكن أخيل أومأ برأسه. "أسوف نفعل ذلك"، وعد.

ضُغطت شفتيها معاً، شريحتين حمراوين كحافة جرح.

"هناك المزيد"، قالت.

حتى من دون أن تقع نظراتها على عاتقي، فقد أخافتني. تجلب عجلة العالم كله أينما ذهبت، نذر وغضب الآلهة و ألف مخاطر تلوح في الأفق.

"ماذا هناك؟".

ترددت، وعقد الخوف حلقي. ما يجعل الآلهة تتوقف لا بد أن يكون مروعاً بالفعل.

"نبوءة"، قالت. وأضافت "أن أفضل المرميدونيون سوف يموت قبل أن يمر عامين آخرين".

كان وجه أخيل ساكناً، ساكناً تماماً. "لقد عرفنا أن ذلك قادماً لا محالة".

هزت رأسها بفظاظة. "لا، النبوءة تقول أنك لن تكون على قيد الحياة عندما يحدث ذلك".

عبس أخيل. "ماذا يعني ذلك برأيك؟".

"لا أعرف"، قالت. كانت عيناها كبيرة جداً؛ السوداء بركها السوداء فُتحت كما لو كانت ستشربه، تسحبه ثانية إليها.

"أخشى أن تكون هناك حيلة". الأقدار كانت معروفة جداً بمثل هذه الأحاجي، غير واضحة حتى تسقط القطعة الأخيرة. ثم، تتضح بمرارة.

"كن يقظا"، قالت. "يجب أن تأخذ انتباهك".

"سأفعل"، قال.

لم يكن يبدو أنها تعرف أنني كنت هناك، لكن الآن عينيها وجدتني، تغضن أنفها، كما لو أن رائحة نتنة قد فاحت.

نظرت إليه ثانية. "إنه لا يستحقك"، قالت. "ولم يكن كذلك قط".

"نحن مختلفان على هذا"، أجاب أخيل. قاله كما لو أنه قد قال ذلك مرات عديدة من قبل. ربما فعل.

أصدرت ضجة ازدراء خفيضة، ثم اختفت. التفت أخيل إلي. "إنها خائفة".

"أعلم"، قلت. منظفاً حلقي، محاولاً أن أحرر كتلة الهلع التي تشكلت هناك.

"من هو أفضل من المرميدونيون، برأيك؟ إذا استبعدنا اسمي".

نظرت في ذهني خلال النقباء لدينا. فكرت في اوتومودن، الذي كان قد أصبح معاون أخيل القيم في ساحة المعركة.

لكنني لن أدعوه بالأفضل.

"أنا لا أعرف" قلت.

"هل تعتقد أنه يقصد والدي؟" سأل.

بيليوس، في منزلنا في ثيا، من قاتل مع هيراكليس وفرساوس. أسطورة عصره لتقواه وشجاعته، حتى لو لم يكن كذلك في العصور التالية. "ربما"، قلت معترفاً.

كنا صامتين لحظة. ثم قال: "أعتقد أننا سوف نعرف قريباً بما فيه الكفاية".

"إنه ليس أنت" قلت. "على الأقل لدينا هذا".

بعد ظهر ذلك اليوم أدينا التضحية التي أمرت بها والدته. والمرميدونيون بنوا مذبح حرائق عالي، أمسكت بالأوعية للدم في حين حز أخيل العنق بعد العنق. شوينا اقطع الأفخاذ الغنية بالشعير والرمان، وسكبنا أفضل النبيذ لدينا على الجمر. لقد قالت أن أبولو غاضب. واحد من أقوى الآلهة لدينا، بسهامه التي يمكن أن توقف قلب الرجل، سريعة كأشعة الشمس. لم أعرف بتقواي، لكن في ذلك اليوم هللت لأبولو بشدة يمكنني بها أن أنافس بيليوس نفسه. وأيا كان أفضل المرميدونيون، أرسلت للآلهة صلاة من أجله أيضاً.

سألتني برسيس أن أعلمها التطبيب ووعدت في المقابل أن تعلمني الأعشاب في المنطقة، وقد تضاءلت الحاجة إلى معدات ماتشين. وافقت، وأمضيت راضياً أيام كثيرة معها في الغابة، مبعداً الفروع الدانية المعلقة، لأصل إلى تحت الجذور المتعفنة للفطر مرهفة وناعمة كأذن الطفل.

أحيانا في تلك الأيام تلامس يدها يدي بطريق الخطأ، فتتطلع إلى أعلى وتبتسم، قطرات الماء متعلقة بأذنيها وشعرها كاللؤلؤ. تنورتها الطويلة مربوطة بطريقة عملية حول ركبتيها، كاشفت عن ثبات ورسوخ قدميها.

في أحد هذه الأيام توقفنا لتناول الغداء. فككنا القماش الملفوف على الخبز والجبن، شرائح من اللحم المجفف، وماء غرفناه بأيدينا من

النبع. كان الربيع، وكنا محاطين بخصوبة الأناضول الكثيفة. على مدى ثلاثة أسابيع ستصبغ الأرض نفسها بكل لون، مفجرة كل برعم، وتفض كل بتلة مشاغبة. حينها، تتدفق فورتها الوحشية من الإثارة، ثم تستقر في عمل مستمر للصيف. كان وقتي المفضل من السنة.

كان يجب أن أرى هذا قادماً. ربما سوف تعتقدون أنني غبي لأنني لم أره. كنت أخبرها بقصة، شيئاً عن تشيرون كما أعتقد، وكانت هي تستمع، عينيها داكنة مثل الأرض التي جلسنا عليها. انتهيت، وكانت هادئة. وهو شيء لم يكن غير اعتيادي، فقد كانت في كثير من الأحيان هادئة. كنا نجلس بالقرب من بعضنا البعض، رأسينا معاً كما لو كنا نتآمر. يمكنني أن أشم رائحة الفاكهة التي أكلتها، يمكنني أن أشم رائحة زيت الورد الذي ضغطتها من أجل الفتيات الأخريات، لا تزال تلطخ أصابعها. كنت أعتقد أنها عزيزة جداً علي. وجهها الجاد وعينيها الذكية. تخيلتها كفتاة، كشطت من شجرة متسلقة، أطرافها النحيلة تحلق كلما ركضت. تمنيت أنني قد عرفت حينذاك، أنها كانت معي في منزل والدي، نرمي الحجارة مع والدتي. تقريباً، يمكنني تخيلها هناك، فقط تحوم على حافة ذاكرتي.

شفتيها لمست شفتي. فوجئت بذلك فلم أتحرك. كانت شفتيها لينة ومترددة قليلا. وعيناها مغلقة بعذوبة. كطبيعة، من تلقاء نفسها، افترقت شفتي. مرت لحظة كهذه، والأرض من تحتنا، والنسيم يغربل رائحة الزهور. تراجعت إلى الوراء، بعينين خفيضة، بانتظار الحكم. نبضي بدا في أذني، لكنه لم يكن يبدو كما يجعله أخيل. كان شيئاً أشبه بالمفاجأة، والخوف من أجرح شعورها. وضعت يدي على يديها.

لقد عرفت، حينها. شعرت بها في الطريقة التي أخذت بها يدها، وبالطريقة التي وقعت فيها نظرتي عليها. "أنا آسفة"، همست.

هززت رأسي، لكن لم أستطع أن أفكر في ما يمكن أن أقوله.

تسللت كتفيها إلى أعلى، مثل أجنحة مطوية. "أنا أعرف أنك تحبه"، قالت، مترددة قليلاً قبل كل كلمة. "أنا أعرف. لكنني فكرت أن - بعض الرجال لديهم زوجات وعشاق في الوقت نفسه".

بدا وجهها صغير جداً، وحزين جداً لدرجة أنني لم أستطع أن أصمت.

"برسيس"، قلت. "لو تمنيت أن اتخذ زوجة أبداً، فستكون أنت".

"لكنك لا ترغب في اتخاذ زوجة".

"لا"، قلت، بلطف قدر الإمكان.

أومأت، وخفضت عينيها مرة أخرى. كان بإمكاني أن أسمع أنفاسها البطيئة، الارتعاشة الخافتة لصدرها.

"أنا آسف" قلت.

"ألن ترغب في الأطفال أبداً؟" سألت.

فاجأني السؤال. فأنا أشعر أنني لا زلت نصف طفل، رغم أن معظم من هم في عمري أصبحوا أباء عدة مرات.

"لا أعتقد أنني أصلح كثيراً لأكون والداً" قلت.

"لا أصدق ذلك"، قالت.

"أنا لا أعرف" قلت. "هل تعتقدين ذلك؟".

سألت ذلك عرضاً، لكن يبدو أنه ضرب عميق، فترددت. "ربما"، قالت. ثم فهمت، بعد فوات الأوان، ماذا كانت تسألني حقاً. توهجت، محرجاً بعدم اكترائي. وبتواضعي أيضاً. فتحت فمي لأقول شيئاً. لأشكرها، ربما.

لكنها كانت تقف بالفعل، تنفض ملابسها. "هلا ذهبنا؟".

لم يكن هناك شيء أفعله عدا القيام والانضمام إليها.

في تلك الليلة لم أستطع التوقف عن التفكير في ذلك: برسيس وطفلي. رأيت ساقين متعثرة، شعر داكن وعيني أمه الكبيرة. رأيتنا إلى جانب النار، برسيس وأنا، والطفل، يلعب ببعض قطع الخشب التي نحتها له. حتى الآن كان هناك فراغ في المشهد، ووجع غياب. أين كان أخيل؟ ميت؟ أو لم يكن موجوداً على الإطلاق؟ لم أستطع أن أعيش في مثل هذه الحياة. لكن برسيس لم تطلب مني أن أفعل. لقد قد قدمت لي كل شيء، نفسها والطفل وأخيل، أيضاً.

تحولت لأواجه أخيل. "هل فكرت يوماً في إنجاب الأطفال؟" سألت.

كانت عيناه مغلقة، لكنه لم يكن نائم. "لدي طفل" أجاب.

يصدمني ذلك من جديد في كل مرة أتذكر ذلك. ابنه من دادميليا. صبي، كانت ثيتيس قد أخبرته، وسماه نيوتوليمس.

حرب جديدة. الملقب بيروس، لشعره الأحمر الناري. يزعجني أن أفكر به، قطعة من أخيل تجول عبر العالم.

"هل يبدو مثلك؟" كنت قد سألت أخيل ذات مرة. فهز أخيل كتفيه. "أنا لم اسأل".

"هل تتمنى أن تراه؟".

هز أخيل رأسه. "فمن الأفضل أن تربيه أمي. سيكون أفضل معها".

لم أوافق على ذلك، لكن هذا لم يكن الوقت المناسب لنقول ذلك. انتظرت لحظة، ليسألني إن كنت أرغب في إنجاب طفل. لكنه لم يفعل، وازدادت أنفاسه أكثر. كان دائماً ما يخلد للنوم قبل أن أفعل.

"أخيل؟".

"هممم؟".

"هل تحب برسيس؟".

عبس، فيما لا تزال عيناه مغلقة. "أحبها؟".

"تستمتع معها"، قلت. "أنت تعرف".

فتح عينيه، أكثر يقظة مما توقعت. "ما علاقة هذا بالأطفال؟".

"لا شيء". لكنني كنت أكذب بوضوح.

"هل ترغب هي في إنجاب طفل؟".

"ربما" قلت.

"مني؟" قال.

"لا"، قلت.

"هذا أمر جيد"، قال وجفونه تنخفض مرة أخرى. مرت لحظات، وكنت واثقاً من أنه كان نائماً. لكن بعد ذلك قال:

"منك. إنها تريد أن يكون لها طفل منك".

صمتي كان جوابه. جلس، وسقطت البطانية عن صدره. "هل هي حامل؟" سأل. كان هناك توتر في صوته لم أكن قد سمعته من قبل.

"لا"، قلت.

حفرت عينيه عيني، تنقبهم بحثاً عن الإجابات.

"هل ترغب بذلك؟" سأل. رأيت الصراع على وجهه. الغيرة كانت غريبة عليه، شيء دخيل. جرحت مشاعره، لكنه لم يعرف كيف يعبر عن ذلك. شعرت بالقسوة، فجأة، لأنني من جلب ذلك عليه.

"لا"، قلت. "أنا لا أعتقد ذلك. لا".

وأضاف: "إذا كنت ترغب بذلك، فإن الأمر سيكون على ما يرام". قيلت كل كلمة بعناية، كان يحاول أن يكون عادلاً.

فكرت بالطفل ذو الشعر الأسود مرة أخرى. وفكرت بأخيل.

"الأمر على ما يرام الآن"، قلت.

الارتياح على وجهه ملأني عذوبة.

كانت الأمور غريبة لبعض الوقت بعد ذلك. تجنبتني برسيس، لكنني دعوتها كما تعودت، وذهبنا نمشي كما اعتدنا أن نفعل دائماً. تحدثنا عن الأقاويل المخيم والأدوية. لم تذكر الزوجات، وأنا كنت حريصاً أنا لا أذكر الأطفال. ما زلت أرى الرقة في عينيها عندما تنظر إلي. بذلت قصارى جهدي لتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

ذات يوم في السنة التاسعة، تسلقت فتاة المنصة. كانـــت هنـــاك كدمة على خدها، امتدت كالنبيذ المسكوب أسفل جانب وجههـــا. رفرفت شرائط من شعرها - شرائح شعائرية ميزتها كخادمة للآلهـــة. ابنة قس، سمعت أحدهم يقول. تبادلت مع أخيل نظرة خاطفة.

كانت جميلة، على الرغم من هلعها: عيون عسلية كبيرة في وجه مستدير، شعر كستنائي ناعم طليق حول أذنيها، إطار بناتي مرهـــف. بينما شاهدناها، امتلأت عينيها، بركتين داكنتين أترعـــت مصـــارفها، منسكبة على خديها، تنحدر من ذقنها إلى الأرض. لم تمسحها بعيـــداً. وقد عقدت يديها وراء ظهرها.

بينما تجمع الرجال، رفعت عينيها، تسعى إلى السماء في صـــلاة مكتومة. حثثت أخيل، فأومأ برأسه، لكن قبل أن يتمكن من المطالبـــة بها، تقدم أجاممنون إلى الأمام. أراح يدا واحدة على كتفيهـــا النحيلـــة المنحنية. "هذا هي كرزيز" قال. "وأنا سآخذها لنفسي". ثم سحبها من المنصة، موجه إياها بفظاظة إلى خيمته. رأيت الكاهن كالشيس يقطب، فمه نصف مفتوح كما لو أنه قد يعترض. لكن بعـــد ذلـــك أغلقـــه، وأوديسيوس أنهى التوزيع.

كان بالكاد مر شهر بعدها حين جاء والد الفتاة، يمشي أســـفل الشاطئ بعصا من الخشب المرصع بالذهب، المنظومة بالأكاليل. جعـــل لحيته طويلة بأسلوب كهنة الأناضول، شعره غير مقيد لكنه مزين بقطع من الشريط تتماشى مع عصاه. ردائه مطوق بـــالأحمر والذهبـــي،

فضفاض مع قماش تصاعد وخفق حول ساقيه. وراءه، جمع تحت الكهنة مرهقون تحت ثقل وزن الصناديق الخشبية الضخمة. لم يتباطأ لخطواتهم المتعثرة لكن سار صاعداً بلا هوادة.

الموكب الصغير تحرك متجاوزاً خيام أياكس، وديوميديس، ونيستور - الأقرب إلى أغورا - ثم إلى المنصة نفسها. بحلول الوقت أخيل وأنا كنا قد سمعنا، وركضنا، ندور حول الجنود البطيئين، لقد زرع نفسه هناك، بعصاه القوية. عندما صعد أجاممنون ومينيلوس المنصة للاقتراب منه، لم يعترف بهم، فقط وقف هناك فقط فخور أمام كنزه والصناديق الثقيلة لمرؤوسيه. أجاممنون حملق بسخط وهمّ يخمن، لكنه أمسك لسانه.

أخيراً، عندما تجمع عدد كاف من الجنود، سحبوا من كل زاوية بواسطة الشائعة اللاهثة، التفت لمسحهم جميعاً بنظره، عينيه تتحرك عبر الحشد، مع الأخذ بالملوك والعامة. هبط، أخيراً، بواسطة الأبناء التوأم لأتريوس الذين وقفوا أمامه.

تكلم بصوت رنان ورزين، صنع لقيادة الصلوات. أعطى اسمه، كرزيز، وعرف عن نفسه، رافع عصاه، كأعلى كهنة أبولو. ثم أشار إلى الصناديق، ففتحت الآن لعرض الذهب والأحجار الكريمة والبرونزية التي قبضت على أشعة الشمس.

"لا شيء من هذا يخبرنا لماذا جئت، أيها الكاهن كرزيز".

كان صوت مينيلوس متزناً، لكن محدود بنفاد الصبر. الطرواديين لم يصعدوا منصة ملوك اليونان ويلقوا الخطب.

وقال: "لقد جئت لأفتدي ابنتي، كرزيز" قال. "أخذت بصورة غير مشروعة من قبل الجيش اليوناني من معبدنا. فتاة نحيلة، شابة، بشرائط في شعرها".

دمدم اليونانيين. المتوسلون الذين يسعون للافتداء يركعون ويتوسلون، لم يتكلموا كالملوك الذين يتحدثون في المحكمة. بالرغم من ذلك، كان أعلى الكهنة، غير معتاد على الانحناء لغير آلهته، ليتم العفو حينها. الذهب الذي قدمه كان سخياً، ضعف ما كانت الفتاة لتستحق، وجميل القسيس شيء لا يحتقر أبداً. تلك العبارة، غير مشروعة، كانت كحد السيف، لكننا لم نستطع أن نقول أنه أساء استخدامها. حتى ديوميديس وأوديسيوس أومأوا برؤوسهم، وسحب مينيلوس نفساً كما لو أنه سيتحدث.

لكن أجاممنون تقدم إلى الأمام، عريض كالدب، وقد التوت عضلات عنقه في غضب.

"أهكذا يتوسل الرجل؟ كنت محظوظاً لأنني لم أقتلك حيث تقف. أنا قائد هذا الجيش"، قال باصقاً. "وأنت ليس لديك الإذن لتتحدث أمام رجالي. هنا هو جوابك: لا. لن يكون هناك أي فدية. هي جائزتي، وأنا لن أعطيها الآن أو أي وقت آخر. ليس مقابل هذه القمامة، أو أي أخرى يمكنك إحضارها".

أطبقت أصابعه بشدة، على بعد بوصة فقط من حلق الكاهن. "سوف تغادر الآن، ولا تجعلني أقبض عليك في مخيمي مرة أخرى، كاهن، حتى أكاليلك لن يخلصك".

شدت فك كرزيز أسفل على نفسها، على الرغم من أنه أيا كان سبب ذلك، الخوف أو يعض كرد نحن لا نستطيع أن نقول. اتقدت عيناه بمرارة. بحدة، دون كلمة واحدة، التفت وهبط من المنصة وسار عائداً حتى الشاطئ. خلفه زحف جمع أسفل الكهنة بصناديقهم المخشخشة من الكنز.

حتى بعد أن غادر أجاممنون وانفجر الرجال في النميمة حولي، راقبت خزي الكاهن من بعيد، بمظهر متقهقر. وقد قال هؤلاء الذين

في نهاية الشاطئ أنه كان يبكي ويهز عصاه نحو السماء.

في تلك الليلة، انـــزلق بيننا كالأفعى، سريعاً وصامتاً ومتدحرجاً، بدأ الطاعون.

عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي، رأينا البغال تتـــدلى علـــى الأسوار، بأنفاس ضحلة وزبد مخاطي أصفر، وعيون زائغة. ثم بحلـــول الظهيرة كانت الكلاب تئن وتنهش الهواء، ألسنتها تزبد بغثـــاء أحمـــر مخضب. في وقت متأخر بعد الظهر، كان كل واحد من هذه الحيوانات ميت، أو يحتضر، يرتعد على الأرض وسط بركة قيء دموي.

ماتشين وأنا، وأخيل أيضاً، أحرقناهم بســـرعة حالمـــا ســـقطوا، مخلصين المخيم من أجسادهم المنقوعة الصفراء، عظامهم قعقعت ونحن نلقي بهم في المحرقة. عندما عدنا إلى المخيم في تلك الليلة، أنا وأخيـــل فركنا أنفسنا بملح البحر القاسي، ثم بالمياه النظيفة من المجرى في الغابة. نحن لم نستخدم سيموا أو سكاماندر، أنهار طروادة ذات التعرجـــات الكبيرة التي يستخدمها الرجال الآخرين ليغتسلوا فيها ويشربوا منها.

في السرير، لاحقاً، تكهنا همس متكتم، غـــير قـــادرين علـــى المساعدة لكننا استمعنا للعقد في أنفاسنا، جمع المخاط في حلوقنا. لكننا لم نسمع شيئاً إلا أصواتنا تكرر الأدوية التي علمنا تشيرون كغمغمـــة صلاة.

صباح اليوم التالي كان الرجال. عشـــرات مصـــابين بـــالمرض، مكومين حيث وقفوا، أعينهم منتفخة ورطبـــة، شـــفاههم متصـــدعة مفتوحة تنـــزف خطوط حمراء رفيعة على ذقونهم. ماتشـــين وأخيـــل وبودلاريس وأنا، وحتى، في نهاية المطاف، برسيس، ركضنا لنســـحب بعيداً كل رجل جديد يسقط - يسقطون فجأة كما لو أنهم أصـــيبوا برمح أو سهم.

على حافة المخيم حقل الرجال المرضى ازداد. عشرة، عشـــرين، ومن ثم خمسين منهم، يرتعدون، ينادون للماء، ممزقين ملابسهم طلبـــاً للراحة من النار التي يزعمون أنها تمسك بتلابيبهم. أخيراً، في الساعات اللاحقة، تتمزق بشرتهم، وتذبل كالثقوب في البطانية البالية، ثم تتمزق قيحاً و كتل دم.

وأخيراً يتوقف ارتعاشهم العنيف، ويتمددون متخبطين في مستنقع سيلهم النهائي: الإفراغ المظلم لأمعائهم، متخثرة بالدم.

بنيت وأخيل المحرقة بعد المحرقة، محرقين كل كسرة خشب يمكـــن أن نجدها. وأخيراً نبذنا الكرامة والطقوس للضرورة، و لم نرمي في كل محرقة واحد فقط، لكن كومة من الجثث. لم يكن لدينا الوقـــت حـــتى لنقف ونراقب لحمهم وعظامهم تختلط وتذوب معاً.

في نهاية المطاف انضم إلينا معظم الملـــوك - مينيلـــوس أولاً، ثم أياكس، الذي فلق الأشجار كلها بضربة واحدة، وقوداً لنار بعد النار. بينما انهمكنا في العمل، ذهب ديوميديس بين الرجال واكتشف القلائل الذين لا يزال يتمددون مستترين في خيامهم، يرتعدون مـــن الحمـــى والقيء، مخبئين من قبل أصدقائهم الذين لا يريدون، حتى الآن، إرسالهم إلى أرض الموت. أجاممنون لم يغادر خيمته.

مضي يوم آخر حينها، وآخر، وكل رفيق، كـــل ملـــك، فقـــد العشرات من الجنود. أيضاً بغرابة، لاحظت أنا وأخيل، و أيدينا تسدل الأجفان تغلقها بعد الأجفان، إن أياً منها لم يكن لملوك. فقـــط نـــبلاء ثانويون وجنود مشاة. وأياً منها لم يكن لنساء، هذا ما لاحظناه أيضاً. أعيننا تجد بعضها البعض، مليئة بالريبة الـــتي ازدادت بينمـــا الرجـــال يتساقطون فجأة بصرخة، تنشب أظافر أيديهم بصدورهم حيث ضربهم الطاعون كمقبض سهم سريع.

كانت الليلة التاسعة - من الجثث، والحرق، ووجوهنا مبقعة بالقيح. وقفنا في خيامنا نلهث من الإرهاق، متجردين من السترات التي كنا نرتديها، ورميناها جانباً للنار. قفزت شكوكنا، مؤكدة بألف طريقة، أن هذا لم يكن طاعون طبيعي، لا يزحف منتشراً بطريقة عشوائية كالأمراض. كان شيئاً آخر، مفاجئ وكارثي كشم رياح أوليس. غضب الآلهة.

تذكرنا كرزيز التقي المهان بتجديف أجاممنون، واستخفافه برموز الحرب والفدية العادلة. وتذكرنا، أيضاً، أي آلهة خدم. إله الضوء والطب والطاعون.

تراجع أخيل خارجاً من الخيمة عندما كان القمر عالي. وعاد في وقت لاحق، تفوح منه رائحة البحر.

"ماذا تقول؟" سألت، جالساً في السرير.

"تقول أننا على حق".

في اليوم العاشر للطاعون، والمرميدونيون وراءنا، سرنا حتى الشاطئ إلى أغورا. تسلق أخيل المنصة وجمع يديه لتساعد على حمل صوته بعيداً. صرخ فوق هدير المحارق ونحيب النساء وأنين المحتضرين، منادياً كل رجل في المخيم ليجتمعون.

ببطء، وتخوف، ترنح الرجال إلى الأمام، تطرف أعينهم في الشمس. بدوا شاحبين ومطاردين، خائفين من سهام الطاعون التي تنغرز في صدورهم مثل الحجارة في الماء، ناشراً عفنه كموجات في مستنقع.

شاهدهم أخيل يأتون، درعه يلتوي حوله، سيفه مشدود إلى جانبه، شعره يلمع كالماء المنسكب على البرونز المشرق.

لم يكن محظور على شخص ليس من القادة أن ينادي لاجتماع، لكنه لم يحدث قط خلال العشر سنوات التي أمضيناها في طروادة.

دافع أجاممنون الحشد بكتفيه مع الميسينين التابعين له ليصعد إلى المنصة. "ما هذا؟" أمر.

فحياه أخيل بأدب. "لقد جمعت الرجال لأتحدث إليهم عن الطاعون. هلا منحتني إذنك لأخاطبهم؟".

انحنت كتفي أجاممنون إلى الأمام بخجل نابض بالغضب، هو من كان ينبغي أن ينادي لهذا الاجتماع بنفسه منذ فترة طويلة، وقد عرف ذلك. ولا يمكنه أن يوبخ أخيل لفعل ذلك الآن، خصوصاً، ليس والرجال يراقبون. التباين بين الاثنين لم يبدو أكثر حدة من الآن: أخيل مسترخي ومسيطر، بهدوء ينفي جنائز المحارق والوجنات الغارقة؛ و أجاممنون بوجهه المشدود كقبضة بخيل، يعبس تجاهنا كلنا.

انتظر أخيل حتى تجمع الرجال، الملوك والعامة على حد سواء. ثم تقدم إلى الأمام وابتسم. "أيها الملوك"، قال:

"الأسياد، رجال ممالك اليونان، كيف يمكننا أن نخوض الحرب ونحن نموت من الطاعون؟ حان الوقت - قد فات بالفعل - أن نتعلم ما فعلناه لنستحق غضب الآلهة".

لغط وهمسات سريعة؛ كان الرجال يشتبهون بالآلهة. لم يكن كل الشر العظيم والخير مرسلة من أيديهم؟ لكن أن يسمعوا أخيل يقول ذلك علناً كان أمراً مريح. أمه كانت آلهة، وهو من شأنه أن يعرف.

سحبت شفاه أجاممنون إلى الوراء مظهرة أسنانه. وقف قريب جداً من أخيل، كما لو كان سيدفعه من فوق المنصة.

و لم يبدو أن أخيل يلاحظ ذلك. "لدينا كاهن هنا، بيننا، رجل قريب من الآلهة. لما لا نسأله أن يتكلم؟".

موجة أمل بالموافقة مرت خلال الرجال. كنت أستطيع أن أسمع صرير المعدن، قبضة أجاممنون على معصمه، الشنق المتباطئ لقفازه الملتوي.

التفت أخيل إلى الملك. "أليس هذا ما أوصيتني به، أجاممنون؟".

ضاقت عيني أجاممنون. هو لم يثق بالكرم، و لم يثق بأي شــــيء. حدق في أخيل للحظة، منتظراً الفخ. أخيراً، ناكر للجميل، قال: "نعم. هذا ما فعلته". وأومأ للميسينين بفظاظة. "أحضروا لي كالشيس".

سحبوا الكاهن إلى الأمام، خارج الحشد. كان أقبح من أي وقت مضى، مع لحيته التي لم تمتلئ تماماً، شعره الهزيل و رائحة كريهة لعرق حامض. كانت لديه هذه العادة بتمرير لسانه عبر شفاهه الممزقة قبل أن يتحدث.

"الملك السامي والأمير أخيل، أمسكتم بــــي غير مستعد. أنــــا لا أعتقد أن –" تلك العينين الزرقاء العجيب طرفت بين الرجلين. وأضاف "هذا هو، لم أكن أتوقع أنني سوف يطلب من الكلام هنا أمام الكثيرين". قال بصوت متملق ومتملص، مثل ابن عرس يهرب من العش.

"تكلم"، أمر أجاممنون.

بدا كالشيس حائراً؛ لسانه يمر على شفتيه المرة، تلو المرة.

حضه صوت أخيل الواضح. "أنت قدمت التضحيات بالتأكيــــد؟ وصليت؟".

"أنا – فعلت، بالطبع فعلت. لكن..". ارتجف صوت الكـــاهن. "أخشى أن ما سأقوله قد يغضب شخص هنا. شخص قوي ولا ننسى الإهانة بسهولة".

جثم أخيل لتصل يده إلى الكتف الكالح للكاهن الـــذي جفـــل، يمسكه بحنان. "كالشيس، أننا نموت. ليس هذا هو الوقت المناسب لمثل هذه المخاوف. ما من رجل بيننا سيمسك كلماتك ضدك؟ لن أفعـــل، حتى لو سميتني كمسبب. هل سيفعل أيا منكم؟" وتطلـــع إلى الرجـــال أمامه. فهزوا رؤوسهم.

"هل ترى؟ لا يوجد أي رجل عاقل قد يضر كاهنا أبداً".

اشتدت رقبة أجاممنون كحبال سفينة. أدركت فجأة مدى غرابة رؤيته يقف لوحده. دائماً أخيه أو أوديسيوس أو ديوميـديس كـانوا بالقرب منه. لكن أولئك الرجال انتظروا جانباً، مع بقية الأمراء.

نظف كالشيس حنجرته. "أظهرت النذر أن الإله أبولو هو الإلـه الغاضب". أبولو. عبر الاسم الحشد كمرور الريح في قمح الصيف.

طرفت عيني كالشيس تجاه أجاممنون، ثم عادت إلى أخيل. مبتلعاً ريقه. "لقد أهين، على ما يبدو، كما تقول الطوالع، تجاه معامله خادمه المتفاني. كرزيز".

تصلبت أكتاف أجاممنون.

تعثر كالشيس. "لاسترضائه، يجب أن تعاد الفتـاة كرزيـز دون فدية، والملك السامي أجاممنون يجب أن يقدم التضحيات والصلوات". توقف، شهق بآخر كلمة له فجأة، كما لو كان قد نفد منه الهواء.

وجه أجاممنون سُحق إلى بقع حمراء داكنة من الصدمة. يبدو كأن غطرسته العظيمة أو غباءه لم تجعله يخمن أنه قد يكون على خطأ، لكنه لم يكن كذلك. كان صمت عميقاً حتى شعرت أنني أسـتطيع سمـاع حبات الرمل التي تقع على بعضها البعض في أقدامنا.

"شكراً لك، كالشيس" قال أجاممنون، شق صوته الهواء. "شـكراً لك لجلبك الدائم للأخبار الجيدة. في آخر مرة كانت ابـنتي. اقتلـها، قلت، لأنك أغضبت الإلهة. والآن تسعى لإذلالي أمام جيشي".

استدار نحو الرجال، وجه يلتوي بغضـب. "ألسـت قائـدكم؟ وألست أراكم تطعمون وتكسون وتكرمون؟ وأليس رجالي الميسـينيين هم السواد الأعظم في هذا الجيش؟ الفتاة لي، أعطيت لي كجائزة، ولن أتخلى عنها. هل نسيتم من أنا؟".

توقف، كما لو أنه كان يأمل أن يصرخ الرجال لا! لا! لكـــن لا أحد فعل.

"الملك أجاممنون". تقدم أخيل إلى الأمام. كان صـــوته هـــادئ، متسلياً تقريباً. "لا أعتقد أن أي شخص قد نسي أنك قائد هذا الحشد. لكن يبدو أنك نسيت أننا ملوك ممالكنا، أو أمراء، أو رؤساء عائلاتنا. نحن حلفاء، ولسنا عبيد" أومأ عدد قليل من الرجال؛. والأكثرية كانت تود أن تفعل كذلك.

"الآن، فيما نحن نموت، أنت تشكو من فقدان الفتاة الـــتي كـــان ينبغي أن تُفتدى منذ فترة طويلة. لم تقل شيئاً عن الحيوات التي أخذها، أو الطاعون الذي بدأته".

أصدر أجاممنون ضجة من عجز عن التعـــبير، بوجـــه أرجـــواني بالغضب. رفع أخيل يده.

"أنا لا أقصد أن أهينك. أود فقط أن ننتهي من الطاعون. أرسل الفتاة إلى والدها وقم بما يجب".

تجعدت وجنات أجاممنون بحنق. "أنا أفهمك، يا أخيـــل. تعتقـــد لأنك ابن إحدى حوريات البحر إنك تملك الحق في لعب دور الأمـــير السامي أينما ذهبت. أنت لم تتعلم أبداً مكانك بين الرجال".

فتح أخيل فمه للرد.

"سوف تصمت"، قال أجاممنون، بكلمات لاذعة كالسوط. "لن تتكلم كلمة أخرى وإلا سوف تندم".

"وإلا سوف أندم؟" كان وجه أخيل ساكناً جـــداً. الكلمـــات الهادئة، كانت مسموعة من غير ريب. "أنا لا أعتقـــد، أيهـــا الملـــك السامي، أن تستطيع أن تتحمل تبعات قول مثل هذه الأشياء لي".

"هل تهددني؟" صاح أجاممنون. "ألا تسمعونه يهددني؟".

"ليس تهديداً. ما هو جيشك بدوني؟".

كان وجه أجاممنون متبلد بخبث. "أنت دائماً ما تعتقد الكثير بنفسك"، قال ساخراً. "كان ينبغي أن نتركك حيث وجدناك، تختبئ وراء تنورة أمك. تلبس تنورة بنفسك".

عبس الرجال مرتبكين، هامسين لبعضهم البعض.

اشتدت يدا أخيل في قبضة على جنبيه، بالكاد تمالك ربطة جأشه. "أنت تقول هذا لتحول الانتباه بعيداً عنك. لو لم أكن قد ناديت إلى هذا المجلس، إلى متى كنت ستدع رجالك يموتون؟ هل يمكنك أن تجيب على ذلك؟".

كان أجاممنون قد زأر عليه بالفعل. "عندما جاء كل هؤلاء الرجال الشجعان لأوليس، كانوا ركعوا ليقدموا لي ولائهم.

كلهم عداك أنت. أعتقد أننا قد تساهلنا تجاه غطرستك لمدة طويلة بما فيه الكفاية. لقد حان الوقت، وقد فات الوقت" - مقلداً أخيل - "لتقسم اليمين".

"أنا لست بحاجة لإثبات نفسي لك. أو إلى أي واحد منكم". كان صوت أخيل بارد، وقد رفع ذقنه في ازدراء. "أنا هنا بإرادتي، وأنت محظوظاً أنّ الأمر كان كذلك. أنا لست الشخص الذي ينبغي أن يركع".

لقد كان بعيداً جداً. شعرت بالرجال ينتقلون من حولي. كان أجاممنون يقبض عليه، كطائر يبتلع سمكة. "هل تسمعون غروره؟".

التفت إلى أخيل. "أنت لن تركع؟".

كان وجه أخيل جامد كالحجر. "لن أفعل".

"إذن أنت خائنا لهذا الجيش، وستعاقب كواحد. وجوائز حربك ستكون رهينة، توضع في رعايتي حتى تقدم طاعتك و خضوعك. دعونا

نبدأ بتلك الفتاة. برسيس، هذا هو اسمها؟ ستكون مثل الكفارة عن تلك الفتاة التي أجبرتني على إعادتها".

مات الهواء في رئتي.

"إنها لي" قال أخيل. سقطت كل كلمة حادة، كجزار يقطع اللحوم. "أعطيت لي من قبل جميع اليونانيين. لا يمكنك أخذها. وإذا حاولت، سأصادر حياتك. فكر في ذلك أيها الملك، قبل أن تجلب الضرر لنفسك".

جاء جواب أجاممنون سريعاً. هو لا يمكنه أبداً أن يتراجع أمام حشد من الناس. أبداً.

"أنا لا أخافك. وسوف آخذها"، وتحول إلى الميسينين التابعين له.

"أحضروا الفتاة".

من حولي كانت وجوه الملوك مصدومة. برسيس كانت جائزة حرب، تجسيد حي لشرف أخيل. بأخذها، ينفى أجاممنون كامل قدر أخيل. تمتم الرجال، وكنت آمل أنهم قد يعترضون. لكن لم يتكلم أحد.

لأنه التفت، أجاممنون لم يرى يد أخيل تمتد إلى سيفه. توقفت أنفاسي. كنت أعرف أنه قادر على هذا، طعنة واحدة خلال قلب أجاممنون الجبان. رأيت الصراع على وجهه. ما زلت لا أعرف لماذا أوقف نفسه، ربما أراد عقوبة أكبر من الموت للملك.

"أجاممنون"، قال. فجفلت من الخشونة في صوته. التفت الملك، فوضع أخيل إصبعه على صدره.

الملك السامي لم يستطع إيقاف غضبه المباغت. "كلماتك اليوم سوف تتسبب بموتك، وموت رجالك. لن أقاتل من أجلك أكثر من ذلك. من دوني، سوف يسقط جيشك. هيكتور سوف يطحنك حتى

تصبح عظام وغبار دموي، وأنا سوف أراقبك ضاحكاً. سوف تـأتي، باكياً متوسلاً الرحمة، لكنني لن أقدم لك شيء. سيموتون كلهم، أجاممنون، لما قمت به هنا".

ثم بصق، ضخمة ورطبة صفعت بين قدمي أجاممنون. كان أمامي، وتجاوزني، فالتفت مشوشاً لأتبعه، مدركاً للمرميدونيين ورائي - مئات الرجال يشقون طريقهم خلال الحشد، عاصفين نحو خيامهم.

استغرق في خطوات قوية بسرعة حتى الشاطئ. غضبه كان وهاج، نيران تندلع تحت جلده. شُدت عضلاته بشدة حتى أنني كنت خائف من لمسه، خائفاً أن تنطلق كأوتار القوس. لم يتوقف ولو لمرة واحدة حينما وصلنا إلى المخيم.

لم يلتفت ويتحدث إلى الرجال. قبض على باب الخيمة الإضافية التي تغطي بابنا ثم أطلقه وهو يمر.

فمه ملتوي، قبيح وضيق بشكل لم يسبق لي رؤيته من قبل. كانت عيناه متوحشة. "سوف أقتله"، أقسم. "سوف أقتله". أمسك الرمح وكسره إلى نصفين في انفجار للخشب. سقطت القطع على الأرض.

"كنت تقريباً سأفعل ذلك هناك". قال، "كان يجب أن أفعل ذلك. كيف يجرؤ؟" ورفس الإبريق جانباً، فتحطم على الكرسي.

"الجبناء! لقد رأيت كيف يعضون شفاههم و لم يجرؤ على الكلام. آمل أن يأخذ كل جوائزهم. آمل أن يبتلعهم الواحد تلو الآخر".

صوت، متردد، في الخارج. "أخيل؟".

"أدخل" زمجر أخيل.

كان اوتومودن لاهث ويتأتأ. "أنا آسف لمقاطعتكما. أخبرني فيونكس أن أبقى، لأتمكن من الاستماع وأخبركم بما يحدث".

"و؟" سأل أخيل.

جفل اوتومودن. "أجاممنون سئل لماذا لا يزال هيكتور حي. قال أنهم لا يحتاجون إليه. وأنك ربما لم تكن - ما تدعي أنك هو". تحطمت قبضة رمح آخر بين أصابع أخيل. ابتلع اوتومودن ريقه. "إنهم قادمون، الآن، لبرسيس".

كان ظهر أخيل لي، فلم أتمكن من رؤية وجهه. "اتركنا" قال لقائد عربته. تراجع اوتومودن بعيداً، وكنا لوحدنا.

إنهم قادمون لبرسيس. وقفت، وقد تكورت يدي. شعرت بأنني قوي، لا أتزعزع، وكأن قدمي قد اخترقت الأرض إلى الجانب الآخر من العالم.

"يجب علينا أن نفعل شيئاً" قلت. "يمكننا أن نخبئها. في الغابة أو...".

"سيدفع، الآن"، قال أخيل. كان هناك انتصار شرس في صوته. "فليأت من أجلها. لقد حكم على نفسه".

"ماذا تقصد؟".

"لا بد لي أن أتحدث إلى أمي"، وغادر الخيمة.

قبضت على ذراعه. "ليس لدينا وقت. سيكونون قد أخذوها بحلول وقت عودتك. يجب علينا أن نفعل شيئاً الآن!".

التفت. عينيه تبدو غريبة، بؤبؤها ضخم ومعتم، تبتلع وجهه. بدا أنه خارج جسده لوقت طويل.

"ما الذي تتحدث عنه؟".

حدقت في وجهه. "برسيس".

حدق ثانية. لم أتمكن من متابعة اشتعال العاطفة في عينيه. "لا أستطيع أن أفعل شيء لها"، قال أخيراً. "إذا كان أجاممنون قد اختار هذا الطريق، فلا بد له من تحمل العواقب".

كان الشعور كما لو كنت أقع في أعماق المحيط، مثقلاً بالحجارة.

"أنت لن تسمح له بأخذها".

التفت بعيداً؛ ولم ينظر إلي. "إنه اختياره. لقد أخبرته ماذا سيحدث لو فعل".

"أنت تعرف ماذا سيفعل بها".

"إنه اختياره"، كرر. "قال أنه سوف يجردني من شرفي؟ أنه سيعاقبني؟ سوف أسمح له بذلك". أضاءت عينيه بنار داخلية.

"أنت لن تساعدها؟".

"لا أستطيع أن أفعل شيء"، قال بحسم.

أمالني الدوار، كأني كنت في حالة سكر. لم أستطع الكلام، أو التفكير.

أنا لم أكن قط غاضب منه من قبل، لم أكن أعرف كيف.

"إنها واحدة منا. كيف يمكنك أن تدعه يأخذها ببساطه؟ أين هو شرفك؟ كيف يمكنك أن تدعه يدنسها؟".

ثم، فجأة، فهمت. استولى علي الغثيان. والتفت إلى الباب.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سأل.

صوتي مكشوط ومتوحش. "يجب أن أحذرها. لديها الحق أن تعرف ما الذي اخترته".

وقفت خارج خيمتها. صغيرة وبنية مخاطة بالجلود.

"برسيس"، سمعت نفسي أقول.

"ادخل!" صوتها دافئ ومسرور. لم يعد لدينا الوقت لنتحدث خلال وباء الطاعون، فيما عدا الضروريات.

في الداخل، جلست على مقعد، وفي حضنها هاون ومدقة.

رائحة الهواء تفوح برائحة جوزة الطيب بشكل حاد. ابتسمت.

شعرت بحزن يعتصرني بجفاف. كيف يمكنني أن أخبرها بما أعرف؟

"أنا –" حاولت أن أتكلم، وتوقفت. رأت وجهي، وتلاشت ابتسامتها. بسرعة، أصبحت على قدميها إلى جانبي.

"ماذا هناك؟" ضاغطة الجلد البارد لمعصمها على جبهتي.

"هل أنت مريض؟ هل أخيل على ما يرام؟" أنا مريض بالعار.

لكن لم يكن هناك مساحة لأشفق على نفسي. إنهم قادمون.

"حدث شيء"، قلت. ثقل لساني في فمي؛ كلامي لا يخرج على التوالي. "ذهب أخيل اليوم ليتحدث إلى الرجال. الطاعون هو أبولو".

"كنا نظن ذلك"، أومأت برأسها، ويدها تستريح بلطف على يدي، تواسيني. أنا تقريباً لا أستطيع أن أستمر.

"أجاممنون لم – أنه كان غاضباً. لقد تشاجر هو وأخيل. أجاممنون يريد معاقبته".

"معاقبته؟ كيف؟".

الآن هي تبصر شيء في عيني. وجهها أصبح ساكناً، منكفئاً على نفسه. باستعداد. "ماذا هناك؟".

"سيرسل الرجال. من أجلك".

رأيت لمعة ذعر، حاولت أن تخفيها. أصابعها اشتدت على يدي. "ماذا سيحدث؟".

مكتوياً بعاري، مجففاً كل عصب. إنه كالكابوس؛ أتوقع، كل لحظة، أن أستيقظ بارتياح. لكن ليس هناك يقظة.

صحيح. لقد قال أنه لن يساعد.

"أنه –" لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك.

وهو ما يكفي. لقد عرفت. قبضت يدها اليمنى على فستانها، متشققة ومسلوخة من العمل الشاق خلال التسعة أعوام الماضية.

قرضت بعض الكلمات بتأتأة أقصد بها أن أواسيها، عن كيف سوف نسترجعها، وكيف سيكون كل شيء على ما يرام. كذب، كله كذب. كلانا يعرف ما سوف يحدث لها في خيمة أجاممنون. أخيل عرف، أيضاً، وأرسلها على أي حال.

امتلأ ذهني بالكوارث والرؤيا: تمنيت الزلازل والثورات والفيضانات. فقط تلك التي تبدو كبيرة بما يكفي لتكبح غضبي وحزني. أردت أن ينقلب العالم مثل وعاء من البيض، يتهشم تحت أقدامي.

نفخ البوق خارجاً. صعدت يدها إلى خدها، لتمسح دمعها بعيداً بقوة. "اذهب"، همست. "أرجوك".

على مسافة بعيدة كان يسير رجلين نحونا صعوداً على طول امتداد الشاطئ، يرتدون الأرجواني المشرق لمخيم أجاممنون، مختومين بنذر الشر. لقد عرفتهم - تيالثيبيس ويوريبيتس، قادة رسل أجاممنون، كرموا كرجال يتصرفون بحريتهم على مقربة من أذن الملك السامي. انعقدت الكراهية في حلقي. أردهم موتى.

إنهم الآن قريبون، يمرون بالحراس المرميدونيون الغاضبون، الذين هزوا دروعهم مهددين. توقفوا عن بعد عشر خطوات منا - يكفي إلى هنا، ربما اعتقدوا، ليتمكنوا من الهرب حين يفقد أخيل أعصابه. غمست نفسي في صور مفزعة: أخيل يقفز ليحز أعناقهم، ويتركهم يترنحون محتضرين كالأرانب في يد الصياد.

تلعثموا بتحية، تنتقل أقدامهم، خافضين أعينهم. ثم:

"لقد جئنا لنأخذ الفتاة. إلى الوصاية".

يجيبهم أخيل - ببرود ومرارة، لكن بامتعاض أيضاً، غضبه متراكم ومغطى. إنه يعطي عرضاً، وأنا أعلم، لنعمته، لحلمه، وأسناني تطبق تجاه الهدوء في لهجته. هو يحب هذه الصورة عن نفسه، الرجل المظلوم الشاب، يقبل برزانة سرقة جائزته، استشهاد عظيم للمخيم بأكمله ليراه. سمعت اسمي ورأيتهم ينظرون نحوي. لأحضر برسيس.

إنها بانتظاري. يديها فارغة؛ لن تأخذ شيء معها. "أنا آسف"، همست. هي لم تقل كل شيء سيكون على ما يرام، لن يكون كذلك.

مالت إلى الأمام، وأنا يمكنني أن أشم الرائحة الحلوة الدافئة لأنفاسها. مست شفتيها شفتي. ثم خطت لتتجاوزني وذهبت.

أخذ تيالثيبيس أحد جوانبها، وأخذ يوريبيتس الآخر. قبضت أصابعهم، بلا بلطف، على جلد ذراعيها. سحبوها إلى الأمام، تواقين إلى الابتعاد عنا. أجبرت على أن تتحرك، أو تسقط. التفت رأسها إلى الوراء لتنظر إلينا، وأردت أن أتشظى للأمل اليائس في عينيها. حدقت فيه، لينظر، ليغير رأيه. فلم يفعل.

أصبحوا خارج مخيمنا الآن، يتحركون بسرعة. بعد لحظة بالكاد يمكنني التمييز بينهم وبين الهيئات الأخرى الداكنة التي تتحرك على الرمال - يأكلون ويمشون ويتبادلون النميمة باهتمام حول ملوكهم المتناحرين. اجتاحني الغضب كأغصان النار.

"كيف يمكنك أن تدعها تذهب؟" سألت، وأسناني تصر وأحدها على الآخر.

وجهه فارغ وقاحل، مثل لغة أخرى، لا يمكن اختراقه.

قال: "لا بد لي من التحدث إلى والدتي".

"اذهب إذن"، زجرت.

راقبته يغادر. شعرت بمعدتي تشتعل حتى تترمد؛ كفي تؤلمني حيث نشبت أظافري فيها. أنا لا أعتقد أنني أعرف هذا الرجل. إنه واحد لم أره من قبل. غضبي يتصاعد تجاه كدم حار. أنا لن أغفر له. أتخيلني أمزق خيمتنا، أحطم القيثارة، أطعن نفسي في معدتي وأنزف حتى الموت. أريد أن أرى وجهه مكسور بالحزن والندم. أردت أن أهشم قناع الحجر البارد من الحجر الذي انزلق على الصبي الذي كنت أعرف. لقد أعطاها لأجاممنون وهو يعرف ما سيحدث.

إنه يتوقع الآن أن أنتظر هنا، عاجزاً ومطيعاً. ليس لدي ما أقدمه لأجاممنون مقابل سلامتها. لا أستطيع رشوته، ولا يمكنني أن أتسوله. لقد انتظر ملك ميسيناي طويل جداً لهذا الانتصار. هو لن يدعها تذهب. فكرت في الذئب، يحرس عظامه. كان هناك كهذه الذئاب في بيليون، الذي من شأنه أن يصطاد الرجال إذا كان يعاني من الجوع بما يكفي. "إذا كان واحد منها يطاردك"، قال تشيرون"، يجب أن تعطيها شيئاً تريده أكثر منك".

هناك شيء واحد فقط يريده أجاممنون أكثر من برسيس. استللت السكين من حزامي. لم يسبق لي أن أحببت الدم، لكن ليس بيدي شيء آخر، الآن.

رآني الحراس متأخرين، وكانوا متفاجئين للغاية لرفع أسلحتهم. أحدهم كان عقله حاضر فامسك بي، لكنني حفرت أظافري في ذراعه، فأطلقني. وجوههم بطيئة وغبية مع الصدمة. أنا لست فقط أرنب أخيل الأليف؟ لو كنت محارب، لقاتلوني، لكنني لم أكن. في الوقت الذي فكروا أنهم يجب أن يكبحوا جماحي، كنت قد أصبحت داخل الخيمة.

أول شيء رأيته كان برسيس. يديها مقيدة، وهي آخذة في التقلص في زاوية. أجاممنون يقف وظهره للمدخل، يتحدث إليها.

التفت، متجهماً للمقاطعة. لكن عندما رآني، لمع وجهه بالانتصار. جئت لأتسول، سوف يعتقد. أنا هنا لألتمس الرحمة، كرسول لأخيل. أو ربما سأغضب عاجزاً، لأسليه.

رفعت السكين، واتسعت عيني أجاممنون. امتدت يده إلى سكينه في حزامه، وفتح فمه منادياً للحراس. لم يكن لديه الوقت للحديث. شققت بالسكين أسفل معصمي الأيسر.

خدشت الجلد لكن لم تنهش عميقاً بما فيه يكفي. شققتها مرة أخرى، وهذه المرة وجدت الوريد. طفر الدم في الفضاء من حولي. سمعت ضوضاء برسيس المرتعبة. تلوث وجه أجاممنون بالقطرات.

"أقسم أن الأخبار التي أحملها هي الحقيقة"، قلت. "أقسم على دمي".

تراجع أجاممنون مأخوذاً. الدم واليمين شلت يده، كان يؤمن بالخرافات دائماً.

"حسناً"، قال باقتضاب، متشبثاً بالكرامة، "قل أخبارك إذن".

أستطيع أن أشعر بالدم يستنزف أسفل معصمي، لكنني لم أتحرك لأضع حداً له.

"أنت الآن في الخطر الأعظم"، أقول.

هزأ. "هل أنت تهددني؟ هل أرسلك لهذا السبب؟".

"لا، هو لم يرسلني على الإطلاق".

ضاقت عينيه، وأنا أرى عقله يعمل، يضع البلاط المناسب في الصورة. "من المؤكد أنك أتيت بمباركته".

"لا"، قلت.

لقد بدأ يستمع، الآن.

"إنه يعرف ما كنت تنويه نحو الفتاة"، قلت.

خارج زاوية عيني يمكنني أن أرى برسيس تتابع حديثنا، لكنني لم أجرؤ على النظر إليها مباشرة. معصمي ينبض بخفوت، يمكنني أن أشعر بالدم الحار يملأ يدي، ثم يفرغ مرة أخرى. رميت بالسكين وضغطت إبهامي على وريدي لأحد من الاستنزاف المستمر لقلبي.

"و؟".

"ألم تتساءل لماذا لم يمنعك من أخذها؟" صوتي مزدر. "كان يمكنه أن يقتل رجالك، وكل جيشك. ألا تعتقد أنه كان بإمكانه أن يمسك بك؟".

احمر وجه أجاممنون. لكنني لم أسمح له بالحديث.

"تركك تأخذها. لأنه يعلم أنك لن تقاوم معاشرتها، وهذا سيهوي بك إلى أسفل سافلين. هي له، فاز بها بعدل خلال خدمتك. سينقلب الرجال عليك إذا انتهكتها، وكذلك الآلهة".

تكلمت ببطء، متعمداً، والكلمات هبطت كالسهام، كل في هدفه. كان ما أقوله صحيح، على الرغم من أنه كان أعمى جداً بكبريائه وشهوته لرؤيتها. إنها في عهدة أجاممنون، لكنها لا تزال جائزة أخيل. انتهاكها هو انتهاك لأخيل نفسه، أخطر إهانة لشرفه. أخيل يمكنه أن يقتله لذلك، وحتى مينيلوس سيعتبرها عدالة.

"أنت في حدود قوتك حتى في أخذك لها. الرجال سمحوا بذلك لأنه كان فخوراً جداً، لكنهم لن يسمحوا بأكثر".

أطعنا ملوكنا، لكن فقط في حدود المعقول. إذا كانت جائزة أريستوس أخيون/ أشن ليست آمنة، إذن لا شيء من جوائزنا كذلك. مثل هذا الملك لن يسمح له بأن يحكم لفترة طويلة.

أجاممنون لم يفكر بأي شيء من هذا. الإدراك يغمره كموجات، ويغرقه. بيأس، قال: "لم يقل المستشارين شيئاً من هذا".

"ربما لأنهم لا يعرفون ما كنت تنويه. أو ربما لخدمة أغراضهم الخاصة". توقفت لأسمح له بالتفكير في هذا. "من سيحكم إذا وقعت؟".

إنه يعرف الجواب. أوديسيوس، وديوميديس، معاً، مع مينيلوس كرئيس صوري. لقد بدأ يفهم، أخيراً، حجم الهدية التي جلبتها له. لم يكن أحمق كهذه اللحظة أبداً.

"أنت تخونه بتحذيرك لي".

هذا صحيح. لقد أعطى أخيل أجاممنون سيفاً ليسقط عليها، وقد أمسكت بيده. بكلمات سميكة ومريرة. "نعم".

"لماذا؟" سأل.

"لأنه مخطئ"، قلت. شعرت بحلقي بارد ومكسر، كما لو أنني قد تجرعت رمال وملح.

تفحصني أجاممنون. أنا معروف بنزاهتي، وطيبة قلبي. ليس هناك من سبب لئلا يصدقني. ابتسم. "أحسنت"، قال.

"أنت تظهر نفسك موالياً لسيدك الحقيقي"، توقف، تلذذ به، وخزنه في ذاكرته. "هل يعرف ما قمت به؟".

"ليس بعد"، قلت.

"آه". عيناه نصف مغلقتين، يتخيل ذلك. شاهدت مزلاج انتصاره ينزلق لمكانه. إنه متذوق للألم. لا شيء يمكنه أن يسبب عذاباً لأخيل أكبر من هذا: تجري خيانته لأسوأ أعدائه من قبل الرجل الذي قربه إلى قلبه.

"لو جاء وركع من أجل العفو، أقسم أنني سأفرج عنها. إنها فقط كبرياؤه التي تبعد شرفه منه، وليس أنا. أخبره".

أنا لم أجب. وقفت، وخطوت إلى برسيس. قطعت حبال قيودها. عيناها ممتلئة، إنها تعرف كم كلفني هذا.

"معصمك"، همست. فلم أستطع أن أجيبها. رأسي مشوش بين الانتصار واليأس. رمال الخيمة حمراء بدمي.

"عاملها بشكل جيد"، قلت.

والتفت وغادرت. سوف تكون على ما يرام الآن، قلت لنفسي. أنه يو لم الولائم الدسمة للهدية التي أعطيته. قطعت شريط من سترتي

لأربط به معصمي. شعرت بالدوار، على الرغم من أنني لا أعـــرف إذا كان ذلك بسبب الدم الذي فقدته أو بسبب ما قمت به. ببطء، بدأت المشي الطويل عائداً إلى الشاطئ.

كان يقف خارج خيمة عندما عدت. سترته رطبة حيث ركع في البحر. وجهه ملفوف ومغلق، لكن هناك تعب على أطرافها، كقماش ممزق، مثل وجهي.

"أين كنت؟".

"في المخيم". لست مستعد بعد، لأخبره. "كيف هي أمك؟".

"إنها على ما يرام. أنت تنـــزف".

وقد غرقت الضمادة بدمي.

"أعرف"، قلت.

"دعني أنظر إليها". تبعته بطاعة إلى الخيمة. أخذ ذراعـــي وفـــك القماش. وجلب الماء ليشطف الجرح وينظفه ويحزمه بقيصوم مهـــروس وعسل.

"سكين؟" سأل.

"نعم".

نحن نعلم أن العاصفة قادمة، ننتظرها بقدر استطاعتنا. ربط الجرح بضمادات نظيفة. جلب لي النبيذ، والطعام كذلك. أستطيع أن أقـــول من وجهه أنني أبدو مريضاً وشاحباً.

"هل تخبرني من الذي آذاك؟".

تخيلتني أقول: أنت. لكن هذا لن يكون أكثـــر مـــن تصـــرف طفولي.

"أنا فعلت هذا لنفسي".

"لماذا؟".

"من أجل اليمين". ليس هناك أي انتظار لفترة أطول. نظرت إليه، بكامل وجهي. "لقد ذهبت إلى أجاممنون. وأخبرته بخطتك".

"خطتي؟" كلماته مستوية، غير متحيزة تقريباً.

"تدعه يغتصب برسيس، لتتمكن من الانتقام لنفسك منه". قوله بصوت عال صدمني أكثر مما ظننت أنه سيكون.

نهض، نصف متحولاً لئلا أستطيع أن أرى وجهه. قرأت كتفيه بدلاً من ذلك، وضعيتهم، والتوتر في عنقه.

"إذن لقد حذرته؟".

"هذا ما فعلته".

"أنت تعرف أن لو كان قد فعل ذلك، كان يمكنني أن أقتله". بنفس النغمة المسطحة. "أو نفيه. أجبره على التخلي عن العرش. كان الرجال ليكرموني كإله".

"أعلم"، قلت.

كان هناك صمت، خطر. ظللت منتظراً ليلتفت إلي. ليصرخ، أو يضرب. ثم التفت، ليواجهني، أخيراً.

"سلامتها مقابل شرفي. هل أنت سعيد بمقايضتك؟".

"ليس هناك شرف في خيانة أصدقائك".

"الغريب"، قال، "إن كنت تتحدث عن الخيانة".

كان هناك مزيد من الألم في تلك الكلمات، تقريباً، أكثر من أن تحتمل. أجبرت نفسي على التفكير في برسيس. "لقد كان ذلك السبيل الوحيد".

"لقد اخترتها"، قال. "علي".

"على فخرك". الكلمة التي استخدمتها متغطرسة. كلمتنا خدشت النجوم، للعنف والغضب الهائل القبيح كما هو للآلهة.

تشددت قبضته. الآن، ربما، سوف يهجم.

"حياتي هي سمعتي"، قال. أنفاسه تبدو ممزقة. "هي كل ما لـــدي. أنا لن أعيش لفترة أطول. الذكرى هي كل أمله"، ازدرد ريقه، غزيراً. "أنت تعرف هذا. وسمحت لأجاممنون بتدميره؟ هل ستســاعده علــى أخذه مني؟".

"لن أفعل" قلت. "لكنني كنت سأحفظ ذكــرى جــديرة عــن الرجل. أود أن تكون نفسك، وليس طاغية يُذكر لقسوته.

هناك طرق أخرى لجعل أجاممنون يدفع الثمن. سنفعلها. وسوف أساعدك، أقسم. لكن ليس مثل هذا. المجد لا يستحق ما فعلته اليوم".

التفت بعيداً بصمت. حدقت في ظهـــره الأخـــرس. أحفـــظ في ذاكرتي كل طية في سترته، كل ذرة ملح جافة ورمل التصقت بجلده.

عندما تحدث أخيراً، كان صوته مرهق، ومهزوم. لم يكن يعـــرف كيف يغضب مني. كنا كقطع الخشب التي لن تضيء.

"إذن لقد تم الأمر؟ هي آمنة؟ يجب أن تكون كذلك. وإلا لم تكن لتعود".

"نعم. إنها آمنة".

زفر نفساً متعباً. "أنت رجل أفضل مني".

بداية أمل. لقد جرحنا بعضنا، لكنها لم تكن مميتة. برسيس لـــن تتعرض للأذى وأخيل سوف يتذكر نفسه ومعصمي سوف يشـــفى. وسوف تكون هناك لحظة بعد هذا، وأخرى بعدها.

"لا"، قلت. وقفت ومشيت إليه. واضعاً يدي على دفء جلده. "هذا ليس صحيحاً. لقد غادرت نفسك اليوم. والآن لقد عدت".

صعدت كتفيه وهبطت بنفسٍ طويل. "لا تقل ذلك"، قال: "حتى تسمع بقية ما قمت به".

الفصل السابع والعشرون

كانت هناك ثلاثة أحجار صغيرة على سجادة خيمتنا، ركلت إلى الداخل من قبل أقدامنا أو تسللت من تلقاء نفسها.

التقطتهم. فهي شيء أستطيع القبض عليه.

تلاشى تعبه وهو يتحدث. "... أنا لن أحارب من أجله أبداً. يسعى في كل التفاتة لسرقة مجدي الشرعي. ليلقي بي في الظلال والشك. إنه لا يستطيع أن يتحمل أن يكرم رجل آخر عليه. لكنه سوف يتعلم. سوف أريه قيمة جيشه دون أريستوس أخيون/ أشن" لم أتكلم. أستطيع أن أرى حدته تزداد. كمشاهدة عاصفة قادمة، بلا مأوى.

"سيسقط اليونانيون دون دفاعي عنهم. سيجبر على أن يتضرع، أو يموت".

أتذكر كيف بدا عندما ذهب لرؤية أمه.

متوحش، محموم، قاس كالجرانيت. أتخيله راكعاً أمامها، يبكي بغضب، يضرب بقبضة يده صخور البحر الخشنة.

لقد أهانوه، قال لها. لقد أخزوه. ودمروا سمعته الخالدة.

تستمع، وهي تسحب أصابعها بذهول على حلقها الأبيض الطويل، ثم بدأت تومئ برأسها. لديها فكرة، فكرة آلهة، مليئة بالثأر والعقاب الإلهي. تخبره، فيتوقف بكاءه.

"هل سيفعلها؟" تساءل أخيل في تعجب. يقصد زيوس، ملك الآلهة، برأسه المكلل بالغيوم، ويديه التي تستطيع أن تقبض على الصواعق نفسها.

"سوف يفعل ذلك"، قالت ثيتيس. "إنه مدين لي".

زيوس، الموازن الكبير، سوف يترك موازينه. سوف يجعل اليونانيون يخسرون ويخسرون ويخسرون، حتى يسحقون على البحر، المراسي والحبال تتشابك مع أقدامهم، الصواري ومقدمات السفن تتهشم على ظهورهم. وحينها سوف يرون من الذي يجب أن يتوسلون إليه.

مالت ثيتيس إلى الأمام وقبلت ابنها، نجم بحر مشرق أحمر، مرتفعاً على خده. ثم تستدير وترحل، تنزلق في الماء مثل الحجر، وتغرق إلى الأعماق.

تركت الحصى تقع على الأرض من أصابعي، حيث استلقوا، عشوائية أو هادفة، قراءة فنجان أو حادث. لو كان تشيرون هنا، لقرأها، وأخبرنا بحظوظنا. لكنه ليس هنا.

"ماذا لو أنه لم يتوسل؟" سألت.

"سوف يموت. وسوف يموتون جميعاً. لن نقاتل حتى يفعل". ذقنه ناتئة، تستعد للتوبيخ.

أنا مرهق. ذراعي تؤلمني حيث قطعتها، وبشرتي أشعر بها مغطاة بعرق كريه. لم أجب.

"هل سمعت ما قلت؟".

"سمعت"، قلت. "اليونانيون سوف يموتون".

تشيرون قد قال ذات مرة أن الأمم هم الأكثر حماقة من اختراعات البشر. "لا يوجد رجل يستحق أكثر من الآخر، أياً كان انتماءه".

"لكن ماذا لو كان صديقك؟" سأله أخيل، قدمه تركل على جدار كهف الكوارتز الوردي. "أو أخيك؟ هل ستعامله كما تعامل غريباً؟".

"سألت السؤال الذي تجادل الفلاسفة عليه"، قال تشيرون. "إنه يستحق أكثر لك، ربما. لكن الغريب هو صديق شخص آخر وشقيقه. إذن أي حياة أكثر أهمية؟".

كنا صامتين. كنا في الرابعة عشر، وكانت هذه الأمور صعبة جداً بالنسبة لنا. الآن، نحن في السابعة والعشرين، و ما زالت صعبة أيضاً.

هو نصف روحي، كما يقول الشعراء. سيموت قريباً، ومجده هو كل ما سيبقى. إنه ابنه، أعز من نفسه. هل يجب أن أوبخه لذلك؟ لقد أنقذت برسيس. لا أستطيع إنقاذهم كلهم.

أعرف، الآن، كيف كنت لأجيب تشيرون. سأقول: لا توجد إجابة. أيهما تختار، ستكون على خطأ.

في وقت لاحق من ذلك المساء عدت إلى مخيم أجاممنون. بينما أمشي، أشعر بالعيون علي، فضولية وحنونة.

ينظرون ورائي، ليروا ما إذا كان أخيل يتبعني. إنه ليس كذلك.

عندما قلت له إلى أين سأذهب، يبدو أنها رمته ثانية إلى الظلام. "قل لها أنني آسف" قال، وعيناه إلى أسفل. لم أجب. هل هو آسف لأن لديه خطة انتقام أفضل الآن؟ واحدة من شأنها أن تلغي ليس فقط أجاممنون، لكن كامل جيشه الجاحد؟ لم أترك نفسي أقع في هذه الأفكار. هو آسف. وهذا يكفي.

"ادخل"، قالت، صوتها غريب. ترتدي فستان مطرز بخيوط ذهبية وقلادة من اللازورد. على معصميها أساور من فضة منقوشة. تخشخش عندما تقف، كما لو كانت ترتدي درع.

أحرجت، أستطيع أن أرى ذلك. لكن ليس لدينا وقت للكلام، لأن أجاممنون نفسه كان منتفخاً خلال الشق الضيق ورائي.

"هل رأيت كيف حفظتها جيداً؟" قال. "المعسكر كامل سوف يرى أي احترام أكنه لأخيل. ليس عليه سوى الاعتذار، وأنا سوف أكدس التكريم له كما يستحق. من المؤسف حقاً أن يكون لذلك الشاب الكثير من الفخر".

النظرة المتعجرفة على وجهه جعلتني غاضباً. لكن ماذا كنت أتوقع؟ أنا فعلت ذلك. سلامتها مقابل شرفه. "هذا بفضلك، أيها الملك الجبار" قلت.

"قل لأخيل"، أجاممنون لا يزال مستمراً. "قل له كيف أعاملها جيداً. تستطيع أن تأتي في أي وقت تشاء، لرؤيتها". قال مقدماً ابتسامة غير سارة، ثم وقف، يراقبنا. ليس لديه نية لتركنا.

التفت إلى برسيس. لقد تعلمت بضع مفردات من لغتها، سأستخدمها الآن.

"هل أنت حقاً على ما يرام؟".

"أنا كذلك"، أجابت، في صوت رخيم حاد بالأناضولية. "كم سوف يطول ذلك؟".

"لا أعرف"، قلت. وأنا لا أعرف. كم كمية الحرارة التي يستغرقها الحديد ليصبح ليناً بما يكفي لينثني؟ ملت إلى الأمام، وقبلت خدها بلطف". سوف أعود مرة أخرى قريباً"، قلت بها باليونانية.

أومأت برأسها.

حدق أجاممنون فيني وأنا أغادر. سمعته يقول: "ماذا قال لك؟".

سمعتها تجيب، "يعرب عن إعجابه بثوبي".

في صباح اليوم التالي، زحف كل الملوك الآخرون بجيوشهم لمحاربة الطروادين، عدا جيش ثيا لم يتبعهم. تريثت أنا وأخيل طويلاً على الإفطار. ولماذا لا نفعل؟ لا يوجد شيء آخر نقوم به. نستطيع أن

نسبح، إذا أحببنا، نلعب الداما أو ننفق اليوم كله نتسابق. لم نكـــن في مثل هذا الترفيه المطلق منذ بيليون.

مع ذلك لم نشعر به كترفيه مطلق. بدا الأمـــر وكأننـــا نمســـك أنفاسنا، كما يستعد النسر قبل الغوص. انحنت كتفي، وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من النظر إلى أسفل الشاطئ الفارغ. كنا ننتظر لنرى ما سوف تفعل الآلهة.

لم نضطر إلى الانتظار طويلاً.

الفصل الثامن والعشرون

في تلك الليلة، جاء فيونكس يعرج إلى الشاطئ بأنباءٍ عن المبـــارزة. بينما احتشدت الجيوش في الصباح، كان باريس يختال على طول خـــط الطرواديين، بدرع ذهبـــي لامع. عرض تحدياً: مبارزة واحدة، والفـــائز يأخذ هيلين. هدر اليونانيين بموافقتهم. من منهم لم يرِد أن يغادر في ذلك اليوم؟ يراهن على هيلين بمبارزة واحدة ويحل الأمور لمـــرة واحـــدة وإلى الأبد؟ وباريس بدا هدفاً سهلاً، لامع وخفيف، بوركين نحيلين كفتاة غير متزوجة. لكنه كان مينيلوس، قال فيونكس، من تقدم إلى الأمام، يـــزأر بالقبول لفرصة استعادة شرفه وزوجته الجميلة في وقت واحد.

بدأت المبارزة بالرماح وانتقلت بسرعة للسيوف. باريس أســـرع مما توقع مينيلوس، ليس كقتال ولكن سريع على قدميه. في الأخير، تعثر الأمير الطروادي، وقبض مينيلوس على قمة شعر خيله الطويلة وجره إلى أسفل على الأرض. ركل باريس بقدميه بلا حول ولا قـــوة، أصـــابعه تخربش حزام الذقن الذي يخنقه. ثم، فجأة، جاءت الخوذة حرة في يـــد مينيلوس وقد اختفى باريس. هناك حيث تمدد الأمير الطروادي لا شيء سوى الأرض المتربة. نظرت الجيوش شزراً هامسة: أين هـــو؟ ونظـــر مينيلوس معهم، ولم يرَ السهم، المنطلق من قوس قرن الوعل على طول خط طروادة، محلق تجاهه. ضرب خلال درعه الجلدي ودفن نفســـه في بطنه.

تدفق الدم إلى أسفل ساقيه مكوناَ بركة عند قدميه. هو في الغالب جرح سطحي، لكن اليونانيين لا يعرفون ذلك حتى الآن. لقد صرخوا

واندفعوا إلى صفوف الطرواديين، غاضبين من الخيانة. وبدأت مشاجرة دامية.

"لكن ماذا حدث لباريس؟" سأل.

هز فيونكس رأسه. "لا أعرف".

تقاتل الطرفان خلال فترة ما بعد الظهر حتى نفخ بوق آخر. كان هيكتور، يعرض هدنة ثانية، مبارزة ثانية ليصحح من عار اختفاء باريس وإطلاق السهم. قدم نفسه في مكان أخيه، لأي رجل يجرؤ على إجابته. مينيلوس، قال فيونكس، كان سيتقدم إلى الأمام مرة أخرى، لكن أجاممنون منعه. لم يكن يريد أن يرى أخاه يموت ضد أقوى الطرواديين.

التفت اليونانيين كثيراً بحثاً عمن يقاتل هيكتور. تخيلت توترهم، الصمت قبل أن تهتز خوذة ويقفز الكثير.

انحنى أوديسيوس إلى الأرض المتربة لاستردادها. أياكس. كان هناك ارتياح جماعي: إنه الرجل الوحيد الذي يملك

فرصة ضد الأمير الطروادي. الرجل الوحيد، الذي سيقاتل اليوم.

إذن تقاتل أياكس وهيكتور، رافعين الحجارة العنيفة على بعضهم البعض، والرماح تتحطم على الدروع، حتى حل الليل ونادى المنادي بالنهاية. كان تحضر غريب: افترق الجيشان في سلام، وتصافح هيكتور وأياكس متساوين.

همس الجنود – لم تكن لتنتهي كذلك لو أن أخيل كان هنا.

أفرغ فيونكس جعبة أخباره، وقام متعب على قدميه، يتكأ على ذراع اوتومودن ليعود إلى خيمته. التفت أخيل لي.

وهو يتنفس بسرعة، وأطراف أذنيه تطقطق من الإثارة. أمسك بيدي وصاح صيحة ظافرة تجاه أحداث اليوم، كيف كان اسمه على

كل لسان، عن قوة غيابه، العملاقة، التي تمشي ببطء في أوساط الجنود.

اشتعلت إثارة اليوم خلاله، كلهب في عشب جاف. لأول مرة، يحلم بالقتل: ضربة المجد، رمح المحتوم خلال قلب هيكتور. اقشعر جلدي لسماعه يقول ذلك.

"هل ترى؟" قال. "وهذه هي البداية!".

لم أستطع الهروب من شعوري بأن هناك، تحت السطح، شيء يتكسر.

كان هناك نفير بوق في صباح اليوم التالي عند الفجر. قمنا، وتسلقنا التل لنرى جيشاً من فرسان الخيل يتجهون لطروادة من الشرق. خيولهم ضخمة وتتحرك بسرعة غير طبيعية، يجرون خلفهم عربات ذات عجلات الخفيفة.

على رأسهم يجلس رجل ضخم، أكبر حتى من أياكس. يرتدي شعر أسود طويل، كما يفعل أهالي إسبرطة، مشحم يتأرجح أسفل ظهره. يحمل سارية في شكل رأس حصان.

انضم إلينا فيونكس. "إنهم الليسيين"، قال. من الأناضول، حلفاء لطروادة منذ عهد بعيد. لقد كان مصدر تساؤل الكثير إنهم لم ينضموا بعد إلى الحرب. لكن الآن، كما لو أنهم استدعوا من قبل زيوس نفسه، هم هنا.

"من هذا؟" أشار أخيل للعملاق، زعيمهم.

"ساربيدون. ابن زيوس" والشمس تبرق على كتفي الرجل، المتعرقين من الركوب؛ جلده كالذهب الداكن.

فتحت البوابات، والطرواديين خرجوا لموافاة حلفائهم. هيكتور وساربيدون شبكوا أيديهم، ثم قادوا قواتهم إلى الميدان. أسلحة الليسيين

غريبة: رماح مسننة كالمنشار وأشياء تبدو كالخطافات العملاقة، لتمزيق اللحم. طيلة اليوم سمعنا صرخات قتالهم وقصف حوافر سلاح فرسانهم. كان هناك تدفق مستمر من اليونانيين الجرحى إلى خيمة ماتشين.

ذهب فيونكس إلى مجلس المساء، العضو الوحيد في مخيمنا المرحب به. عندما عاد، نظر إلى أخيل بحدة.

"ديوميديس جريح، الليسيين حطموا الجانب الأيسر. ساربيدون وهيكتور سوف يسحقاننا فيما بينهما".

لم يلاحظ أخيل استهجان فيونكس. تحول إلي في انتصار. "هل سمعت ذلك؟".

"سمعته"، قلت.

مر يوم وآخر. الشائعات تأتي غليظة كعضات الذباب: حكايات عن تقدم جيش الطرواديين، لا يمكن ردعهم وجريئين في غياب أخيل. المجالس مسعورة، حيث تجادل ملوكنا بشأن استراتيجيات يائسة: غارات ليلية، الجواسيس، و كمائن. ثم أكثر من ذلك، اتقد هيكتور في المعركة، مشتعلاً خلال اليونانيين كفرشاة نار، وكل يوم يزداد عدد القتلى أكثر من اليوم السابق. أخيراً: العداء المذعور، جاء يحمل خبر التقهقر والإصابة بين الملوك.

أشار أخيل بأصابعه تجاه النميمة، مقلباً الأمر على هذا النحو وذاك. "لن يطول الوقت الآن"، قال.

محارق الجنائز تشتعل خلال الليل، دخانها الدهني لطخ القمر. أحاول أن لا أفكر كيف أن كل واحد هو رجل أعرفه.

أو عرفته.

كان أخيل يعزف على القيثارة عند وصولهم. كانوا ثلاثة منهم – فيونكس أولاً، وخلفه أوديسيوس وأياكس. كنت أجلس بجوار أخيل

عندما أتوا؛ أبعد قليلاً جلس اوتومودن، يقطع لحم للعشاء. أخيل رافعاً رأسه وهو يغني، صوته صافي وعذب. استقمت، ويدي تركت قدمه حيث استراحت عليها.

اقترب الثلاثي منا ووقفوا على الجانب الآخر من النار، منتظرين أن ينتهي أخيل. وضع القيثارة أرضاً وقام.

"مرحباً بكم. آمل أن تبقون لتناول العشاء؟" وصافح أيديهم بحرارة، يبتسم خلال صلابتهم.

أنا أعرف لماذا جاءوا. "يجب أن أرى الطعام"، غمغمت بكلام غير واضح. أشعر بعيني أوديسيوس على ظهري وأنا ذاهب.

شرائح لحم الضأن تقطر وتحترق على المشواة النحاسية. خلال ضباب الدخان كنت أراقبهم، يجلسون حول النار كما لو أنهم أصدقاء. لا أستطيع سماع كلماتهم، لكن أخيل ما يزال يبتسم، متخطياً كآبتهم، يتظاهر بأنه لا يراها. ثم يناديني، وأنا لا أستطيع المماطلة لفترة أطول. بإخلاص أحضرت الصحون وأخذت مقعدي إلى جانبه.

إنه يخلق محادثة مفككة عن المعارك والخوذات. بينما كان يتحدث كان يخدم الوجبة، مضيف مُدُلل يعطي الشواني إلى الجميع وثلثها لأياكس. يأكلون ويدعونه يتحدث. عندما انتهوا، مسحوا أفواههم ووضعوا صحونهم جانباً. يبدو أن الجميع يعرف أن الوقت قد حان. كان أوديسيوس، بطبيعة الحال، الذي يبدأ.

تحدث أولاً عن الأشياء، كلمات عرضية أسقطها في أحضاننا، كل واحدة على حدة. قائمة حقاً. دزينة من الخيول السريعة، وسبع حوامل برونزية، وسبع فتيات جميلات، عشرة قضبان ذهبية، عشرين من القدور، وأكثر - من الطاسات، والكؤوس، والدروع، وأخيراً، الجوهرة الأخيرة أمسكها أمامنا: عودة برسيس. ابتسم ونشر

يديه وهز كتفيه بلا مبالاة ميزها من سايروس، من أوليس، والآن من طروادة.

ثم قائمة ثانية، بطول الأولى تقريباً: الأسماء اللانهائية لليونانيين القتلى. اشتد فك أخيل بينما جذب أوديسيوس الصحيفة بعد الصحيفة، محشورين حتى الهامش بعلامات. تمعن أياكس في يديه، ذات الندوب من تشظي الدروع والرماح.

ثم أخبرنا أوديسيوس بالأخبار التي لا نعرفها حتى الآن، أن الطرواديين أقل بألف خطوة من جدارنا، نزلوا حديثاً على سهل ونحن لا نستطيع أن نسترجعه قبل الغروب. هل نريد برهان؟ ربما يمكننا أن نرى نيرانهم من التل وراء معسكرنا. سوف يهاجمون عند الفجر.

كان هناك صمت، لحظة طويلة منه، قبل أن يتحدث أخيل.

"لا"، قال، منحياً الكنوز والشعور بالذنب. شرفه ليس بمثل هذه التافهة التي يمكن استرجاعه برسل الليل، بحفنة متجمعين حول نار المخيم. لقد أخذ أمام الحشد بأكمله، شهده كل رجل آخر.

لكز ملك إيثاكا النار التي تجلس بينهما.

"إنها لم تتضرر، كما تعلمون. برسيس. الله وحده يعلم أين وجد أجاممنون ضبط النفس، لكنها حفظت بعناية كاملة. هي، وشرفك، ينتظرونك فقط لتستعيدهم".

"أنت تجعل الأمر يبدو كما لو كنت أنا من تخلى عن شرفي"، قال أخيل، صوته لاذع كالنبيذ الصرف. "هل هذا ما كنت تدور حوله؟ هل أنت عنكبوت أجاممنون، تصطاد الذباب بهذه الحكاية؟".

"شاعرية جداً"، قال أوديسيوس. وأضاف "لكن غداً لن يكون أغنية شاعر. غداً، الطرواديين سوف يحطمون الجدار ويحرقون السفن. هل ستقف متفرجاً ولن تفعل شيئاً؟".

"هذا يعتمد على أجاممنون. إذا صحح الخطأ الذي ارتكبه بحقي، فسوف أطارد الطرواديين إلى بلاد فارس، إذا أردت".

"قل لي"، أوديسيوس يسأل: "لماذا لم يمت هيكتور؟" ورفع يـــده.

"أنا لا أسعى لجواباً، أنا فقط أكرر ما يتمنى جميع الرجال معرفتـــه. في العشر سنوات الماضية، كنت لتقتله ألف مرة. ومع ذلك حـــتى الآن لم تفعل. مما يجعل الرجال يعجبون".

لهجته تخبرنا أنه لا يعجب. وأنه يعرف بأمر النبوءة. أنا سعيد أنه لم يكن معه سوى أياكس، الذي لن يفهم الحديث المتبادل.

"لقد تدبرت عشر سنوات أكثر من الحياة، وأنا سعيد لك. لكن البقية منا"، التوى فمه. "البقية منا مضطرة لانتظار وقت فراغك. أنت تبقينا هنا، يا أخيل. أعطيت الاختيار واخترت. يجب أن تعـــيش بـــه الآن".

حدقنا فيه. لكنه لم ينتهي بعد.

"لقد خلقت شوط لا بأس به من عرقلة مسار الأقدار. لكنك لن تستطيع القيام بذلك إلى الأبد. الآلهة لن تسمح لك"، توقف، ليـــدعنا نسمع كل كلمة من ما يقول. "الخيط سيجري بسلاسة، سواء اخترت ذلك أم لا. أنا أخبرك كصديق، فمن الأفضل بحثهـــا لتجـــري وفقـــاً لشروطك، لجعله يجري في صالحك، لئلا يكون لصالحهم".

"وهذا هو ما أقوم به".

"حسنا جداً"، قال أوديسيوس. "لقد قلت ما جئت لأقوله".

وقف أخيل. "إذن لقد حان الوقت لتغادر".

"ليس بعد". كان فيونكس. "أنا أيضـــاً، لـــديك شـــيء أود أن أقوله". ببطء، حار بين إعزازه واحترامه للرجل العجوز، جلس أخيل. وبدأ فيونكس.

"عندما كنت صبياً، أخيل، أعطاك والدك لي لأربيـــك. أمـــك كانت قد رحلت منذ فترة طويلة، وكنت المربـــي الوحيد لك، أقطع لك اللحم وأعلمك بنفسي. الآن أنت رجل، وما زلت أسعى جاهــداً لأرعاك، لأحميك، من الرمح، والسيف، والحماقة".

ارتفعت عيني إلى أخيل، وأنا أراه متوتراً، حذراً. أفهم خشـــيته- أن يتم التلاعب به بدماثة الرجل العجوز، وأن يقنعه بكلامه ليتخلـــى عن شيء ما. الأسوأ من ذلك، شك فجأة - أنه ربما، إذا فيونكس اتفق مع هؤلاء الرجال، فهو مخطئ.

الرجل العجوز رفع يده، كما لو كـــان ســـيوقف دوران هـــذه الأفكار. "مهما فعلت، سوف أقف معك، كما فعلت دائماً.

لكن قبل أن تقرر مسارك، هناك قصة يجب عليك أن تسمعها".

لم يعطي الوقت لأخيل ليعترض. "في أيام والد والدك، كان هناك بطل شاب اسمه ميليقر، الذي كانت بلدته كاليدون محاصرة من قبـــل ناس شرسة يسمون الكوريتس".

كنت أعرف هذه القصة، على ما أعتقد. سمعت بيليوس يخبرهـــا، منذ فترة طويلة، بينما كان أخيل يتبسم لي ابتسامة عريضة من الظلال. لم يكن هناك دم على يديه حينها، وعقوبة الموت ليست على رأســـه. حياة أخرى.

"في البدء كان الكوريتس هم الخاسرون، أرهقتهم مهارة ميليقـــر في الحرب، "أكمل فيونكس". ثم ذات يوم كان هناك كان إهانة طفيفة لشرفه من قبل شعبه، وميليقر رفض أن يقاتل أكثر من ذلك نيابة عـــن مدينته. عرض عليه الناس الهدايا والاعتذارات، لكنه لم يســـتمع لهـــم. اندفع بقوة لغرفته ليتمدد مع زوجته، كليوباترا، وينعم بالراحة".

عندما تحدث باسمها، طرفت عيني فيونكس علي.

"أخيراً، عندما سقطت مدينتها وماتت صديقاها، كليوباترا لم تعد تستطع أن تحتمل. ذهبت تتضرع لزوجها ليقاتل ثانية. كان يحبها فوق كل شيء فوافق على ذلك، وفاز بنصر عظيم لشعبه. لكن على الرغم من أنه قد أنقذهم، فقد جاء ذلك متأخراً جداً. أرواح كثيرة أزهقت في سبيل كبريائه. لذلك هم لم يعطوه الامتنان، ولا الهدايا. فقط كراهيتهم لعدم إنفاذهم في وقت أبكر من ذلك".

في الصمت، أمكنني سماع صوت أنفاس فيونكس، مرهق من مجهود التحدث وقتاً طويلاً. أنا لم أجرؤ على التحدث أو الحركة؛ خشيت أن شخصاً ما سوف يرى الأفكار التي انبسطت على وجهي. لم يكن الشرف هو ما جعل ميليقر يقاتل، ولا أصدقائه، ولا النصر، ولا الانتقام، أو حتى حياته نفسها. لقد كانت كليوباترا، التي جثت على ركبتيها أمامه بوجه تلطخه بالدموع. هنا تجلت براعة فيونكس: كليوباترا، باتروكلوس. اسمها بُنِيَ من نفس أحرف اسمي، عكسها فقط.

إذا كان أخيل قد لاحظ، فهو لم يظهر عليه. صوته لطيف من أجل الرجل العجوز، لكنه لا يزال يرفض. ليس حتى يعيد أجاممنون الشرف الذي أخذه مني. حتى في الظلام كنت أستطيع أن أرى أن أوديسيوس لم يستغرب. أكاد أسمعه يبلغ الآخرين، باسطاً يديه في ندم: لقد حاولت. لو وافق أخيل، سيكون ذلك جيداً. إذا لم يفعل، رفضه في مواجهة الجوائز والاعتذار سيبدو فقط كالجنون، مثل الحنق أو الكبرياء غير العقلاني. سوف يكرهونه، تماماً كما كرهوا ميليقر.

ضاق صدري في حالة من الذعر، برغبة سريعة للركوع أمامه والتسول. لكنني لم أفعل. مثل فيونكس لقد أعلنت بالفعل، قررت. لم أعد أقود المسار، إلا مع يد أخيل في سدة الحكم.

أياكس لا يملك رباطة جأش أوديسيوس - يحملق على نحو فاضح، وجهه منحوت مع الغضب. فقد كلفه كثيراً أن يكون هنا، أن يتضرع إلى مرتبة أقل. إذا لم يقاتل أخيل، فسيكون هو أريستوس أخيون/ أشن.

عندما ذهبوا، وقفت وأعطيت ذراعي لفيونكس. لقد كان متعباً هذه الليلة، أستطيع أن أرى، وخطواته بطيئة. في الوقت الذي تركته فيه - تأوهت العظام القديمة على فراشه - وعدت إلى خيمتنا، كان أخيل قد نام بالفعل.

شعرت بخيبة أمل. تمنيت، ربما، محادثة، جسدين في سرير واحد، لأطمئن أن أخيل الذي رأيته على العشاء لم يكن الوحيد. لكنني لم أوقظه، انزلقت من الخيمة وتركته ليحلم.

جثمت في الرمال الرخوة، في ظل الخيمة الصغيرة.

"برسيس؟" ناديت بهدوء.

هناك صمت، ثم سمعت: "باتروكلوس؟".

"نعم".

رفعت جانب الخيمة بقوة وسحبتني بسرعة إلى الداخل.

وجهها مقروص بالخوف. "من الخطير للغاية لك أن تكون هنا. أجاممنون مغتاظ. سوف يقتلك". قالت كلماتها بهمس متسرع.

"لأن أخيل رفض الرسل؟" همست مرة أخرى.

أومأت برأسها، وفي حركة سريعة تشممت خارج مصباح الخيمة الصغيرة. "أجاممنون يأتي في كثير من الأحيان ليلقي علي نظرة. أنت غير آمن هنا". في الظلام لم أستطع أن أرى القلق على وجهها، لكن صوته ملأ به. "يجب عليك أن تذهب".

"سوف تكون كلمات سريعة. لا بد لي من التحدث معك".

"إذن يجب أن أخبئك. لأنه يأتي من دون سابق إنذار".

"أين؟" الخيمة صغيرة، عارية من كل شيء ما عدا السرير، والوسائد والبطانيات، والملابس القليلة.

"السرير".

كومت حولي الوسائد وأكوام البطانيات. ثم تمددت إلى جانبي، وسحبت الغطاء فوق رؤوسنا. محاط برائحتها، المألوفة والدافئة. ضغطت فمي على أذنها، بحديث بالكاد يعلو نفساً. "يقول أوديسيوس أن الطرواديين سوف يحطمون الجدار ويقتحمون المخيم غداً. يجب أن نجد مكاناً لنخبئك. بين المرميدونيين أو في الغابة".

شعرت بخدها تتحرك ضد خدي وهي تهز رأسها.

"لا أستطيع. ذاك سيكون المكان الأول الذي سوف يبحث فيه. هذا فقط سيؤدي إلى المزيد من المتاعب. سوف أكون على ما يرام هنا".

"لكن ماذا لو استولوا المخيم؟".

"سوف أستسلم للاينيس، ابن عم هيكتور، إذا كنت أستطيع. وهو معروف أنه رجل تقي، وقد عاش والده كراعي لمدة من الوقت بالقرب من قريتي. إذا كنت لا تستطيع، سوف أجد هيكتور أو أي من أبناء بريام".

هززت رأسي. "إنه أمر خطير جداً. يجب ألا تعرضي نفسك".

"أنا لا أعتقد أنهم سوف يؤذيني. أنا واحدة منهم، بعد كل شيء".

شعرت فجأة بحماقتي. الطراوديين هم المحررين لها، وليس الغزاة. "بالطبع"، قلت بسرعة. "سوف تكونين حرة، حينها. أنت تريدين أن تكوني مع -".

"برسيس!" سحب باب الخيمة إلى الوراء، ووقف أجاممنون في المدخل.

"نعم؟" قالت جالسة، بحذر لتبقي البطانية فوقي.

"هل كنت تتحدثين؟".

"أصلي يا سيدي".

"وأنت ممددة أرضاً؟".

خلال النسيج السميك من الصوف أستطيع أن أرى وهج المشعل. صوته عال، كما لو أنه كان يقف بجانبنا. سأجبر نفسي ألا أتحرك. سوف تعاقب إذا قبض علي هنا.

"هكذا علمتني أمي يا سيدي. أهذا غير صحيح؟".

"كان يجب أن تكوني قد تعلمت بشكل أفضل الآن. ألم يصححك الكهنة؟".

"لا يا سيدي".

"لقد عرضت رجوعك إليه هذه الليلة، لكنه لا يريدك".

يمكنني سماع الالتواء القبيح في كلماته. "إذا استمر يقول لا، ربما سوف سأطالب بك لنفسي".

أطبقت قبضتي. لكن برسيس قالت فقط: "نعم، سيدي".

سمعت سقوط القماش، والضوء يختفي. لم أتحرك، ولم أتنفس حتى عادت برسيس تحت الأغطية.

"لا يمكنك البقاء هنا" قلت.

"الأمر على ما يرام. إنه يهدد فقط. يحب أن يراني خائفة".

هذه الواقعية في لهجتها تروعني. كيف يمكنني تركها إلى ذلك، الشبق، والخيمة الوحيدة، وأساور سميكة كالأغلال؟ لكن إذا بقيت، ستكون في خطر أعظم.

"يجب أن أذهب"، قلت.

"انتظر". لمست ذراعي. "إن الرجال" قالت بتردد. "إنهم غاضبون من أخيل. يلومونه على خسائرهم. أجاممنون يرسل رجاله بينهم لإثارة الجدال. لقد نسوا تقريباً الطاعون. كلما أطال بعدم قتاله، بقدر ما سوف يكرهونه". إنه أسوأ مخاوفي، قصة فيونكس تنبعث فيها الحياة.

"ألن يقاتل؟".

"ليس حتى يعتذر أجاممنون".

عضت شفتها. "الطروادين، أيضاً. لا يوجد أحد يخشونه أكثر منه، أو يكرهونه أكثر. سوف يقتلونه لو كان ذلك في وسعهم غداً، وجميع العزيزين على قلبه. يجب أن تكون حذراً".

"سوف يحميني".

"أعرف أنه سوف يفعل"، قالت، "طالما كان حياً. لكن حتى أخيل قد لا يكون قادر على محاربة هيكتور وساربيدون معاً". ترددت مرة أخرى. "إذا وقع المخيم، فسوف أطالب بك كزوجي. ربما يساعد ذلك بعض الشيء. يجب أن لا تتكلم عن ما كنت له، بالرغم من ذلك. سيكون ذلك حكماً بالإعدام". شدّت يدها على ذراعي. "عدني".

"برسيس"، قلت، "إذا كان ميتاً، فأنا لن أكون وراء ذلك بكثير".

ضغطت يدي إلى خدها. "إذن عدني بشيء آخر"، قالت. "عدني أنه مهما يحدث، فإنك لن تغادر طروادة من دوني، أنا أعلم أنك لا تستطيع-" قطعت كلماته. "أفضل العيش كأختك بدلاً من البقاء هنا".

"هذا شيء لن تستطيعي إلزامي به"، قلت. "أتمنى أن لا أتركك، إذا كنت ترغبين بالقدوم. يغيظني إلى درجة لا يمكن قياسها التفكير في أن الحرب قد تنتهي غداً، ولن أراك ثانية أبداً".

بدت الابتسامة سميكة في حلقها. "أنا سعيدة". أنا لا أقول أنني لا أفكر في مغادرة طروادة أبداً.

جذبتها إلي، وقد ملئت ذراعي بها. وضعت رأسها على صدري. للحظة لم نعد نفكر في أجاممنون والخطر وقتلى اليونانيين. ليس هناك سوى يدها الصغيرة على معدتي، ونعومة خدها وأنا أداعبها. غريباً جداً كيف تناسبت هناك.

كيف بسهولة كنت أمس شعرها بشفتي، ناعم تفوح منه رائحة الخزامى. تنهدت قليلاً، واختبأت في صدري أكثر.

يمكنني تقريباً أن أتخيل أن هذه هي حياتي، محتجزاً في الدائرة العذبة لذراعيها. كنت لأتزوجها، ويكون لدينا طفل.

ربما لو لم أعرف أخيل أبداً.

"يجب أن أذهب"، قلت.

سحبت أسفل البطانية، وأطلقتني إلى الهواء. أمسكت بوجهي بين يديها. "كن حذراً غداً"، قالت. "أفضل الرجال. أفضل المرميدونيون". وضعت أصابعها على شفتي، موقفة إعتراضي. "إنها الحقيقة"، قلت. "دعه يقف، لمرة واحدة". ثم قادتني إلى جانب خيمتها، وساعدتني لأنزلق تحت القماش. آخر شيء شعرت به هو يدها، تضغط على يدي مودعة.

في تلك الليلة تمددت في السرير إلى جوار أخيل. وجهه بريء، ينام مصقولاً بصبيانية فاتنة. أحب أن أراه كذلك.

هذه هي حقيقة ذاته، جاد وبرئ، مليء بالأخطاء لكن دون حقد. ضائع في المعاني المزدوجة الماكرة بين أجاممنون وأوديسيوس، لأكاذيب وألعاب القوى. أربكوه، وربطوه إلى وتد واصطادوا به. داعبت البشرة الناعمة لجبهته. أود أن أفكه لو استطعت. إذا سمح لي.

الفصل التاسع والعشرون

صحونا على صيحات ورعد، عاصفة انفجرت من زرقة السماء. لم يكن هناك مطر، فقط الهواء الرمادي، يفرقع بجفاف، وشرائط خشنة تضرب كتصفيق يد عملاقة. سارعنا إلى باب الخيمة لننظر خارجاً. دخان، لاذع ومعتم، ينجرف حتى الشاطئ باتجاهنا، يحمل رائحة الأرض التي فجرها البرق. لقد بدأ الهجوم، ولقد حافظ زيوس على صفقته، مُشكلاً مقدم الطرواديين بالتشجيع السماوي. شعرنا بالقصف، عميقاً في الأرض- وهي مهمة العربات، ربما، يقودها ساربيدون الضخم.

قبضت يدي أخيل على يدي، وجهه ساكن. هذه هي المرة الأولى خلال العشر السنوات التي يقوم فيها الطرواديين بتهديد البوابة، أن يدفعوا لهذا البعد عبر السهل أبداً. لو حطموا الجدار، فسوف يحرقون سفننا - وسيلتنا الوحيدة للعودة لديارنا، الشيء الوحيد الذي يجعلنا جيشاً وليس لاجئين. هذه هي اللحظة التي استدعاها أخيل وأمه:

الإغريق، مكسورين ويائسين، من دونه. المفاجأة التي لا جدال فيها لإثبات جدارته. لكن متى سيكون ذلك كافياً؟ متى سوف يتدخل؟

"أبداً"، قال، عندما طلبت منه. "أبداً حتى يتوسل أجاممنون لمغفرتي أو يمشي هيكتور بنفسه إلى مخيمي مهدداً ما هو عزيز علي. لقد أقسمت أن لا أفعل".

"ماذا لو مات أجاممنون؟".

"أحضر لي جثته، وسوف أحارب". وجهه منحوت وجامد، مثل تمثال الإله شتيرن.

"ألا تخشى أن يكرهك الرجال؟".

"ينبغي لهم أن يكرهوا أجاممنون. فكبرياؤه هو من قتلهم".

وكبريائك. لكنني أعرف النظرة على وجهه، والتهور الداكن في عينيه. إنه لن يتنازل. هو لا يعرف كيف. لقد عشت معه ثمانية عشر عاماً، ولم يتراجع أبداً، لم يخسر أبداً. ماذا سيحدث إذا أجبر على ذلك؟ أخشى عليه، وعلي، وعلينا جميعاً.

لبسنا وتناولنا الطعام، تحدث أخيل بشجاعة عن المستقبل. يتحدث عن الغد، ربما نسبح، أو حتى نتسلق جذوع أشجار السرو العارية اللزجة، أو مراقبة بيض السلاحف البحرية يفقس، التي تحتضنها الرمال تحت حرارة الشمس حتى الآن. لكن ذهني استمر بالانزلاق من كلماته، مسحوباً إلى الرمادي الذي ينز من السماء، بالرمال الباردة الشاحبة كالجيفة، وعلى البعد، صرخات احتضار الرجال الذين عرفتهم. فكم سيكون هناك حتى نهاية اليوم؟

شاهدته يحدق فوق المحيط. ما زال غير طبيعي، كما لو أن ثيتيس تمسك أنفاسها. عينيه داكنة وتتسع بعتمة خافتة تطغى على الصباح. شعلة شعره تلعق جبهته.

"من هذا؟" سأل، فجأة. أسفل الشاطئ، هيئة بعيدة تحمل على محفة إلى الخيمة البيضاء. شخص مهم؛ هناك حشد من حوله.

انتهزت الحركة كعذر، كالهاء. "سوف أذهب لأرى".

خارج معسكرنا، زادت أصوات المعركة لتصبح أعلى: صرخات نافذة لخيول طعنت بأوتاد الخندق، صيحات القادة اليائسة، الضجة الصاخبة للمعدن على المعدن.

تجاوزتني أكتاف بودلاريس إلى الخيمة البيضاء. الهواء مثقل برائحة الأعشاب والدم والخوف والعرق. لوح لي نيستور عن يميني، ويده تشد بإحكام على كتفي، اقشعر على أثرها بدني خلال سترتي. صرخ بذعر، "سوف نضيع! لقد حطموا الجدار!".

وراءه اضطجع ماتشين يلهث على منصة نقالة، ساقه تنشر بركة من الدماء من الطعنة الممزقة لسهم. انحنى بـــودلاريس عليـــه، يعمـــل بالفعل.

رآني ماتشين. "باتروكلوس"، قال، وهو يلهث قليلاً.

ذهبت إليه. "ستكون على ما يرام؟".

"لا أستطيع أن أقول ذلك حتى الآن. أعتقد -" قطـــع كلامـــه، تقلصت عينيه مغلقة.

"لا تتحدث إليه"، قال بودلاريس، بحدة. ويديه مغطاة بدماء أخيه.

ينطلق صوت نيستور متصاعداً، معدد المصيبة تلو المصيبة: تكسر الجدار، والسفن في خطر، وهذا العدد الكبير من الملـــوك الجرحـــى - ديوميديس، أجاممنون، أوديسيوس، متناثرين حول المخيم كالســـترات المكومة.

فتح ماتشين عينيه. "ألا يمكنك التحدث إلى أخيل؟" قال، بصوت أجش. "أرجوك. من أجلنا جميعاً".

"نعم! ثيا يجب أن تأتي لمساعدتنا، أو سنضيع!" حفرت أصـــابع نيستور في جسدي، وتبلل وجهي برذاذ الذعر من شفتيه.

أغلقت عيني. استرجعت قصة فيونكس، صـــورة الكاليـــدونين يركعون أمام كليوباترا، مغطين يديها وقدميها بدموعهم، وقـــدم مـــع دموعهم. في مخيلتي هي لا تنظر إليهم، فقط تمنحهم يديها كما لو أنهـــا ربما قماش يمسحون به تدفق أعينهم.

تراقب زوجها ميليقر لجوابه، طريقة فمه التي تخبرها ما يجب عليها أن تقوله: "لا".

انتزعت نفسي من أصابع الرجل العجوز المتشبثة. يائس لأهـــرب من رائحة الخوف الحامضة التي استقرت كالرماد فوق كـــل شـــيء. تحولت عن وجه ماتشين الملتوي بالألم ويد الرجل العجـــوز الممـــدودة لأفر من الخيمة.

بينما خطوت خارجاً كان هناك تكسر رهيب، كأنه هيكل سفينة يتمزق، كأن شجرة عملاقة تتحطم إلى الأرض.

الجدار. تبعته الصرخات، من الانتصار والهلع.

كل من حولي هم رجال يحملون رفاقهم الذين سقطوا، يعرجون على عكازات مؤقتة، أو يزحفون عبر الرمال، يجرون أطرافهم المكسورة وراءهم. لقد عرفتهم، جذوعهم مليئة بالندوب التي حشيت وأغلقـــت بمراهمي. لحمهم الذي نظفته أصابعي من الحديد والبرونـــــز والـــدم. وجوههم التي مزحت، شكرت، كشرت وأنا أعمل عليها. الآن هؤلاء الرجال دمروا ثانية، مغطين بالدم والعظام المهشمة. بسببه. بسببـــي.

أمامي، كافح شاب ليقف على ســاقه الـــتي اخترقهـــا ســـهم. يوربليس، أمير ثيساليا.

لم أتوقف لأفكر. لففت ذراعي تحت كتفه وحملته إلى خيمتـــه. فهو نصف يهذي مع الألم، لكنه عرفني.

"باتروكلوس"، أستطيع أن يناديني.

ركعت أمامه، ساقه في يدي. "يوربليس"، قلت.

"هل تستطيع التحدث؟".

"باريس الملعون"، قال. "ساقي". كان اللحم متـــورم وممـــزق. استللت خنجري وبدأت أعمل.

كز أسنانه. "أنا لا أعرف من أكره أكثر، الطرواديين أو أخيل. ساربيدون مزق الجدار إرباً بيديه العاريتين. أياكس أمسكهم قدر استطاعته. إنهم هنا الآن"، قال، وهو يلهث. "في المخيم".

انقبض صدري بذعر لكلماته، وكافحت الرغبة في الفرار. حاولت أن أركز على ما هو أمامي: تحرير ساقه من رأس السهم، ربط الجرح.

"أسرع"، قال، مبتلعاً الكلمة. "يجب أن أعود. سوف يحرقون السفن".

"لا يمكنك الذهاب مرة أخرى"، قلت. "لقد فقدت الكثير من الدم".

"لا"، قال. لكن رأسه هبط إلى الوراء، على حافة فقدان الوعي. هل سوف يعيش، أم لا، يعود ذلك لرغبة الآلهة. لقد فعلت كل ما بوسعي. أخذت نفساً وخطوت للخارج.

التهمت النار سفينتين، الأصابع الطويلة لصواريهم أضاءت بمشاعل الطرواديين. ضغط على الهياكل رجال سحقوا، صرخوا، بيأس، قفزوا إلى الطوابق ليتغلبوا على اللهب. الوحيد الذي استطعت تمييزه هو أياكس، ساقيه ممتدين أمام مقدمة مركب أجاممنون، ظل ضخم استعرض تحت السماء. تجاهل النار، رمحه يطعن نزولاً أيدي الطرواديين التي تجمهرت كإطعام السمك.

وأنا أقف هناك، متجمد وأحدق، رأيت يد مفاجئة، تمتد فوق العراك الصاخب لتقبض على الأنف الحاد للسفينة. ثم الذراع تحته، راسخة وقوية وداكنة، والرأس، وفواصل الجذع عريض الكتفين في الهواء كظهر دولفين من الرجال المهتاجين تحت. والآن جسد هيكتور البني بكامله يلتوي وحده أمام تبلد البحر والسماء، معلق بين الهواء

والأرض. وجهه مصقول، مسالم، عيناه مرتفعتين - كرجل يصلي، رجل يسعى من أجل الآلهة. توقف هناك للحظة، عضلات ذراعه تنعقد وتنبسط، ارتفع درعه عن كتفيه، مظهراً عظام وركين كإفريز معبد منحوت. ثم يده الأخرى تأرجح شعلة مشرقة نحو ظهر السفينة الخشبي.

رماها جيداً، هبطت وسط الحبال القديمة المتعفنة وشراع منطرح. قبض عليها اللهب على الفور، انزلقت على طول الحبال، ثم تأجج الخشب تحتها. ابتسم هيكتور. ولماذا لا يفعل؟ إنه يفوز.

صرخ أياكس محبطاً - على سفينة أخرى تلتهمها النيران، على الرجال الذين قفزوا في ذعر من الطوابق المتفحمة، على هيكتور ينزلق بعيداً عن متناوله، يتلاشى عائداً إلى الحشد أدناه. قوته هي كل ما يحافظ على الرجال من أن يحطموا تماماً.

ثم ومض رأس رمح من تحت، فضي كقشرة الأسماك على ضوء الشمس. طرف، سريع جداً تقريباً لأراه، وفجأة أزهرت فخذ أياكس بالأحمر المشرق. لقد عملت لفترة كافية في خيمة ماتشين لأعلم أنها اقتطعت خلال عضلاته.

ارتعشت ركبتيه للحظة، وانثنت ببطء. لقد وقع.

الفصل الثلاثون

راقبني أخيل وأنا أقترب، راكضاً بشدة وأنفاسي حملت طعم الدم إلى لساني. بكيت، اهتز صدري، حلقي احتك حتى انسلخ. سوف يكرهونه الآن. لن يتذكر أحد مجده، أو صدقه، أو جماله، كل ذهبه سيتحول إلى الرماد والخراب.

"ما الذي حدث؟" سأل. جذب حاجبه عميقاً في قلق. هل هو حقاً لا يعرف؟

"إنهم يموتون"، قلت مختنقاً. "كلهم. الطرواديين في المخيم، لقد أحرقوا السفن. أصيب أياكس، لم يتبقَ أحد غيرك لتنقذهم".

وجهه أصبح بارد وأنا أتحدث. "إذا كانوا يموتون، فهذا خطأ أجاممنون. لقد أخبرته ماذا سيحدث لو استولى على شرفي".

"لقد عرض الليلة الماضية –".

أصدر صوت من حنجرته. "لم يعرض شيئاً. بعض الحوامل، بعض الدروع. لا شيء ليصحح إهانته، أو أن يعترف بخطئه. لقد أنقذته مراراً وتكراراً، جيشه، حياته".

كان صوته غليظ بالغضب، بالكاد يضبط نفسه. "أوديسيوس قد يلعق حذائه، وديوميديس، والبقية، لكنني لن أفعل".

"إنه وصمة عار". تشبثت به، كأنه طفل. "أنا أعرف، وجميع الرجال يعرفون ذلك أيضاً. يجب أن تنساه. يبدو الأمر كما قلت؛ أنه أدان نفسه. لكن لا تلومهم لذنبه. لا تدعهم يموتون، بسبب جنونه. لقد أحبوك، وكرموك".

"كرموني؟ لا أحد منهم وقف معي ضد أجاممنون. لا أحد منهم تكلم من أجلي". المرارة في لهجته صدمتني. "لقد وقفوا جانباً وتركوه يهينني. كأنما هو على حق! لقد كدحت لهم لمدة عشر سنوات، ورد الدين هو تجاهلهم لي". أظلمت عينيه وأصبحت بعيدة. "لقد اتخذوا خيارهم. لن أذرف الدموع عليهم".

من أسفل الشاطئ تصدع صاري وهو يسقط. الدخان كان أسمك الآن. المزيد من السفن أصبحت في النار. المزيد من الرجال قتلوا. سوف يشتمونه، يلعنونه بأحلك سلاسل الجحيم.

"كانوا حمقى، نعم، لكنهم لا يزالون شعبنا!".

"المرميدونيون هم شعبنا. البقية يمكنهم إنقاذ أنفسهم".

كان سيمشي بعيداً، لكنني أمسكته إلي.

"سوف تدمر نفسك. لن تكون محبوباً لهذا، سوف تكون مكروهاً، وملعوناً. أرجوك، إذا كنت -".

"باتروكلوس"، الكلمة كانت حادة، لم يكلمني كذلك أبداً.

ثقبتني عينيه، صوته مثل حكم القاضي. "لن أفعل هذا. لا تطلب ثانية".

حدقت فيه، مباشرة كالرمح يطعن السماء. لم أستطع أن أجد الكلمات التي من شأنها أن تصل إليه. ربما لم يكن هناك شيء. الرمال رمادية، والسماء رمادية، وفمي، ظمآن ومكشوف. لقد شعرت أنها نهاية كل الأشياء. هو لن يقاتل. سيموت الرجال، وشرفه معهم. لا تخفيف، لا رحمة. حتى الآن، لا يزال، ذهني يخوض في الزوايا، بيأس، على أمل العثور على الشيء الذي قد يلينه.

ركعت، وضغطت يديه على وجهي. تدفقت على خدي الدموع، مثل ماء فوق الصخور الداكنة. "من أجلي إذن"، قلت.

"أنقذهم من أجلي. أنا أعرف ما أطلبه منك. لكـــن اطلبـــه. مـــن أجلي".

تطلع إلى أسفل وجهي، ورأيت سحب كلماتي عليه، والنضـــال في عينيه. ابتلع ريقه.

"أي شيء آخر"، قال. "أي شيء. لكن ليس هذا. لا أستطيع".

نظرت إلى حجر وجهه الجميل، ويئست. "إذا كنت تحبني –".

"لا!" تصلب وجهه بتوتر. "لا أستطيع! إذا استسلمت، أجاممنون يستطيع أن يهينني متى شاء. الملوك لن تحترمني، و لا الرجـــال!" كـــان لاهث، كما لو كان قد ركض بعيداً. "هل تعتقد أنني أتمنى أن يموتـــوا جميعاً؟ لكنني لا أستطيع. لا أستطيع! لن أدعه يأخذ هذا مني!".

"إذن افعل شيئاً آخر. أرسل المرميدونيين على الأقل. أرســـلني في مكانك. ضعني في درعك، وسأقود المرميدونيين. سيعتقدون أنه أنت". الكلمات صدمتنا كلينا. يبدو أنها تأتي من خلالي، وليس مني، كما لو أنها تكلمت مباشرة من فم آلهة. ومع ذلك تمسكت بها، كرجل غريق. "هل ترى؟ لن تحنث بيمينك، ومع ذلك سوف تنقذ الإغريق".

كان يحدق فيني. "لكن لا يمكنك القتال" قال.

"لن أكون مضطراً لذلك! إنهم خائفون منك، إذا أظهرت نفسي، سوف يفرون".

"لا"، قال. "إنه أمر خطير للغاية".

"أرجوك". أمسكت له. "إنه ليس كذلك. سوف أكون على ما يرام. لن أذهب بالقرب منهم. واوتومودن ســـيكون معـــي، و بقيـــة المرميدونيين. إذا كنت لا تستطيع القتال، فأنت لا تســـتطيع. لكـــن انقذهم بهذه الطريقة. دعني أفعل هذا. قلت إنك ســـوف تمـــنحني أي شيء آخر".

"لكن –".

لم أسمح له بالإجابة. "فكر! أجاممنون سوف يعلم أنك ما زلت تتحداه، لكن الرجال سيحبونك. ليس هناك شهرة أكبر من هذا – ستثبت لهم أن طيفك أكثر قوة من جيش أجاممنون كامل".

كان يستمع.

"سيكون اسمك الجبار من أنقذهم، وليس رمح ذراعك. سوف يضحكون على ضعف أجاممنون، حينها. هل ترى؟".

راقبت عينيه، ورأيت الممانعة تفسح المجال، بوصة اثر بوصة. كان يتخيل ذلك، الطرواديين يفرون من سلاحه، يطوقون أجاممنون. ثم ينخفض الرجال عند قدميه في امتنان.

رفع بيده. "اقسم"، قال. "اقسم لي أنك إذا ذهبت، فلن تقاتلهم. سوف تبقى مع اوتومودن في العربة، وتدع المرميدونيين يذهبون أمامك".

"نعم". وضغطت يدي إلى يده. "بالطبع. أنا لست مجنوناً. فقط لأخيفهم، هذا كل شيء". كنت منقوع ومصاب بالدوار. لقد وجدت طريق خلال دهاليز كبريائه وغضبه اللانهائية. سأنقذ الرجال، وأنقذه من نفسه. "سوف تسمح لي؟" تردد لحظة أخرى، عينيه الخضراء تبحث في عيني. ثم، ببطء، أومأ برأسه.

جثى أخيل ركع، يشبك الأبزيمات في، أصابعه سريعة لا يمكنني تتبعها، فقط أشعر بالسرعة، سحب ليضيق الحزام. شيئاً فشيئاً، ركبها لي: الصدرة البرونزية ودرع الساق، مشدودة على جلدي، والجلود التحتية. بينما هو يعمل، أوعز لي بصوت منخفض سريع متواصل. يجب أن لا أقاتل، يجب أن لا أترك اوتومودن، ولا المرميدونيين الآخرين. يجب على أن أبقى في العربة وأفر عند أول بادرة خطر؛

يمكنني أن أطارد الطرواديين عودة إلى طروادة لكن لا أحاول أن أقاتلهم هناك. والأهم من ذلك كله، الأهم من ذلك كله، لا بد لي أن أبقى بعيداً عن جدران المدينة و الرماة الذين وضعوا هناك، على استعداد لاصطياد اليونانيين الذين يقتربون جداً.

"لن يكون الأمر كالسابق"، قال. "عندما كنت هناك".

"أعرف". حركت كتفي. كان الدرع صلب وثقيل وقاس. "أشعر كأنني دافني" قلت له، مُقشرة في جلدها الجديد.

لم يضحك، فقط سلمني رمحين، رؤوسها مصقولة وبراقة. أخذهم، وبدأ الدم يتسارع في أذني. كان يتحدث ثانية، نصائح أخرى، لكنني لم أسمع ذلك. كنت أصغي إلى قرع قلبي الجزع. "أسرع"، أتذكر أنني قلت.

أخيراً، الخوذة لتغطي شعري الداكن. أدار مرآة برونز مصقولة تجاهي.

حدقت في نفسي في الدرع الذي أعرفه كما كنت أعرف راحة يدي، الشارة على الخوذة، السيف الفضي يتدلى من وسطه، حمالة السيف الذهبية المبرومة. كل ذلك لا يمكن لأحد أن يخطئه، والتعرف عليه سيكون على الفور. فقط عيني شعرت بها كعيني، أكبر حجماً وأكثر قتامة من عينيه. قبلني، ممسكاً بي بنعومة، مفتوحاً بدفء أشعر بحلاوة أنفاسه في حلقي.

ثم أخذ بيدي وذهبنا خارجين إلى المرميدونيين.

اصطفوا، مصفحين ومخيفين فجأة، طبقات معادنهم تلمع مثل أجنحة حشرة زيز الحصاد المشرق. قادني أخيل إلى عربة يربطها فريق من ثلاثة أحصنة، لا تغادر العربة، لا ترمي رماحك - وأنا فهمت إنه كان يخشى أن أضحي بنفسي إذا أنا فعلاً قاتلت. "سأكون على ما

يرام"، قلت له. وأدرت ظهري، لأجهز نفسي في العربة، لأثبت رماحي و أضع قدمي.

ورائي، تحدث لحظة إلى المرميدونيين، ملوحاً بيده فوق كتفه إلى طوابق السفن المدخنة، والرماد الأسود المحتشد صعوداً إلى السماء، وهيئة التجمهر الذي يتصارع بأجسامه. "أعيدوه لي" قال لهم. أومأوا برؤوسهم وقعقعوا برماحهم على دروعهم في موافقة. صعد اوتومودن أمامي، وأخذ الزمام. علمنا جميعاً لماذا كانت العربة ضرورية.

لو ركضت إلى أسفل الشاطئ، لن يخطئوا بمعرفة لمن هذه الخطوات.

صهلت الخيول ولهثت، شاعرين بالعربة وراءهم. العجلات تتسبب بتمايل بسيط، فتهاديت، واهتزت رماحي.

"وازنهم" قال لي. "سيكون ذلك أسهل". انتظر الجميع بينما نقلت برعونة أحد الرماح ليدي اليسرى، وضربت خوذتي لتنحرف وأنا أفعل ذلك. مددت يدي لأصلحها.

"سوف أكون على ما يرام" قلت له. لنفسي.

"هل أنت مستعد؟" سأل اوتومودن.

ألقيت نظرة أخيرة على أخيل، يقف إلى جانب العربة ببؤس تقريباً. مددت يدي ليده، فقبض عليها. "كن حذراً" قال.

"سأكون كذلك".

كان هناك الكثير ليقال، لكن لمرة واحدة نحن لم نقل ذلك. سيكون هناك أوقات أخرى للحديث، الليلة وغداً وكل الأيام بعد ذلك. ثم ترك يدي.

التفت إلى اوتومودن. "أنا مستعد" قلت له. بدأت العربة تلف، يوجهها اوتومودن نحو الرمال المرتبة قرب الأمواج.

شعرت عندما وصلنا إلى هناك، بالعجلات تقبض على الطريق، والسيارة تنتظم. التفتنا نحو السفن، نسير بسرعة.

شعرت بالرياح تنتزع شارتي، وكنت أعرف أن شعر الخيل يتدفق ورائي. رفعت رماحي.

جلس اوتومودن القرفصاء إلى أسفل منخفض جداً لأشاهد أولاً. طارت الرمال من عجلاتنا المتماوجة، وحلق المرميدونيين وراءنا. أنفاسي تحولت إلى لهاث، وأنا أمسكت بمقبض الرماح حتى آلمتني أصابعي.

حلقنا متجاوزين الخيام الفارغة لادومينيوس وديوميديس، حول منحنى الشاطئ. وأخيراً، أول كتلة من الرجال.

وجوههم غير واضحة عن بعد، لكنني سمعت صيحات إدراكهم وفرحهم المفاجئ. "أخيل! إنه أخيل!" شعرت بارتياح شرس وغامر. إنها تعمل.

الآن، على بعد مئتي خطوة، تندفع أمامي، كانت السفن والجيوش، التفت الرؤوس إلى ضجيج عجلاتنا وأقدام المرميدونيين تضرب بانسجام على الرمال. أخذت نفساً ووازنت كتفي داخل قبضة درعي - درعه -. بعد ذلك، ملت برأسي إلى الخلف، رفعت الرمح، استعدت قدمي على جانبي العربة، أدعو ألا نصاب بعثرة تلقي بي، صرخت، بصوت متوحش مسعور صدم كل جسدي. آلاف الوجوه تحولت، الطرواديون واليونانيون، إلي في صدمة مجمدة و فرح. أصبحنا بينهم بما يشبه الاصطدام.

صرخت مرة أخرى، اسمه كان يغلي بصخب خارجاً من حلقي، وسمعت صرخة إجابة من الإغريق المحاصرين، عواء حيواني بالأمل. بدأ الطروادة يتشتتون أمامي، مهرولين إلى الوراء برعب يثلج الصدر.

كشفت عن أسناني في انتصار، وفاض الدم في عروقي، بسرور وحشي وأنا أراهم يركضون. لكن الطرواديين رجال شجعان، ولم يركضوا كلهم. رفعت يدي، أزن رمحي مهدداً.

ربما كان الدرع، الذي قولبني. وربما كانت سنوات مراقبته. لكن الموضع الذي وجدته كتفي لم يكن القديم المتذبذب بارتباك. كان أعلى وأقوى، بتوازن مثالي. حينها، قبل أن أتمكن من التفكير في ما أفعل، رميت - بلولبة مستقيمة طويلة في صدر طروادي. الشعلة التي كان يلوح بها على سفينة ادومينيوس انزلقت وجرت على الرمال بينما دُفع جسده إلى الوراء. لو أنه نزف، لو أن جمجمته انشقت عن دماغه، فأنا لم أرَ ذلك. مات، اعتقدت.

فم اوتومودن كان يتحرك، وقد اتسعت عينيه. أخيل لا يريدك أن تقاتل، خمنت أنه كان يقول. لكنني كنت أزن رمحي الآخر بيدي بالفعل. أستطيع أن أفعل ذلك. انحرفت الخيول مرة أخرى، وتبعثر الرجال عن طريقنا. هذا الشعور ثانية، للتوازن الخالص، للعالم يستعد ويترقب. وقعت عيني على طروادي، ورميت، وأنا أشعر بالخشب يتقد تجاه إبهامي. سقط، مجروحاً خلال فخذه في ضربة كنت أعرف أنها قد حطمت العظم. اثنان. كل الرجال من حولي صرخوا باسم أخيل.

أمسكت بكتف اوتومودن. "رمح آخر". تردد لحظة، ثم سحب الزمام، متباطئ حتى أتمكن من الميل على جانب العربة الصاخبة لأحضر أحد الرماح المعلقة على جسدها. بدا المقبض كأنه يقفز إلى يدي. كانت عيناي تبحث بالفعل عن الوجه المقبل.

بدأ اليونانيون ينتعشون - قتل مينيلوس رجل على مقربة مني، أحد أبناء نيستور قرع رمحه على عربتي لجلب الحظ السعيد قبل أن

يرميه تجاه رأس أمير طروادي. بيأس، سارع الطرواديين لعرباتهم، في حالة تراجع تام. ركض هيكتور بينهم، يصرخ للنظام. حصل على عربته، وبدأ بقيادة الرجال إلى البوابة، ثم فوق الجسر الضيق الذي يسد الخندق، ثم إلى السهل وراءه.

"اذهب! اتبعهم!".

وجه اوتومودن كان مليئاً بالتردد، لكنه أطاع، وأدار الخيول يطاردهم. قبضت على أكثر من رمح من الجثث - نصف ساحب لعدد قليل من الجثث ورائي قبل أن أتمكن من نفض الرؤوس منها - وطاردت عربات الطرواديين لأحاصرهم بالأبواب. رأيت سائقيها ينظرون إلى الوراء برعب، بشكل محموم، إلى أخيل المولود من العنقاء- كأنه من غضبه العارم.

لم تكن جميع الخيول ذكية كحصان هيكتور، فانزلقت العديد من العربات المذعورة من على الجسر إلى قاعدة الخندق، تاركة سائقيها ليفروا على أقدامهم. تابعناهم، خيول أخيل الإلهية تسابقت مع أرجلهم إلى خارج راحة الهواء. ربما توقفت بعد ذلك، مع تناثر الطرواديين عائدين إلى مدينتهم. لكن كان هناك خط من اليونانيين المحتشد ورائي يصرخ باسمي. اسمه. فلم أتوقف.

أشرت، ولف اوتومودن الخيول خارج على شكل قوس، ضربهن بالسياط للأمام. تجاوزنا الطرواديين الفارين و انحنينا حولهم لنواجههم وهم يركضون. صوبت رمحي، وصوبت مرة أخرى، شققنا البطون المفتوحة والحناجر و الرئتين والقلوب. أنا عديم شفقة، لا أخطئ، أتجنب الأبازيم والبرونزية لأمزق اللحم الذي انسكب أحمر مثل ثقب مسنن لجلد النبيذ. من أيامي في الخيمة البيضاء عرفت كل نقاط الضعف لديهم. إنه سهل جداً.

من المعترك الصاخب اندفعت عربة. السائق ضخم، شعره الطويل يحلق وراءه وهو يجلد خيله ليرغي ويزبد.

عينيه الداكنة تسمرت علي، والتوى فمه في غضب. درعه ناسبه كما يناسب الجلد الفقمة. إنه ساربيدون.

رفع ذراعه، ليصوب رمحه إلى قلبـــي. صرخ اوتومودن بشـــيء، وجذب الزمام بعنف. كان هناك أنفاس من الريح فوق كتفـــي. رأس الرمح الحاد دفن في الأرض ورائي.

صرخ ساربيدون، بلعنة أو تحدي، أنا لا أعرف. وازنت رماحي، كما لو كنت في حلم. هذا هو الرجل الذي قتل العديد من الإغريـــق. إنها يديه التي مزقت وفتحت البوابة.

"لا!" أمسك اوتومودن بذراعي. بيده الأخرى جلـــد الخيـــول، وقطعنا الميدان. حول ساربيدون عربته، في زاويـــة بعيـــدة، وللحظـــة اعتقدت أنه قد تخلى عني. ثم حولها لزاوية مرة أخرى ورفع رمحه.

انفجر العالم. وقفزت العربة في الهواء، وصرخت الخيول. وألقيت على العشب، وارتطمت رأسي بالأرض.

سقطت خوذتي إلى الأمام على عيني، فدفعتها إلى الوراء. رأيـــت خيولنا، متشابكة في بعضها البعض؛ لقد سقط أحدها، مطعون بالرمح. و لم أرَ اوتومودن.

من بعيد جاء ساربيدون، يقود عربته دون هوادة نحوي. ليس هناك وقت للفرار؛ وقفت لأجابهه. رفعت رمحي، قبضت عليه كما لـــو أنـــه ثعبان سوف أخنقه. تخيلت كيف سوف يفعل أخيل ذلك، زرعت قدمي في الأرض، والتوت عضلات ظهري. سوف يرى فجوة في هذا الـــدرع الذي لا يمكن اختراقه، أو أنه سيخلق واحدة. لكنني لست أخيل. ما أراه هو شيء آخر، فرصتي الوحيدة. هي تقريباً على عاتقي. ألقيت الرمح.

أصاب بطنه، حيث صفحة الدرع سميكة. لكـــن الأرض غـــير متساوية، ولقد ألقيته بكل قوتي. لم يجرحه، لكنه قرعه بقوة إلى الوراء في خطوة واحدة. وهو ما يكفي. وزنه أمال العربة، ثم هـــوى منـــها. اندفعت خيوله متجاوزتني وتركته وراءها، على الأرض بـــلا حـــراك. تشبثت بمقبض سيفي، مذعور من أنه سوف يقوم ويقتلني؛ ثم رأيـــت منظر غير طبيعي، الزاوية المكسورة لعنقه.

لقد قتلت ابن زيوس، لكن ذلك ليس كافياً. يجـــب علـــيهم أن يعتقدوا أن أخيل من فعل ذلك. لقد استقر الغبار بالفعل علـــى شـــعر ساربيدون الطويل، كحبوب لقاح على مؤخرة نحلة. استرددت رمحـــي وطعنته بكل ما أوتيت من قوة في صدره. فطفر الدم، لكنه ضعيف. لم يكن هناك ضربات قلب تدفعها إلى الأمام. عنـــدما ســـحبت الـــرمح خارجاً، انـــزاح ببطء، مثل بصلة من الأرض المتكسرة. هذا ما سوف يفكرون أنه قتله.

سمعت الصيحات، رجال يحتشدون تجاهي، في عربـــات وعلـــى أقدامهم. الليسيين، الذين رأوا دماء ملكهم على رمحي. استولت يـــد اوتومودن على كتفي، وسحبتني إلى العربة. كان قد تخلص من الحصان الميت، وصحح العجلات. لاهثاً، ومبيضاً مـــن الخـــوف. "يجـــب أن نذهب".

أطلق اوتومودن رؤوس الخيول المتحمسة، فتسابقنا عبر الحقـــول من مطاردة الليسيين. هناك وحشية وطعم حديد في فمي. أنا حـــتى لم ألحظ كيف اقتربت من الموت. طن رأسي بالوحشية الحمراء، تزهر مثل الدم المنبثق من صدر ساربيدون.

في هروبنا، قادنا اوتومودن على مقربة من طروادة. الجدران تلـــوح لي، قطع الحجارة الضخمة، التي ربما ساوتها أيدي الآلهـــة، والبوابـــات،

عملاقة وسوداء من البرونـــز القديم. كان أخيل قد حذرني لأحذر مـــن الرماة على الأبراج، لكن التعبات والشغب حدثت بسرعة، و لم يعد أحد حتى الآن. طروادة بدون حراسة تماماً. الطفل يمكنه أن يأخذها الآن.

فكرة سقوط طروادة ثقبتني بمتعة وحشية. إنهـــم يســـتحقون أن يفقدوا مدينتهم. إنه خطأهم، كل ذلك. خسرنا عشر سنوات، والكثير من الرجال، وأخيل سيموتون، بسببهم. لا أكثر.

قفزت من العربة وركضت إلى الجدران. عثرت أصـــابعي علـــى ثغرات طفيفة في الحجر، كرجل أعمى تحسست. تســـلقت. قـــدمي تبحث عن الرقائق الصغيرة في الصخور التي قطعتـــها الآلهـــة. لســـت رشيقاً، لكنني حفرت، يدي تخمش الحجر قبل أن تتشبث. حتى الآن أنا أتسلق. سأسحق مدينتهم التي لا تسحق، وأقبض على هيلين، وصـــفار الذهب الثمين معها. تخيلت أنني أسحبها خارجاً تحت ذراعي، وألقيها أمام مينيلوس. سأفعل. لن يموت المزيد من الرجال من أجل غرورها.

باتروكلوس. صوت كالموسيقى، فوقي. نظرت لأعلى لأرى رجل يتكأ على الجدران كالشمس، شعره الداكن على كتفيه، سهام كنانته وقوسه تدلت عرضاً حول جذعه. انـــزلقت قليلاً، كشـــط الصـــخر ركبتي. كان جميل بشكل ثاقب، بشرة ناعمة وبتقاطيع جميلة تضـــيء بشيء أكثر من الإنسان. أسود العينين. أبولو.

ابتسم، كأن هذا كان كل ما كان يريد، أن أتعرف عليه. ثم مد يده وصولاً إلى أسفل، امتدت ذراعه بشكل مستحيل على طول المسافة من موضع تسلقي وقدميه. أغمضت عيني وشعرت فقط بهذا: إصـــبع، تصطاد الجزء الخلفي من درعي، وتقتلعني وتسقطني أرضاً.

هبطت بشدة، فعقع درعي. ذهني ضبابياً قليلاً من وقع الصدمة، من الإحباط من العثور على الأرض فجأة تحتي.

ظننت أني أتسلق. لكن ها هو الجدار أمامي، غير متسلق بعناد. شددت على فكي وبدأت ثانية، لن أدعه يهزمني.

هذيت، محموماً بحلمي بأسر هيلين في ذراعي. الحجارة كالمياه الداكنة التي تتدفق دون توقف على شيء قد أسقطته، وأنا أريد استعادته. نسيت كل شيء عن الآلهة، لماذا سقطت، لماذا قدمي ثابتة في نفس الشقوق التي تسلقتها سابقاً. لعل هذا هو كل ما أفعله، فكرت، مخبولاً - يتسلق الجدران ويسقط منها. وهذه المرة عندما نظرت لأعلى، لم يكن الآلهة يتبسم. اغترفت الأصابع نسيج سترتي وأمسكتني، متدلياً. ثم جعلتني أسقط.

ارتطم رأسي بالأرض مرة أخرى، وتركني مشدوه ولاهث. من حولي تجمع حشد ضبابي من الوجوه. هل جاءوا لمساعدتي؟ ثم حينها شعرت: البرد الثاقب للهواء على جبيني المبلل بالعرق، شعري الداكن طليقاً، متحرر أخيراً.

خوذتي. أراها بجانبي، انقلبت كأنها قوقعة حلزون فارغة. درعي، أيضاً، اهتز وأطلق، كل هذه الأشرطة التي ربطها أخيل، حُلت من قبل الآلهة. سقط مني، متناثراً على الأرض، بقايا تصدعي، الصدفة المتصدعة.

كسر الصمت المتجمد بصرخات غاضبة غليظة من قبل الطرواديين. ذهني تباغته الحياة: أنا أعزل ووحيد، وهم يعرفون أنني فقط باتروكلوس.

ركضت. اندفع إلى الأمام إلى قدمي. ومض رمح، فقط تنفس ببطء. جرح جلد ربلة ساقي، وعلمه بخط أحمر.

انحرفت بعيداً عن متناول الأيدي، الذعر طليقاً ويقرع في صدري. من بين ضباب الهلع رأيت رجلاً يصوب رمح في وجهي.

بطريقة ما كنت سريعاً بما فيه الكفاية، ومر فوقي، مقلباً شعري كأنفاس حبيب. انغرز رمح أمام ركبتي، من المفترض أن يسقطني. قفزت ذلك، صدمت أنني لست ميتاً بالفعل. لم أكن سريعاً جداً طيلة حياتي.

الرمح الذي لم أره أتى من الخلف. اجترح جلد ظهري، وبلغ الهواء تحت أضلعي. تعثرت، مدفوعاً إلى الأمام بقوة الضربة، بصدمة التمزق بالألم والخدر المتقد في بطني. شعرت بأنني أجر بقوة، ورحل رأس الرمح. تدفق الدم حار على بشرتي الباردة. أظن أنني صرخت.

تزعزعت وجوه الطروادين، ووقعت. دمي يجري خلال أصابعي وعلى العشب. تفرق الحشد، ورأيت رجلاً يمشي نحوي. يبدو أنه يأتي من مسافة بعيدة، لينحدر، بطريقة أو بأخرى، كما لو أنني مستلق في أسفل واد عميق.

عرفته. عظام وركيه كإفريز معبد، جبينه متغضن وكالح. لم ينظر إلى الرجال الذين يحيطون به؛ كان يمشي كما لو أنه كان لوحده في ساحة المعركة. إنه قادم لقتلي. هيكتور.

أنفاسي أصبحت لهاث ضحل والتي أشعر بأنها تمزقني كجروح جديدة. قرع الذكرى فيني، كخفقات نبض الدم في أذني. لا يمكنه أن يقتلني. يجب أن لا يفعل. أخيل لن يدعه يعيش إذا فعلها. وهيكتور يجب أن يعيش، دائماً، يجب أن لا يموت أبداً، ولا حتى عندما يكون عجوزاً، ولا حتى عندما يكون ذاوٍ، حتى أن عظامه تنسل تحت جلده مثل الصخور الطليقة في النهر. يجب أن يعيش، لأن حياته، فكرت وأنا أخدش العشب، أنه السد النهائي قبل أن يتدفق دم أخيل.

يائساً، التفت إلى الرجال من حولي وخربشت نحو ركبهم. أرجوك، قلت بصوت كالنقيق. أرجوك.

لكنهم لم ينظروا؛ إنهم يراقبون أميرهم، ابن بريام البكر، وخطواته التي لا ترحم تجاهي. ارتعش رأسي إلى الوراء، و أنا أراه على مقربة الآن، ورمحه مرفوع. الصوت الوحيد الذي أسمعه كان صوت رئتي الثقيلة، تضخ الهواء إلى صدري وتدفعه منه. ارتفع رمح هيكتور فوقي، مال مثل الإبريق. ثم سقط، اندفعت الفضة المشرقة، نحوي.

لا. اضطربت يدي في الهواء كالطيور المفزوعة، محاولاً أن أوقف حركة الرمح الحثيثة نحو بطني. لكنني ضعيف كطفل رضيع ضد قوة هيكتور، استسلمت كفي، ملفوفة بأشرطة حمراء اللون. رأس الرمح يغوص محرقاً في ألم شديد يوقف أنفاسي، وفورة العذاب تتفجر فوق معدتي كلها. سقط رأسي إلى الوراء على الأرض، وآخر صورة رأيتها هي هيكتور، يميل بخطورة فوقي، يلوي رمحه بداخلي كما لو أنه يحرك قدر. وآخر شيء فكرت فيه هو: أخيل.

الفصل الواحد والثلاثون

وقف أخيل على قمة الجبل يراقب الهيئات الداكنة لمعركة تتحرك عبر ميدان طروادة. لا تبين الوجوه أو الأشكال الفردية. الحملة نحو طروادة تشبه المد والجزر القادم، وميض السيوف والدروع كجلد السمك تحت الشمس.

اليونانيون يطردون الطرواديين، كما قال باتروكلوس. قريباً سيعود، وأجاممنون سوف يركع. سوف يكونون سعداء ثانية.

لكن لا يمكنه أن يشعر به. هناك خدر فيه. الميدان يتلوى مثل وجه جورجون، يحوله إلى حجر ببطء. الثعابين التوت والتوت أمامه، مجتمعة في عقدة معتمة في قاعدة طروادة. لقد سقط ملك، أو أمير، وهم يتقاتلون على الجثة.

من؟ ظلل عينيه، لكنها لم تكشف له أكثر من ذلك. باتروكلوس سوف يكون قادراً على إخباره.

يرى الشيء كقطع. رجال، يأتون من أسفل الشاطئ نحو المخيم. أوديسيوس، يعرج بجوار الملوك الآخرين. مينيلوس يحمل شيء بين ذراعيه. قدم ملطخة بالعشب معلقة طليقة. خصلات شعر أشعث تسللت من الكفن المؤقت. أصبح الخدر الآن رحيماً. للحظات الأخيرة القليلة منه. ثم، كان السقوط.

انتزع سيفه ليشق رقبته. فقط عندما جاءت يده خالية تذكر: أنه قد أعطاني سيفه. ثم استولى أنتيلوتش على معصميه، و تحدث الرجال كلهم. كل ما أمكنه أن يراه هو قطعة قماش ملطخة بالدماء. بزئير

ألقى أنتيلوتش عنه، ولكم مينيلوس أرضاً. ووقع على الجسد. اندفع فيه الإدراك، يخنق أنفاسه. جاءت الصرخة، ممزقة إياه. ثم أخرى وأخرى. أمسك بشعره بين يديه، وانتزعه من رأسه. الضفائر الذهبية تهبط على الجثة الدامية. باتروكلوس، قال، بـــاتروكلوس. بـــاتروكلوس. مـــرارا وتكراراً حتى أصبح صوتاً فقط. جثى أوديسيوس في مكان ما، يستحث الطعام والشراب. جاء الغضب الأحمر الشرس، كان تقريبـــاً ســـيقتله هناك. لكنه حينها يجب أن يتخلى عني. لا يمكنه ذلك.

أمسكني بإحكام حتى أنني استطعت أن أشعر بالخفقات الخافتـــة لصدره، كجناحي فراشة. صدى، الجزء الأخير من روحـــي لا يـــزال مربوطاً إلى جسدي. عذاب.

ركضت برسيس نحونا، بوجهٍ ملتوي. انحنت علـــى الجســـد، عينيها الداكنة الجميلة أهرقت الماء الدافئ كأمطار الصيف. غطـــت وجهها بيديها وانتحبت. لم ينظر أخيل إليها. حتى أنـــه لا يراهـــا. وقف.

"من فعل هذا؟" صوته كان كشيء فظيع، متصدع ومكسور.

"هيكتور"، قال مينيلوس. استولى أخيل على رمحه العملاق مـــن شجر الدردار، وحاول أن ينتزع نفسه من الأذرع التي أمسكت به.

قبض أوديسيوس على كتفيه. "غداً"، قال. "لقد ذهب إلى داخل المدينة. غداً. استمع إلي، بيلايدس. غداً يمكنك أن تقتله. أقسم علـــى ذلك. الآن يجب عليك أن تأكل، وترتاح".

بكى أخيل. مهدني كالأطفال، لم يأكل، و لم يتكلم بكلمة عـــدا اسمي. أرى وجهه كما لو كان خلال المياه، كمـــا تبصـــر الأسمـــاك الشمس. تهبط دموعه، لكنني لا أستطيع أن أمســـحها بعيـــداً. هـــذه حدودي الضئيلة الآن، نصف روح حية لم تدفن.

أتت أمه. سمعتها، أصوات الأمواج تتكسر علـى الشـاطئ. إذا كانت تشمئز مني عندما كنت على قيد الحياة، فالأسوأ أن تجدني جثة هامدة بين ذراعي ابنها.

"إنه ميت"، قالت، بصوت مسطح.

"هيكتور سيموت"، قال. "غداً".

"ليس لديك درع".

"لست بحاجة إلى واحد". مكشراً عن أسنانه، كان الحديث مجهوداً.

مدت يديها، شاحبة وباردة، لتأخذ يديه من يدي. "لقد جلبـه لنفسه"، قالت.

"لا تلمسيني!".

تراجعت، تراقبه يمهدني بين ذراعيه.

"سوف أجلب لك درعك"، قالت.

مضى الأمر على هذا النحو، استمر، باب الخيمة يفتح، الوجـوه المترددة. فيونكس، أو اوتومودن، أو ماتشين. وأخيراً أوديسيوس. "لقد جاء أجاممنون ليراك، وأعاد الفتاة". لم يقل أخيل شيء، لقـد عـادت بالفعل. ربما هو لا يعرف.

واجه الرجلين بعضهم البعض في ضوء النار المترجـرج. أجلـى أجاممنون حلقه. "لقد حان الوقت لننسى الانقسام بيننا. لقـد جئـت لأحضر لك الفتاة، يا أخيل، دون أن تمس بسوء وبحالة جيدة"، توقف، كما لو أنه كان يتوقع أن يندفع ممتناً. لم يكن هناك سوى الصـمت. "بصدق، لا بد أن الآلهة قد انتزعت ذكاءنا منا لتجعلنا متخاصـمين. لكن هذا انقضى الآن، ونحن حلفاء مرة أخرى". وهذه الجملة الأخيرة قيلت بصوت عال، من أجل الرجال المتفرجين. لم يجب أخيل. كـان يتخيل قتل هيكتور. كان ذلك ما يبقيه واقفاً.

تردد أجاممنون. "أيها الأمير أخيل، سمعت أنك ستقاتل غداً؟".

"نعم". فجائية جوابه باغتتهم.

"جيد جداً، هذا أمر جيد جداً". انتظر أجاممنون لحظة أخرى. "وأنت سوف تقاتل بعد ذلك، أيضاً؟".

"إذا كنت ترغب في ذلك"، أجاب أخيل. "لا يهمني. سأكون في عداد الأموات قريباً".

تبادل الرجال المتفرجين النظرات. استرد أجاممنون.

"حسناً. اتفقنا إذن"، التفت ليذهب، وتوقف. "يؤسفني سماع خبر وفاة باتروكلوس. لقد حارب بشجاعة اليوم. هل سمعت أنه قتل ساربيدون؟".

ارتفعت عيني أخيل. محتقنة بالدم وميتة. "لكم أتمنى لو أنه ترككم تموتون كلكم".

كان أجاممنون مصدوم جداً ليجيب. خطى أوديسيوس في الصمت. "سوف نتركك لحدادك أيها الأمير أخيل".

جثت برسيس بالقرب من جسدي. وقد جلبت المياه والقماش، لتغسل الدم والأوساخ من بشرتي. يديها لطيفة، كما لو أنها تغسل طفلاً، وليس شيئاً ميتاً. فتح أخيل الخيمة، والتقت أعينهم فوق جسدي.

"ابتعدي عنه"، قال.

"لقد انتهيت تقريباً. إنه لا يستحق أن يستلقي في القذارة".

"لا أريد ليديك أن تأتي عليه".

احتدت عينيها بالدموع. "هل تعتقد أنك الوحيد الذي أحبه؟".

"اخرجي. اخرجي!".

"هل تهتم به أكثر في موته مما كان عليه في حياته". صوتها مرير بالحزن. "كيف استطعت أن تسمح له بالذهاب؟ كنت تعرف أنه لا يستطيع أن يقاتل!".

صرخ أخيل، محطماً وعاء التقديم. "اخرجي!".

لم تتوانى برسيس. "اقتلني. فذلك لن يعيده. كان يساوي عشرة منك. عشرة! وأنت أرسلته لحتفه!".

الصوت الذي صدر عنه يكاد لا يكون بشرياً. "حاولت أن أمنعه! أخبرته ألا يغادر الشاطئ!".

"أنت من جعله يذهب". خطت برسيس نحوه. "لقد قاتل لينقذك، وينقذ سمعتك العزيزة. لأنه لم يستطع أن يتحمل أن يراك تعاني!".

دفن أخيل وجهه بين يديه. لكنها لم تتراجع.

"أنت لم تستحقه أبداً. أنا لا أعرف لماذا أحبك على الإطلاق. أنت لا يهمك سوى نفسك!".

ارتفعت نظرات أخيل لتلتقي نظراتها. كانت خائفة، لكن لم تتراجع. "آمل أن يقتلك هيكتور".

صرت أنفاسه في حنجرته. "هل تعتقدين أنني لا أتمنى نفس الشيء؟" سأل.

بكى وهو يرفعني إلى سريرنا. تدلت جثتي، كانت دافئة في الخيمة، والرائحة سوف تأتي قريباً. لا يبدو أنه يهتم.

احتضنني طوال الليل، يضغط يدي الباردة إلى فمه.

عند الفجر، رجعت والدته بدرع وسيف وصدارة، سُكّت حديثاً من البرونز الذي لا يزال دافئ. راقبته يتسلح و لم تحاول أن تتحدث معه.

لم ينتظر المرميدونيين، أو اوتومودن. لقد ركض حتى الشاطئ، متجاوزاً اليونانيين الذين خرجوا لرؤيته. قبضوا على أسلحتهم وتبعوه. لا يريدون تفويت ذلك.

"هيكتور!" صرخ. "هيكتور!" ممزقاً خلال صفوف الطروادين المتقدمة، محطماً صدورهم ووجوههم، يُعلمها بشهب غضبه. ويغادر قبل أن ترتطم أجسادهم بالأرض. العشب، وهن من رحى عشر سنوات من الحرب، شرب الدم الغزير من الأمراء والملوك.

مع ذلك راوغه هيكتور خلال العربات والرجال بحظ من الآلهة. لن يرميه أحد بالجبن لأنه ركض. هو لن يعيش إذا قبض عليه. مرتدياً درع أخيل، التي لا تُخطئ لطائر الفينيق والصدارة التي أخذت من جانب جثتي. حدق الرجال و الاثنين يتجاوزون: يبدوان، تقريباً، كما لو أن أخيل كان يطارد نفسه.

بصدر يصطخب، تسابق هيكتور نحو نهر تروي الواسع، سكاماندر. مياهه تلمع ذهبية قشديه، تخضب الحجارة في مجراه، الصخور الصفراء التي عُرفت بها طروادة.

المياه ليست ذهبية الآن، لكن موحلة، حمراء متماوجة، تختنق بالجثث والدروع. اندفع هيكتور إلى الموجات وسبح، ذراعيه تمضي خلال الخوذات والجثث المتدحرجة. وصل إلى الشاطئ الآخر؛ فقفز أخيل ليتبعه.

ارتفعت قامة من النهر لتسد طريقه. الماء القذر جرى على عضلات كتفيه، منهمراً من لحيته السوداء. أطول من أطوال البشر، متورم بالقوة كجداول الربيع. يحب طروادة وشعبها. في الصيف، يسكبون النبيذ له كقربان، و يرمون الأكاليل لتعوم فوق مياهه. أكثرهم تقى هو هيكتور، أمير طروادة.

تناثرت بقع الدم على وجه أخيل. "أنت لن تمنعني عنه".

آلهة النهر سكاماندر رفع عصاً غليظة، كبيرة مثل جذع شجرة صغيرة. هو لا يحتاج إلى سيف؛ ضربة واحدة من شأنها أن تهشم العظام، تنهش الرقبة. أخيل ليس لديه سوى السيف. رمحه سقط، دفن في الجثث.

"هل يستحق هذا حياتك؟" قالت الآلهة.

لا. أرجوك. لكنني لا أملك صوت لأتكلم. خطى أخيل في النهر ورفع سيفه.

بيد كبيرة كجذع الرجل، أرجح آلهة النهر عصاه. تجنبها أخيل ثم تمايل إلى الأمام فوق الصفير العائد للأرجوحة الثانية. استطاع بقدميه أن يوجه الضربات نحو صدر الآلهة الغير محمي. بسهولة، عرضياً تقريباً، التوى الآلهة بعيداً. رأس سيف مر دون أن يتسبب بأذى، كما لم يحصل من قبل.

هجم الإله. أرجحته أجبرت أخيل على التراجع إلى الوراء فوق الطمي المبطن للنهر. إنه يستخدم عصاه كالمطرقة؛ أقواس واسعة من رذاذ تتطاير حيث يضرب على سطح النهر. أخيل يجب أن يثب بعيداً في كل مرة. لا يبدو أن المياه تجرفه كما تجرف أي رجل آخر.

ومض سيف أخيل أسرع من الفكر، لكنه لا يستطيع أن يلمس الآلهة. يقبض سكاماندر على كل هجوم بعصاه الهائلة، مما اضطره إلى أن يكون أسرع من سرعته. الإله عجوز، بقدم الذوبان الأول لجليد الجبال، ومراوغ. لقد عرف كل معركة دارت رحاها على هذه السهول، وليس هناك شيء جديد عليه. بدأ أخيل يتباطأ، مرهق من جهد كبح قوة الآلهة بمجرد حافة معدن رقيقة. تطايرت رقائق الخشب حالما التقت الأسلحة، لكن العصا سميكة كواحدة من ساقي سكاماندر؛ ليس هناك أمل في أن يكسر. لقد بدأ الإله يتبسم لعدد

المرات التي يسعى فيها الرجل ليتملص بدلاً من أن يواجه ضـــرباته. لا محالة، لاستمرار هذا التحمل. وجه أخيل ملتوي بالجهد والتركيز. إنـــه يقاتل على الحافة، حافة قوته. هو ليس الإلهة، بعد كل شيء.

أراه يلم شتات نفسه، يستعد لواحد أخير، هجوم يـــائس. بـــدأ بالاجتياز، السيف ضبابياً نحو رأس الآلهة. لجزء من الثانية، يجب علـــى سكاماندر أن يميل إلى الوراء لتجنب ذلك. وهذه هي اللحظـــة الـــتي يحتاجها أخيل. أرى عضلاته تشتد لذلك الأخير، طعنة واحدة، وقفز.

لأول مرة طيلة حياته، لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية. الآلهة أمسك الضربة، وألقى بها جانباً بعنف. تعثر أخيل.

بشكل طفيف جداً، مجرد تمايل صغير خارج توازنه، كدت تقريباً أن لا أراه. لكن الآلهة رأته. اندفع إلى الأمام، بوحشية وانتصار، وقف، العقدة الصغيرة من الوقت التي خلقت فيها العثرة. تأرجح الخشب إلى أسفل في شكل قوس قاتل.

كان ينبغي أن يعرف بشكل أفضل، وأنا كان ينبغـــي علـــيّ أن أعرف. هذه الأقدام لا تتعثر أبداً، ليس لمرة واحدة، في كـــل الوقـــت الذي عرفته فيه. إذا كان خطأ قد حصل، فإنه لن يكون هنـــاك، مـــن العظام الدقيقة والأقواس المنحوتة. كان طعم أخيل الذي اصطاد به هو إخفاق البشر، والآلهة قد قفز لذلك.

بينما طعن سكاماندر، أصبح هناك ممر مفتوح، وانـــدفع ســـيف أخيل تجاهه. كان هناك جرح بليغ أزهر في جانب الآلهة، وجرى النهر ذهبياً مرة أخرى، ملطخاً بدم آلهته الذي انتشر.

لن يموت سكاماندر. لكنه يجب أن يعرج بعيـــداً الآن، ضـــعيف ومتعب، إلى الجبال، ومصدر مياهه، ليوقف نـــزيف جرحه ويســـتعيد قوته. إنه يغور في نهره ويرحل.

وجه أخيل الجزع مبلل بالعرق، وأنفاسه قاسية. لكنه لا يتوقف.

"هيكتور!" صرخ. وبدأت المطاردة مرة أخرى.

في مكان ما، همست الآلهة:

لقد هزم واحد منا.

ماذا سيحدث إذا هاجم المدينة؟

طروادة يجب أن لا تسقط بعد.

ففكرت: لا تخشوا على طروادة. إنه يريد فقط هيكتور. هيكتور، وحده هيكتور. عندما يموت هيكتور، فإنه سوف يتوقف.

هناك بستان عند قاعدة جدران طروادة العالية، موطن المقدس، الغار الملتوي. هناك توقف أخيراً ركض هيكتور.

تحت فروعه، واجه الرجلان بعضهما البعض. أحدهم داكن، قدميه كالجذور التي تغوص عميقاً في التربة. يرتدي صدارة ذهبية وخوذة، ودرع ساق مصقولة. ناسبتني جيداً بما فيه الكفاية، لكنه أكبر مني، أعرض. عند حلقه فغر المعدن فمه بعيداً عن جلده.

التوى وجه الرجل الآخر بشكل صعب التعرف عليه تقريباً. ملابسه لا تزال رطبة من معركته في النهر. وقد رفع رمحه الرمادية.

لا، توسلت إليه. إنه يحمل موته هو، دمه الذي سوف يتدفق. إنه لا يسمعني.

اتسعت عيني هيكتور، لكنه لن يركض أبعد من ذلك. قال:

"هب لي هذا. أعطِ جسدي لعائلتي، عندما تقتلني".

أصدر أخيل ضوت كالاختناق. "لا توجد مساومات بين الأسود والرجال. سوف أقتلك وأكلك نيئاً". حلقت رأس رمحه في ظلمة الزوبعة، مشرقة كنجوم المساء، لتهبط في تجويف حلق هيكتور.

عاد أخيل إلى الخيمة، حيث ينتظر جسدي. إنه أحمر وأحمر وبرتقالي محمر، حتى مرفقيه، ركبتيه، رقبته، كما لو أنه قد سبح في الغرف المظلمة العظمى من القلب وظهر، فقط الآن، ولا يزال يقطر. سحب جثة هيكتور وراءه، مثقوب خلال كعبيه بسير جلدي. لحيته الأنيقة معفرة بالتراب، ووجهه أسود من الغبار الدموي. لقد جره وراء عربته والخيول تركض.

انتظره ملوك اليونان.

"لقد انتصرت اليوم، يا أخيل"، قال أجاممنون.

"استحم وأرح نفسك، ومن ثم فإننا يجب أن نولم على شرفك".

"لن أحظى بأي وليمة"، وواصل طريقه خلالهم، يجر هيكتور وراءه.

"هوكوموروس"، نادته والدته في أنعم صوت لها.

"ألن تأكل؟".

"تعرفين أنني لن أفعل".

لامست يدها خده، كما لو كانت تمسح الدم.

احجم. "توقفي"، قال.

أصبح وجهها فارغ لثانية واحدة، سريعاً جداً حتى أنه لم يره.

عندما تكلمت، كان صوتها صارماً.

"لقد حان الوقت لتعيد جثة هيكتور إلى عائلته لدفنها. لقد قتلته وأخذت ثأرك. وهذا يكفي".

"لن يكون كافياً أبداً"، قال.

لأول مرة منذ وفاتي، سقط في نومة متشنجة ومرتعشة.

أخيل. لا أستطيع أن أتحمل أن أراك حزيناً.

انتفضت أطرافه وارتعشت.

امنحنا كلينا السلام. احرقني وادفني. سوف أنتظرك بين الظلال. سأ...

لكنه استيقظ بالفعل. "باتروكلوس! انتظر! أنا هنا!".

وهز الجسد الممد إلى جانبه. عندما لم أجب، بكى مرة أخرى.

نهض عند الفجر ليسحب جثة هيكتور حول أسوار المدينة ليراها جميع الطرواديين. فعلها مرة أخرى في منتصف النهار، ومرة أخرى في المساء. لم يرَ اليونانيين الذين بدأوا بتحويل أعينهم عنه. و لم يرَ الشفاه تتقلص باستياء و هو يمر. إلى متى يمكن أن يستمر هذا؟

انتظرته ثيتيس عند الخيمة، طويلة ومستقيمة كاللهب.

"ماذا تريد؟" قالت وهو يرمي جثة هيكتور قرب الباب.

يعلو خديها بقع ملونة، كالدم المسكوب على الرخام.

"يجب أن توقف هذا. أبولو غاضب. إنه يسعى للانتقام منك".

"دعيه"، وجثى، يملس الشعر إلى الوراء على جبهتي.

أنا ملفوف في بطانيات، لتخمد الرائحة.

"أخيل"، خطت نحوه، وأمسكت بذقنه. "استمع لي. لقد ذهبت بعيداً جداً في هذا. أنا لن أكون قادرة على حمايتك منه".

هز رأسه بعيداً عنها و كشف أسنانه. "لا أحتاجك أن تفعلي".

أصبحت بشرتها أشد بياضاً مما رأيت في أي وقت مضى. "لا تكن أحمق. إنها فقط قوتي التي -".

"ماذا يهم؟" قاطعها مزمجراً. "إنه ميت. هل يمكن لقوتك أن تعيده؟".

"لا"، قالت. "لا شيء يستطيع".

وقف. "هل تعتقدين أنني لا أرى ابتهاجك؟ وأنا أعلم كيف كرهته. لقد كرهته دائماً! لو لم تذهبي إلى زيوس، لكان على قيد الحياة!".

"إنه بشري"، قالت. "والبشر يموتون".

"أنا بشر!" صرخ. "ما هو الجيد في الألوهية، إذا كانت لا تستطيع أن تفعل هذا؟ ما الجيد فيك؟".

"أعرف أنك بشري"، قالت. وهي تضع كل كلمة باردة كبلاطة في الفسيفساء. "أعرف ذلك أفضل من أي شخص. لقد تركتك لمدة طويلة في بيليون. لقد دمرك هذا". وأومأت، بحركة سريعة، إلى ملابسه الممزقة ووجهه الملطخ بالدموع. "هذا ليس ابني".

جاش صدره. "إذن من هو، يا أمي؟ ألست مشهور بما فيه الكفاية؟ لقد قتلت هيكتور. ومن هناك أيضاً؟ أرسليهم أمامي. وسوف أقتلهم جميعاً!".

التوى وجهها. "أنت تتصرف كطفل. بيروس بأعوامه الاثني عشر أكثر رجولة منك".

"بيروس". كانت الكلمة كاللهاث.

"سوف يأتي، وسوف تسقط طروادة. لا يمكن أن تؤخذ المدينة من دونه، كما تقول الأقدار". أضاء وجهها.

حدق أخيل. "هل ستحضرينه إلى هنا؟".

"إنه أريستوس أخيون/ أشن المقبل".

"أنا لم أمت بعد".

"قد يكون لكنك ستكون كذلك". كلماتها كالسياط. "هل تعرف لماذا ولدتك لأجعلك عظيماً؟ والآن تدمره من أجل هذا؟" مشيرة إلى جثتي المتقيحة، وجهها مشدود باشمئزاز. "لقد انتهيت. لم يعد هناك ما يمكنني فعله لأنقذك".

بدت عينيها السوداء منكمشة، كالنجوم المحتضرة. "أنا سعيدة أنه مات"، قالت.

سيكون هذا آخر شيء تقوله له على الإطلاق.

الفصل الثاني والثلاثون

في أعمق روافد الليل، عندما نعست حتى الكلاب الوحشية وسكنت البومة، جاء رجل مسن إلى خيمتنا. قذر، ملابسه ممزقة، وشعره ملوث بالرماد والتراب. رداءه مبلل من سباحة النهر. بالرغم من ذلك عينيه، عندما تحدث، كانت واضحة. "لقد جئت من أجل ابني" قال.

تحرك ملك طروادة عبر الغرفة ليركع عند قدمي أخيل. أحنى رأسه الأبيض. "سوف تستمع لصلاة أب، أيها الأمير الجبار من ثيا، يا أفضل اليونانيين؟".

حدق أخيل إلى أسفل في كتفي الرجل كما لو كان في غيبوبة. إنها ترتجف من التقدم في العمر، انخفضت مع أعباء الحزن. هذا الرجل حمل خمسين ابن وفقدهم جميعهم عدا حفنة منهم.

"سوف أسمعك"، قال.

"لتبارك الآلهة لطفك"، قال بريام. يديه باردتين على جلد أخيل المشتعل. "لقد أتيت من بعيد هذه الليلة وكلي أمل".

قشعريرة، لا إرادية، مرت خلاله، وبرد الليلة وملابسه المبللة. "أنا آسف لظهوري أمامك بهذه الحقارة".

يبدو أن الكلمات أيقظت أخيل قليلا. "لا تركع"، قال. "اسمح لي أن أجلب لك الطعام والشراب". وقدم إليه يده، وساعد الملك القديم ليقف على قدميه. أعطاه عباءة جافة ووسائد ناعمة كان فيونكس يحبها كثيراً، وصب النبيذ.

بجوار جلد بريام المتغضن وخطواته البطيئة بدا فجأة يافعاً جداً.

"شكراً لك لحسن ضيافتك"، قال بريام. لهجته قوية، وهو يتحدث ببطء، لكن يونانيته كانت جيدة. "لقد سمعت أنك رجلاً نبيلاً، وعلى نبللك سوف أرمي نفسي. نحن أعداء، لكنك لم تعرف بالوحشية. أتوسل إليك أن تعيد جثة ابني لدفنها، لئلا تهيم روحه في الضياع". بينما كان يتحدث، حرص على ألا يسمح لنفسه أن تنظر إلى الوجه الخفيض في ظل الزاوية.

حدق أخيل في الظلام المقعر بين يديه. "لقد أظهرت شجاعة بمجيئك إلى هنا وحدك"، قال. "كيف دخلت إلى المخيم؟".

"استرشدت بنعمة من الآلهة".

نظر أخيل إليه. "كيف عرفت أنني لن أقتلك؟".

"لم أكن أعرف"، قال بريام.

كان هناك صمت. جلس الطعام والنبيذ أمامهم، لكن لا أحد منهما أكل، ولا شرب. يمكنني أن أرى أضلاع أخيل خلال سترته.

وقعت عيني بريام على جثة أخرى، جثتي، ممددة على السرير. تردد لحظة. "هل هذا - صديقك؟".

"فيلتوتاس"، قال أخيل، بحدة. المحبوب. "أفضل الرجال، وقد ذبح من قبل ابنك".

"أنا آسف لخسارتك"، قال بريام. "وأسف أن ابني كان من أخذه منك. مع ذلك أتوسل إلى رحمتك. في الحزن، يجب أن يساعد الرجال بعضهم البعض، على الرغم من عداوهم".

"ماذا لو لم أفعل؟" أصبحت كلماته قاسية.

"إذن لن تفعل".

كان هناك صمت للحظة. "ما زال بإمكاني قتلك"، قال أخيل.

أخيل.

"أعرف". كان صوت الملك هادئ، غير خائف. "لكن الأمر يستحق حياتي، إذا كان هناك فرصة لترتاح روح ابني".

امتلأت عيني أخيل؛ نظر بعيداً لئلا يراه الرجل العجوز.

رق صوت بريام. "من الحق طلب السلام للموتى. أنت وأنا نعرف كلينا أنه ليس هناك سلام لأولئك الذين يعيشون بعدهم".

"لا"، همس أخيل.

لم يتحرك شيء في الخيمة؛ يبدو أن الوقت لا يمشي. ثم وقف أخيل. "لقد اقترب الفجر، وأنا لا أريدك أن تكون في خطر وأنت تعود لديارك. سأجعل خدمي يحضرون جثة ابنك".

عندما غادروا، انهار إلى جواري، وجهه مقابل بطني. أصبحت بشرتي زلقة تحت وقع دموعه المنهمرة بثبات.

في اليوم التالي حملني إلى المحرقة. برسيس والمرميدونيون راقبوه وهو يضعني على الخشب ويضرم النار.

أحاط بي اللهب، وشعرت بنفسي أنزلق أكثر بعيداً عن الحياة، أصبح رهيف فقط كأرق ارتعاشه في الهواء. تقت إلى ظلام وصمت العالم السفلي، حيث يمكنني أن أستريح.

جمع رمادي بنفسه، بالرغم أن هذا كان من واجبات المرأة. ووضعه في جرة ذهبية، أفضل ما في مخيمنا، ثم تحول إلى اليونانيين المتجمهرين.

"عندما أموت، أحملكم مهمة خلط رمادينا، ودفننا معاً".

هيكتور وساربيدون قد لقوا حتفهم، لكن أبطال آخرين جاءوا ليأخذوا مكانهم. الأناضول غنية بالحلفاء وأولئك الذين ينضمون للقضية تجاه اقتحام الغزاة. الأول هو ممنون، ابن وردية أصابع الابهام،

ملك إثيوبيا. رجل ضخم، داكن ومتوج، سار إلى الأمام مع جيش من الجنود ألوانهم داكنة كلونه، سوداء لامعة. وقف، مبتسماً بترقب. لقد جاء من أجل رجل واحد، فقط رجل واحد لوحده.

هذا الرجل جاء لمقابلته مسلح فقط برمح. درع صدارته تشابك بإهمال، شعره المشرق جمع كله وتدلى باهت وغير مغسول. ضحك ممنون. هذا سيكون سهلاً. عندما تكوم، منطوياً حول رمح رمادية طويلة، اهتزت الابتسامة عن وجهه. بضجر، استرد أخيل رمحه.

بعد ذلك جاءت الفارسات، أثدائهم مكشوفة، وبشرتهم لامعة كالخشب المشحم. شعرهم مقيداً إلى الوراء، أذرعتهم محملة بالكامل بالرماح والسهام المنتصبة. دروعهم المقوسة تتدلى من سروجهم، على شكل هلال، كما لو أنها قد صيغت من القمر. في مقدمتهم قامة واحدة على حصان كستنائي، الشعر طليق، عينين أناضوليتين داكنة مقوسة وشرسة - رقائق حجرية تتحرك بلا راحة على الجيش أمامها. بينثيسلي.

كانت ترتدي رداءً للرأس، وهذا ما أطلقها - سمح لها بأن تجذب، أطرافها الخفيفة والمتوازنة كالقط، من حصانها.

هبط بسهولة النعمة، وواحدة من يديها تلمع وهي تتناول أحد الرماح من سرجها. تربض على التراب، مستعدة.

يلوح وجه فوقها، كالح، معتم، متبلد. لا يرتدي أي درع على الإطلاق الآن، كاشفاً كل جلده أمام النصال والطعنات.

تحول الآن نحوها، في أمل، في أسى، عليها.

أطلقت طعنتها، فتفادى جسد أخيل الرأس القاتل، برشاقة مستحيلة، رشاقة لا نهائية. دائماً، ما تخدعه عضلاته، تسعى للحياة بدلاً من السلام الذي يجلبه الرمح. طعنت ثانية، وقفز فوق الرأس، ممتشق إلى

أعلى كالضفدع، بجسد رشيق وحر. أصدر صوت حزين. لقد كان يأمل، لأنها قد قتلت العديد. لأنه من حصانها بدت كأنها تشبهه، سريعة جداً ورشيقة، عديمة الشفقة. لكنها لم تكن كذلك. ضربة واحدة سحقتها على الأرض، تاركة صدرها ممزق مثل الحقل تحت المحراث. نساءها صرخن في غضب، في حزن، على كتفيه المنكفئة.

آخر ذلك كله كان صبي صغير، ترويلوس. وقد أبقوه وراء الجدار كحماية له - أصغر أبناء بريام، من يريدونه أن يعيش. كانت وفاة شقيقه هي التي سحبته من خلف الجدران. إنه شجاع وأحمق، ولن يستمع. أراه يسحب نفسه بقوة من أيدي إخوته الأكبر سناً الزاجرة، ويقفز في عربته. يحلق بتهور، كسلوقي طليق، يسعى للانتقام.

أمسك عقب الرمح بصدره، الذي بدأ يستعرض برجولة. سقط، لا يزال يمسك بالزمام، والخيول الخائفة فرّت، ساحبة إياه وراءها. وطرف الرمح الظاهر ينقر الحجارة، يكتب على الغبار بظفره البرونزي.

أخيراً حرر نفسه ووقف، ساقيه، وظهره، مكشوطة ومقشرة. واجه الرجل الأكبر سناً الذي يلوح أمامه، الظل الذي يلازم ساحة المعركة، الوجه المروع الذي يقتل الرجل تلو الرجل بضجر. أرى أنه لا يقف فرصة، عينيه المشرقة، ذقنه المرفوع بشجاعة. رأس الرمح قبضت على التفاحة اللينة في حنجرته، وانسكب السائل كالحبر، لونه أدمى الغسق من حولي. وسقط الولد.

داخل أسوار طروادة، شد وتر قوس بسرعة بيد متسرعة. تم اختيار السهم، وأسرعت أقدام أميرية على درج البرج الذي يميل أكثر على ساحة معركة القتلى والمحتضرين. حيث ينتظر الآلهة.

كان من السهل لباريس العثور على هدفه. تحرك الرجل ببطء، كأسد أصبح جريح ومريض، لكن شعره ذهبي لا يُخطئ. شد باريس سهمه.

"إلى أين أصوب؟ سمعت أنه منيع. باستثناء -".

"إنه رجل"، قال أبولو. "وليس إله. أطلق عليه وسوف يموت".

صوب باريس. ولمس الآلهة بإصبعه ريش السهم. ثم تنفس، نفخة من الهواء - كما لو أنه يرسل الهندباء لتطير، لدفع لعبة القوارب على الماء. فحلق السهم، مستقيم وصامت، بتقوس، أسفل القوس نحو ظهر أخيل.

سمع أخيل الهمهمة الخافتة لمروره لثانية قبل أن يضربه. التفت برأسه قليلاً، كما لو كان يريد مشاهدته قادماً. أغلق عينيه وشعر برأسه يندفع خلال جلده، مفرقاً العضلات السميكة، شاق طريقه كالديدان متجاوزاً الأصابع المتشابكة لضلوعه. ها هو، أخيراً، قلبه. انسكب الدم بين راحة كتفيه، داكن وأملس كالزيت. ابتسم أخيل ووجهه يضرب الأرض.

الفصل الثالث والثلاثون

جاءت حوريات البحر من أجل جسده، وزبد البحـــر يُســـحب وراءهم. غسلوه بزيت الورد والرحيق، ونسجوا الزهور خلال شـــعره الذهبـــي. والمرميدونيون بنوا له محرقة، ووضـــع عليهـــا. انتحبـــت الحوريات واللهب يلتهمه.

جسده الجميل خُسر إلى عظام ورماد رمادي.

لكن الكثير لم يبكوا. برسيس التي وقفت تراقب حـــتى ذهبـــت الجمرة الأخيرة. ثيتيس، ظهرها مستقيم، وشعرها الأسود طليق ومتعرج في مهب الريح. الرجال، الملوك والعامة. اجتمعوا على بعـــد مســـافة، خائفين من العويل الغريب للحوريات وعيني ثيتـــيس الـــتي تصـــخب بالوعيد. كان أياكس هو الأقرب إلى الدموع، بساقه المضمدة والمتماثلة للشفاء. لكن ربما كان فقط يفكر في ترقيته التي طال انتظارها.

أحرقت محرقة نفسها بنفسها. وإذا لم يتم جمع الرماد قريباً، فإنـــه سيفقد للرياح، لكن ثيتيس، التي أكبت عليه، لم تتحرك. أخيراً، أرسل أوديسيوس ليتحدث إليها.

جثى. "أيتها الآلهة، نريد أن نعرف مشيئتك. هل يجب أن نجمـــع الرماد؟".

التفت لتنظر إليه. ربما كان هناك حزن في عينيها؛ وربما لا. كان من المستحيل القول بذلك.

"اجمعوه. ادفنوه. لقد فعلت كل ما أستطيع فعله".

أمال رأسه. "العظيمة ثيتيس، لقد تمنى ابنك أن يوضع رماده -".

"أنا أعرف ما تمنى. افعل كما يحلو لك. ذلك ليس من شأني".

أرسلت الفتيات الخادمات لجمع الرماد، وحملوه إلى الجرة الذهبية حيث استرحت. هل سوف أشعر برماده وهو يقع على رمادي؟ فكرت بالثلج على بيليون، بارد على خدودنا الحمراء. الشوق له كالجوع، يحفر بي. تنتظر روحه في مكان ما، لكن ليس في أي مكان يمكنني الوصول إليه. دفنونا، ووضعوا أسماءنا أعلاها. دعونا نكون أحرار. استقر رماده بين رمادي، و لم أشعر بشيء.

دعا أجاممنون المجلس لمناقشة المقبرة التي سوف تُبنى.

"يجب علينا وضعها على أرض الميدان حيث سقط"، قال نستور.

هز ماتشين رأسه وقال "سيكون أكثر مركزية على الشاطئ، إلى جانب أغورا".

"هذا آخر شيء نريده. التعثر به كل يوم"، قال ديوميديس.

"على التل، على ما أعتقد. التلال بجانب مخيمهم"، قال أوديسيوس.

في أي مكان، في أي مكان، في أي مكان.

"لقد جئت لآخذ مكان والدي". الصوت الواضح قطع أرجاء الغرفة.

التوت رؤوس الملوك نحو باب الخيمة. وقف صبي مصاغ في مدخل الخيمة. شعره أحمر مشرق، بلون قشرة الحريق، جميل، لكن ببرودة، صباح شتوي. فقط البليد لن يعرف أي والد يعنيه. لقد ختم على كل خط في وجهه، حتى جعلتني أبكي. ذقنه فقط مختلف، زاويته حادة يلتقي في نقطة إلى أسفل كذقن أمه.

"أنا ابن أخيل"، أعلن.

حدق الملوك. معظمهم لم يعرف حتى أن أخيل لديه طفل. فقط أوديسيوس كانت لديه الفطنة ليتكلم. "هل لنا أن نعرف اسم ابن أخيل؟".

"اسمي نيوتوليس. وأدعى بيروس". النار. لكن لم يكن فيه شـــيء من اللهب، عدا شعره. "أين مقعد والدي؟".

وكان ادومينيوس قد أخذه. فنهض. "هنا".

اشتعلت عيني بيروس على الملك الكريتي. "سأعفو عن تعـــديك. فأنت لم تكن تعرف أنني قادم. "جلس. "ملك ميسيناي، ملك سبارتا". أمال رأسه بخفة. "أنا أقدم نفسي إلى جيشك".

انقبض وجه أجاممنون بين عدم التصديق والاستياء. لقد اعتقد أنه قد انتهى من أخيل. وتأثر الصبـــي غريب، ومخيف.

"لا يبدو أنك كبيراً بما يكفي".

الثانية عشر. كان في الثانية عشر.

"لقد عشت مع الآلهة تحت البحر"، قال. "سكرت من رحـــيقهم وتناولت طعامهم الشهي. لقد جئت الآن لأفوز بالحرب من أجلـــك. تقول الأقدار أن طروادة لن تقع من دوني".

"ماذا؟" ذعر أجاممنون.

"إذا كان الأمر كذلك، فنحن في الواقع سعداء أن نحظى بـــك"، قال مينيلوس.

"كنا نتحدث عن قبر والدك، وأين يجب أن يُبنى".

"على التل"، قال أوديسيوس.

مينيلوس أومأ. "مكان مناسب لهم".

"هم؟".

كان هناك وقفة طفيفة.

"والدك ورفيقه. باتروكلوس".

"ولماذا ينبغي دفن هذا الرجل إلى جوار أريستوس أخيون/ أشن؟".

ثقل الهواء. انتظروا جميعاً لسماع جواب مينيلوس.

"لقد كانت رغبة والدك، أيها الأمير نيوتوليمس، أن يجمع رمادهما معاً. لا يمكننا دفن واحد دون الآخر".

رفع بيروس ذقنه الحاد. "العبد ليس له مكان في قبر سيده. إذا كان رمادهما معاً، فإنه لا يمكن التراجع عنه، لكنني لن أسمح بالحط من شهرة والدي. النصب سيكون له وحده".

لا تفعله على هذا النحو. لا تتركني هنا من دونه.

تبادل الملوك النظرات.

"حسناً جداً"، قال أجاممنون. "سيكون الأمر كما تقول".

أنا مجرد هواء وأفكار ولا يمكنني أن أفعل شيئاً.

أعظم نصب، لأعظم رجل. الحجر الذي اقتلعه الإغريق لقبره ضخم، وأبيض، ويمتد ليصل إلى السماء. أخيل، يُقرأ. سيقف له، ويتحدث إلى كل المارة: لقد عاش ومات، وعاش مرة أخرى بذكراه.

لافتات بيروس تحمل شعار سايروس، وأراضي والدته، وليس ثيا. جنوده، أيضاً، من سايروس. بإخلاص، صف اوتومودن المرميدونيون والنساء في ترحيب. راقبوه يشق طريقه حتى الشاطئ، بريقه، قواته المنحوتة الجديدة، شعره الأحمر الذهبي كلهب مقابل زرقة السماء.

"أنا ابن أخيل"، قال لهم. "أطالب بكم كميراثي وحقي المكتسب. ولائكم هو لي الآن". تسمرت عيناه على امرأة تقف وبعينين خفيضتين، ويديها مطوية. ذهب لها ورفع ذقنها بيده.

"ما اسمك؟" سأل.

"برسيس".

"لقد سمعت عنك"، قال. "لقد كنت سبب توقف والدي عن القتال".

في تلك الليلة أرسل حراسه لها. أمسكوا بذراعيها وهم يسيرون بها إلى الخيمة. رأسها منحني في خضوع، و لم تقاوم.

فتح باب الخيمة، ودُفعت خلاله. استرخى بيروس على كرسي، بساق واحدة تتدلى بلا مبالاة على الجانب. قد يكون أخيل قد جلس بهذه الطريقة ذات مرة. لكن عينيه لم تكن أبداً على هذا النحو، فارغة كالأعماق اللانهائية للمحيط الأسود، لم يملأها شيء عدا الأجساد الدموية للأسماك.

ركعت. "سيدي".

"افترق والدي عن الجيش بسببك. لا بد أنك كنت عبدة سرير جيدة".

عيني برسيس أصبحت أكثر حلكة وعتمة. "أنت تشرفني بذلك، سيدي، بقولك ذلك. لكنني لا أعتقد أنه رفض القتال بسببي".

"إذن لماذا؟ في رأيك كعبدة؟" رفع حاجب دقيق. إنه لأمر مروع مشاهدته كيف كان يتحدث إليها. فهو كالأفعى؛ لا تعرف من أين سوف يطعنك.

"لقد كنت جائزة حربه، وأجاممنون أهانه بأخذه لي. هذا كل شيء".

"أنت لم تكوني عبدة سريره؟".

"لا، يا سيدي".

"كفى". صوته حاد. "لا تكذبي علي مرة أخرى. أنت أفضل امرأة في المخيم. كنت له".

تسللت كتفيها إلى الأعلى قليلاً. "لا أريدك أن تفكر أنني أفضل مما أستحق. لم أكن محظوظة جداً".

"لماذا؟ ما هو الخطأ فيك؟".

ترددت. "سيدي، هل سمعت بالرجل الذي دفن مع والدك؟".

أصبح وجهه مستوٍ. وأضاف "بالطبع لم أسمع عنه. لقــد كــان نكرة".

"ومع ذلك أحبه والدك إلى حد بعيد، وأكرمه. وأنه ليســعده أن يعرف أنهما سيدفنان معاً. لم يكن بحاجة لي".

حدق بيروس في وجهها.

"سيدي -".

"اصمتي". فرقعت الكلمة عليها كالسوط. "سأعلمك ما يعنيه أن تكذبــي على أريستوس أخيون/ أشن". وقف. "تعالي هنا". إنــه في الثانية عشر فقط، لكنه لا يبدو كذلك. لديه جسد رجل.

اتسعت عيناها. "يا سيدي، أنا آسفة إذا كنت قد أثرت استياءك. تستطيع أن تسأل أي شخص، فيونكس أو اوتومودن. سيخبرونك أنني لا أكذب".

"لقد أعطيتك أمراً".

تقف، يديها تتحسس طيات فســتانها. اركضــي، أهمــس. لا تذهبــي إليه. لكنها تذهب.

"سيدي، ماذا تريد بــي؟".

يخطو نحوها، بعينين متلألئة. "كل ما أريد".

لم أستطيع أن أرى من أين أتى النصل. هو في يدها، ثم تــأرجح بعد ذلك إلى أسفل عليه. لكنها لم تقتل رجل أبداً من قبل. ولا تعرف مدى الصعوبة التي تحتاجها لقيادته، ولا بأي إرادة. وكان هو ســريع، وقد التوى بعيداً بالفعل.

شقت الشفرة الجلد، مسجلة ذلك في خط خشن، لكن لم تَغُص. صفعها أرضاً بشراسة. فرمت السكين في وجهه وركضت.

انطلقت من الخيمة، متجاوزة الأيدي بطيئة جداً للحــراس، إلى أسفل الشاطئ وداخل البحر. وبيروس وراءها، جرح سترته مفتــوح، ينـــزف عبر معدته. وقف إلى جوار الحراس المرتبكين وأخذ رمح بهدوء من أحد أيديهم.

"ارمها"، حثه أحد الحراس. لأنها كانت تتجاوز الموجات الآن.

"لحظة" تمتم بيروس.

ارتفعت أطرافها في الموجات الرمادية كالخفقات الثابتة للأجنحة. لقد كانت دائماً أقوى سباحة فينا نحن الثلاثة. لقد اعتادت أن تقســم أنها قد ذهبت إلى تيندوس ذات مرة، على مسافة ســاعتين بالقــارب. شعرت بانتصار وحشي وأنا أراها تُسحب أبعد وأبعد عن الشــاطئ. الرجل الوحيد الذي يمكن لرمحه أن يصل إليها قد مات.

إنها حرة.

الرجل الوحيد عدا ابن هذا الرجل.

حلق الرمح من أعلى الشاطئ، بصمت ودقة. أصاب رأسه ظهرها كحجر قذف على ورقة عائمة. ابتلعها الماء الأسود كلها.

أرسل فيونكس رجلاً إلى الخارج، غواص، ليبحث عن جسدها، لكنه لم يعثر عليه. ربما آلهتها أكثر لطفاً من آلهتنا، و هي سوف تجــد الراحة. أود أن أضحي بحياتي مرة أخرى لأحقق ذلك.

كانت النبوءة حقيقية. الآن وقد جاء بيروس، ستسقط طروادة. لن يفعل ذلك لوحده، بالطبع. هنــاك الحصــان الخشبــــي، و خطــة أوديسيوس، والجيش كله إلى جانبه. لكنه هو الذي قتل بريام. هو مــن طارد زوجة هيكتور، أندروماش، المختبئة في القبو مع ابنها. اقتلع الطفل من ذراعيها وقذف رأسه بعنف على حجر الجدران، بقــوة هشــمت الجمجمة كالثمرة الفاسدة. حتى أجاممنون شحب حينما سمع بذلك

تصدعت عظام المدينة وامتصت حتى جفت. ملوك اليونان حشو أشياءهم بأعمدة الذهب والأميرات. بأسرع مما كنت أتخيل حزموا المخيم، جميع الخيام دحرجت وخزنت، وقتل الغذاء وخزن. جردت الشواطئ كذبيحة اختيرت بعناية.

أطارد أحلامهم. لا ترحلوا، أتوسل لهم. ليس حتى تمنحوني السلام. لكن إذا كان هناك من سمع، فإنه لم يجب.

رغب بيروس بتضحية أخيرة لوالده في المساء الذي سبق إبحارهم. اجتمع الملوك إلى جانب القبر، يترأسهم بيروس، مع سجناءه الملكين في عقبيه، وأندروماش والملكة هيكوبا والأميرة الشابة بوليكسينا. يجرجرهم في كل مكان يذهب إليه الآن، في انتصار دائم.

قاد كالشيس بقرة صغيرة بيضاء إلى قاعدة المقبرة. لكن عندما مد يده للسكين، أوقفه بيروس. "بقرة صغيرة واحدة.

هو هذا كل شيء؟ نفس ما كنت ستفعل لأي رجل؟ والدي كان أريستوس أخيون/ أشن. كان أفضلكم، وابنه أثبت بشكل أفضل أنه لا يزال كذلك. ومع ذلك تبخل علينا؟".

قبضت يد بيروس على الفستان البشع، الذي تنفخه الريح للأميرة بوليكسينا وجذبها بعنف نحو المذبح. "هذا هو ما تستحقه روح والدي".

إنه لن يفعل. إنه لن يجرؤ.

كما لو كان بمثل الإجابة، يبتسم بيروس. "أخيل مسرور"، قال، وفتحت الدموع حلقها.

ما زال باستطاعتي تذوقه، تفجر الملح والحديد. تسرب إلى العشب حيث دُفنا، وخنقني. الموتى من المفترض أن يلتمسوا الدم، لكن ليس مثل هذا. ليس مثل هذا.

سيغادر اليونانيون غداً، وأنا يائس.

أوديسيوس.

ينام بخفة، ترفرف جفونه.

أوديسيوس. استمع لي.

تشنج. حتى في نومه لم يستطع أن يرتاح.

عندما جئت إليه طالباً للمساعدة، أجبتك. وأنت لن تجيبني الآن؟ كنت تعرف ما كان يعنيه لي. لقد رأيت، قبل أن تحضرنا إلى هنا. سلامنا على رأسك.

"أقدم اعتذاري لإزعاجك في وقت متأخر جداً، أيها الأمير بيروس"، مقدماً أكثر ابتساماته سلاسة.

"أنا لست نائم"، قال بيروس.

"كم هذا ملائم. لا عجب أنك تقوم بالكثير أكثر من ما يقوم به بقيتنا".

تفحصه بيروس بعينين ضيقتين، وهو لا يعرف ما إذا كان قد سخر منه.

"نبيذ؟" رفع أوديسيوس الجلد.

"أعتقد ذلك". هز بيروس ذقنه تجاه اثنين من الكؤوس. "اتركينا"، قال لأندروماش. وهي تجمع ملابسها، فصب أوديسيوس.

"حسناً. لا بد أنك مسرور مع كل ما قمت به هنا. بطل في الثالثة عشر؟ العديد من الرجال لا يستطيع أن يقول ذلك".

"لا يوجد رجال آخرين". صوته بارد. "ماذا تريد؟".

"أخشى أنني دُفعت برعشة استثنائية من الشعور بالذنب".

"أوه؟".

"سوف نبحر غداً، ونترك العديد من الموتى اليونانيين وراءنا. كلهم دفنوا بشكل مناسب، مع اسم يخلد ذكراهم. كلهم عدا واحد.

أنا لست رجل تقي، لكنني لا أحب أن أفكر بالأرواح الهائمة تجول بين الأحياء. أود أن أغتنم راحتي بدون مضايقة الأرواح التي لا تهدأ".

استمع بيروس، وقد تراجعت شفتيه إلى الوراء في نفور خافت، معتاد.

"لا أستطيع أن أقول أنني كنت صديق والدك، أو أنه كان صديقي. لكنني معجب بمهارته وأقدره كجندي. خلال عشر سنوات، كنت لتعرف الرجل، حتى لو كنت لا ترغب في ذلك. لذلك أستطيع أن أقول لك الآن أنني لا أعتقد أنه كان ليريد باتروكلوس أن يُنسى".

تصلب بيروس. "هل قال ذلك؟".

"لقد طلب أن يوضع رمادهما معاً، وطلب أن ندفنهم كواحد. في ضوء هذا، أعتقد أننا يمكن أن نقول أنه تمنى ذلك". للمرة الأولى، أكون ممتناً لذكائه.

"أنا ابنه. وأنا الذي يقول ما تتمناه روحه".

"وهذا هو سبب مجيئي إليك. ليس لدي أي مصلحة في هذا. أنا فقط رجل صادق، يحب أن يرى الشيء الصحيح يأخذ مكانه".

"هل من الصواب أن يُحط من شهرة والدي؟ يلوث بعامة الشعب؟".

"باتروكلوس لم يكن من عامة الشعب. ولد أميراً ونفي. خدم بشجاعة في جيشنا، وأعجب به الكثير من الرجال.

لقد قتل ساربيدون، التالي فقط لهيكتور".

"في درع والدي. وبشهرة والدي. لم يكن لديه أياً منها".

أمال أوديسيوس رأسه. "صحيح. لكن الشهرة أمر غريب. بعض الرجال يكتسبون المجد بعد وفاتهم، في حين أن آخرين يتلاشى مجدهم.

ما هو محل إعجاب وتقدير في جيل واحد ويكون محل مقت في جيل آخر". نشر يديه بشكل واسع. "نحن لا نستطيع أن نقول منهم الذين سوف ينجون من محرقة الذاكرة. من يدري؟" ابتسم. "ربما في يوم من الأيام حتى أنا سوف أكون مشهوراً. ربما أكثر شهرة منك".

"أشك في ذلك".

رفع أوديسيوس كتفيه. "نحن لا نستطيع أن نقول. نحن فقط رجال، نار موجزة من الشعلة. هؤلاء القادمون قد يرفعوننا أو يخفضوننا وفقاً لرغباتهم. باتروكلوس قد يرتفع في المستقبل".

"إنه لن يفعل".

"إذن فإنه سيكون عمل جيد. عمل من الإحسان والتقوى. لتكريم والدك، وليرتاح رجل ميت".

"إنه وصمة عار على شرف والدي، ووصمة عار على شرفي. لن أسمح بذلك. خذ نبيذك الحامض واذهب". كلمات بيروس حادة كالعصي المكسورة.

وقف أوديسيوس لكنه لم يذهب. "هل لديك زوجة؟" سأل.

"بالطبع لا".

"أنا لدي زوجة. لم أرها منذ عشر سنوات. لا أعرف إذا كانت ميتة، أو إذا كنت سأموت قبل أن أتمكن من العودة إليها".

لقد اعتقدت، دائماً، أن زوجته كانت مزحة، ضرب من الخيال. لكن صوته ليس معتدل الآن. كل كلمة تأتي ببطء، كما لو كانت تسحب من عمق كبير.

"عزائي أننا سوف نكون معاً في العالم السفلي. أننا سوف نجتمع مرة أخرى هناك، إن لم يكن في هذه الحياة. وأنا لا أود أن أكون هناك من دونها".

"ليس لوالدي مثل هذه زوجة"، قال بيروس.

نظر أوديسيوس إلى وجه الشاب العنيد. وقال "لقد فعلت قصارى جهدي "، قال. "ليكن مذكوراً أنني حاولت".

تذكرت.

أبحر اليونانيون، وأخذوا أملي معهم. لا أستطيع أن أتبعهم. مقيد إلى هذه الأرض حيث يرقد رمادي. أحلق بنفسي حول الأحجار المنصوبة لقبره. ربما ملمسه بارد، وربما دافئ. لا أستطيع أن أقول. أخيل، يقول الحجر، ولا شيء أكثر من ذلك. لقد ذهب إلى العالم السفلي، وأنا هنا.

أتى الناس لرؤية قبره. تردد بعضهم إلى الوراء، كما لو أنهم يخشون أن يقوم شبحه ويتحداهم. وقف آخرين إلى القاعدة لإلقاء نظرة على مشاهد حياته المنحوتة على الحجر. لقد صنعوا على عجالة، لكنها واضحة بما فيه الكفاية.

أخيل قتل ممنون، قتل هيكتور، قتل بينثيسلي. لا شيء سوى الموت. هذه هي الطريقة التي قد يبدو بها قبر بيروس.

هل سيذكر بهذه الطريقة؟

أتت ثيتيس. راقبتها، ذبل العشب حيث تقف. لم أشعر بمثل هذه الكراهية لها منذ وقت طويل. لقد صنعت بيروس، و أحبته أكثر من أخيل.

كانت تنظر للمشاهد على قبر، موت بعد موت. تمد يدها، كما لو كانت سوف تلمسهم. لم أستطع تحمل ذلك.

ثيتيس، قلت.

اهتزت يدها إلى الوراء. وتلاشت.

في وقت لاحق عادت. ثيتيس. لم تتفاعل. تقف فقط، تنظر إلى قبر ابنها.

أنا مدفون هنا. في قبر ابنك. لم تقل شيء. لم تفعل شيئاً. إنها لا تسمع.

تأتي كل يوم. تجلس إلى قاعدة القبر، ويبدو أنني أستطيع أن أشعر ببرودتها خلال الأرض، الرائحة الطفيف الحارقة للملح. لا أستطيع أن أجعلها تغادر، لكنني أستطيع أن أكرهها.

لقد قلت بأن تشيرون دمره. أنت إلهة، وباردة، ولا تعرفين شيئاً. أنت من دمره. انظري إلى كيف سيتذكرونه الآن، قتل هيكتور، قتل ترويلوس. لأشياء فعلها بوحشية في حزنه.

وجهها يشبه الحجر نفسه. لم تتحرك. تتعاقب الأيام، ترتفع وتسقط.

ربما مثل هذه الأمور تمر للمفاضلة بين الآلهة. لكن أين هو المجد في انتزاع الحياة؟ نموت بهذه السهولة. هل خلقت منه بيروس آخر؟ دعي للقصص عنه تكون شيئاً أكثر من ذلك.

"ماذا أكثر من ذلك؟"، قالت.

لأول مرة أنا لست خائفاً. ماذا يمكن أن تفعل لي؟

إعادة جثة هيكتور إلى بريام، قلت. هذا ينبغي أن يذكر.

صمتت لفترة طويلة. "و؟".

مهارته في القيثارة. صوته الجميل.

بدا أنها تنتظر.

الفتيات. لقد أخذهم لئلا يعانون على يد ملك آخر.

وأضاف "هذا كان ما تفعله أنت".

لماذا أنت لست مع بيروس؟

ومض شيء في عينيها. "إنه ميت".

كنت مسروراً بشراسة. كيف؟ كان أشبه بالأمر، تقريباً.

"قتل على يد ابن أجاممنون".

لماذا؟

لم تجب لبعض الوقت. "لقد سرق عروسه واغتصبها".

"كل ما أريد"، كان قد قال لبرسيس. هل هذا هو الابن الـــذي فضلته على أخيل؟

زمت فمها. "أليس لديك ذكريات أكثر؟".

أنا مصنوع من الذكريات.

"تكلم، إذن".

كنت سأرفض تقريباً. لكن الألم من أجله كـــان أقـــوى مـــن غضبـــي. أردت أن أتكلم عن شيء لم يمت و لم يكن إلهي.

أردته أن يعيش. في البداية كان الأمر غريب. اعتدت أن أحفظه بعيداً عنها، أن أكتنـــزه لنفسي. لكن الذكريات تدفقت مثـــل ميـــاه النبع، أسرع من أستطيع أن أكبحها إلى الوراء. إنها لا تأتي ككلمات، لكن مثل الأحلام، ترتفع كرائحة الأرض المبللة بالمطر. هذا، قلت. هذا وهذا. الطريقة التي بدا بها شعره في شمس الصـــيف. وجهـــه عنـــدما يركض.

عينيه، المهيبة كالبومة في الدروس. هذا وهذا وهذا. الكثير مـــن اللحظات السعيدة، ازدحمت إلى الأمام.

أغلقت عينيها. للجلد فوقهما لون كلون الرمال في فصل الشتاء. كانت تستمع، وتتذكر أيضاً.

تتذكر وقفتها على الشاطئ، بشعرها الأسود الطويـــل كـــذيل الحصان. الموجات الرمادية الأردوازية تسحق على الصخور. ثم يـــدين بشرية، وحشية وتخلف الكدمات على بشرتها المصقولة. الرمال تكشط عذريتها، والتمزق بداخلها. والآلهة، بعد ذلك، تقيدها إليه.

تتذكر الشعور بالطفل في داخلها، يضيء ظلمة رحمها. تكرر لنفسها النبوءة التي أخبرتها بها النساء الثلاث العجائز:

ابنك سوف يكون أعظم من والده.

ارتد آلهة الآخرون للاستماع إليها. كانوا يعرفون ما يفعل الأبناء الأقوياء لآبائهم - صواعق زيوس لا تزال تفوح برائحة اللحم المحروق وقاتل أبيه. لقد أعطوها إلى بشري، في محاولة لتكبيل قوة الطفل. مزجه بالبشرية، والحط منه.

أراحت يدها على بطنها، تشعر به يسبح بداخلها. إنه دمها الذي سوف يجعله أقوى.

لكن ليس قوي بما فيه الكفاية. أنا بشري! كان يصرخ فيها، وجهه ذو شامة مبلل وباهت.

لماذا لا تذهبين إليه؟

"لا أستطيع". الألم في صوتها يشبه شيئاً يتمزق. "أنا لا أستطيع الذهاب تحت الأرض". العالم السفلي، بكهوفه الكئيبة والأرواح المرفرفة، فقط حيث يستطيع الموتى أن يمشون. "هذا هو كل ما تبقى"، قالت وعينيها متسمرة على النصب. حجر الخلود.

استحضرت الصبي الذي كنت أعرفه. أخيل، يبتسم ابتسامة عريضة فيما التين يصبح ضبابياً بين يديه. عينيه الخضراء تضحك لعيني. أمسك، يقول. أخيل، مؤطر بالسماء، يتدلى من فرع فوق النهر. أنفاسه الناعسة الثقيلة الدافئة على أذني. إذا كنت ستذهب، سأذهب معك. مخاوفي المنسية في الميناء الذهبي لذراعيه.

الذكريات تأتي، وتأتي. وهي تستمع، محدقة في حبيبات الحجر. نحن جميعاً هناك، الآلهة والبشر والصبي الذي كان كليهما معاً.

كانت الشمس تغرب فوق البحر، مهرقة ألوانها على سطح المياه. هي إلى جانبـــي، صامت بضبابية، الغسق الزاحف.

وجهها يخلو من العلامات المميزة كما في اليوم الأول الذي رأيتها فيه. عقدت ذراعيها على صدرها، كما لو كانت تمسك ببعض الأفكار لنفسها.

لقد أخبرتها بكل شيء. لم أدخر شيئاً، لأي واحد منا.

راقبنا الضوء يغرق في ضريح السماء الغربية.

" لم أستطع أن أجعله إلهاً"، قالت. صوتها خشن، يقطر حزناً.

لكنك جعلته كذلك.

لم تجبني لفترة طويلة، فقط جلست، عينيها تتألق مع آخر ضـــوء محتضر.

"لقد فعلتها"، قالت. في البداية لم أفهم. لكنني حينها رأيت القبر، والعلامات التي نقشتها على الحجر.

أخيل، يقرأ. وبجانب ذلك، بـــاتروكلوس. "اذهـــب"، قالـــت. وأضاف "إنه ينتظرك".

في الظلام، ظلين، يمدون أيديهم خلال الغسق الثقيل الميؤوس منه. تلتقي أيديهم، وينسكب الضوء كالفيضان كمائة جرة ذهبية تتدفق من الشمس.

شكر وتقدير

كتابة هذه الرواية كانت بمثابة رحلة استمرت عشر سنوات، وكنت محظوظة بما يكفي لألتقي بالعديد من الآلهة العطوفة أكثر من السيكلوب الغاضبة على طول طريقها. سيكون من المستحيل أن أشكر كل من قدم لي التشجيع على مر السنين - سيستغرق الأمر كتاب ثاني - لكن هناك بعض المعبودات التي يجب أن تبجل.

على وجه الخصوص، أود أن أشكر قرائي الأوائل، الذين أعطوني مثل هذه الاستجابات المحبة والعميقة: كارولين بيل، سارة فرلو، ومايكل بيوريت. وأود أيضاً أن أشكر عرابتي المذهلة، باربرا ثوربرو، التي كانت تهتف لي طوال رحلتي، وكذلك أسرة دريك لتشجيعهم الكريم ولكونهم خبراء استشاريين بشأن مسائل واسعة النطاق. تقديري المخلص يذهب أيضاً إلى أساتذتي، خاصة ديان دوبوا، سوزان ميلفوين، كريستين جافي، جوديث ويليامز، وجيم ميلر، وإلى طلابي المتعاطفين الرائعين، الشكسبيرين وأدباء اللاتينية على حد سواء، لتعليمهم إياي أكثر بكثير مما كنت أعلمهم على الإطلاق.

لقد كنت محظوظة بما فيه الكفاية لأحظى ليس بواحد بل بثلاث معلمين مخلصين في الكلاسيكيات، والتدريس، والحياة: ديفيد ريتش، جوزيف بوتشي، ومايكل سي. جي. بوتنام. أنا ممتنة بلا حدود للطفهم وسعة اطلاعهم. شكراً أيضاً لكامل قسم كلاسيكيات جامعة براون. وغني عن القول أن جميع الأخطاء والتشوهات في هذا العمل تقع على عاتقي تماماً، وليس منهم.

شكر خاص لوالتر كازينـــزكس، والجميلة الموهوبة نورا بيـــنس، التي آمنت دائماً أنني سأكون كاتبة على الرغم من قراءتها لعـــدد مـــن قصصي القصيرة في وقت مبكر.

الشكر والشكر والشكر المطلق إلى الفذة، الجامحة، والمتفوقة جونا رومو كوهين، المحاربة النارية الشرسة التي ناضلت من أجل هذا الكتاب في كل خطوة على الطريق. أنا ممتنة جداً لصداقتك.

امتنان بقامة جبل أوليمبوس للمذهلة جولي بارير، أفضل جميـــع العملاء، التي اجتاحتني من فوق قدمي إلى المعجزة، جنباً إلى جنب مـــع كل فريقها المدهش.

وبالطبع الشكر موصـــولاً لمحـــرري الـــديناميكي، الرائـــع، لي بودريكس، والفريق كله في إيكو، بما في ذلك أبيغيل هولشتاين، مايكل ماكنـــزي، هيذر دراكر، راشيل بريسلر، ولكل من منح رعاية ممتازة لي ولهذا العمل. أود أيضاً أن أشكر الناس الرائعـــة في بلـــومزبري في المملكة المتحدة – المتفوقين الكسندرا برينغل، كاتي بوند، ديفيد مـــان، وجميع من في فريقهم على كل ما قدموه من عمل لا يصـــدق باســـم الكتاب.

وأخيراً، أود أن أشكر عائلتي، بما في ذلك شقيقي باد، الذي نشأ مع قصصي لأخيل طوال حياته كلها، وزوج أمي الرائع، غـــوردون. والأهم من ذلك كله، أشكر أمي المدهشة، التي أحبتني وســـاندتني في كل محاولاتي، والتي ألهمتني لأحب القراءة بقدر ما أحبتها. لقد بُوركت لكوني ابنتك.

أخيراً، ولكن ليس الأقل، أشكر ناثانيل، درع أثينا البراق خاصتي، من كان حبه، وتحريره، وصبره هو ما يجلبني إلى المنـــزل.

الآلهة والخالدون

أفروديت. إلهة الحب والجمال، والدة اينيس، ونصيرة طــــروادة. كانت تفضل باريس بشكل خاص، وفي الكتاب الثالث من الإليـــاذة كانت قد تدخلت لإنقاذه من مينيلوس.

أبولو. إله الضوء والموسيقى، ونصير طروادة. كان المســـؤول عن إرسال الطاعون على جيش اليونانيين في الكتاب الأول من إلياذة هوميروس، وكان له دور أساســـي في وفـــاة كـــل مـــن أخيـــل وباتروكلوس.

أرتميس. الأخت التوأم لأبولو وإلهة الصيد، القمـــر، والعذريـــة. غضبت من سفك الدماء الذي ستُسببه حرب طروادة، فأوقفت الرياح من الهبوب، وقطعت السبل على الأسطول اليوناني في أولـــيس. بعـــد التضحية بليفيجينايا، تم استرضائها فأعادت الرياح.

أثينا. الإلهة القوية للحكمة، والنسيج، وفنون الحـــرب. كانـــت مؤيدة شرسة لأعزاءها الإغريق ضد الطرواديين ووصية خاصة للماكر أوديسيوس. تظهر في كثير من الأحيان في كل من الإلياذة والأوديسة.

تشيرون. السنتور الوحيد "الطيب"، والمعـــروف باســـم معلـــم الأبطال جيسون، إيسكولوبيس، وأخيل، وكمخترع الطب والجراحة.

هيرا. ملكة الآلهة والأخت - الزوجة لزيوس. مثل أثينـــا، لقـــد أيدت الإغريق وكرهت الطرواديين. في لفيرجل اينييد، كانت الخصـــم الرئيسي، وقد ضايقت باستمرار بطل طروادة اينيس بعد سقوطها.

سكاماندر. إله نهر سكاماندر القريب من طروادة ونصير آخر للطرواديين. معركته الشهيرة مع أخيل ذكرت في الكتاب الثاني والعشرين من الإلياذة.

ثيتيس. حورية بحر - ذات شكل متغير، والدة أخيل. الأقدار تنبأت بأن نجل ثيتيس سيكون أعظم من والده، الأمر الذي أخاف الإله زيوس (الذي كان يرغب فيها سابقاً). جعل من المؤكد أن تتزوج ثيتيس من بشري، للحد من قوة ابنها. في الإصدارات اللاحقة الهوميرية للقصة حاولت بعدة طرق أن تجعل أخيل خالداً، بما في ذلك غمسه من قبل كاحله في نهر ستيكس، والإمساك به في النار لحرق بشريته بعيداً.

زيوس. ملك الآلهة ووالد العديد من الأبطال الشهيرين، كهيراكليس وفرساوس.

البشر

أخيل. نجل الملك بيليوس وحورية البحر ثيتيس، كان أعظم محارب في جيله، وكذلك الأجمل. الإلياذة تدعوه بـ "سريع القدمين"، وكذلك تشيد بصوت غناءه. رُبي من قبل السنتور العطوف تشيرون واتخذ الأمير المنفي باتروكلوس كرفيقه الدائم. عندما كان مراهقاً، عرض عليه خيار شهير: حياة طويلة وذكر خامل أو حياة قصيرة والمجد. اختار المجد وأبحر الى طروادة جنباً إلى جنب مع غيره من الإغريق. ومع ذلك، في السنة التاسعة من الحرب تشاجر مع أجاممنون ولم يعد يقاتل من أجله، عاد إلى معركة فقط عندما قتل حبيبه باتروكلوس على يد هيكتور. في حالة من الغضب العارم، ضرب المحارب الطروادي العظيم وجر جثته في جميع أنحاء جدران طروادة

منتقماً. قتل في نهاية المطاف من قبل الأمير الطروادي باريس، بمساعدة الإله أبوللو.

أشهر خرافات أخيل - كعبه المميت الذي لم يحصن - هـي في الواقع قصة قيلت في وقت متأخر جداً. في الإلياذة والأوديسة أخيل لم يكن ذلك الذي لا يقهر، بل مجرد موهوب بشكل استثنائي في المعركة. لكن في السنوات التي تلت هوميروس، بدأت الخرافات تظهر لتشـرح وتفصل أخيل ليبدو كأنه لا تقهر. في أحد النسخ الرائجة، الإلهة ثيتيس تغمس أخيل في نهر ستيكس في محاولة لجعله خالداً، ونجح ذلك، في كل مكان ما عدا مكان كعبه حيث كانت تمسك بـه. بمـا أن الإليـاذة والأوديسة كانتا المصادر الرئيسية لإلهامي، وبما أن تأويلها أكثر واقعية، اخترت أن أتبع التقليد القديم.

اينيس. ابن الإلهة أفروديت والبشري انشايز، النبيل الطـروادي اينيس كان مشهوراً لتقواه. حارب بشجاعة في حرب طروادة لكنـه عرف بشكل أفضل في مغامراته التي تلت ذلك. كما يخبر فيرجـل في اينييد، هرب اينيس من سقوط طروادة وقاد مجموعة من النـاجين إلى إيطاليا، حيث تزوج من أميرة محلية وأسس الشعب الروماني.

أجاممنون. شقيق مينيلوس، حكم أجاممنون ميسيناي، أكبر ممالك اليونان، وشغل منصب الجنرال العام للحملة اليونانية إلى طروادة. خلال الحرب كان كثيراً ما يتشاجر مع أخيل، الذي رفض الاعتـراف بحـق أجاممنون بقيادته. عند عودة أجاممنون إلى الوطن بعد الحرب، قتل على يد زوجته، زوجة أجاممنون. اسخيليوس يصور هذا الحادث وأبعاده في كتابه الشهير دورة المأساوية أوريستايا.

أياكس. ملك سلاميس وسليل زيوس، الذي كان معروفاً بحجمه الهائل وقوته. وهو ثاني أعظم المحاربين اليونانيين بعد أخيل، وقفتـه لا

تنسى ضد هجوم الطروادين على مخيم اليونانيين عندما رفض أخيل القتال. ومع ذلك، بعد وفاة أخيل، عندما اختار أجاممنون أوديسيوس لتكريمه بوصفه العضو الأكثر قيمة في الجيش اليوناني، ذهب الجنون بأياكس حزناً وغضباً، فقتل نفسه. قصته المؤثرة قيلت في سوفوكليس مأساة أياكس.

أندروماش. الأميرة المولودة لبيت كيليكيا، بالقرب من طروادة، أصبحت الزوجة المحبة المخلصة لهيكتور. كرهت أخيل، الذي كان قد قتل عائلتها في غارة. خلال نهب طروادة، اقتيدت أسيرة من قبل بيروس وحملت عائدة إلى اليونان. بعد وفاة بيروس، هي وهيلينز، شقيق هيكتور، أسسا مدينة باثروتوم، التي بنوها لتشبه طروادة المفقودة. فيرجل تحكي قصتهم في الكتاب الثالث من اينييد.

اوتومودن. قائد عربة أخيل، كان بارعاً في التعامل مع خيوله الإلهية العنيدة. بعد وفاة أخيل، خدم ابنه بيروس.

برسيس. سُبيت من قبل اليونانيين في غاراتهم على أرياف طروادة، أعطيت برسيس باعتبارها جائزة حرب إلى أخيل. عندما تحداه أخيل، صادرها أجاممنون كنوع من العقاب. أُعيدت بعد وفاة باتروكلوس، في الكتاب التاسع عشر من إلياذة هوميروس، انتحبت وغيرها من النساء من المخيم حداداً على جسده.

كالشيس. هو الكاهن الذي نصح اليونانيين، وشجع أجاممنون على التضحية بابنته ليفيجينايا وإعادة الأسيرة كرزيز إلى والدها.

كرزيز وكرزيز. كان كرزيز كاهن الأناضول لأبولو. التقطت ابنته، كرزيز، كعبدة من قبل أجاممنون. وعندما جاء كرزيز لاستردادها، مقدماً فدية سخية، رفض أجاممنون، ثم أهانه. بغضب، نادى كرزيز إلهه أبولو ليرسل الطاعون عقاب للجيش اليوناني. عندما

حث أخيل أجاممنون علناً لإعادة كرزيز لأبيها، ثار غضب أجاممنون، مما عجل بالتصدع الدراماتيكي بينهما.

دادميليا. ابنة الملك ليكوميديس وأميرة جزيرة مملكة سايروس. لمنعه من الحرب، ألبست ثيتيس أخيل كفتاة وخبأته بين نساء دادميليا في الانتظار. اكتشفت دادميليا الحيلة وتزوجت أخيل سراً، وحملت بالطفل بيروس.

ديوميديس. ملك أرغوس. عُرف بالدهاء والقوة، وكان أحد المحاربين الأكثر قيمة في الجيش اليوناني. مثل أوديسيوس، كان مفضلاً لدى الإلهة أثينا، التي في كتاب الإلياذة الخامس تمنحه قوى خارقة في المعركة.

هيكتور. الابن الأكبر لبريام وولي عهد طروادة، عُرف هيكتور بقوته، ونبله، وحبه لأسرته. في الكتاب السادس من الإلياذة، يعرض لنا هوميروس مشهد مؤثر بين هيكتور وزوجته؛ أندروماش، وابنهما الشاب، أستيناكس. قتل على يد أخيل في السنة الأخيرة من الحرب.

هيلين. أسطورة أجمل امرأة في العالم، هيلين كانت أميرة من سبارتا، ابنة الملكة يدا والإله زيوس (في شكل بجعة). العديد من الرجال سعوا لطلب يدها للزواج، وأقسم كل منهم على حمايتها متحدين أياً كان الفائز بها. أُعطيت لمينيلوس، لكنها هربت بعيداً في وقت لاحق مع الأمير الطروادي باريس، وأشعلت حرب طروادة. بعد الحرب، عادت إلى المنزل في سبارتا مع مينيلوس.

هيراكليس. ابن زيوس وأكثر الأبطال اليونانيين شهرة. والمعروف بقوته الهائلة، واضطر لأداء اثنا عشر مهمة مكفراً عن أخطائه للإلهة هيرا، الذي كان يكرهه لكونه نتاج أحد أمور زيوس. توفي قبل فترة طويلة من بدء حرب طروادة.

ادومينيوس. ملك الكريت وحفيد الملك مينوس، من مينوتور الشهيرة.

ليفيجينايا. ابنة أجاممنون وزوجته، وعدت بالزواج إلى أخيل وجلبت إلى أوليس لاسترضاء الآلهة أرتميس. التضحية بها جعلت الرياح تهب مرة أخرى، بحيث يستطيع الأسطول اليوناني أن يبحر إلى طروادة. أُخبرت قصتها في مأساة يوريبيديز ليفيجينايا في أوليس.

ليكوميديس. ملك سايروس ووالد دادميليا. لم يكن يعلم أن أخيل يختبئ متنكراً في زي فتاة في بلاطه.

مينيلوس. شقيق أجاممنون، وقد أصبح بعد زواجه من هيلين، ملك سبارتا. عندما اختطفت هيلين من قبل باريس، استدعى اليمين التي أُقسمت من قبل جميع خطابها، ومع شقيقه، قاد جيشاً لاستردادها. تبارز في الكتاب الثالث من الإلياذة مع باريس لامتلاك هيلين، وكان الفوز للإلهة أفروديت التي تدخلت لصالح باريس. بعد الحرب، عاد مع هيلين إلى سبارتا.

نيستور. الملك المتقدم في السن لبيلوس والرفيق السابق لهيراكليس. كان طاعناً في السن ليقاتل في حرب طروادة لكنه كان بمثابة مستشار مهم لأجاممنون.

أوديسيوس. الأمير المراوغ لإيثاكا، المحبوب من قبل الإلهة أثينا. كان من اقترح اليمين الشهيرة التي تتطلب من كل خطاب هيلين أن يقسموا عهداً لحماية زواجها. كمكافأة له، طلب ابنة عمها الذكية بينيلوب زوجة له. خلال طروادة الحرب، كان أحد المستشارين الرئيسين لأجاممنون، وقد ابتكر في وقت لاحق خدعة حصان طروادة. كانت رحلته لموطنه، التي استمرت عشرة سنوات، موضوع أوديسي هوميروس، الذي تضمن حكايات الشهيرة من معاركه مع العملاق،

والساحرة سيرس، واختيارين أحلاهما مر، رمضاء النار، وكائنات البحر الأسطورية المغوية. في نهاية المطاف عاد أوديسيوس إلى إيثاكا، حيث رحبت به زوجته، بينيلوب، وابنه الشاب، تيليماكوس.

باريس. ابن بريام الذي أصبح القاضي للمسابقة الشهيرة "مسابقة الجمال" بين هيرا، أثينا، وأفروديت، مع التفاحة الذهبية كجائزة. حاولت كل آلهة رشوته: هيرا بالسلطة، أثينا بالحكمة، وأفروديت بأجمل امرأة في العالم. فمنح الجائزة لأفروديت، وهي بدورها ساعدته على خطف هيلين بعيداً عن زوجها، مينيلوس، وبذلك بدأت حرب طروادة. عُرف باريس لمهارته في القوس، وبمساعدة من أبولو، قتل أخيل العظيم.

باتروكلوس. نجل الملك مينوتيوس. نفي من منزله لأنه قتل بطريق الخطأ صبي آخر، ووجد مأوى في بلاط بيليوس، حيث نشأ مع أخيل. كان شخصية ثانوية في الإلياذة، لكن قراره الحاسم بأن يحاول إنقاذ اليونان بارتدائه درع أخيل وضع الإشارة للنقلة الختامية للقصة. عندما قتل باتروكلوس بواسطة هيكتور، دُمر أخيل، وصب انتقامه الوحشي على الطرواديين.

بيليوس. ملك ثيا ووالد أخيل من حورية البحر ثيتيس. قصة بيليوس طغى عليها تغيير شكل ثيتيس في مباراة المصارعة التي كانت رائجة في العصور القديمة.

فيونكس. صديق بيليوس منذ فترة طويلة ومستشاره، الذي ذهب مع أخيل إلى طروادة كمستشار له. في الكتاب التاسع من إلياذة هوميروس، تحدث فيونكس عن رعايته لأخيل عندما كان طفل، وحاول عبثاً إقناعه ليتنازل ويساعد اليونانيين.

بوليكسينا. أميرة طروادة التي ضحى بها بيروس على قبر والده، قبل أن يغادر طروادة عائداً لوطنه.

بريام. ملك طروادة العجوز، الذي اشتهر بتقواه وأطفاله العديدين. في الكتاب الرابع والعشرين من إلياذة هوميروس، شق طريقه بشجاعة إلى خيمة أخيل ليتضرع من أجل جثة ابنه هيكتور. خلال نهب طروادة، قتل على يد ابن أخيل، بيروس.

بيروس. سمي رسمياً نيوتولميس لكنه دعي "بيروس" بسبب شعره الناري، كان ابن لأخيل والأميرة دادميليا. انضم إلى الحرب بعد وفاة والده، وشارك في خدعة حصان طروادة وقتل الملك العجوز لطروادة بوحشية، بريام. في الكتاب الثاني من اينييد، فيرجل يحكي قصة دور بيروس في نهب طروادة.

أغنية أخيل

The Song Of Achilles

أتذكّر كيف بدا عندما ذهب لرؤية أمه .
متوحش، محموم، قاس كالجرانيت. أتخيله راكعاً أمامها، يبكي بغضب يضرب بقبضة يده صخور البحر الخشنة. لقد أهانوه، قال لها. لقد أخزوه. و دمروا سمعته الخالدة .
تستمع، وهي تسحب أصابعها بذهول على حلقها الأبيض الطويل ثم بدأت تومئ برأسها. لديها فكرة، فكرة آلهة، مليئة بالثأر والعقاب الإلهي. تخبره، فيتوقف بكاءه .
هل سيفعلها؟" تساءل أخيل في تعجب. يقصد زيوس، ملك الآلهة" برأسه المكلل بالغيوم، ويديه اللتين تستطيعان أن تقبض على الصواعق نفسها ..
"سوف يفعل ذلك"، قالت ثيتيس. "إنه مدين لي"



جائزة الأورنج
2012


ISBN 978-2-84409-650-0

cover design by:

